المملكة الأردنية الهاشمية

جامعة مؤتة

المجلَّة الأردنيَّة في

اللُّغة العربيَّة وآدابها

مجلَّة علميَّة عالميَّة محكّمة

المجلد (٣) العدد (١) ذو الحجة ١٤٢٧هـ / كانون الثاني ٢٠٠٧م

ISSN 1026-3721

المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها

مجلة علمية عالمية محكّمة أسستها اللجنة العليا للبحث العلمي، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، الأردن
وتصدر عن عمادة البحث العلمي، جامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

ترسل البحوث وجميع المراسلات إلى العنوان الآتي

رئيس تحرير المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها
عمادة البحث العلمي، جامعة مؤتة، المملكة الأردنية الهاشمية

ص.ب (١٩) مؤتة- (٦١٧١٠) الأردن
هاتف ٩٩- ٢٣٧٢٣٨٠ (٣-٩٦٢)
فاكس: ٢٣٧٠٧٠٦ (٣-٩٦٢)

E-mail: jjarabic@mutah.edu.jo

DAR.website http://www.mutah.edu.jo/dar/jjour.htm

المجلَّة الأردنيَّة في

اللُّغة العربيَّة وآدابها

مجلَّة علميَّة عالميَّة محكّمة

المجلد (٣) العدد (١) ذو الحجة ١٤٢٧هـ / كانون الثاني ٢٠٠٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها

مجلة علمية عالمية محكمة

تصدر عن اللجنة العليا للبحث العلمي في المملكة الأردنية الهاشمية

أ- **شروط النشر**:

- لغة المجلة هي العربية ويمكن أن تقبل بحوثاً بالإنجليزية أو أية لغة أخرى، بعد موافقة هيئة التحرير.
- يقبل للنشر في المجلة البحوث والنصوص المحققة والمترجمة ومراجعات الكتب المتعلقة باللغة العربية وآدابها.
- يشترط فيما يقدم للمجلة أن يكون أصيلاً ولم يسبق تقديمه لمجلة أو أية جهة ناشرة أو أكاديمية (وألاّ يكون جزءاً من رسالة علمية). ويتعهد الباحث بذلك خطياً عند تقديم البحث للنشر.
- أن يكون البحث المقدم خاضعاً لأسس البحث العلمي وشرائطه.
- يصبح البحث بعد قبوله حقاً محفوظاً للمجلة ولا يجوز النقل منه إلاّ بالإشارة إلى المجلة.
- يجوز للباحث إعادة نشر بحثه بعد مضي سنتين على نشره في كتاب بعد موافقة هيئة التحرير الخطية على أن يشار إلى المجلة حسب الأصول.
- يتولّى تحكيم البحث محكمان أو أكثر حسب تقدير هيئة التحرير.
- يقدم الباحث أربع نسخ مطبوعة ونسخة إلكترونية على قرصٍ ممغنط "(٣,٥) Floppy أو مدمج (Cd) باستخدام البرنامج الحاسوبي (MS Word) بمســــــافات مزدوجة بين الأسطر وهوامش ٢,٥سم، وعلى وجه واحد من الورقة (A٤) ، بحيث لا يزيد عدد صفحات البحث على (٤٠) صفحة.
- يكون نوع الخط المستخدم في المتن Simplified Arabic بنط ١٤. أما الحواشي فتكون بنفس الخط وبنط ١٢.
- يذكر الباحث على الصفحة الأولى من البحث اسمه ورتبته الأكاديمية والمؤسسة التي يعمل فيها.
- تحتفظ الهيئة بحقها في عدم نشر أي بحث وتُعدُّ قراراتها نهائية.
- لا ترد الأبحاث التي لم تقبل لأصحابها.
- يلتزم الباحث بدفع النفقات المالية المترتبة على إجراءات التحكيم في حال سحبه للبحث أو رغبته في عدم متابعة إجراءات التقويم.
- يلتزم الباحث بإجراء التعديلات التي يقترحها المحكمون خلال شهرٍ من تاريخ تسلُّمه القرار.
- يخضع ترتيب الأبحاث في المجلة لمعايير فنية تراها هيئة التحرير.
- الأبحاث المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها ولا تعكس بالضرورة آراء هيئة التحرير أو الجامعة أو سياسية اللجنة العليا أو وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في المملكة الأردنية الهاشمية.

ب- **تعليمات النشر**:

- أن يُكتب ملخّصٌ للبحث باللغة العربية وآخر بالإنجليزية بما لا يزيد على (١٥٠) كلمة لكل منهما وعلى ورقتين منفصلتين بحيث يكتب في أعلى الصفحة عنوان البحث واسم الباحث (الباحثين) من ثلاثة مقاطع مع العنوان (البريدي والإلكتروني) والرتبة العلمية وتكتب الكلمات الدالة (Keywords) في أسفل صفحة الملخص بما لا يزيد على خمس كلمات بحيث تعبر عن المحتوى الدقيق للمخطوط.
- يُشار إلى المصادر والمراجع في متن المخطوط بأرقام متسلسلة توضع بين قوسين إلى الأعلى هكذا: (١)، (٢)، (٣) ويكون ثبتها في أسفل صفحات البحث، وتكون أرقام التوثيق متسلسلة موضوعة بين قوسين في أسفل كل صفحة، فإذا كانت أرقام التوثيق في الصفحة الأولى مثلاً قد انتهت عند الرقم (٦) فإن الصفحة التالية ستبدأ بالرقم (١). ولا يعاد إيرادها عند نهاية البحث، ويكون ذكرها للمرة الأولى على النحو الآتي:

الكتب المطبوعة:

اسم شهرة الكاتب متلواً باسمه الأول والثاني وملحقاً بتاريخ وفاته بالتاريخين الهجري والميلادي، واسم الكتاب مكتوباً بالبنط الغامق، واسم المحقق أو المترجم، والطبعة، والناشر، ومكان النشر وسنته، ورقم المجلد – إن تعددت المجلدات – والصفحة. مثال:

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ/ ٨٦٩م): **الحيوان**. تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، ط٢، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٥، ج٣، ص٤٠. ويشار إلى المصدر عند وروده مرة ثانية على النحو الآتي: الجاحظ، **الحيوان**، ج، ص.

الكتب المخطوطة:

اسم شهرة الكاتب متلواً باسمه الأول والثاني وملحقاً بتاريخ وفاته بالتاريخين الهجري والميلادي، واسم المخطوط مكتوباً بالبنط الغامق، ومكان المخطوط، ورقمه، ورقم اللوحة أو الصفحة. مثال:

الكناني، شافع بن علي (ت٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م): **الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور**. مخطوط مكتبة البودليان باكسفورد، مجموعة مارش رقم (٤٢٤)، ورقة ٥٠.

الدوريات:

اسم كاتب المقالة، عنوان المقالة موضوعاً بين علامتي تنصيص "   "، واسم الدورية مكتوباً بالبنط الغامق، رقم المجلد والعدد والسنة، ورقم الصفحة، مثال: جرار، صلاح: "عناية السيوطي بالتراث الأندلسي- مدخل"، **مؤتة للبحوث والدراسات**، المجلد العاشر، العدد الثاني، سنة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص١٧٩-٢١٦.

وقائع المؤتمرات وكتب التكريم والكتب التذكارية:

ذكر اسم الكاتب، واسم المقالة موضوعة بين علامتي تنصيص " "، واسم الكِتَاب كاملاً بالبنط الغامق، واسم المحرر أو المحررين إن كانوا غير واحد، ورقم الطبعة، واسم المطبعة والجهة الناشرة، ومكان النشر، وتاريخه، ورقم الصفحة. مثال: الحياري، مصطفى: "توطن القبائل العربية في بلاد جند قنسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري"، **في محراب المعرفة: دراسات مهداة إلى إحسان عباس**، تحرير: إبراهيم السعافين، ط١، دار صادر ودار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧م، ص٤١٧.

- تكتب الأعلام الأجنبية حين ورودها في البحوث باللغة العربية والإنجليزية بعدها مباشرة محصورة بين قوسين ( ).
- يراعى النظام المتبع في دائرة المعارف الإسلامية عند كتابة الأسماء والمصطلحات العربية بالحروف اللاتينية.
- ترسم الآيات القرآنية بالرسم العثماني بين قوسين مزهرين﴿ ﴾ مع الإشارة إلى السورة ورقم الآية. وتثبت الأحاديث النبوية بين قوسين هلاليين مزدوجين(( )) بعد تخريجها من مظانها.
- تكون المراسلات على النحو الآتي:

رئيس تحرير المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها

عمادة البحث العلمي، جامعة مؤتة، المملكة الأردنية الهاشمية

ص.ب (١٩) مؤتة- (٦١٧١٠) الأردن

هاتف ٩٩- ٢٣٧٢٣٨٠ (٣-٩٦٢)

ناسوخ (فاكس): ٢٣٧٠٧٠٦ (٣-٩٦٢)

E-mail: jjarabic@mutah.edu.jo

DAR.website http://www.mutah.edu.jo/dar/jjour.htm

محتويات العدد

المجلد (٣) العدد (١) ذو الحجة ١٤٢٧هـ / كانون الثاني ٢٠٠٧م

البحوث باللغة العربية

منهجية الفراء في صياغة المصطلح النحوي واستخدامه في كتابه "معاني القرآن" من خلال طائفة من المصطلحات النحوية

د. ياسين محمد أبو الهيجاء *

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٠٥/٩/١١ تاريخ القبول: ٢٠٠٦/٨/١٤

ملخّص

يناقش البحث منهجيّة الفراء في صياغة المصطلح النحوي واستخدامه، في كتابه "معاني القرآن"، من خلال طائفة من المصطلحات النحوية، ممّا نُسب إليه، أو شارك فيه البصريين. والبحث معنيّ بالدرجة الأولى باستقراء منهج الفراء في تعامله مع المصطلح النحوي بشكل خاص، ومن ثمّ تتبّع استخداماته لذلك المصطلح، متقصّياً علاقة المصطلح بالمفهوم المراد تحديده. وقد أفاد البحث من جهود السّابقين في دراسة الفرّاء، وعلى رأسهم د. أحمد مكي الأنصاري، و د.شوقي ضيف، وتناولها بالنقد والتحليل؛ لأنها ساهمت في ترسيخ الكثير من الآراء في الفراء و"معانيه". وقد عرضتُ مصطلحات الفرّاء على ما نُقل عن الكسائي بالنصّ من كتابه المفقود "معاني القرآن"؛ لتحديد المصطلحات النحوية التي استخدمها الكسائي، وسبق إليها. وقد استعان الباحث بكتابي الفرّاء " المقصور والممدود" و"المذكّر والمؤنّث "، لتجلية استخدامه لبعض المصطلحات، وقد اتّخذت كتاب سيبويه معياراً لتحديد المصطلح الذي استقلّ به الكوفيّون، ونسب إليهم.

Abstract

The Methodology of Forming the Syntactical Term in al-Farra's Book (Ma'ani al-Quran) (The Meaning of the Nobel Quran)

Dr. Yasin M. Abu al-Hayja

This research discusses al-Farra' methodology in forming the syntactical term in his book (Ma'ani al-Quran) (The Meaning of Noble Quran). This discussion focuses on a group of syntactical terms which were related to al-Farra' or to the Busri syntacticians. This research firstly concentrates on gleaning al-Farra's methodology regarding the syntactical term. Secondly it concentrates on analyzing al- Farra's usage of the syntactical term and the relationship between that syntactical term and the intended meaning. The researchers made use of the efforts made by earlier researchers in studying al- Farra', such as Ahmed Zakaria al-Ansari and Shawqi Dhaif. The researchers criticizes and analyzes these studies because they highly contributed to emphasizing many views on al-Farra' and his book. The researchers compared al-Farra's terms to the findings of al-Kisa'i's lost book (Ma'ani al-Quran) to find out which terms al kisa'i used first. The researchers benefited from two books by al-Farra': (al-Maqsur wa-al-Mamdud) and (al-Mu'anath wal Muthakar), to explain the usage of some of his terms. The researchers adopted Sibawayh's book as criterion to determine the syntactical term which the Koofi syntacticians and was related to them.

* قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الإسراء.

تَوطئـــةٌ:

الفرّاءُ هو يَحيى بنُ زيادٍ الدَّيلميُّ، فارسيُّ الأصل، وُلد بالكوفة سنة ١٤٤هـــ تقريباً، ونَـــشأ فيهـــا، وكان مُتديِّناً وَرِعاً يصون نفسَه عن التّبذّل، وكانت الكوفةُ آنذاك بلدَ القِراءات والحديث وروايةِ الأخبـــار والشِّعر والأدب، ولاغَرْوَ؛ فقد كانت مَترِلَ الصّحابةِ والتّابعين، وقد نَهِلَ الفرّاءُ من ذلك كلِّه. أمّا النّحـــوُ فقد أخذَه عن الرّؤاسيّ، و كان أستاذُه الكِسائيُّ قد أَخذَ عنه أيضاً. وشيوخُ الفرّاء في الكوفة كُثرٌ، بَيدَ أنّ الرؤاسيَّ أبرزُهم. ولّما اشتدَّ عودُه طَلَبَ بغدادَ قِبلةَ العلماء آنذاك، فوافقَ الكِسائيَّ فيها فأُعجِـــب بعلمِـــه، ولازَمَه وأَخَذَ عنه كثيراً، ثمّ قَصَدَ البصرةَ ليأخذَ عن عُلمائها فوافَى يونُسَ بنَ حبيب يتصدّر للتّدريس بعـــد وفاة الخليل فأَخذَ عنه، ولاقى الفُصحاءَ الّذين كانوا يؤُمّون البصرة وأَخَذَ عنهم، ثمّ عاد إلى بغدادَ. وقـــد اتّصل بالخليفةِ المأمون على يد ثُمامةَ بنِ الأشرس، فقرَّبه ووَكَلَ إليه تأديبَ ولَدَيه، ومَكثَ فيها إلى أن وافتْه منيّتُه سنـــــةَ ٢٠٧هـــ(١).

وممّا لا شكَّ فيه أنّ الفرّاءَ أفاد من النّحو البَصريِّ إفادةً جُلَّـــى، كما أفاد من نحوِ الكوفيّين، وقد رُوي عنه أنّه لّما مات، وعُرِض أثاثُه للبيع، وجَدَ النّاسُ " كِتابَ سيبَوَيهِ " تحت وِسادته.

وللفرّاءِ مؤلّفاتٌ كثيرةٌ بَلَغَ بها صاحبُ" مُعجَم الأدباء " زُهاءَ عشرين مؤلَّفـــاً، غيرَ أنّ أبرزَها "مَعاني القرآن" الّذي ألّفه لأحد أصحابه؛ ليرُدَّ به على أسئلة الأمير الحسنِ بنِ سهلٍ، ثمّ ما نَشِبَ أن أملاه علـــى النّاس قُبيل وفاته(٢)، وهو على هذا أنضَجُ مؤلّفاتِه، وأكثرُها استيعاباً لآرائه، وهو يَحمل الكثيرَ من ملامح النّحو الكوفيّ، وإن كان يُخالف الكسائيَّ في كثيرٍ من المَواطن.

ومَصادرُ الفرّاء كما تبدو من كتابه هي القِراءاتُ المختلفةُ في المَحِلِّ الأوّل، ثمّ ما نُقل عن العرب من شِعرٍ ونثرٍ، غيرَ أنّ منهجَ الفرّاء و إنِ التقى معَ منهج الكِسائيِّ في الخطوط العامّة فهو يَختلفُ معه في معالجة كثيرٍ من القضايا، فأثرُ ثقافة الفرّاء واطّلاعِه على الفلسفة وعلم الكلام يبدو بيِّناً في غـــيرِ مـــوطنٍ مـــن " المعاني"، وكان يميل إلى الاعتزال، ومذهبُ المُعتزلة قائمٌ على علم الكلام.

أمّا مُصطلَحاتُ الفرّاء في " معاني القرآن " ـــ وهو ما يَعنينا ـــ فليس لهـــا آليّـــةٌ مُحـــدّدة يمكـــنُ استشرافُها؛ كحال علماء عصره(٣)؛ إذ هي خليطٌ من مُصطلحات البَصريّين والكوفيّين، فضلاً علـــى مـــا

(١) القفطي، أبو الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـــ/١٢٤٨م)، **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ، القـــاهرة: ٤/٧، والسيوطي (٩١١هـــ/١٥٠٥م)، جلال الدين، **بغية الوعاة**، ، تحقيق محمد أبو الفضل، ط،: ٢/٣٣٣، والحمـــوي، يـــاقوت (ت ٦٢٦هـــ/١٢٢٨م)، **معجم الأدباء**، ، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط١٩٩٣،١ : ٦/٢٨١٢.

(٢) انظر ترجمة الفرّاء في : القفطي، " **إنبـــاه الـــرّواة** " ٤ / ٧ ، والـــسيوطي، " **بُغيـــةِ الوُعـــاة** " ٢ / ٣٣ ، والبغـــدادي، الخطيـــب (٤٦٣هـــ/١٠٧٠م)، **تاريخ بغداد**، دار الكتاب العربي، بيروت: ١٤ / ١٤٩ .

(٣) انظر: الحيادرة، مصطفى، **من قضايا المصطلح اللغوي العربي**،عالم الكتب الحديث،إربد، الأردن، ط١، ٢٠٠٣: ٣٩، وما بعدها.

ينسب إليه منها. وقد يُشرك غير مفهوم في المصطلح الواحد، كما يستخدم جملة مصطلحات للمفهوم نفسه. وكثير من الدّارسين عَدَّه المؤسِّسَ الحقيقيَّ للمدرسة الكوفيّة بناءً على هذه المُصطلحات(١).

وعِبارات الفرّاء لا تَخلو مِنَ الغموض، و لم يُقدِّم لنا شرحاً يُبيِّن حقيقةَ استخدامِه لهذه المصطلحات ويُوضِحُ جوانبَها. وقد أسهَمَ في كثير من هذا الغموض طريقةُ إخراج كِتاب "مَعاني القرآن"، وإصدارُ بعض الدّارسين للفرّاء أحكاماً بعيدةً عنِ الواقع الحقيقيّ، ممّا يَلبِس الأمرَ على الدّارس الحصيف فضلاً على الشّادي المبتدئ .

لقد تناولتُ في هذا البحث منهجيّة الفراء في صياغة المصطلح، في كتابه "معاني القرآن" من خلال طائفة من المصطلحات النحوية ممّا نسب إليه أو شارك فيه البصريين، والبحث ليس معنيّاً بالدرجة الأولى بتأصيل مصطلحات الفراء - وإن كانت هذه الغاية جانباً هاماً من هذا العمل- بل بدراسة هذه المصطلحات، وتحديد منهجه في تشكيل مصطلحاته واستخدامها في معالجته للمفاهيم النحوية.

وكان لا بدّ من الاطّلاع على كتب الفرّاء المطبوعة غير "المعاني"، وهي ثلاثة: "المذكّر والمؤنّث" و"المقصور والممدود" و" الأيّام والليالي"، ولئن كان في الكتابين الأوّلين بعض الإشارات إلى المصطلحات النحوية، فإن الكتاب الأخير يخلو منها. ولعلّ من الجدير بالذكر ههنا القول إن كتاب الفراء "معاني القرآن"، ليس كاملاً، وأنّ النقص فيه بادٍ، ولعل المفقود منه ليس باليسير، يقول أبو العباس(٢):" وهو كتاب لم يُعمل قبله ولا بعده مثله، و لم يتهيّأ لأحد من الناس جميعاً أن يزيد عليه شيئاً"، ولا يمكن إدراج هذا القول في إطار المبالغة، فهل ما بين أيدينا منه يدلّ على هذا الوصف؟ وعلى الأخصّ في الجزأين الثاني والثالث. ولعلّ الواقع يجيب بالنفي.

أمّا خدمة كتاب "المعاني" فعلى الرغم من الجهد الذي بذله محقّقوه، فهو يحتاج إلى الكثير حتّى يكتمل، وهو على هذا التحقيق ما يزال مغموراً. وأمّا الّذين تناولوا الفرّاءَ بالدّرس والتّحقيق ــ وعلى رأسِهِمُ أحمد مكّي الأنصاريّ ــ فعلى الرغم من الجهود الطيّبة التي بذلوها، فقد كانوا في الكثير من الأحيان يَجتَزئون النُّصوص القليلة ثمّ يُعمِّمون أحكامَهم، ولو تأنّى الأنصاري ــ و هو المَرجِعُ لكلِّ دارسٍ للفرّاء ــ ودَرَسَ " المعانيَ " درساً تحليليّاً، وأَصَّلَ مُصطلحاتِه في ضوء ما بين يديه من المؤلفات النحوية، وتتبّع الفرّاء في استخدامه لها، لَغَيَّرَ وجهَ كتابه؛ ولكنه كثيراً ما يجتزئ النصوص القليلة ويَبني عليها أحكاماً، كأنّها مسلّمات، فضلاً عن نَسْبِه مصطلحات للفراء ليست له، وربّما لم يقل بها أحد من معاصريه

(١) وعلى رأسهم شوقي ضَيف في **المدارس النّحْويّة**، دار المَعارف ، مِصر: ١٩٦.

(٢) الزبيدي، أبو بكر(ت ٣٩٧هـ/٩٨٩م)، **طبقات النحويين واللغويين**، دار المعارف، ١٣٢.

كالخالفة. وبَلَغَ به الأمرُ أن عَدَّ الفرّاءَ المؤسِّسَ الحقيقيَّ للمذهب البغداديّ [١]. وتَبِعَه في كثيرٍ من وجــوه هذه الدّراسة شَوقي ضَيف (ت٢٠٠٥م) ــ رَحِمَه الله ــ في " المدارس النَّحْويّة "، وعَوَض القَــوْزي في " المُصطلَح النَّحْويّ". أمّا المختار ديره فقد بلغ شأواً كبيراً من الدقة، ولعلّ دراسته من أوفى الدراسات الــتي تناولت الفرّاء، وإن فاته رصد الفوضى في استخدام الفراء للمصطلحات والمفهومات النحوية، وتتبعــه في معالجتها. فهو يرى تعدّد المصطلحات للمفهوم الواحد ظاهرة إيجابية، إذ تدلّ على سعة أفق الفرّاء، لأنــه يمتلك ثروة لغوية هائلة[٢].

وأرى أنهم جميعاً وقعوا في وهم وعي الفرّاء التامّ في عمله على إرساء قواعد مدرسة خاصّة تنــاظر المدرسة النحوية البصرية، ومن ثمّ اختياره لمصطلحاته على هذا الأساس؛ ذلك أنّ الفراء لو كان معنياً بهذا الأمر، بالدرجة التي تنسب إليه، لوجدنا كتاب المعاني - وهو آخر مؤلفاته - يختلف اختلافاً كبيراً عمّا هــو عليه، على أنّ الدارس لا يمكن له أن ينكر أن للفراء مصطلحات ومفهومات تميزه من غيره من النحــويين، وعلى الأخص البصريون تمييزاً جلياً.

ولّما كان على الدارس للفراء أن يعود إلى آراء الكسائي فقد تتبّعت بادئاً آراء الكسائي النحوية في كتب النحو والتفسير إلى أن وقعت على مصنّف جمع تلك الآراء تحت عنوان "معاني القرآن" للكــسائي، وهو نُقول من كُتب القراءات والتّفاسير عن كتاب الكِسائيِّ الضّائع "معاني القرآن"، وهي نوعان : نقولٌ بالنصّ، وأخرى بالمعنى، جمَعَها المؤلّف عيسى شحاتــه، وهو عَناءٌ يُحمَدُ عليه، وقد حرصت على الإفادة من النصوص المنقولة نصّاً وليس معنىً، لأن البحث يعالج المصطلحات لا الآراء النحوية.

وثمة كتاب كان يمكن أن يغيّر وجه البحث لولا الشكّ في نسبته، ذلــك هــو كِتــابٌ خَلَــفِ الأحمر(ت١٨٠هـــ) "مقدمة في النحو"، وقد حقَّقه عزُّ الدّين التَّنُوخي عضوُ المَجمع العِلميّ العربيّ ســنةَ ١٩٦١م، وقد أشار في مقدِّمتِه إلى أنّه أطلَعَ كبارَ النُّحاةِ في دمشقَ ومصرَ على هذا المخطوط فأَثْنَوا عليه، و لم يشُكُّوا في نسبته. وخَلَفٌ هذا من البصريّين الأوائل وإن لم يُشتَهَر بالنّحو[٣]. غير أنّ في الكتاب شكّاً لا يكاد يبرح القارئ المدقّق، وأؤيّد في هذا الصدد ما جاء في مقال محمود حسني مغالسة[٤]، فقد نفى عــن

(١) الأنصاري، أحمد مكّي، **أبو زكريّا الفرّاءُ** ، المجلس الأعلى لِرعاية الفنون و الآداب: ٣٦٦ .

(٢) ديره، المختار أحمد، **دراسة في النحو الكوفي، من خلال معاني القرآن للفراء**، دار قتيبة، بيروت : ٢٢٦.

(٣) وهو خلفُ بن حيّانَ الأحمر ، توفّي سنة (١٨٠ هــ/٧٧٧م) ، و هو بَصريٌّ راويةٌ للأشعار ، نَحْويٌّ أخَذ النّحو عن أئمّة أهــل البــصرة كأبي عمرو بنِ العلاء ، و يونُسَ بنِ حبيب ، و عيسى بنِ عمر . تُنظر ترجمتُه في القفطي، **إنباه الرّواة**، ١ / ٣٨٣ ، والأنبــاري، أبــو البركات، **نزهة الألبّاء**، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة الأندلس، بغداد، ط٢: ٥٣، وياقوت، **مُعجَم الأدباء**، ١١ / ٦٦ .

(٤) محمود حسني مغالسة، **نفي كتاب مقدمة في النحو عن خلف الأحمر البصري**، مجلة جامعة دمشق، المجلــد٧،العــددان٢٨،٢٧،الجــزء الأوّل٣١،١٩٩١.

خلف هذا الكتاب بالأدلّة، وردّه للأحمر الكوفي(ت١٩٤هـ) أو غيره من النحويين الكوفيين. والكتاب على كلّ وجه جدير بالذكر حتى يتوصّل الباحثون فيه إلى رأي فصْل؛ ولذلك لا بدّ من الإشارة إليه كلّما عرض لمصطلح نسب إلى الفراء أو الكسائي.

كما عرضتُ لكتاب " الجُمَل " المنسوبِ إلى الخليل، وقد قدَّم المحقِّقُ فخرُ الدّين قَبّاوة مُقدِّمةً مفصَّلةً عَرَضَ فيها للمشكّكين في نسبة الكتاب إلى الخليل، و ذَكَر كثيراً من المحقّقين ممّن نَسَبوا هذا الكتابَ إليه. والكتاب محلّ شكّ لا يمكن تجاهله. وقد عدت إلى كتاب "العين" بدرجة أقل، والشك فيه فوق ما في الجمل، وقد أشرت إلى ما جاء فيهما من المصطلحات، ممّا نسب إلى الفراء، على سبيل الإشارة.

ألقابُ الإعرابِ و البِنــاء:

لم يفرِقِ الفرّاءُ في معانيه بين ألقاب الإعراب والبِناء؛ فنراه يُطلِق مصطلَحاتِ الرّفع والنّصب والخفض لِيَدُلَّ على علامات الإعراب، كما يطلقها نفسها ليدلّ على حركات البناء. وجاء في" شرح الكافِيَة " :"وأمّا الكوفيّون فيَذكرون ألقابَ الإعراب في المبنيِّ وعلى العكس، ولا يُفرِّقون بينهما"(١)، وقال ابن يعيش:"واعلم أنّ سيبويه فصل بين ألقاب حركات الإعراب وألقاب حركات البناء... وقد خالفه الكوفيّون"(٢)، وتَبِعَهما على ذلك مَهدي المَخزومي(٣)، وقال عَوَض القَوزي: "فَكَّروا في وسيلةٍ للمخالفة فرَفضوا التّسليمَ بهذه الألقاب، و لم يُفرّقوا بين ما هو للبناء منها وما هو للإعراب"(٤). وقال المختار أحمد ديره:" أمّا الفرّاء فقد رفض التسليم بهذه العلامات والألقاب، وثار عليها، غير أنه لم يفرّق بين ما هو للإعراب وما هو للبناء"(٥)، وقد ذهب إلى ذلك حمدي الجبالي أيضاً(٦).

غير أنّ الفرّاء لم يَثُر عليها، وهو لم يؤسس لهذا الخلط، بل نراه عند سيبويه من قبل، ويظهر ذلك جليّاً في باب النداء، إذ يقول: "واعلمْ أنّ النداء كلّ اسمٍ مضافٍ فيه فهو نصب، على إضمار الفعل المتروك إظهاره، والمفرد رفع وهو في موضع اسم منصوب"(٧)، وليس هذا وحسب، بل نراه يستخدم ألقاب الإعراب للبناء غير مرة في الكتاب(٨). وقد تبعه في ذلك المبرّد، وهو من أقطاب المدرسة البصرية(٩). وعلى

(١) الأستَراباذيّ، الرضي (ت ٦٨٦هـ/١٢٨٧م)، **شرح الكافية**، دار الكُتب العلميّة. : ٢ / ٣ .

(٢) ابن يَعيشَ، موفق الدين (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م)، **شرح المفصّل**، المَطبعة المُنيريّة بالقاهرة: ١/٧٢.

(٣) المخزومي، مهدي، **مدرسة الكوفة النّحْويّة**، مَطبعة مُصطفى البابي الحلبيّ ، ط ٢ ، ١٩٥٨: ٢٥٧. وكذا شوقي ضَيف في " المدارس النّحويّة " ١٩٦ .

(٤) القُوزي، عوَض، **المُصطلح النّحويّ** ، نشأتُه و تَطَوُّرُه حتّى أواخرِ القرن الثّالث الهجريّ: ١٨٥ .

(٥) ديره، **دراسة في النحو الكوفي**: ٢١٤.

(٦) انظر: الجبالي، حمدي، **مصطلح النحو الكوفي**، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك،١٩٨٢: ٨٨ .

(٧) سيبَوَيهِ، عمرو بن قنبر (١٨٠هـ/٧٧٧م)، **الكتاب**، تحقيق : عبد السّلام هارون ، دار الجيل ـ بيروت ، ط ١ ، ١٩٩١ : ٢/١٨٢

(٨) **المصدر السابق**: انظر على سبيل المثال: ٢/٢٠٢، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٤، ٣/٣١٨، ٥١٨، ٥٣٢.

(٩) انظر المُبَرَّد، محمد بن يزيد، **المقتضب** (ت ٢٨٦هـ/٨٩٩م)، تحقيق : عبد الخالق عُضَيْمة ، عالَم الكُتُب . على سبيل المثال: ٣/٩٠، ٤/٤، ٨٣، ٢٠٧. والمبرّد، **الكامل**، تحقيق : محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣،: ١/٢٤٠.

هذا فتخليط الفرّاءُ - في استِخدام ألقاب الإعراب والبناء- امتداد لأسلافه من النحاة، ولا شك في أنه خلطَ في هذه الألقاب أكثر من سيبويه.

وإذا يمّمنا صوب "معاني القرآن" للفراء وجدنا هذا الخلط جليّاً، ومن ذلك ما نجدُه من استخدامه الرّفعَ للبناء(١)، وللإعراب(٢)، وكذا استخدامُه للنّصب في الإعراب(٣)، وكذا في البناء(٤). والخفضِ في الإعراب(٥)، وفي البناء(٦). أمّا الجزمُ فنجده يَستخدمُه للإعراب(٧)، وللبناء أيضاً(٨).

أمّا الكسائي فإنّ المنقولات عنه - وإن أظهرت توافقه مع البصريين في هذه المصطلحات- فإنها لا تعطي الصورة الواضحة عن طبيعة استخدامه لها. فهو يستخدم مصطلحات البناء استخدام البصريين، كالفتح(٩) والكسر(١٠) والضم(١١). والإعراب، كالرفع(١٢)، والنصب(١٣)، والجزم(١٤). كما يخلط أيضاً في

(١) الفراء، أبو زكريا (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م)، **مَعاني القرآن**، دار السرور، بيروت لبنان ، تحقيق محمد نجاتي، ومحمد علي النجار، ٢/٣٥، تحقيق : محمد علي النجار، ١/: ٥ ، ٤١١- ٤١٢ ، ٣/١١٩، تحقيق : عبد الفتاح شلبي.

(٢) **المصدر السابق:** ١/: ١٤٩، ١٥٠، ٢٦٠، ٣٠٠، ٤٧١.

(٣) **المصدر السابق:** ١/ : ٥٨، ٧٨، ٩٧ ، ٣٠١، ٣٠٢ ، ٣٣٧.

(٤) **المصدر السابق:** ١/٢٩، ١٤٩ ، ٢١١، ٢٨٥، ٣٢٠، ٢/٨٩.

(٥) **المصدر السابق:** ١/: ٧، ٢٢، ٥١، ٥٦، ٥٨، ٥٩، ٧١، ٩٦، ٩٧، ١٠٦، ١١٨، ١٣٧.

(٦) **المصدر السابق:** ١/: ١٠، ١٧، ١٨.

(٧) **المصدر السابق:** ١/: ٢٦، ٣٣، ٥٨، ٥٣.

(٨) **المصدر السابق:** ١/: ٦، ٩، ١٠، ١٨، ٢٢٣، ٣٨٨، ٣/١٠٢.

(٩) الكسائي، علي بن حمزة (ت ١٨٩هـ/٨٠٥م)، **معاني القرآن**، جمع وتقديم : عيسى شحاتة عيسى، دار قباء للطباعة والنشر، ١٩٩٨: ١٠١، عن : الزجاج ، أبي إسحاق إبراهيم، تحقيق عبدالجليل عبده شلبي، ط١، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٤ : ١/٤٢٧-٤٢٨و ١٨٤، عن : الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٣م)، **تفسير الطبري**، تحقيق محمود شاكر وأحمد شاكر، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٩٧٢ : ١٥/١٣٨-١٣٩، ١٨٧، عن: النحاس، أبو جعفر، أحمد بن محمد (ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م)، **إعراب القرآن**، تحقيق زهير غازي زاهد، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، ط٢، ١٩٨٥ : ٢/٤٦١، ٢٠٦، عن : النحاس، **إعراب القرآن** : ٣/٢١٤، ١٨٨، عن : أبي زرعة، عبد الرحمن بن محمد(ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م)، **حجة القراءات**، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤، ١٩٨١ : ٥٧٧.

(١٠) **المصدر السابق:** ١٨٤، عن : الطبري، **جامع البيان** : ١٥/١٣٨-١٣٩، ١٨٧: عن : النحاس، **إعراب القرآن** : ٢/٤٦١، ٢١٤، عن : أبي زرعة، **الحجة في القراءات** : ٥٧٧.

(١١) **المصدر السابق** : ١٧٥، عن : الكسائي، علي بن حمزة، **ما تلحن فيه العامة**، تحقيق : رمضان عبد التواب، دار الخانجي، ط١، ١٩٨٢ : ١٠٥، ١٩٨، عن : الفارسي، أبو علي الحسن بن أحمد (ت ٣٧٧هـ/٩٨٧م)، **الحجة في علل القراءات السبع**، تحقيق : علي النجدي ناصف وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٨٣ : ١/١٣٠، ٢٠٢، عن : النحاس، **إعراب القرآن** : ٣/١٢٤.

(١٢) **المصدر السابق:** ٨٨، عن : النحاس، **إعراب القرآن** : ١/٣٠٤، ١٠٤، عن : النحاس، **إعراب القرآن** : ١/٣٩٦. ٩٨؛ عن : النحاس، **إعراب القرآن** : ١/٣٦٥، ١٠٤، عن : النحاس، **إعراب القرآن**: ١/٣٩٦، ١٣٥، عن : النحاس، **إعراب القرآن**: ٢/٨٧، ١٤١، عن : الفراء، **معاني القرآن** : ١/٣٦٩، ١٤٢؛ عن : النحاس، **إعراب القرآن** : ٢/١١٦.

(١٣) **المصدر السابق** : ٨٤، عن : النحاس، **إعراب القرآن** : ١/٢٧٨، ١٠٩، عن : النحاس، **إعراب القرآن** : ١/٤٢٨، ١٣٥، عن : القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٦٧١هـ/١٢٧٣م)، **الجامع لأحكام القرآن**، طبعة الشعب، بلا تاريخ: ٣/٢٤٩١، ١٥٦، عن : النحاس، **إعراب القرآن** : ٢/٢٢٦.

(١٤) **المصدر السابق:** ١٠٠، عن : النحاس، **إعراب القرآن** : ١/٣٨٤، ١٠١ ، عن : ابن مجاهد، أحمد بن موسى (ت ٣٢٤هـ/٩٣٦م)، **السبعة في القراءات**، تحقيق شوقي ضيف، ط٢، دار المعارف، ١٩٨٠ : ٢١٨.

هذا الاستخدام؛ إذ يستخدم ألقاب الإعراب للبناء، كاستخدامه الجزم للتسكين[١]، والنصب للفتح[٢].

الأفعـــال(زمنياً) :

وهي عند البَصريّين ثلاثةٌ: ماضٍ ومُضارعٌ وأمر[٣]، وعند الكوفيّين اثنانِ: الماضي والمُضارِع، أمّا الأمرُ فهو عندَهم قِسمٌ من المُضارع[٤]. قال الزجّاجي(ت٣٣٧هـ)[٥]:"قال الكوفيّون كلهم: هو مجزوم بإضمار اللام؛ لأنّ أصل الأمر أن يكون باللام، ولكن كثُر في الكلام، فحُذفت اللام منه وأضمرت".

وإذا ما تَصفَّحْنا مَعانيَ الفَرّاء وجدنا ذلك بادياً عنده. قال عندما عَرَضَ لقولِه تعالى[٦]:" فبذلِكَ فافرَحوا [٧]":"إلاّ أنّ العربَ حَذَفتِ اللاّمَ من فعل المأمور المُواجه لكثرة الأمر خاصّةً في كلامِهم"[٨]. كما عَدَّ الأمرَ مجزوماً[٩]. على أنّه استَخدَم الأمرَ بمعناه الاصطِلاحيِّ كما استَخدَمَه البَصريّون، وإن لم يَعُدَّه فعلاً قائماً برأسه، قال في كلامه على قوله تعالى"سَلْ بني إسرائيل"[١٠]: لا تُهمز في شيء من القرآن؛ لأنها لو هُمزت كانت "سأل" بـ"ألف". وإنما تُرك همزها في الأمر خاصة"[١١]، وقد استخدم ذلك كثيراً[١٢]. وقد أسند إليه النحاس هذا الاستخدام[١٣]. أمّا الفعل المضارع فيعبّر عنه بـ"يَفعل"[١٤]. وقد يلجأ إلى التفصيل،

---

(١) **المصدر السابق:** ١٠١، عن: الأندلسي، أبي حيان (ت ٧٤٥هـ/١٣٤٤م)، **البحر المحيط**، دار الفكر، ط٢، ١٩٨٣: ٢/٤٩٩، ١٤٤، عن ابن مجاهد، أحمد بن موسى، **السبعة في القراءات** : ٢٨٨.

(٢) **المصدر السابق:** ١٢٩، عن: النحاس، **إعراب القرآن** : ٢/٥٣.

(٣) سيبويه، **الكِتاب** : ١ / ١٢، وما بعدها .

(٤) " انظر: الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن إسحاق (ت ٣٣٧هـ/٩٥٩م)، **اللاّمات** ، تحقيق : مازن المُبارك ، دار الفكر ، ط ٢ ، ١٩٨٥: ٩٤ وما بعدها، والأنباري، أبو البركات (ت ٥٧٧هـ/١١٨١م)، **والإنصاف في مسائل الخلاف**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد : ٢ / ٥٢٤، ٥٤٠ ، **ومسائل خلافية في النحو**، و العكبري، أبو البقاء (ت ٦١٦هـ/١٢١٩م)، تحقيق : محمد خير الحلواني، دار الشرق العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٢: ١١٩ ، و السيوطي، جلال الدين (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، **همع الهوامع**، تحقيق : أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨ " : ١ / ٧ .

(٥) الزجاجي، **كتاب اللامات:** ٩٤.

(٦) **يونُس** : ٥٨ .

(٧) وهذه قراءة شاذة قرأ بها أبيّ: انظر أبو حيان الأندلسي، **البحر المحيط** : ٥/١٧٠.

(٨) الفراء، **معاني القرآن:** ١ / ٤٦٩ .

(٩) **المصدر السابق:** ١/٥٤.

(١٠) **البقرة:** ١١.

(١١) الفراء، **معاني القرآن:** ١/١٢٤.

(١٢) **المصدر السابق:** ١/٩٨، ١٢٥، ١٥٦، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٦، ٢/٤٧٦، ٧٧، ١٦٢، ٩٠، ٧٩، ١٨٧، ٢٣١، ٢٤٤، ٢٤١، ٣/٣٠٢، ٤٥، ٥٨.

(١٣) النحاس، **إعراب القرآن** : ٤/٢١.

(١٤) **المصدر السابق:** ١/٣، ٣٩، ٦٦، ١٣٤، ٢١٣، ٣٨٦، ٤٠٩، ٢٧٦، ٣٠١، ٢/٢٦، ١٥١، ٢٢١، ٢٢٥، ٣/٢٦، ٢٤٥، وبـ**المستقبل** كما في: ١/٦١، ٨٤، ١٣٣، ١٤٤، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٦٢، ٢٦٣، ٣٠٠، ٣/٢٧٢.

فينعته بــ"الفعل الذي أوّله الياء أو التاء، أو النون أو الألف"[١]، ويستخدم الفرّاء " فعلٌ مضارعٌ"، علـى سبيل الاستخدام اللغوي[٢]،وكذا "ضارعَ" و "تضارع"[٣]. أمّا الكسائي فقد استخدم "المستقبل"[٤].

الفِعل الواقع :

أمّا الفعل الواقع فهو مُصطلَحٌ أطلَقَه الفرّاءُ على ما يُسمّيه البَصريّون الفِعلَ المُتعَدِّيَ، كما يُطلِق علـى الفعل اللاّزم مصطلَح " ليس بواقع " أو " غيرِ واقع". قال على سـبيل المثـال في تعليقِـه علـى قِـراءة عبـــــد الله بنِ مسعودٍ: [٥] "صُمّـاً بُكماً عُمْياً ": " ونَصبُه من وجهين، إن شئتَ على المعنى... وإن شئتَ اكتفيتَ بأن تُوقِعَ التّركَ عليهم في الظُّلُمات "[٦]. كما استخدمُه أيضاً في " مَجـالس العُلمـاء " إذ يقول: "(أيُّهُم) ههُنا بتأويل الّذي، وهو في موضعِ نصبٍ بوقوع الفعل عليه"[٧]. ويعلّق المختار ديره على استخدام الفرّاء لهذا المصطلح: "أصاب في استعماله لأنّ وقوع الفعل على المفعول أبلغ في المعنى من التعدية، وأقرب إلى الاستعمال وأدلّ"[٨]. ولعلّ استخدام البصريين أدقّ، وأقرب إلى طبيعة اللغة، وفضلاً علـى أنّ "الواقع" أقرب إلى المنطق، فإنّه قد يضمّ الكثير من المعاني، التي تخالف مفهوم التعدية.

وسيبَوَيــهِ يستخدمُ "وقع" وما اشتُقَّ منه، ليس في مسألة التَّعدِية، ولا على سبيل الاصـطلاح، كقوله: "هذا بابُ ما شُبِّه من الأماكن المختصّة بالمكان غيرِ المختصّ ، شُبِّهت به إذ كانـت تقـعُ علـى الأماكن"[٩]، وهو يستخدم ذلك كثيرا[١٠]. وقد نُسب للكسائيّ استخدامُه المُتعدِّيَ في معانيه[١١].

وإذا ما عُدنا إلى الفرّاءِ وجدناه يَستخدم مُصطلحَ " الواقع " ومشتقّاته[١٢]، كما اسـتَخدمَ " لـيس بواقعٍ، ونحوها " و"غيرَ واقع"[١٣]. وهو يستخدم هذا المصطلح استخداماً لغوياً أيضاً[١٤].

(١) النحاس، **إعراب القرآن**: ١/١٦٣، ٢٧٣.
(٢) **المصدر السابق**: ٣/١٩١.
(٣) **المصدر السابق**: ١/٤٥٩،١٧٥.
(٤) **للكسائي، معاني القرآن** :٦٠ ، ٦٤، ٨٨، ١١٩، ١٧٤.
(٥) **البقرة** : ١٨ .
(٦) الفراء، **معاني القرآن** ، تحقيق : أحمد نَجاتي و محمّد النّجّار ، و ج ٢ تحقيق : محمّد النّجّار: ١ / ١٦.
(٧) الزجاجي، **مَجالس العلماء** ، تحقيق : عبد السّلام هارون ، وزِارة الإرشاد ، الكُويت ، ١٩٦٢: ٢٣١.
(٨) ديره، **دراسة في النحو الكوفي** : ٢٦٧.
(٩) سيبويه، **الكِتاب** : ١ / ٤١٢ .
(١٠) **المصدر السابق** (على سبيل المثـال): ١/٣٧٠،٤٤، ٣٧٦، ٣٩١، ٤٠٠، ٤١٢. ٢/١٢٨، ١٨٨، ٢٥٩، ٣٥٢، ٣٥٦. ٣/٢٥٤، ٥٩٥، ٥٩٦، ٦٢٤. ٤/٥.
(١١) الكسائي، **معاني القرآن** : ٢٠٤ ، عن الأندلسي، **البحر المحيط** : ٦ / ٤١٨.
(١٢) الفراء، **معـاني القـرآن** : ١/١٧، ٤٦، ٩٠، ١٦٨، ٢٦٥، ٣٣٣، ٣٤٠، ٣٥٢، ٣٧٦، ٣٥٩، ٤٥٨، ٤٦٧. ٢ / : ١٠، ٣٢، ١٤٥،١٢٠، ١٥٠، ١٦٢، ٢٣٤، ٣٣١، ٣٦٢، ٣٧٣، ٤٢٣. ٣/: ١١، ٣٩، ٤٦، ١٧١.
(١٣) **المصدر السابق**: ١/: ١٧، ٤٦، ١٦٨. ٢/٢١٨، ٣٧٦، ٤١٤.
(١٤) **المصدر السابق**: ٣/٢٥٨.

وقد استخدم الكسائي "الواقع"، قال في كلامه على "ربما" في قوله تعالى:"ربَما يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين"[١]:"جرت مجرى الماضي الواقع"[٢]، والفراء مسبوق على هذا، في هذا المصطلح أيضاً. وقد نُقل عن الكسائي أيضاً استخدامه المتعدي، في كلامه على "جاءوا" في قوله تعالى:"فقد جاءوا ظلماً وزُورا"[٣]، قال:جئت المكان، فيكون جاء متعدياً بنفسه"[٤].

وجاء مصطلح الواقع في كتاب العين المنسوب إلى الخليل غير مرة، إذ يقول في مادة" لَعَقَ": لا تُحرِّك مصدرَه، لأنه فعلٌ واقع، ومثل هذا لا يحرك مصدره"[٥].

الفعل الدائم:

ذَكَر أحمدُ الأنصاريّ أنّه رأى الفرّاءَ يُفرِّق بين اسم الفاعل إذا كان عاملاً فيُطلق عليه الفعلَ الدّائمَ، وأحياناً يُطلِقُ عليه الفعلَ فقط، وبين اسمِ الفاعل إذا كان غيرَ عاملٍ فإنّه يُدخِلُه في باب الأسماء ويُطلِق عليه الاسم فقط[٦]، وتبعه المختار ديره[٧]. وقد اعتدا بما جاء في مجالس العلماء،" قال ثعلب: كلمت محمد بن يزيد البصري، فقال كان الفراء يناقض، يقول قائمٌ فعل، وهو اسمٌ لدخول التنوين عليه. فإن كان فعلاً لم يكن اسماً، وإن كان اسماً لا ينبغي تسميته فعلاً. فقلت : الفراء يقول: قائم فعل دائم لفظه لفظ الأسماء لدخول دلائل الأسماء عليه، ومعناه معنى الفعل، لأنه ينصب فيقال قائم قياماً، وضاربٌ زيداً، والجهة التي هو فيها اسمٌ ليس هو فيها فعلاً والجهة التي هو فيها فعل ليس هو فيها اسماً"[٨].

وقدِ استظهر الأنصاريّ بنصٍّ من "المعاني" أيضاً، إذ يقول الفرّاءُ:" ولو قال في الكلام: " بين هاتَينِ" أو "بين تَيْنِكَ " يُريد الفارضَ و البكرَ كان صواباً، ولو أُعيدَ ذِكرُهما لم يَظهر إلاّ بتثنيةٍ؛ لأنّهما اسمانِ ليسا بفعلينِ"[٩]. وعلى هذا فالفارضُ ههُنا اسمٌ لأنّه غيرُ عاملٍ ". على أنّ الفرّاءَ لا يلتزمُ ذلك.

والّذي وجدتُه في "المعاني" إطلاقُ الفرّاءِ مصطلَحَ (الفعل) على اسم الفاعل إذا كان عاملاً[١٠]،

---

(١) **الحجر**: ٢.

(٢) الكسائي، **معاني الكسائي** : ١٧٤، عن الأندلسي، عبد الحق بن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: المجلس العلمي بفاس: ١٠/١٠٨ .

(٣) **الفرقان**: ٤.

(٤) الكسائي، **معاني القرآن** : ٢٠٤، عن : الأندلسي، **البحر المحيط** : ٦/٤١٨.

(٥) الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت ١٧٠هـ/٧٨٦م)، **كتاب العين**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان: ٨٧٧. وانظر مادة "طعم": ٥٦٩.

(٦) الأنصاري، **أبو زكريّا الفرّاء** : ٤٥٠ .

(٧) ديره، **دراسة في النحو الكوفي**: ٢٥٦.

(٨) ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت ٢٩١هـ/٩٠٤م)، **مجالس ثعلب**، تحقيق : عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر : ٢٦٥.

(٩) انظر : الفراء، **معاني القرآن** : ١/٤٥، والكلام ههُنا على الآية ٦٨ من سورة البقرة .

(١٠) **المصدر السابق**: ١/٣٣، ٢/٤٣، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٣، ٣/ ٢٠٨.

كما أطلقه عليه أيضاً وهو غير عامل، إذ يقول:"فإذا رأيتَ الفعل قد مضى فآثِرِ الإضافةَ فيــه... فتقــول ههُنا:أخوكَ آخذُ حَقِّهِ"(١).

وقد أطلق الكسائي "الفعل" على اسم الفاعل العامل، قال الفراء:"وزعم الكــسائي أن العــرب يؤثرون النصب إذا حالوا بين الفعل المضاف بصفة، فيقولون:هو ضاربُ في غير شيءٍ أخاه، يتوهمــون إذا حالوا بينهما أنهم نونوا"(٢). غير أنّه يطلقه عليه وهو غير عامل، وقد جاء في القصة المعروفة بينــه وبــين القاضي أبي يوسف بين يدي الرشيد، إذ يقول:".. الذي يؤخذ بقتل الغلام هو الذي قال: أنا قاتلُ غلامِكَ بالإضافة؛ لأنه فعل ماضٍ"(٣). والكسائي كما نسب إليه يجيز إعمال اسم الفاعل ماضياً(٤)، وحمل عليه قوله تعالى: ﴿وكلبهم باسطٌ ذراعيه بالوصيد﴾(٥). وقال الزجاجي: ولو قلت: هذا ضاربٌ زيداً أمسِ" بالتنوين والنصب، لم يَجز عند أحد من البصريين والكوفيين إلا الكسائي"(٦)، وإذا نظرنا من قِبَــل هــذا الــرأي، فالكسائي يطلق عليه الفعل مطلقاً.

وقد أطلَق الفرّاءُ مصطلحَ الفعل على اسم الفاعل غير العامل أيضاً في كتابه " المــذكَّر والمؤنّــث" إذ يقول(٧): وأما الهاء فلها ضروب تقع فيها، فأول ذلك قولهم للرجل أنت جالس وللمرأة أنت جالسة فالهاء ههنا أدخلت للتأنيث لا يكون غيره، والقياس فيه مستمر أن يفرق بين الفعل المذكر والمؤنث بالهاء، إلا أن العرب قالت امرأة حائض وطاهر وطامث وطالق... فلم يدخلوا فيهن الهاء". كما أطلَقَ عليه ثعلــبٌ في مَجالسِه "الفعل"(٨) و"الدّائم"(٩)، وقد أطلق عليه الأنباري أيضاً الدائم(١٠).

الفعــــــل(أشتات من المفهومات):

يعلّق المختار ديره على استخدام الفرّاء للفعل قائلاً:" أطلقه الفرّاء على ما دلّ على حدث مجرد عــن

(١) الفراء، **معاني القرآن** : ٢ / ٤٢٠ .

(٢) **المصدر السابق**: ٨١/١. وانظر : الكسائي، **معاني القرآن** : ١٧٣.

(٣) الكسائي، **معاني القرآن** : ١٨٥، عن : السيوطي، جلال الدين، **الأشباه والنظــائر**، دار الكتــب العلميــة، بــيروت، ط١، ١٩٨٩: ٣١١/٣.

(٤) انظر : جمال الدين، ابن هشام (ت ٧٦١هـ/١٣٦٠م)، **أوضح المسالك**، تحقيق: بركــات هبّــود، دار الفكــر، بــيروت، ١٩٩٤ : ١٨١/٣. السيوطي، جلال الدين (٩١١هـ/١٥٠٥م)، **همع الهوامع**، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتــب العلميــة، بــيروت، ط١، ١٩٩٨: ٥٥. ابن عقيل، بهاء الدين (٧٦٩هـ/١٣٦٧م)، **شرح ابن عقيل**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبــة العــصرية، ١٩٩٠: ١٠٦/٣.

(٥) **الكهف**: ١٨.

(٦) الزجاجي، أبو القاسم (٣٣٧هـ/٩٥٩م)، **كتاب الجمل في النحو**، تحقيق : علي الحمد، مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٩٨٨: ٨٤.

(٧) الفراء، يحيى بن زياد، **المذكّر و المؤنّث** : ٥٨ ، وانظر: ١١٦ .

(٨) ثعلب، **مجالس ثعلب** : ١ / ١٢٤.

(٩) **المصدر السابق** : ١ /٩٧، ٢٣١، ٢٧١، ٣٩٥/٢، ٤٠٠.

(١٠) الأنباري، محمد بن القاسم (ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م)، **الأضداد**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، ١٩٨٧: ٦٢.

الزمن"[١]، ويردف قائلاً "واستعماله للفعل لدلالة الحدث مع الزمن لا يطلقه الفرّاء إلاّ على الفعل المضارع التامّ"[٢]، ويستشهد على هذا بكلام الفرّاء على قوله تعالى: ﴿إلاّ أن يكونَ ميْتةً﴾[٣]، إذ يقول: "ومن رفعَ "ميتة"، جعل يكون فعلاً لها، واكتفى بـ"يكون" بلا فعل"، فاستعمل هنا "يكون" فعلاً للدلالة على الحدث مع الزمن"[٤].

غير أنّ النظر في معاني الفرّاء يفضي إلى غير ذلك، فهو يُشرِكُ في مصطلح "الفعل" أبواباً كثيرةً، ولا يقصره على ما دلّ على حدث مجرد عن الزمن، إضافة إلى الفعل المضارع؛ إذ نراه يستخدم "الفعل" بمعناه الذي أطلقه عليه البصريون كثيراً، ويكفي أن نذكر مثلاً على ذلك، كلامه على قوله تعالى: ﴿إنّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها﴾[٥]، إذ يقول: "لأنّك تقول أخذ المطر أوّله فكذا وكذا إلى آخر، فلمّا كان الفعل كثيراً شيئاً بعد شيء في المعنى، كان فيه تأويل من الجزاء"[٦]، فهو يستخدمه هنا للدلالة على الفعل الماضي، وهو يستخدمه على هذا النهج كثيراً في معانيه[٧]، وهو يُطلقُه على المصدر كثيراً[٨].

وبلغ به أن استخدَمَ الفعلَ بمعنيَيْه الأصليّ والمصدر في جملةٍ واحدةٍ؛ إذ يقول: " وأنتَ تقول في الأفعال فتُوَحِّدُ فِعلَها بعدها، فتقول : إقبالُك وإدبارُك يَشُقُّ علَيَّ "[٩]، ويَعني بالأفعال المَصادِرَ، وبالفعل الفعلَ الحقيقيَّ. وهو يُطلِق الفعل كذلك على الخَبر[١٠]، كما يُطلقُه على الحال[١١]، وعلى الاسمِ[١٢]، وعلى اسم الفاعل[١٣]. وقد أطلَقَ الفعلَ على اسم الفاعل أيضاً في كِتابه " المُذكَّرُ والمؤنّث "[١٤]. وذكر المختار ديره أن الفراء يطلق "الفعل" على الجارّ والمجرور[١٥]، إذ يقول في قوله تعالى[١٦]:﴿فما لكم في المنافقين

(١) ديره، **دراسة في النحو الكوفي**: ٢٥٧.
(٢) **المصدر السابق**: ٢٥٨.
(٣) **الأنعام**: ١٤٥.
(٤) ديره، **دراسة في النحو الكوفي**: ٢٥٨.
(٥) **البقرة**: ٢٦.
(٦) الفراء، **معاني القرآن**: ٢٣/١.
(٧) **المصدر السابق**: ٢٢/١، ٢٤، ٢٨، ٤٠، ٤٦، ٤٧، ٥٩، ٦٥، ٦٦، ٧٥، ٨٤، ١٠٠.
(٨) **المصدر السابق**: ٤٥/١، ١٠٤، ٢٥٤، ٢٨٧، ٢٨٨، ٣٥٦.
(٩) **المصدر السابق**: ١ / ٤٥ .
(١٠) **المصدر السابق**: ١٢/١، ٣٦١، ٣٦٢، ٤٠٩.
(١١) **المصدر السابق**: ٥٥/١.
(١٢) **المصدر السابق**: ١٠٢/١.
(١٣) **المصدر السابق**: ٣٣/١.
(١٤) الفراء، يحيى بن زياد (٢٠٧هـ/٨٢٢م)، **المذكّرُ و المؤنّث**، تحقيق : رمضان عبد التّوّاب ، مكتبة دار التُّراث ، ١٩٧٥ : ٥٨ ، ١١٦.
(١٥) ديره، **دراسة في النحو الكوفي**: ٢٥٦.
(١٦) النساء: ٨٨.

فئتين﴾ :"نُصبَ "فئتين" بالفعل"(١). ومستهلّ كلام الفرّاء على هذه الآية يدلّ على أنه يقصد هنـا بـ "الفعل"، متعلّق الجار والمجرور، وليس الجار والمجرور.

الجَحد و الإقرار:

مصطلَحان استخدَمَهما الفرّاءُ لِيَدُلا على ما شاع عند البَصريّين بالنّفي والإثبات. ويبدو من كلام الأنصاريّ أنّهما للفرّاء، وأنّه اقتَصَر عليهما، وذَكَر أنّهما مصطلَحانِ مُوفَّقان وعلى الأخصّ الجحدُ؛ لأنّه يُساير روحَ اللّغة أكثرَ من مصطلح النّفي الّذي يُسايرُ روحَ الفلسفة(٢). كما يبدو ذلك أيضاً من كلام مهدي المَخزومي(٣)، وشَوقي ضَيف(٤)، وعوَض القُوزي(٥)، والمختار ديره(٦).

أمّا فيما يتعلّقُ باقتصار الفرّاء على الجحد والإقرار كما يَذكرُ الأنصاريُّ فقد وجدتُه يَستخدم الجحدَ كثيراً(٧)، وأقل منه الإقرار(٨) والنّفيَ(٩).

واستخدمَ الكِسائيّ الجحد في معانيه(١٠).وقد استَخدَمه خَلَف الأحمر أيضاً "استخداماً اصطلاحيّاً؛ في الكتاب المنسوب إليه، إذ قال:" الجوابُ بالفاء في باب أنّ عند خمسة أشياء(١١) تَنصِب: عند الأمر والنّهيِ والجحد ...(١٢)"، وجاء في كِتاب" الجُمَل " المنسوب إلى الخليل مرّتين (١٣)، وكـذا في كتاب العين(١٤). ونقل الأنباري استخدام البصريين للجحد في مناظراتهم(١٥).

(١) الفراء، **معاني القرآن**: ٢٨١/١، وانظر تعليق المحقّقين أيضاً.

(٢) الأنصاري، **أبو زكريّا الفرّاء** : ٤٤٢ .

(٣) المخزومي، مهدي، **الدّرس النّحويّ في بغداد**، دار الرّائد العربيّ ، ط ٢ ، ١٩٨٧ . : ٣٧.

(٤) ضيف، شوقي، **المَدارس النّحويّة** : ٢٠٠ .

(٥) القوزي، **المُصطلح النّحويّ** : ١٧١ .

(٦) ديره، **دراسة في النحو الكوفي**: ٢٦٢.

(٧) الفراء، **معاني القرآن**: : ٨/١، ٥٢، ٥٣ ، ١٦٠، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٧، ٢٢٨، ٢٣٤، ٢٧٦، ٢٦٢، ٢٨٦، ٣١٧، ٣١٨، ٤٢٣، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٧٠، ٤٨٠. ٤٩/٢، ٢٦٥، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٣٠. ٥٦/٣، ١٠٥، ١٣٧، ١٤٧، ٢٠٧، ٢١٣، ٢١٩، ٢٨١.

(٨) **المصدر السابق**: ٥٢/١، ٥٣.

(٩) **المصدر السابق**: ٥٩/١، ١٦٦، ٤٣/٢.

(١٠) الكسائي، **معاني القرآن** : ٣٣٤ عن : القرطبي، **تفسير القرطبيّ** : ٧ / ٦٠٣٩ .

(١١) صَرَفَ ههُنا " أشياء "، كما في النصّ المحقق.

(١٢) الأحمر، خلف، **مقدّمة في النّحـو** : ٦٩ .

(١٣) الفراهيدي، الخليل بن أحمد (١٧٠هـ/٧٨٦م)، **الجُمَل في النّحو**، تحقيق: فخر الدّين قَبّاوة ، مؤسّسة الرّسالة ، ط ١، ١٩٨٥: ٢٩٦، ٣٠٥.

(١٤) الفراهيدي، **كتاب العين**: "لا": ٨٦١، و"لم": ٨٨٣، و"ما": ٨٩٣.

(١٥) الأنباري، **الإنصاف**: ٧٤/١، ٧٨.

ونقل ابن الأنباري، محمد بن القاسم(ت٣٢٧هـ) عن الفراء استخدامه الجحد[١]، والزجاجي استخدامه "التحقيق" للإثبات[٢].

الأدَواتُ:

أطلَقَها الكوفيّون – كما جاء في الإنصاف- على ما شاعَ عند البَصريّين بحروف المعنى[٣]، جاء في كلام الفرّاء على قولِه تعالى: ﴿فلعلّكَ باخِعٌ نفسَكَ على آثارِهِم إن لم يُؤمنوا﴾[٤]. قال:" ولو قُرِئَت بفتح (أنْ) على معنى إذ لم يُؤمنوا... لكان صواباً، وتأويلُ (أنْ) في مَوضع نصبٍ لأنّها إنّما كانت أداةً بمنزلة (إذ)[٥]. والأداةُ عند الأنصاريّ من مُبتَكرات الفرّاء الّتي تَميَّز بها من النّحو البَصريّ بالاختصار والدّقّة [٦]، مُتابِعاً في ذلك مهدي المَخزومي[٧].

والفرّاءُ يَستخدم هذا المُصطلح في معانيه[٨]، كما رأيتُه يَستخدمُه في كتابه" المذكَّر والمؤنّث" مرّتين[٩]. وقد رأيتُ الكسائيَّ يَستخدمه في معانيه[١٠]، ممّا يُرجّح أنّ الفرّاء مسبوقٌ إلى هذا المُصطلح أيضاً. وهو يستخدم أيضاً إلى جانب الأداة "الحرف" بالمعنى نفسه كثيراً.

والفرّاء يطلق الأداة أيضاً على نوني المثنّى وجمع المذكّر السالم، أو الذي في منزلتهما[١١]. وقال تعليقاً على قوله ﴿ألم يأتكم نذير* قالوا بلى قد جاءنا نذير﴾[١٢]،: "ولا تصلح ههنا نعم "أداة"[١٣]، ولا أرى وجهاً لهذا الاستخدام، وأغلب الظنّ أنّ هناك كلاماً ساقطاً، أو كلمة "أداة" زيادة في هذا السياق. وقال

(١) ابن الأنباري، محمد بن القاسم، **الأضداد**، تحقيق: محمد أبو الفضل، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٧: ١٠، ٢١٥، ٢١٦، ٣١٠.

(٢) الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق (٣٣٧هـ/٩٥٩م)، **كتاب اللامات**، تحقيق: مازن المبارك، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨٥: ٧٢.

(٣) انظر: الأنباري، **الإنصاف**: ٤٥، ٤٨، ٢٧٨، ٣٦١، ٣٦٢.

(٤) **الكهف** : ٦ .

(٥) الفراء، **معاني القرآن** : ١ / ٥٨ .

(٦) الأنصاري، **أبو زكريّا الفرّاء** : ٤٤٥ .

(٧) المخزومي، **مدرسة الكوفة** : ٣١٠ .

(٨) **المصدر السابق**: : ١/١٠، ٥٢، ٥٨، ٢/١٢٢، ٢٠٧، ٢١٣، ٣٣٢، ٣٧١، ٣/٨٤ .

(٩) الفراء، **المذكّر و المؤنّث** : ١١٠ ، ١١١ .

(١٠) الكسائي، **معاني القرآن** : ٥٩ ، عن : ابن خالويه، الحسين بن أحمد، **إعراب ثلاثين سورة**، دار الهلال، ١٩٨٥: ٩.

(١١) الفراء، **معاني القرآن**: ١/١٠، ٢/٣٩٦.

(١٢) **الملك**: ٨، ٩.

(١٣) الفراء، **معاني القرآن**: ١/٥٢.

المختار ديره:"وما كان من هذه الحروف للمعاني سمّاه أداة، وما جاء لمعنى آخر أطلق عليه تسمية أخرى"(١) وأردف قائلاً:"فهو لا يطلق تسمية الأداة على حرفي الجواب "نعم" و "بلى". وقد زاد هذا كلامَ الفراء غموضاً. وعلى العكس من ذلك فالفراء يطلق على بعض أحرف الجواب " أداة "؛ إذ يقول في موطن آخر:"... فَحَذَفَ النون، لأنها كالأداة، إذ كانت على ثلاثة أحرف، شبّهت بقولهم جَيْرِ، لا أفعل ذاك وقد قال الشاعر(٢):

فَقُلنَ على الفِردوسِ أولُ مَشربِ أَجَلْ جَيْرِ إن كانت أُبيحتْ دَعاثِره(٣).

كما نجده يطلق مصطلح "الأداة" على "نعمٍ" في كتابه "المذكّر والمؤنّث"؛ إذ يقول:"وكلّ شيء من حروف "أ ب ت ث " يقع عليه العَجم فهو مؤنث وما لم يقع عليه العجم فهو مذكّر والأدوات بمترلته، وإن شئت فذكّر تذهب فيه إلى اللفظ وإن شئت أنثت كما قال الشاعر(٤):

وإذا قلتَ نعم فاصبرْ لها بِنجاحِ الوعدِ إنّ الخُلْفَ ذمّ(٥).

ويطلق الأداة على اسم الفعل(٦)، كما يستخدم لــ"حرف المعنى" مصطلح "الحرف"(٧). ويطلق على أسماء الاستفهام حروفاً(٨)، وعلى الظرف(٩)، وعلى الاسم(١٠). كما أطلق الحرف على الكلمة(١١)، وعلى الاسم المكنّى(١٢)، ويستخدم "الحروف" لحروف المَبنى(١٣)، وللظروف وحروف الجرّ معاً(١٤)، وللقراءة القرآنيّةِ(١٥).

---

(١) ديره، **دراسة في النحو الكوفي**: ٢٧٤.

(٢) البيت لمضرّس بن ربعي، والدعاثر جمع دعثور، وهو الحوض المتثلّم. والبيت في المرادي، الحسن بن قاسم، **الجنى الداني**، تحقيق : فخر الدين قباوة وزميله، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢: ٣٦٠، وهو أيضاً في ابن هشام، عبد الله بن يوسف (ت ٦٧١هـ/١٣٦٠م)، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، تحقيق: مازن المبارك وزميله، دار الفكر، بيروت، ط٦، ١٩٨٦ : ١٦٢.

(٣) الفراء، **معاني القرآن**: ١٢٢/٢، والدعاثر جمع دعثور وهو الحوض المتهدّم.

(٤) الفراء، **المذكّر والمؤنّث**: ١١١.

(٥) البيت للمثقّب العبدي، في : الضبي، المفضل بن محمد، **المفضليات**، تحقيق : أحمد شاكر، وعبد السلام هارون، بيروت: ٢٩٣، وفي اللسان، مادة "نعم".

(٦) الفراء، **معاني القرآن**: ٢٣٥/٢، ٢٣٦.

(٧) **المصدر السابق**: ٢٧/١، ٤٠، ٦٨، ١٠١، ١٠٢،٢٧٣، ٢٧٨، ٢٨١، ٤٨٠، ٧٠/٢، ٢١٩، ٣١٥، ٣٧٧.

(٨) **المصدر السابق**: ٨٥/١، ١٧٧.

(٩) **المصدر السابق**: ٤٦٧/١.

(١٠) **المصدر السابق**: ٢٥٤/١، ٢٦٠، ٣٥٥/٢.

(١١) **المصدر السابق**: : ٩٤/١، ٩٥، ١٠٠، ١٤٩، ٢٠١، ٢٥٧، ٤٦٥، ٣٥٧/٢.

(١٢) **المصدر السابق**: ٣٨٦/٢.

(١٣) **المصدر السابق**: ١٠/١، ٢٠٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢٥٧.

(١٤) **المصدر السابق**: ١٢٣/١.

(١٥) **المصدر السابق**: ١٦/١، ١٩،٢٦، ٢٨، ١٩٢،٣٠٠، ٣١٥، ٣١٨، ٩٥/٢، ٩٦، ١٢٧، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٣، ٤١٤، ١١/٣، ٤١، ٢٩٣

وقد استخدم "الأداة" خَلَف البَصريّ، إذ يقول: "العربيّةُ على ثلاث : اسمٍ و فعلٍ و حرفٍ جاء لمعنى، وهذا الحرفُ هو الأداة[١]". وأعادَ ذِكرَها في باب (ما كان على وزن فَعلاء)، قال: "وكذلك كلُّ ما بَنَتْه العربُ ولا تتغيّرُ بنيتُه بأداةٍ ولا غيرِها، مثلُ أمسِ، فإنّه مخفوضٌ أبداً[٢]".

"المكنيُّ" و "الكِناية" :

قال صاحب الموفي[٣]:"المكنيّات ما وُضع لمتكلّم أو مخاطب أوغائب، سبقَ لفظاً أو معنى". وقد أطلَقَها الفرّاءُ على ما يُقابل الضّميرَ لدى البَصريّين فيما ذَكَر الأنصاريّ[٤]، شوقي ضَيف[٥]، و مهدي المخزومي[٦]، وعوَض القُوزي[٧]. وقال ابن يعيش:"لا فرق بين المضمر والمكني عند الكوفيين، فهما من قبيل الأسماء المترادفة، فمعناهما واحد وإن اختلفا من جهة اللفظ. وأمّا البصريون فيقولون المضمرات نوع من المكنيات، فكل مضمر مكني، وليس كل مكني مضمراً"[٨].

وإذا ما تصَفَّحْنا معانيَ الفرّاء وجدناه يُطلق على الضّمير: المَكنيَّ والكناية ومشتقّاها[٩]، ونقل عنه ثعلب ذلك أيضاً[١٠]، كما يستخدم الضّمير بالمفهوم البَصريّ [١١]، وهو يَستخدم الضّميرَ استخداماً لُغويّاً واسعاً[١٢]، ويستخدم الكناية هذا الاستخدام قليلاً[١٣].

و لم يَقتصر الفرّاءُ على استخدام هذه المصطلحات، ولكنّه أطلَقَ على الضّمير مصطلَحاً آخَرَ هو " العائدُ ذِكرُه " أوِ " الرّاجعُ ذِكرُه "[١٤]، ونقله عنه أيضاً ابن يعيش[١٥].

---

(١) **الأحمر، مقدّمة في النّحو** : ٣٥ ، و قد ذكَرَها أيضاً في الصّفحة ٣٤ .

(٢) **المصدر السابق** : ٩١ .

(٣) الكنغراوي، صدر الدين (ت ١٣٤٩هـ/١٩٣١م)، **الموفي في النحو الكوفي**، تحقيق محمد بهجة بيطار، المجمع العلمي العربي : ٩٢.

(٤) الأنصاري، **أبو زكريّا الفرّاء** : ٤٥٠ .

(٥) ضيف، **المدارس النّحويّة** : ٢٠٠ .

(٦) المخزومي، **الدّرس النّحويّ في بغداد** : ٣٧ .

(٧) القوزي، **المصطلح النّحويّ** : ١٧٤ .

(٨) ابن يعيش، **شرح المفصل** : ٨٤/٣، وانظر: الجبالي، حمدي محمود، **مصطلح النحو الكوفي**، رسالة ماجستير، اليرموك، ١٩٨٢: ٢٢.

(٩) الفراء، **معاني القرآن**: ١٩/١، ٩٣، ١٢٨، ٢٣١،٢٨٦، ٣٠٣، ٣١١، ١٠/٢، ٤٥، ٨٦، ١٠٦، ٢٢٦، ٢٦٦، ٣٨٥، ٢٠٥/٣، ٢٧٨،٢٨٥.

(١٠) ثعلب، **مجالس ثعلب**: ٢٧٤/١.

(١١) الفراء، **معاني القرآن**: في ١٤١/١، ١٥٧، ٢٢٠، ٢٤٥، ٢٤٨، ٢٦٩، ٤٣/٢، ٣٧٧.

(١٢) **المصدر السابق**، وممّا جاء منه في الجزء الأول وحده: ١٤/١، ٢٤، ٣١، ٣٢، ٣٥، ٣٨، ٤٨، ٨٢، ٨٣، ٨٨، ٩٤، ١٠١، ١٠٤، ١١٣، ١١٤، ١٥٦، ١٦٥، ١٧٨، ١٨٦، ١٩٧، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٧،٢١١، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧١، ٢٨٢، ٢٦٩،٤٢٥.

(١٣) **المصدر السابق**: ١٤٣/١، ٢٨٦.

(١٤) **المصدر السابق**: ٥٦/١، ١٥١، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٣٥٣ ، ٤٢٢، ٢ /١٠، ٢٦، ٧٧، ٩٥، ٩٩، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٤٣، ٢٥٥، ٣٧٣، ١٥٧/٣.

(١٥) ابن يعيش، **شرح المفصّل**: ٨٢/١.

العِمادُ والاسمُ المجهول:

أطلَقَهما الفرّاءُ على ضميرَي الفصل والشّأن لَدى البَصريّين، وقد أفرَدَ سيبَوَيهِ باباً لضمير الفصل[١]، وهو ما يقابل العماد لدى الكوفيين[٢]، قال الرضي:"يسمّونه عماداً لكونه حافظاً لما بعده، حتى لا يسقط عن الخبرية، كالعماد للبيت الحافظ للسقف من السقوط"[٣]. وذَكَر الأنصاريُّ أنّ الفرّاءَ يُطلق على ضمير الفصل"العِمادَ"[٤]، و لم يتنبَّهْ إلى خلطِ الفرّاء في هذا المُصطلح. ونجدُ هذا أيضاً عند مهدي المَخزومي[٥]، وعوَض القوزي.

وإذا تصَفَّحنا معاني الفرّاء وجدنا هذه المسألة من أدلّ الأشياء على خلطه في مسألة المصطلحات، ذلك الخلط الذي أخذ فيه محققو "المعاني"، والأستاذ هارون محقق "مجالس ثعلب" بحظّ لا بأس به. فالفرّاء يطلق على ضميري الفصل والشأن مصطلح "العماد"، غير أنه يجعل لكلّ منهما مفهوماً مستقلاً. فهو يستخدم مفهوم الفصل كما يستخدمه البصريّون، وإن لم يشر إلى ذلك بشكل جليّ، أمّا ضمير الشأن فقد أوضح مفهومه عند كلامه على قوله تعالى: ﴿قل هو الله أحد﴾[٦]، إذ يقول: "وقال الكسائي كلاماً لا أراه شيئاً. قال:هو عماد، مثل قوله ﴿إنّه أنا الله﴾[٧]، فجعل "أحد" مرفوعاً بالله، وجعل "هو" بمترلة الهاء في "إنه"، ولا يكون العماد مستأنفاً به، حتّى يكون قبله "إنّ" أو بعض أخواته، أو "كان" أو "ظن"[٨].

والذي يوضّح هذا بشكل جليّ، ما نقله ثعلب على لسان الفراء، إذ يخطّئ ما ذهب إليه سيبويه والكسائي من أن "هو" في الآية المذكورة "عماد"؛ أي ضمير شأن، ويعلّق قائلاً:"هذا خطأ من قِبل أنّ العماد لا يدخل إلاّ على الموضع الذي يلي الأفعال، ويكون وقاية للفعل مثل"إنه قام زيد"... والأصل في هذا "إنّما قام زيد"، فالعماد كـ"ما"، وكلّ موضع فعلى هذا جاء يقي الفعل، وليس مع "قل هو الله أحد" شيء يقيه"[٩]. والكلام ههنا واضح فضمير الشأن لا يكون إلاّ حيث لا تصلح هذه الأدوات التي ذكرها الفراء أن تباشر الفعل، وليس هذا سبيل ضمير الفصل، وكلّ ما ذكره الفراء تعليقاً على هذين الضميرين لا يخرج عن هذا، على الرغم من أنه يطلق عليهما مسمّى واحداً هو "العماد". فيُطلق" العِماد" على ضمير

(١) سيبويه، **الكِتاب** : ٢ / ٣٨٩ ، و انظر : ٣٩٥ .
(٢) انظر : الأنباري، **الإنصاف** : ٢/٧٠٥، ٧٠٦، الإسفراييني، **اللباب في علل البناء والإعراب**: ٤٩٦/١، ابن يعيش، **شرح المفصّل**: ١١٠/٣.
(٣) الرضي، **شرح الكافية**: ٢٤/١
(٤) الأنصاري، **أبو زكريّا الفرّاء** : ٤٤١ .
(٥) المخزومي، مهدي، **مدرسة الكوفة**، ط٢، ١٩٥٩: ٣١٢ .
(٦) **الإخلاص** : ١.
(٧) **النمل**: ٩.
(٨) الفراء، **معاني القرآن** : ٢٩٩/٣.
(٩) ثعلب، **مجالس ثعلب**: ٣٥٤/٢، وانظر أيضاً كلام ثعلب تأكيداً على هذا المفهوم : ٢٧٢/١.

الفصل[١]، ويُطلقُه على ضمير الشّأن[٢].

و لم يكتَفِ الفرّاءُ بهذا بل أطلَقَ على ضمير الشّأن مُصطلحاً آخرَ هو "الاسم المجهول"[٣] ، وقد نقل عنه ذلك ثعلب أيضاً[٤]. وقال الرضي:"يسمّيه الكوفيّون ضمير المجهول؛ لأنّ ذلك الشأن مجهول؛ لكونه مقدّراً"[٥]. ولا يَستوي عنده هذا الإطلاقُ، بل نجدُه يُطلق" الاسمَ المجهولَ " على الاسم غيرِ المعروف عند العرب[٦].

وقد أطلَقَ الكسائيُّ " العِمادَ " على ضمير الفصل[٧]، وعلى الشأن[٨]، وكذا ثعلبٌ في مجالسه[٩]، كما أطلق ثعلب "المجهول" على ضمير الشأن[١٠]. وقد وجدتُ هذا المُصطلَحَ في كتاب" الجُمَل "المنسوب للخليل[١١]، ويَقصِد به ضميرَ الشّأن.

المُوقَّتُ وغير المُوقَّت:

وقد يُهمَزان، وقد ذَكَر الأنصاريُّ أنّ الفرّاءَ يَقسم الأسماءَ من حيثُ التّعريفُ والتّنكيرُ إلى أقسامٍ ثلاثة: مَعرفةٍ موقَّتة وهي العَلَم والضّمير، ومعرفةٍ غيرِ موقَّتةٍ مثلِ الموصول والمُشتقّاتِ إذا دخَلَت عليها (ال)، ونَكِرةٍ، وهي بطبيعة الحال غيرُ موقّتة[١٢]. وتَبِعه القوزي[١٣]، والمختار ديره[١٤].

وإذا ما تصفَّحْنا كتابَ الفرّاء لم نجد هذه القاعدةَ المُحكَمةَ الّتي قالا بها في استخدام هذه المصطلحات، وإنّما يبنِيانها على ما جاء في مُستهلِّ الجزء الأوّل، إذ يقول الفرّاءُ:" ولا يجوز أن تقولَ مررتُ بعبد الله غيرِ الظّريف إلاّ على التّكرير؛ لأنّ عبدَ الله موقّتٌ، و"غير" في مذهبٍ نَكِرةٌ غيرُ موقّتة، ولا تكون نعتاً إلاّ

(١) الفراء، **معاني القرآن:** ١/٥١، ١٠٤، ٢٤٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٢ /١١٣، ١٤٥، ٣٥٢، ٣٥٣.

(٢) **المصدر السابق:** ٢ /٢١٢، ٢٢٨، ٢٨٧، ٣/١٨٥، ٢٣٦، ٢٩٩. و.انظر أيضاً ديره، **دراسة في النحو الكوفي:** ٢٤٣.

(٣) **المصدر السابق:** ١/١٨٦، ٣٦٢، ٣٦١، ٣٦٣، ٢/٢٧٥، ٣٢٨.

(٤) ثعلب، **مجالس ثعلب:** ١/٢٣٠.

(٥) الرضي، **شرح الكافية:**

(٦) الفراء، **معاني القرآن:** ٢/٢٨٩.

(٧) الكسائي، **معاني القرآن:** ١٦٤ ، عن: النحاس، **إعراب القرآن** : ٢ / ٢٩٦. ١٨٠، عن النحاس، **إعراب القرآن** : ٢/٤٠٧.

(٨) **المصدر السابق:** ٢٦١

(٩) ثعلب، **مجالس ثعلب** : ١ / ٤٣، ١٣٣، ٢/٣٥٩، .

(١٠) ثعلب، **مجالس ثعلب:** ١/١٠٢، ٢٣٠، ٢٣١، ٢/٢٧٢، ٣٨٦، ٣٨٧.

(١١) الفراهيدي، **الجُمل في النّحو** : ٢٧٠.

(١٢) الأنصاري، **أبو زكريّا الفرّاء** : ٤٤٨.

(١٣) القوزي، **المصطلح النّحويّ** : ١٦٨ .

(١٤) ديره، **دراسة في النحو الكوفي** : ٢٦١.

لِمَعرفةٍ غيرِ موقّتة[١]". والفرّاءُ لا يلتزم ذِكر" مَعرفة" قبل الموقّت وغير الموقّت إلاّ ما جاء آنفاً، إضــافةً إلى موطنٍ آخرَ ذَكَر فيه المَعرفة الموقّتة، على غير ما أسَّسَ له الأنصاريّ ــ قال فيه:"وبناءُ (نِعْــمَ) و(بــئسَ) ونحوِهما أن يَــنصِــبا ما وَلِيَهما من النّكرات، وأن يَرفعا ما يليهما من مَعرفةٍ غير موقّتة وما أضــيفَ إلى تلك المَعرفة[٢]". ومن البَديهيّ ههُنا ألاّ يَدخل الاسمُ الموصول ضِمن المَعرفة غير الموقّتة المُشارِ إليها؛ لأنّه لا يكون فاعلاً لأفعال المدح والذّمّ عند الكوفيين، قولاً واحداً[٣].

ومن البَديهيّ أيضاً أن يَتمثّلَ اصطلاحُ "المعرفة الموقّتة" بناءً على هذا ــ إضافةً إلى الأسماء الموصولة ــ الأعلامَ والضّمائرَ وأسماءَ الإشارة؛ لأنّها لا تقَع فاعلاً لأفعال المدح والذّمّ ، كما ذَكَرَ النكرة غير الموقتة[٤].

أمّا باقي المَواطن الّتي استَخدَمَ فيها الفرّاءُ الموقَّتَ وغير الموقّت فنجدُه يُطلق الموقَّتَ على ما لا يجوز أن يَقَع فاعلاً لـ"بئس" وأخَواتِها كما مرّ[٥]، كما نجدُه لا يُجاوزُ الكلام على المعرفةِ والنَّكِرةِ حــين يُطلِــق الموقَّت، قال:" وذلك أنّه جائزٌ في النَّكِرات أن تكونَ أفعالُها تابعةً لأسمائها؛ لأنّك تقول: إنْ كــان أحَــدٌ صالحٌ فَفُلانٌ، ثمّ تَلقَى أحداً فتقول: إنْ كان صالحٌ فَفُلانٌ، وهو غيرُ موقَّت، فصَلحَ نعتُه مكانَ اسمِه إذ كانا جميعاً غيرَ معلومَين"[٦]. وكما يبدو ههُنا فغيرُ الموقّت هو غيرُ المُعَرَّف، وهو يستخدم غير موقت أيضاً للاسم الموصول تحديداً[٧]، ويعني به المعرفة المبهمة غير المحددة. كما نجدُه يُطلِق الموقَّتَ بمعناه اللُّغويّ وهو المُحدَّدُ أوالمُعرَّف[٨].

على أنّني لا أزعُمُ وقوفي ــ وقوفَ الاستيقان ــ على مَقصِد الفرّاء بهذه المُصطلحات؛ لأنّ فيــه غُموضاً بَيِّناً، أسهَمَ المحقّقون بشَطرٍ منه، وقصارى الأمر أنّ هذه المسألة ليست بالــسَّلاسة الّــتي ذَكَرهــا الأنصاريُّ.

ومِنَ الجدير بالذّكر أنّ الفرّاءَ أطلَقَ على الأعلام "الأسماءَ الموضوعةَ[٩]"، وقــد أطلقــه علــى اســم الجمع[١٠]، كما وجدتُه يُطلقُه في "المُذكَّر والمؤنَّث" على اسم الجنس[١١]، وفي "المقصور والممدود "علــى

(١) الفراء، **معاني القرآن** : ١ / ٧ .
(٢) **المصدر السابق** : ١ / ٢٦٧ .
(٣) السيوطي، **همع الهوامع** : ٢٤/٣، الصبّان، محمد بن علي (١٢٠٦هـ/١٧٩٢م)، **حاشية الصبان** ، تحقيق : أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية،ط١٩٩٧،١: ٤٢/٣.
(٤) **المصدر السابق** : ١٣٠/١.
(٥) **المصدر السابق**: ٥٦/١، ٥٧.
(٦) **المصدر السابق** : ١ / ١٨٥ .
(٧) **المصدر السابق**: ١/: ٢٤٣، ٢٤٤، ١٠٣/٢، ٤١٩.
(٨) **المصدر السابق**: ٥٠/١، ٥٥.
(٩) **المصدر السابق**: ٤٠٩/١.
(١٠) **المصدر السابق**: ٢٨/٣.
(١١) الفراء، **المذكّر و المؤنّث** " : ٦٩، ٧٠، وانظر: ديره، **دراسة في النحو الكوفي**: ٢٦٠.

المَصدر[١]. كما يُطلِق على النَّكرةِ في "المُذكَّر والمؤنَّث" الاسمَ المُبهَم[٢]. أمّا إطلاقُه المَعرفةَ والنَّكِرةَ فنجــدُه في "المَعاني" شائعاً ذائعاً.

المُرافِــــع:

قال الشرجيّ:"مذهب الكوفيين أنّ المبتدأ يرفع الخبر، والخبر يرفع المبتدأ؛ لكونهما متلازمين"[٣]، وقال القَوزي "المرافع": هو بمعنى الخَبَر عند الفرّاء[٤]. وقد جاء عند الفرّاء على هذا المعنى إذ يقول: " أفرأيتَ ما جاء منها ليس بعدَه ما يُرافِعُه . . ."[٥]. فأصلَ المُرافعة عند الكوفيّين ما ذَهبوا إليه من أنّ كُلاًّ من المُبتــدأ والخَبر مُترافعانِ، وعلى هذا فكُلٌّ منهما مُرافِعٌ للآخر. وقال المختار ديره:"والــذي يتــضح لي أنّ الفــرّاء استخدم مصطلح المرافع للمبتدأ والخبر". ولعلّ هذا صحيح؛ قال الفراء في كلامه على قوله تعالى ﴿كلاّ إنها لظى* نزاعة للشوى﴾[٦]، إن شئت جعلت "الهاء" عماداً، فرفعت لظى بـــ"نزاعة" و"نزاعة" بلظى "[٧].

وقال الفرّاءُ في قولِهم:" ما كان من السِّباع غير مَخوفٍ فهذا الأسَدُ مَخوفاً": ". . فلم يَجدوا بُدّاً من أن يَرفعوا "هذا" بالأسد وخَبَرُه مُنتَظَرٌ، فلمّا شُغل (الأسدُ) بمُرافعة "هذا" نَصَبَ فِعلُه الّذي كـــان يُرافِعُـــه لِخَلوته[٨]". وقد استخدمه على هذا المعنى[٩]. كما نجدُه يُطلِق على المُبتدأ "الضّميرَ"[١٠]، أمّا ذِكرُه لِمُصطلح الخَبر فكثيرٌ[١١]. وقد ذَكَر الكِسائيُّ مُصطلحَ المُرافع للخبر[١٢]، و كذا ثعلبٌ في مَجالسه[١٣].

(لا) التّبرئةِ :

وهو مُصطلحٌ عند الفرّاء يُقابل (لا) النّافيةَ للجنس عند البصريّين، قال في كلامه على قوله تعالى: ﴿فلا رَفَثَ ولا فُسوقَ ولا جدال﴾ [١٤]، "فالقراءةُ على نصب ذلك كُلِّه بالتّبرئة، إلاّ مُجاهداً فإنّه رَفَـــع

---

(١) الفراء، **المقصور و الممدود** : ٢٥ .

(٢) الفراء، **المذكّر و المؤنّث** : ٧٠ ، ٧١ .

(٣) الشرجي، عبد اللطيف بن أبي بكر (٨٠٢هـ/١٤٠١م)، **ائتلاف النصرة في اختلاف نحاة الكوفة والبصرة**، تحقيق : طارق الجنابي، عالم الكتب،ط١، بيروت، ١٩٨٧: ٣٠.

(٤) القوزي، **المصطلح النحوي**: ١٧٣، وانظر : الإسفراييني، **اللباب** : ١٢٩.

(٥) الفراء، **معاني القرآن**: ١/٣٦٩.

(٦) **المعارج**: ١٦.

(٧) الفراء، **معاني القرآن**: ٣/١٨٥.

(٨) الفراء، **معاني القرآن** : ١ / ١٢ ـــ ١٣ . و من البيّن أنّ الفرّاءَ إنّما يُشير بقوله : " نَصَبَ فِعلُه الّذي كان يُرافعُـــه لِخَلوتـــه . . " إلى انتصاب (مَخوفاً) خبراً لـــ (كان) .

(٩) **المصدر السابق**: ١/١٧٩، ٣٦٩، ٣٧٠، ٢/٢٤٦، ٢٤٧.

(١٠) **المصدر السابق**: ١/٣٧٠.

(١١) **المصدر السابق**: ١/١١، ٧٥،١٥٠، ٢٠٥، ٢٧٣، ٣٦٤، ٣٩٦.

(١٢) الكسائي، **معاني القرآن** : ١٤١ .

(١٣) ثعلب، **مجالس ثعلب** : ١ / ٢٠ .

(١٤) **البقرة** : ١٩٧ .

الرَّفث والفسوق ونَصَب الجدال[١]"، وقد تكررّ ذكره لهذا المصطلح[٢].

وهو للفرّاء كما ذَكَر شوقي ضَيف[٣]. غير أنّ الكسائيّ قال في كلامه على قوله تعالى: ﴿لا رَيبَ فيه﴾[٤]، "سبيلُ النَّكِرة أن يَتقدَّمَها أخبارُها، فتقولَ: قام رجلٌ، فلمّا تأخَّر الخبرُ في التّبرئة نَصَبوا و لم يُنوِّنوا لأنّه نصبٌ ناقصٌ"[٥]. وقد ذَكَره ثعلبٌ في مجالسه[٦]، ونسبه النحاس إلى الكوفيين[٧]. ووجدتُه في "الجُمل" المنسوب إلى الخليل[٨].

التّقريب:

جاء في الهمع[٩]:" وذهب الكوفيّون إلى أنّ "هذا" و"هذه" إذا أريد بهما التقريب كانا من أخوات كانَ، في احتياجهما إلى اسم مرفوع وخبر منصوب" وهو يذكر شرطين في معرض كلامه للنصب على التقريب؛ الأول أن يكون الاسم الواقع بعد اسم الإشارة واحداً لا ثاني له في الوجود، والثاني أن يكون هذا الاسم اسم جنس معرّفاً. وعلى هذا استخدمه الفرّاءُ، قال:" واعلَم أنّ (هذا) إذا كان بعدَه اسمٌ فيه الألِف واللاّم جَرى على ثلاثة معانٍ: أحدُها أن تَرى الاسم الّذي بعد (هذا) كما تَرى (هذا) ففِعلُه[١٠] حينئذٍ مرفوعٌ، كقولك: هذا الحِمارُ فارةٌ ...، والوجه الآخرُ أن يكون ما بعد (هذا) واحداً يؤدّى عن جميع جنسه، فالفعل حينئذٍ منصوبٌ، كقولك: ما كان من السِّباع غير مَخوفٍ فهذا الأسدُ مَخوفاً، ألا تَرى أنّك تُخبر عنِ الأُسْد كلِّها بالخوف؟ والمعنى الثّالث أن يكون ما بعد (هذا) واحداً لا نظير له، فالفعل حينئذٍ منصوبٌ. وإنّما نصبتَ الفعل لأنّ (هذا) ليست بصفةٍ للأسد، إنّما دَخلت تقريباً[١١]". ثمّ شرع بعد ذلك يَشرح معنى التّقريب[١٢]. وذَكَر صاحبُ "المُصطلح النّحْويّ "أنّ سيبَوَيهِ عَرَف التّقريب[١٣] واستَشهد على ذلك بقول سيبَويه: "إنّما صار إليهم بمنزلة المُضاف؛ لأنّ المُبهَمَ تقرِّب به شيئاً وتُباعِده وتُشير إليه[١٤] ". غير

(١) الفراء، **معاني القرآن** : ١ / ١٢٠. وذكر أبو حيان أنّها قراءة أبي عمرو وابن كثير، البحر المحيط، تحقيق : عادل عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٩٩٣،١ : ٩٦/٢.

(٢) **المصدر السابق** : ١/١٢١، ٢/٤٤٠،٨٤، ٣٥٩، ٥٩/٣.

(٣) ضيف، **المدارس النّحويّة** : ٢٠٠ .

(٤) **البقرة** : ٢ .

(٥) الكسائي، **معاني القرآن** : ٦١ ، عن النحاس، **إعراب القرآن** : ١ / ١٧٨.

(٦) ثعلب، **مجالس ثعلب** : ١ / ١٣١، ١٣٢، ٣٥٤، ٣٥٩، ٣٦٠.

(٧) الفراء، **إعراب القرآن** : ٢٥٧/٤.

(٨) الفراهيدي، **الجُمل** : ٣٠٣ .

(٩) السيوطي، **همع الهوامع**: ٣٥٩/١. وانظر: **٣٦٠/١**، و ديره، **دراسة في النحو الكوفي** : ٢٣٧.

(١٠) يعني بالفعل هنا الخبر .

(١١) الفراء، **معاني القرآن** : ١ / ١٢ .

(١٢) **المصدر السابق** : وقد ذكرهذا المصطلح أيضاً في: ٢٣١/١، ٢٣٢.

(١٣) القوزي، **لمصطلح النّحويّ** : ١٣٣.

(١٤) سيبويه، **الكتاب** : ٢ / ١٢ ، و انظر : ٨ . انظر: ديره، **دراسة في النحو الكوفي**: ٢٣٩.

أنّ سيبَويهِ يُشير هنا إلى المعنى اللّغويّ للتّقريب وليس كما ذكَر القوزي[١]، كما أنّه لم يَذكر عملاً لاسم الإشارة كما بَيَّن الفرّاءُ. وذكَر ثعلبٌ التّقريب، كما أشار إلى أنّ سيبَويهِ لا يعرفه[٢].

وذكَر مهدي المَخزومي أنّ هذا المُصطلح من إضافات الكوفيّين[٣]. وذكَر الأنصاريّ أنّه مصطلحٌ لا يعرفه البَصريّون[٤]، وكذا شوقي ضَيف[٥].

وقد أفرَدَ له خَلَفٌ الأحمرُ باباً كاملاً سَمَّى فيه أسماءَ الإشارة" حروفَ الرّفع"، قال: "تقول: هذا عبدُ الله مُقبلاً، و(ذا) إشارةٌ، و"عبد الله" مرفوع، و"مُقبلاً" منصوب؛ لأنّه خبَرُ المعرفة، وخبَرُ المعرفة منصوبٌ أبداً [٦]". ومن اللافت للنّظر أنّه ضَمّ إلى أسماء الإشارة في هذا الباب ضمائرَ الرّفع و لم يذكر أمثلةً لها.

ما لم يُسَمَّ فاعِلُه:

أطلقَه الفرّاءُ على ما يُسمَّى عند النَّحْويّين المبنيَّ للمجهول، وهذه تسميةٌ متأخّرةٌ لم يَعرفها سيبَويه، وربّما أطلَق عليه "فُعِل"[٧]. قال الفرّاءُ:" وقد قَرأ بعضُهم: ﴿إنّما حُرِّمَ عليكمُ المَيْتةُ﴾[٨]، ولا يجوز هَهُنا إلاّ رفعُ (المَيْتة والدّم)؛ لأنّه فِعلٌ لم يُسَمَّ فاعلُه... [٩]". وقال في مَوطنٍ آخرَ:"لأنّ ما لم يُسَمَّ فاعلُه إذا خلا باسمٍ رَفَعَه[١٠]. وعلى هذا المعنى جاء[١١]. وربّما أطلق هذا الاصطلاح على نائب الفاعل، إذ يقول في قوله تعالى: ﴿لا يَهدِي مَنْ يُضِلّ﴾[١٢]، وقرأها أهل الحجاز ﴿لا يُهْدَى من يُضلُّ﴾[١٣]... ومن قال: "يُهْدَى" كانت رفعاً إذ لم يسمّى فاعلها"[١٤]. وقد عَدَّه الأنصاريّ مِنَ ابتكارات الفرّاء[١٥]، وتَبِعه شوقي

(١) وانظر : ديره، **دراسة في النحو الكوفي** : ٢٣٩.

(٢) ثعلب، **مجالس ثعلب** : ١ / ٤٣ و ٢ / ٣٥٩ ، ٣٦٠، وانظر الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف، **ارتشاف الضّرب**، تحقيق: مصطفى النماس، ط١، ١٩٨٩: ٧٣/٢.

(٣) المخزومي، **مدرسة الكوفة** : ٣٢٠ ، و المخزومي، **الدّرس النّحويّ في بغداد** : ٣٧ ، وانظر الأنباري، **الإنصاف**: ٧٢٠/٢.

(٤) الأنصاري، **أبو زكريّا الفرّاء** : ٤٥٤.

(٥) ضيف، **المدارس النّحويّة** : ١٩٨ .

(٦) الأحمر، **مقدّمة في النّحو** : ٦٦ .

(٧) سيبويه، **الكتاب** : ١ / ٣٤٢ ، و انظر : ١ / ٤١ — ٤٢ .

(٨) **البقرة** : ١٧٣ ، و **النّحل** : ١١٥ .

(٩) الفراء، **معاني القرآن** : ١ / ١٠٢.

(١٠) **المصدر السابق** : ٢ / ٢١٠ .

(١١) **المصدر السابق**: ١١٢/١، ١٤٦، ٣٠١، ٣٥٧، ٣٣٢/٢، ٣٥٢، ٢١/٣، ٣٠، ٥٣، ١٨٦.

(١٢) **النحل** : ٣٨

(١٣) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر والحسن، انظر: البحر المحيط: ٤٧٦/٥.

(١٤) الفراء، **معاني القرآن** : ٩٩/٢.

(١٥) الأنصاري، **أبو زكريّا الفرّاء** : ٤٤٤ .

ضَيف[١]، وعوَض القوزي[٢].

وقد ذكره الكسائي[٣]، وهو يقارب أيضاً ما نجدُه عند المُبرِّد؛ إذ أطلَقَ على نائب الفاعل" المفعولَ الّذي لا يُذكَرُ فاعلُه"، وقد أفرَدَ له باباً[٤].

كما ذكره خَلَف الأحمر، إذ يقول: "الرّفعُ يأتي من ستّة وجوهٍ لا غيرَ، وهي الفاعلُ وما لم يُسَمَّ فاعلُه..."[٥]، وقد أطلَقَ عليه الخليلُ في "الجُمل"[٦]" ما لم يُذكَر فاعلُه". وقد جرى هذا المصطلح على ألسنة المتأخّرين، كما نرى عند ابن جنّي[٧]، والعكبري[٨]، وابن عقيل[٩]، وابن هشام[١٠].

المفعولاتُ:

جاء في الهمع[١١]:" وأمّا الكوفيّون فزعموا أنّ الفعل إنّما له مفعول واحد، وهو المفعول به، وباقيها عندهم ليس شيء منها مفعولاً، وإنّما مشبّه بالمفعول". و الكوفيّون لا يَعرفون من المفعولات سوى المفعولِ به، و سائرُ المفاعيل إنّما هي عندَهم مُشبَّهةٌ بالمفعول به. ويبدو هذا بَيّناً في معاني الفرّاء؛ فنجدُه يُطلق "المصدَرَ" على المفعول المُطلق، يقول في كلامه على "الحمدُ لله": "فأمّا مَن نَصَبَ فإنّه يقول: "الحمد "ليس باسمٍ، إنّما هو مصدرٌ[١٢]". وقد كررّ ذلك غير مرّة[١٣]. وسمَّى المفعولَ لأجله" تفسيراً"[١٤]. كما حَمَلَ نصبَ المفعول معَه على فعلٍ مُضمَرٍ[١٥]، وقد أطلَقَ مصطلحَ " الظّرف " على الواو في قوله تعالى[١٦]: ﴿والأرضَ فرَشْناها﴾[١٧].

(١) ضيف، **المدارس النّحويّة** : ٢٠٠ .

(٢) القوزي، **المُصطلح النّحويّ** : ١٤٣ .

(٣) الكسائي، **معاني القرآن** : ٦٣.

(٤) المبرد، **المُقتضَب** : ٤ / ٢٠ .

(٥) الأحمر، **مقدّمة في النّحو** : ٥١ ، ٥٤ .

(٦) الفراهيدي، **الجُمل** : ١١٨ .

(٧) انظر على سبيل المثال ابن جني، أبو الفتح (٣٩٣هـ/١٠٠٢م)، **سر صناعة الإعراب**، تحقيق: حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ١٩٩٣ : ١٣١/١، ١٣٢، ٢٨٥، ٢٨٩، و ابن جني، **الخصائص** : ٢١٩/٢.

(٨) انظر على سبيل المثال العكبري، **التبيان في إعراب القرآن** : ٢٩، ٣٨، ٦٨، ٧٦، ٩٧، ٩٨، ١٠٨، ١١٤، ١١٨، ١٢٦.

(٩) انظر على سبيل المثال ابن عقيل، **شرح ابن عقيل** : ١١٣، ١١٩، ١٢١، ١٢٤، ١٩٤

(١٠) انظر على سبيل المثال ابن هشام، **مغني اللبيب** : ٦٣٢، ٦٥٩، ٨٧١، ٨٧٦.

(١١) السيوطي، **همع الهوامع** : ٦/٢.

(١٢) الفراء، **معاني القرآن** : ١ / ٣ .

(١٣) **المصدر السابق:** ٣٩/١، ١٨٨، ٣٨٠، ٣٦٧،٢/٥٢، ٥٣/٣.

(١٤) **المصدر السابق:** ١٧/١، ٧٣.

(١٥) **المصدر السابق:** ٤٧٣/١.

(١٦) **الذّاريات** : ٤٨ .

(١٧) **المصدر السابق:** ٢١٤/١.

المَحَــلّ:

أطلَقَه الفرّاءُ على ما يُسمّيه سيبَويهِ الظّرفَ[١]. وقال في "المذكّر و المؤنّث":" يُـسمّيها النّحْويّـون الظّروفَ والصّفاتِ والمحالّ[٢]". وذكَرَ مُحقّقُ " المذكّر والمؤنّث "أنّ المُفضَّل بنَ سَلَمةَ ذكَـر في مُختـصَر المذكَّر والمؤنّث أنّ الكِسائيَّ يسمّيها الصّفاتِ[٣]، وقال النحاس:"الكسائي يسمّي حروف الخفض صفات، والفراء مَحالّ"[٤]. ونَسَب الأزهريُّ في "التّهذيب" الظّرفَ إلى الخليل، والمَحَلَّ إلى الكِسائيّ، والـصّفةَ إلى الفرّاء[٥]. و ذكَرَ الأنباريُّ أنّ الكوفيّين يسمّونه المَحلّ، ومنهم مَن يسمّيه الصِّفَةَ [٦]. وقال الــشرجيّ[٧]:" الكوفيون يسمّون حروف الخفض صفات، إلاّ الفراء، فإنه يسمّيها محالّ". وقال الكنغراويّ في "المُـوفي": "وهو المسمَّى حالاً وصفةً[٨]، ثمّ عاد و أطلَقَ عليه المَحَلّ[٩].

أمّا إذا تصَفَّحْنا " معانيَ القرآن "للفرّاء فإنّنا نجدُه يُطلق عليه" المَحَلّ"؛ قال: "فإذا كان ما قبلَ الفاء اسماً لا فِعلَ فيه، أو محَلاًّ مثلَ قوله: عندَك، وعليك، وخلفَك...[١٠]". ونلحَظ هنا أنّه يُشرِك في مصطلح المحلّ "عليك" وليست بظرف. وقد أطلَقَ المَحَلَّ على الظرف[١١]، والمحالّ[١٢]، كما أطلَقَ عليه الصِّفةَ[١٣]، وقـد وَهِمَ المُحقِّقان حينما ظَنّا أنّ المقصودَ بالصّفة الظَّرفُ[١٤]؛ لأنّ الصّفةَ هنا حرفُ الجـرّ. كما أطلَقَ علـى الظّروف المَواقيتَ أيضاً[١٥]. وقد نقل النحاس عنه "الوقت"[١٦]، كما نقل عنه الرضي الأوقات[١٧]. وقـد

(١) سيبويه، **الكتاب** : ١ / ٢١٦ ، و قد أفرَد له باباً .
(٢) الفراء، **المذكّر و المؤنّث** : ١٠٩ .
(٣) **المصدر السابق** : ١٠٩ .
(٤) الفراء، **إعراب القرآن** : ١٦٩/١.
(٥) الأزهري، **تهذيب اللّغة** : ١٤ / ٣٧٣، انظر ديره، **دراسة في النحو الكوفي**: ٢٢٢.
(٦) الأنباري، **مسائل الخلاف** : ١ / ٥١، وانظر: ٥٣/١، كما انظر **الارتشاف**: ٥٤/٢.
(٧) الشرجي، **ائتلاف النصرة في اختلاف نحاة الكوفة والبصرة**: ١٥٩.
(٨) الكنغراوي، **الموفي** : ٣٥ .
(٩) **المصدر السابق** : ١٧١ .
(١٠) الفراء، **معاني القرآن** : ١ / ٢٨ .
(١١) **المصدر السابق** : ١/: ١١٩، ٣٤٠، ٢١٩/٣.
(١٢) **المصدر السابق**: ٣٦٢/١.
(١٣) **المصدر السابق**: ٤٢/٣(مرّتين)،
(١٤) **المصدر السابق**: ٣٧٥/١.
(١٥) **المصدر السابق**: ١١٩/١، ١٣٨.
(١٦) النحاس، **إعراب القرآن**: ١٤٦.
(١٧) الرضي، **شرح الكافية**: ٢٧٠/١(السطر الأخير)، وانظر الأندلسي، **الارتشاف**: ٥٧/٢، و البغدادي، عبد القادر بـن عمـر، **خزانـة الأدب**، تحقيق : عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٨٦ : ٩٦/٤، ١٦٨.

أطلَقَ الفرّاءُ الظّرفَ على الواو في قولِه تعالى:"والأرضَ فَرَشْناها"[١].

أمّا ثعلبٌ فقد أطلَقَ عليه في مجالسه " الصّفةَ "[٢]، كما أطلَق عليه "الوقتَ" [٣]، وعلى الظّروف "الأوقاتَ" [٤]، وقد استخدم هذا الأخير الزمخشري[٥].

الصّرفُ والخُروج :

مُصطلحان يلتقيان مع مُصطلح الكوفيّين "الخِلاف"[٦]، وقد نسَبَه ابنُ يَعيشَ إلى الفرّاء أيضاً[٧]. ولم أجده في "المعاني"، وهو عاملٌ معنويٌّ ينصب الظرف إذا وقع خبراً للمبتدأ، نحو" زيد أمامَك "، و"عمرو وراءَك". أمّا الصرف فعامل معنوي أيضاً يَنصِب الاسم أو الفعل المضارع بعد واو المعية[٨]، وذكر صاحب "الفصول المفيدة[٩]" أنّ الكوفيين والبغداديين يسمّون هذه الواو واو الصرف، ويعلل هذه التسمية قائلاً:"وذلك أنّ معنى الثاني لّما كان مخالفاً لمعنى الأوّل، فإنّ الثاني واجب والأول غير واجب خولف بينهما في الإعراب، فصُرف إعراب الثاني عن إعراب الأوّل، فنصب الثاني على الخلاف".

وذكَر الأنصاريُّ أنّها مُصطلحاتٌ مُبتَكرة ومُسمّاها مُبتَكرٌ[١٠]، وذكَر شوقي ضَيف أنّ الفرّاءَ وَضَع مصطلحَ الصَّرف[١١]. غيرَ أنّ الفرّاءَ نفسَه يُقِرُّ أنّ الصّرفَ ليس له، إذ يقول:" وإن شئتَ جَعلتَ الأحرفَ المعطوفة بالواو نصباً على ما يقول النّحويّون من الصّرف"[١٢]، وقد كرّر ذلك، نحو[١٣]:"وهو الذي يسمّيه النحويّون الصرف".

ومن الواضح أنّ هذا المصطلح ــ كما أقَرَّ ــ يتداوله النّحْويّون قبله. أمّا حقيقة الصّرف فقد بَيَّنها في

(١) الفراء، **معاني القرآن**: ١/٢٤٠-٢٤١. وكذا في: ٢/٩٥.

(٢) ثعلب، **مجالس ثعلب** : ١ / ٦٤ .

(٣) **المصدر السابق** : ١ / ٢٦٦، ٢٦٧، ٣٠٨.

(٤) **المصدر السابق** : ١/١٧٥. ٢٦٦،

(٥) الزمخشري، **المفصّل**: ٢٨، ٣٥٢.

(٦) الشرجي، **إتلاف النصرة**: ٣٦.

(٧) ابن يعيش، **شرح المُفصّل** : ٧ / ٢١.

(٨) الأنباري، **مسائل الخلاف** : ١ / ٢٤٥ .

(٩) الدمشقي، أبو سعيد خليل (٢٨٠هـ/٨٩٣م)، **الفصول المفيدة في الواو المزيدة** ، تحقيق : حسن موسى الشاعر، دار البشير، عمان، ط١، ١٩٩٠ : ٢١٨، وانظر: ٢٢٥، ٢٣٢، ٢٣٣، وانظر **الإنصاف**: ١/٥٥٥، ٥٥٦، **ومغني اللبيب**: ٤٧٢.

(١٠) الأنصاري، **أبو زكريّا الفرّاء** : ٤٥٤، وانظر أيضاً: ديره، **دراسة في النحو الكوفي**: ٢٨٨.

(١١) ضيف، **المدارس النّحْويّة** : ١٩٨ .

(١٢) الفراء، **معاني القرآن**: ١/٣٣.

(١٣) **المصدر السابق**: ١/٢٣٥.

معانيه، قال: "فإن قلتَ: وما الصّرفُ؟ قلتُ: أن تأتيَ بالواو معطوفةً على كلامٍ في أوّله حادثةٌ لا تستقيم إعادتُها على ما عُطِفَ عليها، فإذا كان كذلك فهو الصّرف، كقول الشّاعر[١]:

لا تَنْهَ عــن خُلُقٍ و تأتيَ مثـلَه عارٌ عليكَ ــ إذا فعلتَ ــ عظيمُ

ألا ترى أنّه لا يجوز إعادةُ "لا" في " تأتيَ مثلَه" فلذلك سُمِّيَ صرفاً إذ كان معطوفاً و لم يستَقِم أن يُعادَ فيه الحادثُ الّذي قبلَه، ومثله من الأسماء التي نصبتها العرب وهي معطوفة على مرفوع قولهم:"لو تُرِكتَ والأسَدَ لأَكلَكَ" [٢] ". وقد استخدام هذا المصطلحَ غير مرة[٣].

واستخدم "الصرف" ليدلّ على تحوّل العدد من حالة الإفراد إلى حالة التركيب[٤]، كما استخدمه في "المذكّر والمؤنّث"؛ ليدلّ على تحول الصيغ الصرفية من صيغة إلى أخرى[٥]. وقد وجدتُ في "الجُمَل" المنسوب إلى لخليل "نَصْبَ الاسم لأنّه مصروفٌ عن جهته"، وهو ما عَناه الفرّاءُ بالصّرف[٦].

أمّا الخُروجُ فلم يُوضِحْه كما صَنَع بالصّرف، بل كان يَستخدمه مُباشرةً، قال في كلامه على قوله تعالى: ﴿وهذا كِتابٌ أنزلناه مُباركٌ﴾[٧]، "جَعلتَ" مُبارَكاً" من نعت "الكتاب" فرفعتَه، ولو نَصبتَه على الخروج من الهاء في "أنزلناه" كان صواباً[٨]"، ويَعني هنا أن يُخالِفَ المنعوتَ فيُنصَبَ على الحال. وذكَر أيضاً معنى الخروج مِنَ الابتداء والإخبار ممّا يُجيز نصبَه، قال: " وقولُه: "إليه مَرجِعُكم جميعاً، وَعْدَ الله حقّاً" ــ رَفعتَ " المَرجِع "بــ" إليه" ونَصبتَ قولَه" وَعْدَ الله حقّاً " بخروجه منهما، ولو كان رفعاً كما تقول: الحَقُّ عليك واجبٌ و واجباً، لكان صواباً[٩]". وذكَره أيضاً على المعنى نفسه في غير موطن[١٠].

على أنّ الخليل وسيبَويهِ قد أشارا إلى هذا المصطلح؛ قال سيبَويهِ: "هذا بابٌ لا يكون المُستثنى فيه إلاّ نصباً؛ لأنّه مُخرَجٌ ممّا أدخلتَ فيه غيرَه... وهذا قولُ الخليل رَحِمه الله[١١]". وقال سيبَويهِ في باب

---

(١) وهو للأخطل في ديوانه: **صنعة السكري**، تحقيق: فخر الدين قباوة، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٤، ١٩٩٦: ٥٨٠، وهو أيضاً في مستدرك ديوان" أبي الأسود الدؤلي"، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، مكتبة النهضة، بغداد، ط٢، : ١٣٠، وهو أيضاً في: سيبويه، **الكتاب**: ٤٢/٤. الزجاجي، **الجمل** : ١٨٧.

(٢) **المصدر السابق** : ١ / ٣٣ ــ ٣٤ .

(٣) **المصدر السابق**: ١١٥/١، ٢٢١، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٧٦، ٢٩٢، ٣٩١، ٤٠٨، ٢٤/٣، ٦٤، ٢٠٨.

(٤) **المصدر السابق**: : ٣٣/٢.

(٥) الفراء، **المذكر والمؤنّث**: ٦١، ٦٧،.

(٦) الفراهيدي، **الجُمل** : ١١٤ .

(٧) **الأنعام** : ١٥٥ .

(٨) الفراء، **معاني القرآن** : ١ / ٣٦٥ .

(٩) **المصدر السابق** : ١ / ٤٥٧ .

(١٠) **المصدر السابق**: ٢٦٩/١، ٣٠١، ٣٣/٢، ٢٠٨/٣.

(١١) سيبويه، **الكتاب** : ٢ / ٣٣٠ ، وانظر ديره، **دراسة في النحو الكوفي**: ٢٩١.

(غير): "وهو الاسمُ الّذي يكون داخلاً فيما يَخرج منه غيرُه، وخارجاً ممّا يَدخل فيه غيرُه [1]".

وقد جاء عند الكسائي، إذ قال في كلامه على قوله تعالى: ﴿آمنوا خيراً لكم﴾[2]، "انتصب خيراً لخروجه من الكلام"[3]. كما قال في تعليقه على قوله تعالى: ﴿إني رأيت أحد عشر كوكباً﴾[4]، قال: "النصب مَغيض النحو كلّما صُرف شيء عن جهته نصب"[5].

وذكَر خلف في باب وجوه النّصب "الواحدَ الخارجَ من الجماعة"[6]، وأرادَ به تمييزَ العَدد.

التّفسير و المُفَسِّر.

مصطلحانِ يُطلقُهما الفرّاءُ على التّمييز، وذكَرَ عوَض القوزي أنّ اصطلاحَ التّفسير والتّبيين مِنَ ابتكارات الخليل[7]. وإذا ما عُدنا إلى المَوضع الّذي أشار إليه القوزي وجدنا الأمرَ غيرَ ما ذكَرَ، بلِ استَخدَم الخليلُ التّبيين والتّفسير استخداماً لُغويّاً لا يَرقى إلى الاصطلاح[8]، وكذا سيبَويهِ[9]. وهو كما يبدو منَ السّياق بمعنى التّوضيح والبيان. وليس من المستبعد أن يكون الكسائي والفرّاء قد أفادا من هذه الإشارات اللغوية.

وذكَرَ الأنصاريّ "المُفَسِّر" وعَدَّه مِنَ ابتكارات الفرّاء[10]، وتَبِعه شوقي ضيف[11].

أمّا الفرّاءُ في " المعاني " فنجدُه يَستخدم مُصطلَحَيِ التّفسير[12] و المُفَسِّر[13] على سبيل الاصطلاح بشكلٍ بيّن، وتجدر الإشارةُ ههُنا إلى أنّ الفرّاءَ يُجيز أن يكون التّمييزُ مَعرفةً[14].

وقد ذكَر الفرّاءُ التّفسير بمعناه اللُّغويّ كثيراً[15]، كما ذكَرَ التّمييز بمعناه اللُّغويّ أيضاً[16]، وقد أطلَقَ

(١) سيبويه، **الكتاب** : ٢ / ٣٤٣، وانظر: **دراسة في النحو الكوفي**: ٢٩١ .
(٢) **النساء** ١٧٠.
(٣) الكسائي، **معاني القرآن**: ١٢٢، عن الزجاجي، **معاني القرآن** : ٢/١٣٤، و **الأندلسي، البحر المحيط**: ٣/٤٠٠.
(٤) **يوسف**: ٤.
(٥) الكسائي، **معاني القرآن**: ١٦٦، عن النحاس، **إعراب القرآن**: ٢/٣١٢.
(٦) الأحمر، **مقدّمة في النّحو** : ٥٣ ، ٥٨ .
(٧) القوزي، **المصطلح النّحْويّ** : ١٦٥ .
(٨) سيبويه، **الكتاب** : ٢ / : ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨١ .
(٩) **المصدر السابق** : ١ / ٢٠٩ .
(١٠) الأنصاري، **أبو زكريّا الفرّاء** : ٤٤٩.
(١١) ضيف، **المدارس النّحويّة** : ٢٠١ .
(١٢) الفراء، **معاني القرآن**: ١/: ١٦٩، ٣٢٠، ٢٢٦، ٢/ ٤٩، ١٣٨، ١٥٩، ١٦٦، ٢٢٦، ٣٤١.
(١٣) **المصدر السابق**: ١/: ٥٥، ٧٩، ١٣٨، ١٥٢، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٥١، ٢٥٦، ٣١٤، ٢/: ٣٣، ٣٤، ١٣٦، ١٣٨، ١٤١.
(١٤) **المصدر السابق**: ١/٧٩ .
(١٥) **المصدر السابق**: ١/: ٧٢، ٧٧، ٩٢، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢٢٦، ٢٥٧، ٢٩٤، ٤٧٢.
(١٦) **المصدر السابق**: ١/٣٨٩.

على التّمييز "المُترجِم"، وكرَّرَ ذلك غير مرّة[١].

على أنّ الفرّاءَ لم يَقتصِرْ في إطلاقِه "التّفسيرَ" على التّمييز[٢]، بل أشرَكَ فيه البَدَلَ[٣]. كما أشرَكَ فيه المفعولَ لأجله[٤]، والمفعول معه أيضاً[٥]. وقد ذكر ابن هشام استخدام الفراء لـ"التمييز"[٦]، ويرجّح أنها مِنْ لغة ابن هشام. كما أطلق الأخفش على التمييز التفسير[٧]. ونقل النحاس عن الكسائي استخدامه "البيان"[٨].

وفي "الجُمل" المنسوب إلى الخليل أن النصب أحد وخمسون وجهاً، جعل منها قولهم: "عندَك خمسون رجُلاً"، نَصبتَ رجلاً على التّفسير، أمّا النّصبُ على التّمييز عنده فنحوَ قولِهم: أنتَ أحسَنُ النّاسِ وجهاً، وأسمَحُهم كَفّاً[٩]. فالتّفسير كما نَرى للمُفرد، والتّمييز للجملة.

المنصوب على نزعِ الخافض:

ذكَرَ سيبَويهِ هذا البابَ منَ النّحو، غيرَ أنّه لم يُقيِّدْه بمُصطلحٍ[١٠]. وقد ذكَرَه الفرّاءُ، قال في كلامِه على قوله تعالى: ﴿كذلكَ حَقَّت كَلِمةُ ربِّكَ على الّذين فَسَقوا أنّهم لا يُؤمنون﴾[١١]، "فيكون مَوضعُها نصباً إذا ألقَيتَ الخافضَ[١٢]". وقال في مَوطنٍ آخرَ في قوله تعالى: ﴿ألاّ تَعبدوا﴾[١٣] و﴿أنِ استغفِروا ربكم﴾[١٤]، "فـ"أنْ" في مَوضع نصبٍ بإلقاء الخافض[١٥]"، وقد كرّر هذا الاستخدام[١٦]. وقد نقل عنه

(١) الفراء، **معاني القرآن**: ٢/١٠٤.
(٢) انظر أيضاً، ديره، **دراسة في النحو الكوفي**: ٢٢٦.
(٣) الفراء، **معاني القرآن**: ١/٣٤٨، ٢/٦٩(وقد أطلَقَه خَمسَ مرّاتٍ)، ٧٧، وانظر ديره، **دراسة في النحو الكوفي**: ٢٢٦.
(٤) **المصدر السابق**: ١/١٧، ٧٣.
(٥) **المصدر السابق** : ١/٤١٧، وانظر أيضاً" في مصطلح النحو الكوفي، حمدي محمود الجبالي، رسالة ماجستير، اليرموك، ١٩٨٢،": ٥٨.
(٦) ابن هشام، **مغني اللبيب**: ٧٢٠.
(٧) الفراء، **معاني القرآن**: ١/٢٠٩(في كلامه على قوله تعالى: ﴿ملْءِ الارض ذهباً﴾، آل عمران : ٩١.
(٨) الفراء، **إعراب القرآن**: ٣/٢٥.
(٩) الفراهيدي، **الجُمل** : ٤٥ ، ٤٦ .
(١٠) انظر سيبويه، **الكتاب** : ١ / : ٣٨ ، ١٥٩ ، و : ٣ / : ١٢٧ ، ١٣٥ ، ٤٩٧ .
(١١) **يونُس** : ٣٣ .
(١٢) الفراء، **معاني القرآن** : ١ / ٤٦٣ .
(١٣) **هود**: ٢.
(١٤) **هود**: ٣.
(١٥) الفراء، **معاني القرآن**: ٢ / ٣ .
(١٦) **المصدر السابق**: ١/٤٦٣، ٢٧٢، ٢/٥، ٩٠، ٢٣٨، ٢٣١، ٣٩٩.

النحاس [١]"النصب بسقوط الخافض"، وقد يَذكُر إلقاء الصّفة ويَعني حرف الجرِّ[٢].

أمّا الكِسائيُّ فقد ذكَر هذا المصطلحَ على عدّة أوجُهٍ، كإلقاء الخافض، ونــزعِ الخــافض، وإضــمارِ الخافض، وإلقاء الصّفة[٣]. وبهذا يكون الفرّاءُ مسبوقاً هنا أيضاً. أمّا ثعلبٌ فقد عَرَضَ لــه في مجالــسه و لم يُسمِّه[٤].

وجاء عند خلف الأحمرَ؛ فقد ذكَر اثنَيْ عَشَرَ وجهاً للنّصب، منها "ما نُصِب على طرح الخافض"[٥]. كما ذكَرَ الخليلُ في " الجُمَل "النّصبَ بفِقدان الخافض[٦]، ونقله ابن هشام عن الأخفش[٧].

القَطْــــع:

ذكَر الأنصاريّ أنّ الفرّاءَ يُطلقه على ما يُسمَّى الحالَ[٨]. وعَدَّه من مُبتَكراته، وتَبِعه القَوْزي[٩]. أمّــا حمدي الجبالي فهو يرى رأيهما، و يستدرك قائلاً:" ومن المناسب أن نشير هنا إلى أنّ مصطلح "القطع" قال به الكوفيون في غير الحال، فهم يقولون بالقطع في الاسم الذي يجوز فيه أن يعرب بحسب إعراب الاســم الذي قبله" ويضرب بعض الأمثلة من "معاني الفراء"[١٠]. وعلى هذا فالقطع عند الجبالي يحمل مفهــومين. ومَذهبُ المحقِّقينَ في الحاشية مذهبُ الأنصاريّ.

وإذا ما نَظرنا في " الكتاب " وجدنا سيبَويهِ يُطلق ــ إضافةً إلى الحال[١١] ــ الخَبر[١٢] والصّفة[١٣] والمفعول فيه[١٤]، وكلُّها عنده مُرادفةٌ للحال.

(١) النحاس، **إعراب القرآن**: ٣٨٦/٢.

(٢) **المصدر السابق**: ٢٤٣/٣.

(٣) الكسائي، **معاني القرآن** : ٦٥(عن النحاس، **إعراب القرآن** :٢٠٢/١، القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن،تفــسير القــرطبي**: ٢٠٥/١)، ٦٨(عن **تفسير القرطبي**: ٣٢١/١)، ٩٠(عن النحاس، **إعراب القرآن** : ٣١٠/١-٣١٢، القيسي، **مشكل إعراب القــرآن** : ٩٧/١)، ١٥٨(عن ابن الجوزي، **زاد المسير** : ٣٢/٤)، ١٦٤(عن النحاس، **إعراب القرآن** : ٢٩٨/٢، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن،**تفــسير القرطبي**: ٣٣١٤/٤)، ٢٢٢(عن القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، **تفسير القرطبي**: ٥٦٩٦/٧، الأندلــسي، **تفــسير البحــر المحــيط**: ٤٢٤/٧)، ٢٥٠(عن الفراء، **معاني القرآن**: ٢٤٢/٣) .

(٤) ثعلب، **مجالس ثعلب**: انظر: ٥٥١، ٥٨٨.

(٥) الأحمر، **مقدّمة في النّحو** : ٥٣ ، ٥٧ .

(٦) الفراهيدي، **الجُمل في النّحو** : ٩٣ .

(٧) ابن هشام، **المغني**: ٦٩٧.

(٨) الأنصاري، **أبو زكريّا الفرّاء** : ٤٥٢ .

(٩) القوزي، **المُصطلح النّحويّ** : ١٤٠ .

(١٠) الجبالي، **مصطلح النحو الكوفي**: ٦٤.

(١١) سيبويه، **الكتاب** : ١ / ٤٤ .

(١٢) **المصدر السابق** : ٢ / ٤٩ .

(١٣) **المصدر السابق** : ٢ / ١٢١ .

(١٤) سيبويه، **الكتاب** : ٢ / ٨٧ .

على أنّني رأيتُ بعد استقرائي لُمصطلح " القطع " في كتاب "معاني القرآن" أنّه يختلف عن الحال، وإن كان باباً منه.

بادئاً لا نجدُ الفرّاءَ يَقتصر على مصطلح "القطع"؛ فهو يَذكر الحال، وهذا لم يُشِر إليه الأنصاري والقوزي، وذكره الجبالي؛ ذلك أنّه مِفتاحُ المسألة، وقال المختار ديرة:"وأغلب الظن إنّما يستعمله لدلالةٍ عنده قد لا يدلّ عليها القطع(١)"، وهو ظنّ صائب. قال الفرّاء في "القطع" عندما عَرَضَ لقوله تعالى: ﴿وأُولو العِلمِ قائماً بالقِسط﴾(٢)، "منصوبٌ على القطع يَعني " قائماً"؛ لأنّه نَكِرةٌ نُعِتَ به مَعرفةٌ. وهو في قراءة عبد الله:"القائم بالقِسط"، رُفع لأنّه مَعرفةٌ نَعتٌ لَمعرفة(٣)". وما ذَهَب إليه الفرّاءُ هنا واضحٌ؛ فالّذي نَصَب "قائماً" على القطع إنّما هو انقطاعُها عمّا قبلها، فخَرجت عن أن تكون نعتاً، فكانت باباً من الحال، ويجوز فيها الرّفعُ على الوصل، أي تبعية ما قبلها.

ولْنَنْظُر إليه أيضاً في كلامه على قوله تعالى: ﴿إنّما الصَّدقاتُ للفقراء والمساكينِ... فريضةً مِنَ الله﴾(٤)، "فريضةً منَ الله" نُصِبَ على القطع، والرّفعُ في "فريضة" جائزٌ لو قُرئ به، وهو في الكلام بمترلة قولك: هو لكَ هِبةً وهِبةٌ...(٥)". والوصلُ ههُنا يُفضي إلى النّعت أيضاً، ويجوز فيه الاستئنافُ، قال: "رأيتُ القومَ قائماً وقاعداً، وقائمٌ وقاعدٌ؛ لأنّكَ نَويتَ النّصبَ على القطع، والاستئناف في القطع حسَنٌ(٦)". والقطع إنّما هو قطعُ الاسمِ من سِياقه، أي خروجُه عن أن يكون نعتاً أو خبَراً لِما قبلَه، ونصبُه، وهو على هذا ليس الحال بمفهومه العام.

والذي يؤكّد كل هذا ما نقله النحاس عن الفراء بالنصّ، إذ يقول في كلامه على قوله تعالى: ﴿متكئين فيها على الأرائك﴾(٧)، "قال الفرّاء: نصب "متكئين" على القطع وهو عند البصريين منصوب على الحال"(٨). و كلُّ ما وَرَدَ منَ القطع أو الانقطاع –في هذا الباب- عنده جاء على هذا المعنى(٩).

والفرّاءُ يَذكر الحالَ في غير هذا السّياق؛ قال: "إنّما ذكَرتُ هذا لأنّ العربَ تقول: لله دَرُّه من

(١) ديره، **دراسة في النحو الكوفي**: ٢٤٥.
(٢) **آل عِمران** : ١٨ .
(٣) الفراء، **معاني القرآن** : ١ / ٢٠٠ .
(٤) **التوبة** : ٦٠ .
(٥) الفراء، **معاني القرآن** : ١ / ٤٤٤ .
(٦) **المصدر السابق** : ١ / ١٩٣ .
(٧) **الإنسان**: ١٣.
(٨) الفراء، **إعراب القرآن**: ٥/١٠٠.
(٩) الفراء، **معاني القرآن**: ١/ ٧، ١٢، ١٩٣، ٢٠٠، ٢٠٧، ٢١٣، ٢٤٧، ٢٨٦، ٢٩٣، ٣٠٩، ٣١٣، ٣٢٨، ٣٤٨، ٣٥٨، ٣٧٧، ٣٨٠، ٤٤٤، ٤٧٩، ٦/٢، ٩٨، ٢١٠، ٢٥٠، ٣٢٦، ٣٨٠، ٤٢٥، ٣/: ٦، ١١، ٥١، ٨٢، ٨٣، ١٠٤، ١٣٣، ٢١٦، ٢٨٢، ٢٩٨.

رجُلٍ ، ثمّ يُلقون (مِن) فيقولون: لله دَرُّه رجُلاً، فالرّجُل مُترجمٌ لِما قبلَه، وليس بحال، إنّما الحالُ الّتي تَنتقل مثلُ القيامِ والقعود، و لم تُرِدْ لله دَرُّه في حال رجوليّته فقط[١]"، فلا يَذكُر القطعَ هنا ؛ لأنّه يتحدّث عن سياقٍ الحال، وعلى هذا المفهوم يَذكر الحال[٢].

ولعلّ ما يُقوّي الفرقَ بين القطع بمفهومه الآنف الذكر والحال بمفهومه العام مجيئُهما في سياقٍ واحد على اعتبارَين، قال في قوله تعالى: ﴿كلاّ إنّها لَظَى، نزّاعةً لِلشَّوَى﴾[٣]، "فما أتاكَ من هذا الكلامِ نصبتَه ورفَعْتَه، ونصبُه على القطع وعلى الحال[٤]". وقال في كلامه على قوله تعالى: ﴿والسَّموتُ مطويّاتٌ بيمينه﴾[٥]، "ويُنصَب المطويّات على الحال أو على القطع، والحالُ أجوَدُ [٦]"؛ أي القولُ بالنّصب على الحال أجوَدُ من نصبِها على القطع الّذي يَحمل مفهوماً مُحدَّداً كما ذكَرتُ لا يَحسُن حملُه عليه. وعَلَّق المحقِّقُ على القطع ههُنا بقوله:"كأنّه يُريد بالقطع أن تكون منصوبةً بفعلٍ محذوفٍ نحوَ "أعني". ويَرُدُّ هذا المذهبَ شيئانِ: أوّلُهما أنّ السِّياقَ لا يَحتمل ذلك، والآخرُ أنّ الفرّاءَ لم يَذكر هذا المصطلَحَ بهذا المعنى في "المعاني" و لم يَنسُبه أحدٌ إليه، فيما اطّلعت عليه. وقد يجمع الفراء المصطلحَينِ أيضاً على المعنى نفسه[٧].

ويؤكد أبو حيّان هذا المفهوم للقطع؛ إذ يقول معلقاً على قوله تعالى: ﴿مَاذَا أَرَادَ للَّـهُ بِهَـذَا مَثَلاً﴾[٨]، وأجاز الكوفيون أن يكون منصوباً على القطع، ومعنى هذا أنه كان يجوز أن يعرب بإعراب الاسم الذي قبله، فإذا لم تتبعه في الإعراب وقطعته عنه نصب على القطع"[٩]. ويردف قائلاً:" كذلك قالوا: "ما أراد الله بهذا المثل". فلما لم يجر على إعراب هذا، انتصب "مثلاً" على القطع، وإذا قلت: عبدالله في الحمام عرياناً، ويجيء زيد راكباً، فهذا ونحوه منصوب على القطع عند الكسائي. وفرّق الفراء فزعم أن ما كان فيما قبله دليل عليه فهو المنصوب على القطع، وما لا فمنصوب على الحال، وهذا كله عند البصريين منصوب على الحال، و لم يثبت البصريون النصب على القطع". وهذا لا يترك مجالاً للكلام على القطع والحال كأهما مصطلحٌ واحد، وإن كانا في دلالتهما العامة شيئاً واحداً.

وإذا تصَفَّحْنا " معانيَ القرآن " للكِسائيّ وجدناه يَذكرُ القطع والحال أيضاً، وهذا يَعني أنّ القطع

(١) الفراء، **معاني القرآن** : ٢ / ١٠٤ .

(٢) **المصدر السابق**: ١/١٩٣، ٢٨٤، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٩، ٢/١٠٣، ١٠٤، ٢١٥، ٢١٦، ٤٢٥.

(٣) **المَعارج** : ١٥ ، ١٦ .

(٤) الفراء، **معاني القرآن** : ١ / ٣٠٩ .

(٥) **الزُّمَــر** : ٦٧ .

(٦) الفراء، **معاني القرآن** : ٢ / ٤٢٥ .

(٧) **المصدر السابق**: ١/١٩٣.

(٨) **البقرة**: ٢٦.

(٩) أبو حيان الأندلسي، **البحر المحيط**: ١/٢٦٩.

ليس للفرّاء كما ذهَب الباحثانِ المذكوران. وقد رأيتُ الكِسائيَّ يَستخدمُهما كما استَخدَمهما الفرّاءُ تماماً، وقد يَجمعُهما في سِياقٍ واحدٍ، وأكتفي ههنا بنقل هذا النّصِّ من كلامِه على قوله تعالى ﴿فتلكَ بيوتُهم خاويةً بما ظَلَموا﴾[١]، "خاويةً" نُصب على القطع، مَجازُه: فتلك بيوتُهُمُ الخاوية، فلمّا قَطَعَ منها الألِفَ واللاّمَ نَصَبَ على الحال، كقوله: ﴿وله الدِّينُ واصِباً﴾[٢]. و قد ذكَرَ القطع[٣]، كما ذكَرَ الحالَ[٤].

وقد أكد ثعلب الفرق بين الحال والقطع؛ إذ يَذكُرهما في سياقٍ واحد، قال: "إذا وقَعَ النَّسَقُ والقطعُ والحال والاستثناء بين الفعل وصِلَتِه كان صواباً[٥]".

وقد جاء "القطعُ" في كتاب "الجُمل" المنسوب إلى الخليل بالمفهوم نفسِه الّذي نجدُه عند الفرّاء، و عَرَضَ لقول جريرٍ[٦]:

هذا ابنُ عمّي في دِمَشقَ خليفةً   لو شئتُ ساقَكُمُ إليّ قَطِيْنا

وقال: "نَصبتَ "خليفةً " على القطع من المَعرفة من الألِف واللاّم، ولو رُفع على معنى: هذا ابنُ عمّي، هذا خليفةٌ ـ لَجاز[٧]". ثمّ ذكَرَ بعد ذلك النّصبَ على الحال، ومَثَّل لذلك بقولهم" أنتَ جالساً أحسنُ منكَ واقفاً، أي في حال جلوسِه أحسنُ منه في حال قيامه[٨].

وقد استخدم الفراء القطع أيضاً ليدلّ على الاستئناف، إذ يقول:" الرجل يقول "قد قام عبد الله ، فتقول: حقّاً، إذا وصلته، وإذا نويت الاستئناف رفعته، وقطعته ممّا قبله. وهذا محض القطع الذي تسمعه من النحويين"[٩]. كما استخدم الانقطاع ليدلّ على المفهوم نفسه[١٠]،وعلى نوع من الاستثناء[١١]، والنصب بأن المضمرة أيضاً[١٢].

---

(١) **النمل** : ٥٢ .

(٢) الكسائي، **معاني القرآن** : ٢٠٨ . و الشّاهدُ من الآية ٥٢ من سورة **النّحل** .

(٣) **المصدر السابق**: ١٠٩، ١١١، ١٥٦، ١٧٧، ١٩٨، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٨٤، ٢/٢١٥، ٢١٦.

(٤) **المصدر السابق**: ١/٦٤، ١٠٢، ١٢٤، ١٩٣، ١٩٥، ٢٠٨، ٢٣٧، ٢٨٤. ٢/٢١٥، ٢١٦.

(٥) ثعلب، **مجالسُ ثعلب** : ١ / ١٤٦ .

(٦) البيت لجرير في ديوانه: **شرح ديوان جرير**، إيليا حاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢، ط١: ٦٨٥ ، وهو في ثعلب، **مجالس ثعلب** أيضاً: ٦٦٥.

(٧) الفراهيدي، **الجُمل** : ٣٩ .

(٨) **المصدر السابق** : ٤٠ .

(٩) الفراء، **معاني القرآن**: ٢/٣٤٦.

(١٠) **المصدر السابق**: ١/٢٧١، ٣٠١.

(١١) **المصدر السابق**: ١/٢٩٣.

(١٢) الفراء، **معاني القرآن**: ٢/٧١،٧٠.

كما استخدم الكسائي المقطوع، والقطع، ليدلّ على الاستئناف أيضاً؛ إذ يقول القرطبي في قوله تعالى: ﴿فريضةً من الله واللهُ عليم حكيم﴾[١]، "يجوز الرفع على القطع في قول الكسائي"[٢].

وذكَرَ خَلفٌ الأحمرُ "النّصبَ على القطع"، وذكَرَ أنّ البَصريّين يَعنون به الإغراءَ[٣]، وهو يَختلف ــ على هذا ــ عن مفهوم " القطع " عندَ الفرّاء.

النّعــت:

ذكَر أبو حَيّانَ أنّ النّعتَ اصطلاحُ الكوفيّين، وربّما قاله البَصريّون، والأكثرُ عندهمُ الوصف والصّفة[٤]، وسيبَويهِ يَستخدم النّعت[٥]، كما يَستخدم الصّفةَ[٦]، ويُطلق الصّفةَ على التّوكيد[٧]، وعلى الحال والتّمييز[٨]. وعلى هذا فلم يَبتَدعِ الفرّاءُ هذا المصطلح كما يَذكرُ شوقي ضَيف[٩]. وقال عوَض القَوزي: "لّما رَأى الكوفيّون عَدَمَ استقرار هذا المصطلح اكتَفَوْا بالنّعت لِيَدُلّوا على الصّفة[١٠]".

وإذا ما تصَفَّحْنا معانيَ الفرّاء وجدناه يَستخدمُ مصطلَحَي النّعت[١١] والصّفة[١٢] استخداماً يكاد يكون مُتساوياً، وهذا يَدفعُ ما ذَهَب إليه عوَض القوزي مِنَ اقتصار الفرّاء على " النّعت " لِوعيِه- كما يقول - لِما حَدَثَ في استخدام هذا المُصطلح مِنَ اضطراب لَدى البَصريّين، كما يدفع قول المختار ديره:"أمّا مصطلح الصفة فلم يذكره الفراء كثيراً"[١٣]. على أنّه لم يَقتصِر في استخدامه "الصّفةَ" على النّعت، بل أشرَكَ في هذا المُصطلح حروفَ الجرّ[١٤]، كما أشرَكَ فيه الظّرفَ أيضاً[١٥]، وقد ذكر الأنباري أنّ الكوفيين

---

(١) **التوبة**: ٦٠.

(٢) القرطبي، **تفسير القرطبي**: ٣٠٣١/٤، وانظر: ١٢٥٨/٢، وانظر: الكسائي، **معاني القرآن**: ٩٦، ١٥٦.

(٣) الأحمر، **مقدّمة في النّحو** : ٥٣ .

(٤) السيوطي، **هَمْع الهوامع** : ٢ / ١١٦ .

(٥) سيبويه، **الكِتاب** : ١ / ٤٢١ ، ٢ / ٥ .

(٦) **المصدر السابق**: ١٢١/٢ .

(٧) **المصدر السابق**: ٢ /: ٣١٥ ، ٣٥٩ ، ٣٨٥ ، ٣٩١ .

(٨) **المصدر السابق**: ٢ / ١٢١ .

(٩) ضيف، **المدارس النّحويّة** : ٢٠٢ .

(١٠) القوزي، **المصطلح النّحويّ** : ١٦٦ .

(١١) الفراء، **معاني القرآن**: وهذا على سبيل المثال: ٧/١، ١١، ١٣، ٥٥، ٥٦، ٧٣، ١٣١، ١٥٤، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٩، ٢١٣، ٢٤٣، ٢٥٧، ٣١٣، ٣٢٤، ٣٤٠، ٣٦٥، ٣٦٧، ٣٨٢، ٣٩٧، ٤٢٧، ٤٧١.

(١٢) **المصدر السابق**: وهذا على سبيل المثال أيضاً: ١٢/١، ١٣، ٤٧، ٥٠، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٨، ١٣١، ١٥٤، ٢٣١، ٢٨٤، ٢٩٥، ٣١٢، ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٢، ٣٣٠، ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٧٥، ٣٧٧.

(١٣) ديره، **دراسة في النحو الكوفي**: ٢٣٢.

(١٤) الفراء، **معاني القرآن**: ٢/١، ٣١، ٣٢، ١٧٨، ٣٧٥، ٢٧١، ٤٥/٢.

(١٥) ٤٢/٣، وقد كرره مرتين.

يقولون بذلك؛ إذ يقول:"ويسمّون الظرف المحل ومنهم من يسميه الصفة"(١).

وقدِ استَخدَم الفرّاءُ " النّعتَ "في" المُذكَّر والمؤنّث"(٢)، و"المقصورِ والممدود"(٣).أمّا أستاذُه الكِسائيُّ فنجدُه أيضاً يَستخدم "النّعتَ"(٤) و" الصّفة"(٥). ويُطلق "الصّفةَ " على حروف الجرّ أيضاً(٦).

التشديد:

ذكَر الأنصاريُّ أنّ التّشديدَ عند الفرّاء يُقابل التّوكيدَ عند البَصريّين(٧). وذكَر عوَض القوزي أنّه يُقابل التّوكيدَ والتّكرير عند سيبَويهِ (٨). وقال صاحبُ "المُوفي": "التّأكيد" تابعٌ يُقرّر المتبوع، وبالتّكرير لفظيٌّ(٩) ". ويَقصد بتقرير المتبوع التّوكيدَ المعنويّ.

وإذا عُدنا إلى سيبَويهِ وجدناه يُطلق "التّوكيد"(١٠) و"التّخصيص"(١١)، كما يَعُدُّه باباً من البَدَل (١٢). أمّا "التّكرير" فلم أجدْه كما أشار القوزي، والّذي ذكَرَه سيبَويهِ" يُكرِّروا "، قال: "فلمّا كَرّروا الاسمَ توكيداً تَرَكوا الأوّلَ على الّذي كان يَكون عليه لو لم يُكرِّروا (١٣)"، وما هذا بالمُصطلح.

وإذا تَصَفَّحْنا معانيَ الفرّاء وجدناه يَستخدم مُصطلَحي "التّشديد" و" التّوكيد" أيضاً، ولكنّه استخدامٌ عزيز. قال عندما عَرَضَ لقوله تعالى: ﴿والسّابقون السّابقون﴾(١٤)، "فإن شئتَ رَفعتَ السّابقين بالسّابقين الثّانية، وإن شئتَ جَعلتَ الثّانيةَ تشديداً للأولى(١٥)". وقال في مَوطن آخر: "وأمّا قولُ الشّاعر(١٦):

كم نِعمةٍ كانت لها ، كَمْ كَمْ و كَمْ !

إنّما هذا تكريرُ حرفٍ لو وَقعتَ على الأوّل أَجْزَأَكَ مِنَ الثّاني، وهو كقولك للرّجل: نَعَم نعم —

---

(١) الأنباري، **الإنصاف**: ١/٥١.

(٢) كما في : ٦٢ ، ١٠٧ ، ١١٢.

(٣) الفراء، **المقصور و الممدود** ، تحقيق: محمّد خَير البقاعي وعُبَيد الإله نَبهان، دار قُتيبةَ، ١٩٨٣ : ٣٢ .

(٤) الكسائي، **معاني القرآن**: ١٣٩، ١٤٣، ١٧١، ٢١٥، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٤٣.

(٥) **المصدر السابق**: ٩٦، ١٧٢، ١٧٣.

(٦) **المصدر السابق**: ١٢٨

(٧) الأنصاري، **أبو زكريّا الفرّاء** : ٤٤٣.

(٨) القوزي، **المُصطلح النّحْويّ** : ١٧٠ .

(٩) ديره، **المُوفي في النّحو الكوفي** : ٥٧ .

(١٠) سيبويه، **الكتاب** : ٢ / ١٢٥ .

(١١) **المصدر السابق** : ١ / ٢٤٥ .

(١٢) **المصدر السابق** : ٢ / ٣٨٧ .

(١٣) **المصدر السابق** : ٢ / ٢٠٦ .

(١٤) **الواقعة** : **١٠** .

(١٥) الفراء، **معاني القرآن** : ٣ / ١٢٢ .

(١٦) لم أقع عليه في غير **معاني القرآن**.

تُكرِّرُها، أو قولِكَ: اِعجَلِ اعجَلْ، تشديداً للمعنى. وليس هذا منَ البابينِ الأوّلين في شــيءٍ[١] ". وكـــلام الفرّاءِ ههُنا بَيِّنٌ؛ فالأوّل "نَعم نعم" منَ البَدل، وهو الّذي أطلَقَ عليه" التّكرير"، وسيأتي ذِكرُه، ويُعلِّلُ ذلك أنّ الأوّلَ يُغني مِنَ الثّاني، أمّا التّوكيدُ فهو "اِعجَلِ اعْجَل"؛ لأنّه تشديدٌ للمعنى، ومن الواضح ههنا أنّ الفرّاء يقصد بالتشديد التوكيد اللفظي[٢]، وقد كرّر ذكره على هذا الوجه[٣].

وعاد الفرّاءُ لِيُفصِّلَ الفرقَ بين البَدل والتّوكيد، وهو يَستخدِم فيه التّوكيدَ استخداماً يُقارب المصطلح، قال: "العربُ لا تَجمعُ اسمينِ قد كُنِّيَ عنهما ليس بينهما شيءٌ، إلاّ أن يَنووا التّكرير وإفهامَ المُكلَّـــم، فإذا أرادوا ذلك قالوا: أنتَ فعلتَ ... ولا يجوز أن نَجعلَ الآخرةَ توكيداً للأولى؛ لأنّ لفظَهما واحدٌ[٤]"، وقد نقل عنه ثعلب استخدام هذا المصطلح[٥]. وقال المختار ديره:" والفراء بسعة إطلاعه وثقافتـــه وبامتلاكـــه لناصية البيان واللغة لايستعمل مصطلحات غيره"[٦].

ونجده يستخدم التكرير ومشتقّاته على المعنى المذكور[٧]، كما يستخدم التوكيد بالمعنى البـــصري أيضاً[٨]. وقد استَخدَم التّشديدَ استخداماً يَدخل في دائرة الاصطلاح المتعلّق بالحركات كـــثيراً[٩]، كمـــا استَخدَم التشديد استخداماً لغوياً[١٠]، وكذا التّوكيدَ[١١].

وقد استَخدم ثعلبٌ مصطلح التّوكيد في مجالسه غيرَ مرّةٍ[١٢] استِخداماً اصطلاحيّاً كما نَـــراه عنـــد البَصريّين.

النَّســـَق:

عَدَّه الأنصاريُّ مِنَ ابتِكارات الفرّاء[١٣]، وكذا شوقي ضَيف[١٤]، و مهدي المَخزومي[١٥]. والنَّـــسَق

---

(١) **المصدر السابق** : ١ / ١٧٧ .
(٢) انظر: ديره، **دراسة في النحو الكوفي**: ٢٥٣.
(٣) الفراء، **معاني القرآن**: ١/١٨٦، ٢٨٣، ٣٧٤.
(٤) الفراء، **معاني القرآن** : ٢ / ٤٥ .
(٥) ثعلب، **مجالس ثعلب**: ١/٩٨.
(٦) ديره، **دراسة في النحو الكوفي**: ٢٥٣.
(٧) **المصدر السابق**: ١/١٧٧، ٢/٢٣٥.
(٨) **المصدر السابق**: ١/٢٨٢، ٣٧٤، ٢/٤٥، ٢٣٥.
(٩) **المصدر السابق**: ١/١٨، ٤٩، ٢١٢، ٢٧٧، ٣٣١، ٣٤٢، ٣٩١، ٤١٢، ٤٦٤، ٢/٢٨، ٣٩، ١٤٤.
(١٠) **المصدر السابق**: ١/٤٩، ٣/١١٩، ١٣٥، ١٣٨، ١٦٧، ١٨٩.
(١١) **المصدر السابق**: ١/٣٧٤.
(١٢) ثعلب، **مجالس ثعلب** : ١ / : ٩٨ ، ١٣٣ ، و : ٢ / ٥٥٧ .
(١٣) الأنصاري، **أبو زكريّا الفرّاء** : ٤٥٣ .
(١٤) ضيف، **المدارس النّحْويّة** : ٢٠٢ .
(١٥) المخزومي، **الدّرس النّحويّ في بغداد** : ٣٧ ، و المخزومي، **مدرسة الكوفة** : ٣١٥ .

مُرادفٌ للعطف، ويُسمّيه سيبويهِ"الإشراكَ" [١]، وقد يُسمّي المعطوفَ المضموم"[٢]. وقال السُّيوطيُّ: "وتُسمَّى المعطوفاتُ بها عند البَصريّين شِركةً، وعند الكوفيّين ــ وهو المُتداوَل ــ نَسَقاً [٣]".

أمّا الكسائيُّ فقد وجدتُه يَستخدمُ العطف والنسق، إضافة إلى الرّدّ، ممّا يؤكّد أنّ الفرّاءَ مسبوقٌ في استخدامِها[٤].

وإذا عُدنا إلى الفرّاء وجدناه يَستَخدم العطفَ[٥] والنَّسَق[٦] وما اشتقّ منهما بنسبةٍ متقاربة وهو كثير، ويَفوق هذينِ في الدّلالةِ عليهما مُصطلحا الرّدّ والمردود ، وقد استَخدَمهما كثيراً كثرة ظاهرة، وقد يَستخدمُها معاً[٧]. وتَجدُر الإشارةُ ههُنا إلى أنّ الفرّاءَ أشرَكَ في المردودِ البَدلَ، كما سنرى.

وقد ذكر خَلَفٌ الأحمرُ باباً سمّاه "بابَ حروف النَّسَق، ونسب النسق فيه إلى الخليل" قال فيه: "وقد ذَكَرها الخليلُ بنُ أحمدَ في قصيدته في النّحو، وهي[٨]:

فانسُق وصِلْ بالواو قولَك كُلَّه — وبلا وثمّ وأو فليست تُصحَبُ
الفاء ناسقةٌ كذلكَ عندَنا — وسبيلُها رَحْبُ المَذاهبِ مَشعَبُ "

وقد جاء في "الجُمَل" "واو النّسَق" [٩] و" فاء النّسَق " [١٠]. كما وجدتُ ثعلباً يَستخدم النّسَقَ في مجالسه[١١].

(البدل): التّرجمةُ و التّكرير والمردود والتّفسير:

مُصطلحاتٌ استَخدمها الفرّاءُ تُقابلُ البَدل عند سيبَويهِ[١٢]، وعَدَّ الأنصاريُّ التّكريرَ والتّرجمةَ من

(١) سيبويه، **الكتاب** : ١ /: ٤٣٧ ، ٤٤١ ، و : ٢ / ٣٧٧ .
(٢) **المصدر السابق** : ٢ / ٢٢٨ .
(٣) السيوطي، **هَمْع الهوامع** : ٥ / ٢٢٣ .
(٤) الكسائي، **معاني القرآن** ، و قدِ استَخدَم النّسَق في : ٨٣ ، و العطف في : ١٠٤،١٢٥، ١٣٨، ١٤٢، ٢٣٠، ٢٣١، و الرّدَّ في : ١٢٠.
(٥) الفراء، **معاني القرآن**: ٣٣/١، ٨٦، ٩٨، ١٩٦، ٢٠٦، ٢٥٠، ٢٧٣، ٣٠٠، ٣١٠، ٣١١، ٣٨٦،٤٦٦، ١٩٨/٢، ٢٧٦، ٢٩١، ٣٥٥، ١٦٨/٣، ٢٦٥.
(٦) الفراء، **معاني القرآن** : ٤٤/١، ٥٩، ٧٢، ٧٥، ٧٧، ١١٣، ١٥٧، ١٦٠، ١٩٧، ٣٧٢، ٦٨/٢، ٤١٦، ٥٢/٣، ١٩٢، ٢١٦.
(٧) الفراء، **معاني القرآن** : ١/ ١٧، ٧١، ٨٢، ٨٨، ٩٦، ١٠٤، ١٠٧، ١٢٤، ١٣٢، ١٤١، ١٦٠، ١٧٥، ١٨١، ١٨٤، ١٩٢، ١٩٥، ٢٠٦،٢٩٢،٣٠٤، ٣١٢، ٣٢٥، ٣٣٢، ٣٣٩، ٣٥٩، ٣٦٠،٣٦١، ٣٧٧، ٣٨٦، ٤٣٨، ٢٥/٢، ١٨٧، ١٩٤، ٢٧٦، ٢٩٧، ٣٠١، ٣٨٧، ٤١٥، ٤١٧، ٤٢٢، ١٥٥/٣، ٢٣، ٢٦٥.
(٨) الأحمر، **مقدّمة في النّحو**: ٨٥ . و المَشعَب ــ في البيت ــ ، بوزن مَقعَد : الطّريق ، كما في " اللّسان ".
(٩) الفراهيدي، **الجُمل**: ٢٨٥ .
(١٠) **المصدر السابق** : ٣١١.
(١١) ثعلب، **مجالس ثعلب** : ١ /: ١٤٦ ، ٣٢٤، ٣٦٨.
(١٢)سيبويه، **الكتاب**: ١ /: ١٥٠ ، ٤٣٩ .

مُبتكَرات الفرّاء. وقال الأشموني[1]:"وأمّا الكوفيون فقال الأخفش: يسمّونه بالترجمة والتبيين، وقال ابن كَيْسان يسمّونه بالتكرير". ومن عجبٍ قول المختار ديره[2]:"وهذه المصطلحات وإن كانت كثيرة، ودلالتها واحدة فإنّما ذلك من رحابة اللغة وسعة أفق الفرّاء، لأنه يمتلك ثروة لغوية هائلة"؛ فسَعة الثروة اللغوية ليست مسوّغاً لهذا الخلط.

غيرَ أنّني وجدتُ الكِسائيَّ يَستخدم التّكرير[3]، والتّرجمةَ[4]، والبَدلَ[5] أيضاً، ممّا يجعل الفراء مسبوقاً في هذه المصطلحات.

وإذا تَصَفَّحْنا معانيَ الفرّاء وجدنا أكثَرَ ما يَستخدمه التّكريرَ وبعضَ مشتقّاتِه نحوَ" مكرورٍ " و" تُكَرَّ"[6]، ويليه التّفسير[7]، و قد ذكَرتُ من قبل أنّه أشرَكَ في "التّفسير" البَدلَ إلى جانب التّمييز، ثمّ التّرجمةَ[8]، كما استَخدَم " الردّ " وبعض مشتقّاته[9]، واستخدم الردّ بمعنى التعلّق[10]، وقد يستخدم التكرير استخداماً لغوياً[11]، وقد يجمع مصطلحين في سياق واحد، إذ يعلّق على قوله تعالى: ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾[12]، "ولو خفضت "هذا" و"القرآن" كان صواباً:"تجعل هذا مكروراً، على "ما"، تقول، "مررت بما عندك متاعِك"، تجعل المتاع مردوداً على ما"[13].

والذي أراه ههنا أن المصطلح الذي يقابل البدل عند الفراء إنّما هو التفسير والترجمة، أمّا التكرير ومشتقّاته، فهي إشارة إلى ذينك المصطلحين، وليست بالمصطلحات. وَلْنَنْظر ما يقوله الفرّاء على قوله

(١) الصبان، **حاشية الصبّان**: ٣/١٨٣.

(٢) ديره، **دراسة في النحو الكوفي**: ٢٢٦.

(٣) الكسائي، **معاني القرآن** : ٨٩، ١٠٨، ٢٣٢.

(٤) **المصدر السابق** ٢٢٢ ، عن : القرطبي، **تفسير القُرطُبيّ** : ١٥ / ١٦٤ .

(٥) **المصدر السابق** : ١٤٣ ، عن : القيسي، **مُشكِل إعراب القرآن** : ١ / ١١٩ .

(٦) **المصدر السابق** : ١/٧، ٥١، ١١٢،٢٠٧، ٢٤٨، ٣١٦، ٤٢٧. ٢/٣٢، ٤٥، ٧٢، ٧٣، ١٤٠، ١٧٨، ٢١١، ٢٥٥، ٣٦٠، ٢٩١، ٤٢٤.

٣/٥، ٢١، ٢٥٩، ٢٧٩.

(٧) **المصدر السابق**: ١/١٩٣،١٦٨، ١٩٣، ٣٤٨، ٢/٦٩، ٧٧، ١٧٨، ٢٣٠، ٢٦٠، ٢٧٣، ٣٦٠، ٣/١٠.

(٨) **المصدر السابق**: ١/ ١٦٨، ٢/١٧٨.

(٩) **المصدر السابق**: ١/٨٢، ٩٦، ١٧٩، ١٩٢، ٢/١٩٧، ٢٤٤، ٣/١٠٤، ٢٠٣، ٢٧٩.

(١٠) **المصدر السابق**: ٢/٢٥.

(١١) **المصدر السابق**: ٣/٢٨٨.

(١٢) **يوسف**: ٣.

(١٣) الفراء، **معاني القرآن**: ٢/٣١-٣٢.

تعالى: ﴿واجعلْ لي وزيراً من أهلي هارونَ أخي﴾[١]، إذ يقول:"وإنْ شئتَ جعلْتَ "هارون أخي" مُترجماً عن الوزير، فيكون نصباً بالتكرير"[٢]. وكأنّه يعني بالتكرير إعادةَ الاسم على سبيل الترجمة أو التفسير. كما يعلّق على قوله تعالى: ﴿ثلاث عورات لكم﴾[٣]، "والكسائي يقرأ بالنصب؛ لأنه قد فسّرها في المرات وفيما بعدها، فكرهت أن تكرّ ثالثة"[٤]. وكلّ استخدامات التكرير ومشتقّاته يحمل هذا المعنى. أمّا استخدامه المردود فلا يخلو من الإشارة اللغوية أيضاً.

ما يُجرَى وما لا يُجرى:

قال الأنصاريُّ: "رأيتُ الفرّاءَ يَستعمل الاصطلاحَ البَصريَّ: يَنصرف ولا يَنصرف ومشتقّاتِه إلى جانب مُصطلحِه الجديد "يُجرى ولا يُجرى" ومشتقّاتِه، ولَئن دَلَّ هذا على شيءٍ إنّما يدُلُّ على مذهبه البغداديِّ الّذي يفيد منَ المذهب البَصريّ كما يفيد من غيرِه". ويُعَلِّل وضْعَ الفرّاء لهذا المصطلح بأنّه خَشِيَ اللّبسَ بمصطلحٍ آخرَ كان وَضَعه ويَعني به النّصبَ على المُخالفة وهو الصّرفُ[٥]، وقد ذُكِر سابقاً. وعَدَّ هذا المصطلحَ من مُبتكَرات الفرّاء، وتابَعَه شوقي ضَيف[٦]، والقُوزي[٧]. وقال المختار ديره:"فالفراء عنده الإجراء هو التنوين والجرّ كما فهمت من أمثلته" [٨].

بادئاً، هذا المُصطلح ليس مِنَ ابتكار الفرّاء؛ فلقد ذكَرَه الكِسائيُّ في معانيه[٩]. ولو ذهب الفرّاء مذهب البغداديين، كما يذكر الأنصاري، لرأينا كتابه المعاني يختلف اختلافاً كبيرا عمّاً هو عليه.

أمّا المصطلح فقدِ استقرأتُ "ما يجرى وما لا يجرى" فما وجدتُ الإجراءَ عند الفرّاء إلاّ التّنوينَ في كلِّ ما وَرَدَ ذِكرُه، فاستخدامُه للصّرف ومُشتقّاتِه يَدُلّ على هذا الباب العامّ الّذي يُجَرُّ فيه الاسمُ ويُنوَّن، ويُقابله الممنوعُ منَ الصّرف وهو عكسُ ذلك. أمّا حين يَستخدم الإجراءَ فهو يَقصِد التّنوينَ تحديداً في باب الممنوعِ من الصّرف، والفرّاءُ ــ كما يبدو ــ أفادَ هذا المُصطلَحَ من سيبَويهِ حينما أفرَدَ باباً للحركات سمّاه " مَجاريَ أواخرِ الكَلِم"[١٠].

---

(١) **طه**: ٢٩، ٣٠.
(٢) الفراء، **معاني القرآن**: ٢/١٧٨.
(٣) **النور**: ٥٨.
(٤) الفراء، **معاني القرآن**: ٢/٢٦٠.
(٥) الأنصاري، **أبو زكريّا الفرّاء**: ٤٥٢ .
(٦) ضيف، **المدارس النّحْويّة** : ٢٠١ .
(٧) القوزي، **المُصطلح النّحويّ** : ١٦٦ .
(٨) ديره، **دراسة في النحو الكوفي**: ٢٣٣.
(٩) الكسائي، **معاني القرآن** : ٧٢ ، ٩٦ ، ١١٠ ، ١٢٧ ،١٦٢ ، ٢٢٧ ، ٢٤٨ .
(١٠) سيبويه، **الكتاب** : ١ / ١٣ .

وأفرَدَ المُبَرَّدُ باباً أيضاً سمّاه" ما يَجري وما لا يَجري"، استهلّه بقوله:"اعلَمْ أنّ التّنوينَ في الأصل للأسماء كلِّها[١]". ونصوصُ الفرّاءِ كلُّها تؤكّد ذلك المعنى. قال عندما عَرَضَ لقوله تعالى: ﴿لا تَسألوا عن أشياءَ إنْ تُبْدَ لكم تَسُؤْكم[٢]﴾،"و(أشياءَ) في مَوضع خفضٍ لاتَجري، وقد قال فيها بعضُ النَّحْويّين:إنّما كَثُــرَت في الكلام، وهي (أفعال)، فأَشبَهَت (فَعْلاءَ) فلم تُصرَف كما لم تُصرَف ... ولو كانت على التّوهُّم لكــان أملَكُ الوجهين بها أن تَجريَ؛ لأنّ الكلامَ إذا كَثُرَ به الكلامُ خَفَّ"[٣]، وقال:" إلاّ أن الأعمش كان يجري ثمود في كلّ القرآن، إلاّ قوله[٤] ﴿وآتينا ثمودَ الناقةَ" فإنه كان لا ينوّن﴾[٥]. وكما رَأينا فهــو قــد جَمَــعَ المصطلحَين فتحَدَّث عنِ التّنوين مُستخدماً الإجراءَ، وتَحدَّثَ عنِ الباب بمُجمله فذَكَر الصّرف. ويبدو هذا المفهومُ في كلِّ السّياقات الّتي ذَكَر فيها الإجراءَ، وقد يَلجأ إلى تَكرار الإجراء أو ما اشتُقَّ منه مرّاتٍ كثيرةً في النّصِّ الواحد[٦]، كما يَذكُر الصّرفَ وما اشتُقَّ منه[٧]، وقد يجمعُ المُصطلحين[٨]، وقد نقل عنه العكبري استخدامه "المنصرف وغير المنصرف"[٩]. وهو يَستخدم مُــصطلحَ الإجــراء في "المُــذكَّر والمؤنَّــث"[١٠] و"المقصور و الممدود" [١١].

وتَجدُر الإشارةُ إلى أنّ الفرّاءَ استَخدَم " المصروفَ عن جهته " لِيَدُلَّ به على المعدول مِنَ الصّفات نحوَ مَثْنَى و ثُلاثَ و رُباعَ [١٢] ، واستَخدَم مُصطلح المعدول أيضاً[١٣].

فالإجراءُ يَختلف عند الفرّاء عن مفهوم الصّرف، وإنْ كانا يلتقيان في بابٍ واحدٍ، وعلى هذا المفهوم استَخدَم الكِسائيُّ الإجراءَ والصّرفَ كما ذكَرت.

---

(١) المبرد، **المُقتضَب** : ٣ / ٣٠٩ .

(٢) **المائدة** : ١٠١ .

(٣) الفراء، **معاني القرآن** : ١ / ٣٢١ .

(٤) **الإسراء**: ٥٩.

(٥) **الفراء، معاني القرآن**: ١٤/٣.

(٦) الفراء، **معاني القرآن**: ١/٢٥٤، ٢٥٥، ٣٢١، ٣٤٥، ٣٦٢، ٣٤٢، ٤٢٨، ٤٢٩، ٢/١٩، ٢٠، ١٧٥، ١٧٦، ٢٨٩، ٢٩٠، ٣٩١، ٣/١٤، ١٠٩، ١١٠، ١٨٩، ٢١٧، ٢١٨، ٢٣٢، ٢٣٣.

(٧) **المصدر السابق**: ١/٢٥٤، ٢٥٥، ٣٢١، ٤٢٨، ٢/١٧٥، ١٧٦ ٣/ ٢٣٢.

(٨) **المصدر السابق**: ١/ : ٢٥٤، ٣٢١، ٤٢٨، ٢/١٧٥، ١٧٦، ٣/ ٢٣٢.

(٩) العكبري، **مسائل خلافية في النحو**: ١١٥.

(١٠) الفراء، **المذكَّر و المؤنَّث**: ٨٦ ، ١٠٣ .

(١١) الفراء، **المقصور و الممدود** : ١٠٧ ، ٧٧ ، ٨٨ .

(١٢) الفراء، **معاني القرآن** : ١ / : ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(١٣) **المصدر السابق** : ٣ / : ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

الصِّفــات:

مُصطلحٌ استَخدَمه الفرّاءُ لِيُقابِل حروف الجرِّ، وعَدَّه الأنصاريُّ مِنَ ابتداع الفرّاء[١]، وتابَعَه شوقي ضَيف[٢]، والقُوزي[٣]، والمختار ديره[٤]، وعَدَّه المخزومي للكوفيّين[٥]. وقال السيوطي:"وتسمّيها الكوفيّون حروف الإضافة، لأنها تضيف الفعل إلى الاسم؛ أي توصله إليه، وتربطه به. وحروف الصفات، لأنها تُحدث صفة في الاسم ... وقيل لأنها تقع صفات لما قبلها من النكرات"[٦]. وقال الشرجيّ:" الكوفيّون يسمّون حروف الخفض صفات إلاّ الفراء، فإنّه يسمّيها محالّ، والبصريّون يسمّونها ظروفاً"[٧].

ونجد أنّ الكِسائيُّ استخدم الصفة في معانيه[٨]، كما استَخدم الأداةَ [٩]. وقال الزَّجّاجيُّ: "الكِسائيُّ يُسمّي الحروفَ الخافضةَ والظّروفَ كلَّها صفاتٍ[١٠]".

وإذا ما تصفّحنا معاني الفرّاءُ وجدناه يستخدم مُصطلح "الصّفة"لحروف الجرِّ[١١]، وقد أطلق الصفة أيضاً على الجارّ والمجرور، إذ يقول[١٢] : "لأنّ الاسم إذا كان في معنى صفة أو محلّ قَويَ إذا أسند إليه شيء". وغنيٌّ عنِ القول ههُنا أنّ الفرّاءَ يُشرِك في مصطلح الصّفة النّعتَ، وقد مَرّ ذِكرُه، وقد أطلق الصفة على الظرف أيضاً[١٣]. وأمّا استخدامُ الفرّاء لحروفَ الخفض والخافض فكثير، وقد ذكَرتُ جانباً منه في الحديث عن نزعِ الخافض. وهو يستخدم "الحروف للظروف وحروف الجرّ معاً[١٤]"، وقد جاء عند خلف الأحمرَ، وذكَرَ أنّ الحروفَ الّتي تَخفِض ما بعدَها مِنَ اسمٍ يُقال لها حروفُ الصّفات[١٥]. كما جاء في الجُمل[١٦].

(١) الأنصاري، **أبو زكريّا الفرّاء** : ٤٤٥ .

(٢) ضيف، **المدارس النّحويّة** : ٢٠٠ .

(٣) القوزي، **المُصطلح النّحويّ**: ١٧٧ .

(٤) ديره، **دراسة في النحو الكوفي**: ٢٤٦.

(٥) المخزومي، **مدرسة الكوفة** : ٣١٤ .

(٦) السيوطي، **همع الهوامع**: ٣٣١/٢.

(٧) الشرجي، **ائتلاف النصرة**: ١٥٩.

(٨) **الكسائي، معاني القرآن** : ٥٩، ١٢٨ .

(٩) **المصدر السابق** : ٥٩ ، عن النحاس، **إعراب النّحّاس** : ١ / : ١٦٦ ــ ١٦٧ ، أو: ابن خالويه، **إعراب ثلاثين سورةً**: ٩ .

(١٠) الزجاجي، **اللاّمات** : ٥٦ .

(١١) الفراء، **معاني القرآن**: ٣١/١، ٣٢، ١٤٨، ١٧٨، ٢١٥، ٢٧١، ٣٧٥، ٤٥/٢.

(١٢) **المصدر السابق**: ١١٩/١.

(١٣) الفراء، **معاني القرآن**: ٣٢٢/١.

(١٤) **المصدر السابق**: ١٢٣/١.

(١٥) الأحمر، **مقدّمة في النّحو** : ٤٣ .

(١٦) الفراهيدي، **الجُمل** : ١٧٣ .

الصِّلَـــةُ :

مُصطلحٌ أطلَقَه الفرّاءُ على ما شاعَ عند البَصريّين بــ"الحشوِ" و"الزّيادة"، وقال الأنصاريُّ:"كِلاهما ـــ الحشوُ والصِّلة ـــ يُرادُ به ما يَقعُ بعد الأسماء الموصولة ويُسمَّى صِلةَ الموصول، وقدِ اختارَ الفرّاءُ مُـــصطلحَ "صِلةٍ" على حيــــــنَ اختار البَصريّون مُصطلح" الحشو"[1]. وقد وَهِـــمَ الأنصاري؛ لأنّ "الـــصِّلة" عنـــد الفرّاء يَحمل جُلَّها مفهومَ الزّيادة، ويُشرِك فيها صِلةَ الموصول إضافةً إلى استخدامِه لها في المعنى اللّغويّ.

وقد وَجدتُ الفرّاءَ في أحد نصوص "المعاني" يَذكُر" الحشوَ" بمعنى الصِّلة برَغمِ نسبة هـــذا المـــصطلح للبَصريّين[2]. قال:"ألا تَرى أنّ (حَبّذا) لا يَدخلُها تأنيثٌ ولا جمعٌ؟ ولو جَعلتَ "ما" على جهة الحشو كما تقول: عَمّا قليلٍ آتيك ـــ جاز فيه التّأنيثُ والجمعُ"[3]. و لم أعثر على هذا المُصطلحِ في نَصٍّ غيره، ولكنّها إشارةٌ إلى استخدام الفرّاء له. والكِسائيُّ يَستخدم الزّائدَ، قال في كلامِه على قولِه تعـــالى: ﴿فـــلا أُقـــسِمُ بالشَّفَق﴾[4]، "معناه: أُقسِم، و(لا) زائدةٌ[5]" وقد ذكر الكسائي مصطلح "الزيادة" غير مرّة"[6].

وإذا ما تصَفَّحْنا مَعانيَ الفرّاء وجدناه يَستخدم الصِّلةَ للزّيادة[7].واستَخدَم " مُلغاةً[8]، و"صِلةً علـــى معنى الإلغاء"[9]، كما استَخدَم الصِّلةَ استخداماً لُغويّاً بمعنى المُكمِـــل أو المتعلّق[10].

وقد استخدام الصِّلة بمعنى صِلة الموصول[11]، واستخدم الصلة ليدلّ على مطل الحركـــة، كمـــا في القوافي[12].كما استخدم "موصولة" للكلمة التي همزتها همزة وصل[13]، وقد استخدم الصلة للصفة أيضاً[1].

---

(١) الأنصاري، **أبو زكريّا الفرّاء** : ٤٤١، وانظر: سيبويه، **الكتاب**: ٢/١٠٥-١٠٨.

(٢) و ممّن قال به أيضاً غيرُ الدّكتور الأنصاريّ عوَض القوزي في : القوزي، **المُصطلح النّحْويّ** : ١٧٨.

(٣) الفراء، **معاني القرآن** : ١/ ٥٨، وقد ذكر ذلك أيضاً مؤلفا": ديره، **دراسة في النحو الكوفي** : ٢٤٧، و"في القوزي، **مـــصطلح النحـــو الكوفي**: ١٦.

(٤) **الانشقاق** : ١٦ .

(٥) **الكسائي، معاني القرآن** : ٢٥٢ ، عن ابن الأنباري، **الأضداد** : ٨٦ .

(٦) **المصدر السابق** : ٨٦، ١٣٥، ٢٤٧، ٢٣٣.

(٧) الفراء، **معـــاني القـــرآن**: ١/٨، ٢١، ٢٢، ٤٦، ٥٧، ٥٨، ١٧٢، ١٧٦، ٢٠١، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٧٦، ٣٥٠، ٣٧٤، ٤٠٩، ٤١٥، ٤٧٤. ٢/ ٢٨، ٥٣، ١٣٣، ٣٠٥، ٣٩٩، ٤٠٠، ٣/١٣٧، ١٣٨، ١٤٧، ١٨٩، ١٩٠، ٢٠٧، ٢٥٥، ٢٩٤.

(٨) **المصدر السابق**: ١/٦٧

(٩) الفراء، **معاني القرآن**: ١/٩٥.

(١٠) **المصدر السابق**: ١/١٥٨، ٣/١٤.

(١١) **المصدر السابق**: ١/٣٢، ١٠١، ١٠٢، ١٠٥، ١٥٧، ١٦٥، ١٨٥، ٢٠٦، ٢/٢٦٤، ٤٠٠.

(١٢) **المصدر السابق**: ١/١٦٢.

(١٣) **المصدر السابق**: ١/٧٨، ٢/٢٣٣.

أيضاً[١]. كقوله في كلامه على قوله تعالى : ﴿كمثل الحمارِ يحمل أسفاراً﴾[٢]، "يحمل من صلة الحمار؛ لأنه في مذهب نكرة"[٣].

وقد ذكر ثعلب "الصلة" على معنى الزيادة[٤]، كما استخدمها في مفهوم التعلّق[٥]. كما وَجدتُ مُصطلَحَيِ " الحشوِ " و" الصِّلة" في "الجُمل" المنسوب إلى الخليل[٦].

الخالفة:

عدّه الأنصاري من المصطلحات المبتكرة ذات المسمّى المبتكر[٧]، وقد نقل نصّاً من كتاب "طبقات النحويين واللغويين" للزبيدي(ت٣٧٩هـ)[٨] "قال الخليل: "كِلا" اسم، وقال الفراء: هو بين الأسماء والأفعال، فلا أحكم عليها بالاسم ولا بالفعل"، وعلّق عليه قائلاً:" ربّما كان هذا القسم هو الذي أُطلق عليه اسم الخالفة؛ لأنه يُطلق على ما يسمّى عند البصريين باسم الفعل" ويردف قائلاً:" وما أظن هذا الرأي إلا للفراء"[٩].

وقال أبو حيّان:"وذهب بعض المتأخرين إلى أنّها ليست أسماء ولا أفعالاً ولا حروفاً، فإنها خارجة عن قسمة الكلمة المألوفة ويسمّيها "خالفة"[١٠]. وقال السيوطي:" وزعمها الكوفيّون أفعالاً؛ لدلالتها على الحدث والزمان، وزعمها ابن صابر[١١] قسماً رابعاً سمّاه الخالفة"[١٢].

غير أنّ حمدي الجبالي وقع على ما لم يقع عليه الأنصاري؛ إذ يقول[١٣]:" نسب بعض من النحاة هذه التسمية إلى بعض نحاة الأندلس، وهو ابن صابر... والحقيقة أن أصل هذه التسمية يعود إلى الكوفيين، وبالتحديد إلى الفراء، فقد أطلق خَلْفَة " على اسم الفعل دونك، وذلك عند كلامه على قول الشاعر:

(١) **المصدر السابق:** ١/٥٥، ٢/٢١٩،٣٠٦،٢٤٤،٣٦، ٣٠٧، ٣/٣٤٧،١٥٥، ١٥٨.

(٢) **الجمعة:** ٥.

(٣) الفراء، **معاني القرآن:** ٣/١٥٥.

(٤) ثعلب، **مجالس ثعلب:** ١/١٠٢، ١٥١، ١٩١، ٥٥١.

(٥) **المصدر السابق:** ٢٢٤.

(٦) الفراهيدي، **الجُمل** : ٣٠١ ، ٣٠٢ .

(٧) الأنصاري، **أبو زكريا الفراء:** ٤٥٣.

(٨) الزبيدي، **طبقات النحويين واللغويين:** ١٣٢.

(٩) الأنصاري، **أبو زكريا الفراء:** ٤٢٠.

(١٠) الأندلسي، **ارتشاف الضرب**، ط١، ١٩٨١، : ٣/١٩٣.

(١١) انظر ترجمته في: السيوطي، **بغية الوعاة:** ١/٣١١، وترجمته فيه مقتضبة، ولم يَذكر سنة وفاته، ولم أقع على ترجمته في مكان آخر.

(١٢) السيوطي، **همع الهوامع:** ٣/٨٢، و السيوطي، **الأشباه والنظائر:** ٥/١٢١. وانظر: الصبان، **حاشية الصبان:** ٣/٢٨٨.

(١٣) الجبالي، **في مصطلح النحو الكوفي:** ٤٥.

يا أيها المائح دلوي دونكا   إنّي رأيت الناس يحمدونك

ويثبت قول الفراء:" الدلو رَفْعٌ، كقولك: زيدٌ فاضربوه. والعرب تقول: الليلُ فبادروا، والليلَ فبادروا. فتنصب "الدلوَ" بمضمر في "الخلفة"، كأنك قلت دونك دلوي دونك".

وثمة أمور ينبغي ههنا التوقف عندها، فالكوفيون يذهبون إلى أنّ أسماء الأفعال أفعال حقيقية، كما مرّ. ومن جهة أخرى نرى أن الأستاذ الجبالي ضبط "الخَلفة" بفتح الخاء، وهي في "معاني القرآن" غير مضبوطة، "والخلفة" بفتح الخاء، غير مستعملة، و لم تذكرها المعاجم، وعلى هذا فضبط الجبالي لها غير دقيق. ويؤكد هذا ما نقله البغدادي في "الخِزانة"؛ إذ نقل النصّ نفسه عن الفراء، بكسر "الخاء في "الخلفة"، وقد فسّرها عبد السلام هارون بالذي يخلف صاحبه، يذهب هذا ويجيء هذا[١]، وهو الصحيح. ومن جهة أخرى فـ"الخلفة" لا تعني اسم الفعل هنا، وكلام الفراء بيّن، فهو يتكلم على "بادروا" وهي ليس اسم فعل، والظاهر أنه يعني بـ"الخلفة" إضمار الفعل. ولفظة "الخلفة" لم أقع عليها في غير هذا النصّ. وقد عرض الفراء لبعض أسماء الفعل، و لم يذكر شيئاً عن "الخلفة" هذه.

وإذا ما تصفحّنا **"معاني القرآن"** وجدناه يعلّق على قوله تعالى: ﴿عليكم أنفسكم﴾[٢]، "والعرب تأمر من الصفات بعليك وعندك ودونك وإليك، يقولون إليك إليك؛ يريدون تأخّر؛ كما تقول:"وراءك وراءك. فهذه الحروف كثيرة...، ولا تقدّمن ما نصبته هذه الحروف قبلها؛ لأنها أسماء، والاسم لا ينصب شيئاً قبله، تقول: ضرباً زيداً، ولا تقول: زيداً ضرباً، فإن قلته نصبت زيداً بفعل مضمر قبله، قال الشاعر: يا أيها المائح دلوي ...، إن شئت نصبت "الدلو" بمضمر قبله، وإن شئت جعلته رفعاً"[٣].

وهذا يؤكد أن "الخلفة" لا تعني اسم الفعل؛ فهو كما نرى لا يجيز تقديم معموله عليه، وقد نسب إليه الأنباري ذلك أيضاً[٤]. وقال في كلامه على قوله تعالى: ﴿هيهات هيهات لما توعدون﴾[٥]، "ومن أدخل اللام قال هيهات أداة ليست بمأخوذة من فعل بمترلة قريب وبعيد"[٦]. فمفهوم اسم الفعل ليس واضحاً عند الفراء، وهو يعالج أمثلته معالجة مجزّأة، ويبدو ذلك جلياً حينما يعرض له[٧]. وعلى هذا فمن المستبعد ما نسبه الأنصاري، والجبالي من بعده إلى الفراء في هذا الصدد، والأقرب أنّ تسمية اسم الفعل بـ"الخالفة"

(١) البغدادي، **خزانة الأدب** : ٦/٢٠١.

(٢) **المائدة**: ١٠٥.

(٣) الفراء، **معاني القرآن**: ١/٣٢٢-٣٢٣.

(٤) الأنباري، **الإنصاف**: ١/٢٢٨.

(٥) **المؤمنون**: ٣٦.

(٦) الفراء، **معاني القرآن**: ٢/٢٣٥.

(٧) **المصدر السابق**، ١/٢٠٣، ٢٦٠، ٣٣٥، ٢/١٢١، ٣١٢.

تسمية متأخرة.

خلاصة البحث :

من يُنعم النظر في كتاب الفرّاء "معاني القرآن" يخلص إلى نتيجتين جليّتين، أولاهما أنّ قضيّة المصطلح لم تكن تؤرّق الفراء، على الرغم من ابتداعه عدداً من المصطلحات، والكلام على وَعْي الفراء التامّ بهذه المسألة لا يخلو من المبالغة، يقول المختار ديره:"فالفراء يبني للمدرسة الكوفية صورتها بما أبداه من آراء، وما اعتمده من مقاييس وتفسير للظواهر اللغوية، والأمر المهم هو وضعه مصطلحات نحوية، خالف بها البصريين... والفراء يخالف الخليل وسيبويه، في كثير من المسائل، لأنه يبني مدرسة جديدة". وهذا كلام يَعسُر الأخذ به في ضوء كتاب "المعاني"[١]، وما رأيناه من استخدامه للمصطلحات، الذي يمسّ حدّ الفوضى أحياناً. فالفراء معنيّ بالدرجة الأولى بصياغة المفهوم في محاولة لتحديده؛ لذلك نجده يذكر المصطلحين للمفهوم الواحد في السياق نفسه، والمصطلحات للمفهوم الواحد في غير سياق، كما يُشرك بالمفهومات المصطلحَ الواحدَ، فضلاً على الاستخدام اللغوي لهذه المصطلحات، وهو بعد ذلك خالف الكسائي في كثير من المسائل.

والنتيجة الثانية أنّ الفرّاء لم يكن حفيّاً بمخالفة البصريين، على الرغم من بعض مصطلحاته التي توسم بالجدّة. ولو قصد الفراء إلى شيء ممّا نسب إليه في هذا الصدد لاختلف وجه كتابه "المعاني"، فهو لا يأنف من استخدام الكثير من مصطلحاتهم إلى جانب مصطلحه الجديد.

وإذ لم يكن من اليسير تعليل استخدامه للكثير من هذه المصطلحات، فإنّ إصراره على استخدام بعضها يَنمّ عن وفائه لفكره اللغوي، ولعلّ أبرز مثال على ذلك ما رأيناه من رَفْضِه استخدام مصطلح "الفعل المضارع"، واستخدامه لـ"المستقبل" أو "يفعل"، أو حتّى "الفعل الذي أوّله الياء أو التاء، أو النون أو الألف"؛ ذلك أنّ سيبويه يعدّه مضارعاً لاسم الفاعل[٢]، بينما يعد الكسائي والفراء "اسم الفاعل" فِعلاً.

ويَستخدِم الفرّاءَ في هذا البحث أكثر من مئة مصطلح، لعدد من المفهومات يقارب ثلثها. فإذا أصَّلنا مصطلحاتِه لم يَبْقَ له الشّيءُ الكثير. ومع هذا فإنّ مسألة تأصيل المصطلحات النحوية واللغوية التراثية بشكل دقيق أقرب إلى الأمنيّة منها إلى الواقع، مع اختفاء الكم الكبير من تراثنا اللغوي.

وعِبارات الفرّاء لا تَخلو مِنَ الغموض، وهو لم يكن بدعاً من علماء عصره في هذا الصدد[٣]، فهو لا يُقدِّم لنا شرحاً يُبيِّن حقيقةَ استخدامِه لهذه المصطلحات ويُوضِحُ جوانبَها إلاّ في القليل النّادر كالصّرف والتّقريب، وهو لا يمتلك آليّةً محدّدة لصياغة المصطلح.

(١) ديره، **دراسة في النحو الكوفي** : ٢١١.

(٢) سيبويه، **الكتاب** : ١/١٣-١٤.

(٣) انظر: الحيادرة، مصطفى، **من قضايا المصطلح النحوي:** عالم الكتب الحديث، الأردن، إربد، ط١، ٢٠٠٣: ٨٣، وما بعدها.

أمّا الآليّةُ العامّةُ لمصطلحاته فتقومُ بالدّرجة الأولى على وصف المفهوم بالمَصدر، كـــــ"الفِعـــل، والجَحْد، والإقرار، والتّقريب، والصّرف، والخروج، والنَّسَق... وهي مُصطلحاتٌ تتعلّق بسَبَبٍ متين مِـــنَ المعنى اللُّغويّ للمُصطلح. يأتي في المَرتَبة الثّانية وصفُ المفهوم باسم الفاعل واسمِ المفعول، كالدّائم، والمُرافِع، والمُوقَّت ، والمردود، والمَكْنيّ. ثمّ يأتي في المَرتَبة الثّالثة الوصفُ بالعبارة الدّالّة على المفهوم، نحوَ الفعلِ الواقع، الفعل الذي أوّله الياء أو التاء، أو النون أو الألف"، وما لم يُسَمَّ فاعلُه، والمنصوبِ على نزعِ الخافض، وما يَجري وما لا يَجري، و(لا) التّبرئةِ. وأقلُّ من ذلك كلِّه الوصفُ بنقل الاسم الجامد من معناه الأصليّ إلى معنًى جديد نحوَ " الأداة ".

قصارى القول إن قضية المصطلح عند الفرّاء لا تختلف عمّا نراه عند غيره ممّن سبقه، فهي قضية لم تكن تؤرّقهم، بالقدر الذي كان يؤرّقهم تحديد المفهوم، وتجليته، معتمدين على السياق بالدرجة الأولى.

ولا بد من الإشارة في نهاية البحث إلى أنّ الفراء لا يُختزل في قضية المصطلح، وأن له شخـــصية مميزة طبعت مؤلفاته بطابع خاص، لم يميّزه من البصريين وحسب، بل ومن الكوفيين أيضاً، ولعل هذا العمل يدفع إلى دراسته دراسة ميدانية بعيدة من الآراء التي حيكت حوله، تستقرئ هذا العَلَم من النصوص الـــتي كتبها، وممّا نُسب إليه، وهي محاولة لوضعه في إطاره اللغوي الفكري الذي يمثله تمثيلاً حقيقياً.

المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد (٣) العدد (١) ذوالحجة ١٤٢٧هـ / كانون الثاني ٢٠٠٧م

في إشكاليّة تعريف مصطلح المعجميّات

د. سعيد جبر أبو خضر *

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٠٦/٥/٧ تاريخ القبول: ٢٠٠٦/٩/١٨

ملخّص

تهدف هذه الدراسة إلى التعريف بالمعجميّات مصطلحيا، فتعرف مفهومها، وترصد لفظ المصطلح الدال عليها ومشكلاته الاصطلاحية في الدراسات اللسانية والمعجمية العربية، وتحدد مجال المعجميّات وموقعها من التخصصات المعرفية واللسانية. لتقف على جوانب تطور تعريف مصطلح المعجميّات في الدراسات اللسانية الغربية، وتتبين موقع الدراسات العربية الحديثة والمعاصرة من مناحي هذا التطور ومواكبتها له. فضلا على ذلك، اشتملت هذه الدراسة في مقدمتها على جملة من القضايا التمهيدية: كتبيان جوانب التعريف المصطلحي وأهميته بعامة وأهمية التعريف بالمعجميّات بخاصة، وبواعث الدراسة ومنهجها. كما اشتملت في الخاتمة على نتائج هذه الدراسة وتوصياتها.

الكلمات الدالة: (معجميّات، لسانيات، لسانيات تطبيقية، لغويات، تعريف).

Abstract

Problems in Defining Aspects of Lexicography

Dr. Said J. Abu Khader

This study aims at clarifying the main definition aspects of lexicography. The study carries out a Full investigation of the issues related to lexicography definition such as the term, the notion, the methodologies, the relatedness of lexicography to linguistics, and its relation to other disciplinary. This study also highlights the developments of definition aspects within the contemporary linguistics frameworks, taking into consideration the far reaching effects these changes and developments are having on modern and contemporary Arabic linguistic works. Furthermore, the study presents an introduction to the scientific and the pragmatic significance of the definition of lexicography. It concludes with some recommendations, based on the results of this study, like improving the scope of lexicography in contemporary Arabic writings to cope with the latest developments in the field.

(Keywords: Lexicography, Applied linguistics, Linguistics, Definition.)

---

* قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة آل البيت.

مقدمة :

هدف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على تعريف مصطلح " المعجميّات" في الكتابات اللسانية والمعجمية المعاصرة، العربية منها والغربية. والكشف عن جوانب التطور التي طرأت على تعريف مصطلح "المعجميّات" في الكتابات الغربية، ورصد مقاربة الكتابات العربية المعاصرة لهذا التطور ومواكبتها له. كما تسعى الدراسة إلى الوقوف على مشكلات تعريف مصطلح المعجميّات، شأن تعدد دوال المصطلح، وتداخل مفهوم المصطلح بغيره من المفاهيم، والمجال الذي ينتمي إليه، والحقول التي يستمد منها منهجيّته.

جوانب التعريف المصطلحي.

ويتوخى التعريف المصطلحي تبيّن لفظ المصطلح، ومفهومه، وتحديد علاقة المصطلح بالمصطلحات الأخرى المتعلقة به، وتحديد المجال المعرفي للمصطلح قيد الدراسة. ويُستدلّ بالتعريف على حقيقة المصطلح، ويميّز به من غيره تمييزا ذاتيا، وتتشكل به سماته وخصائصه المنطقية والوجودية. وينبثق التعريف عن التصور الذهني (أو الفكرة أو المفهوم) لتلك الخصائص المتعلقة بالمصطلح، وينقل التعريف هذه المعرفة الذهنية ويوصلها.(١)

و "وضوح المصطلح يرتبط في المقام الأول بوضوح المفهوم الذي يدل عليه المصطلح ويتحدد في إطار نظام المفاهيم داخل التخصص الواحد"(٢). و"يخضع شكل المصطلح، كتركيب نسقي، للقاعدة المعروفة في المصطلحية: لكل مفهوم مصطلح ولكل مصطلح مفهوم. والتحديد الدلالي في مستوى التركيب المصطلحي هو حصر للمفهوم وعزل له عن مفاهيم مجاورة عاملة في حقول معرفية أخرى"(٣). ومما يقرره، كذلك، المشتغلون في المصطلحية أنه "لا يمكن تعريف المفهوم ما لم يتمّ تحديد موقعه في المنظومة المفهومية التي تشكل الحقل العلمي أو التقني الذي ينتمي إليه ذلك المفهوم، أي معرفة علاقات المفهوم بغيره من مفاهيم ذلك الحقل العلمي".(٤)

---

(١) انظر: استيتية، سمير شريف، **اللسانيات: المجال، والوظيفة، والمنهج**، ط١، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠٠٥م، ص٣٠٢ ــ ٣٠٣. وانظر: القاسمي، علي، " إشكالية الدلالة في المعجم العربي" في كتابه: **المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق**، ط١، مكتبة لبنان، بيروت، ٢٠٠٣م، ص٧٥.

(٢) حجازي، محمود فهمي، **الأسس اللغوية لعلم المصطلح**، دار غريب، ١٩٩٣م، ص ١٢ ــ ١٣.

(٣) انظر: طالب، عثمان، " علم المصطلح بين المعجمية وعلم الدلالة: الإشكالات النظرية والمنهجية"، **تأسيس القضية الاصطلاحية**، إعداد عبد السلام المسدي وآخرين، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية التونسية،١٩٨٩م، ص ٨٤ ــ ٨٥.

(٤) الأشهب، خالد، "المصطلح: البنية والتمثيل" في أبحاث لسانية، ٢ــ١: ١: ٣٤، نقلا عن : القاسمي، **المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق**، ص٧٥.

أهمية التعريف بالمعجميّات.

وتأتي أهمية التعريف بالمصطلحات في أيّ حقل علميّ إلى كونه تقليدا راسخا في مجال البحث العلمي، وتأكيدا للتواصل العلمي المنضبط بين الدارسين في الحقل العلمي الواحد. وتأتي أهمية التعريف بالمصطلح اللساني المعاصر في مقدمة هذه الحقول العلمية التي اعترتها، في معظم الأحيان، "أدواء الباحثين في الاختلاف المصطلحي وانعدام الرؤية وعدم تحديد مفاهيم المصطلحات"(١). أما أهمية التعريف بمصطلح المعجميّات فلكونه مدخلا تمهيديا لحقل علمي تتعاظم أهميته في هذا العصر، فغير خاف أن " المعجم" ، وهو من المخرجات العملية لهذا العلم، وسيلة لغوية مهمة من وسائل توثيق العلاقات النفعية بين الشعوب على اختلاف لغاتها. ولكونه مدخلا لموضوع علا شأنه بين العلوم على صعيد البحث والتدريس، فاضطلعت بالمعجميّات دراسات مستقلة ومجلات علمية متخصصة في قضاياه النظرية والتطبيقية، فضلا على اشتمال الدراسات اللسانية والمجلات المتخصصة باللسانيات على جانب كبير من هذه القضايا. كما أن المعجميّات قد غدت في خطط بعض أقسام اللغة العربية بخاصة(٢) وأقسام اللغات بعامة في الجامعات الأردنية والعربية والعالمية ـــ ذات مكانة عالية، فينهض بتقديم قضاياها النظرية والتطبيقية مساق خاص، وتتناول بعضَ جوانبها مفردات خطط مساقات أخرى كاللسانيات، والمصادر الأدبية واللغوية، ومصادر المكتبة العربية، وفقه اللغة، وغيرها.

الباعث على الدراسة.

ويبعث على النهوض بتعريف مصطلح المعجميّات، في هذه الدراسة، جملة من الملاحظات المتكوّنة لديّ من الخبرة في تدريس موضوع المعجميّات، ومراجعة دؤوب في الدراسات العربية والغربية في هذا الموضوع، لاحظت فيها مشكلات تأسيسية جوهرية ترتبط بتعريف المصطلح، فقلّما يقع المرء على دراسة عربية تتناول بحثيا هذا الموضوع من جوانبه المصطلحية المختلفة بشمولية وبتأن وبعمق، وتقدم تمهيدا

(١) انظر: مطلوب، أحمد، "مصطلح اللسانيات"، **لغة الضاد**، دائرة علوم اللغة العربية، منشورات المجمع العلمي، ج٢، ١٩٩٩م، ص ٩٩ ـــ ١١١.

(٢) مما يدل على تعاظم أهمية المعجميّات أن أقسام اللغة العربية وآدابها في الجامعات الأردنية، أنموذجا، تولي هذا الموضوع اهتماما ملحوظا، فتخصص مساقات تضطلع بتناول مباحثه الرئيسة، نحو مساق " المعجمات العربية" في الجامعة الأردنية، والجامعة الهاشمية، ومساق " المعاجم العربية" في جامعة الزرقاء الأهلية، ومساق " المكتبة العربية والمعاجم" في جامعة فيلادلفيا، ومساق " مصادر الدراسات الأدبية والمعجمية" في جامعة الإسراء، ومساق " المعجمية العربية وعلم الدلالة" في جامعة آل البيت، ومساق " المكتبة العربية والمعاجم" ومساق " المعجم التاريخي" في جامعة اليرموك. ومع أن هذه المساقات المتخصصة في قضايا المعجم تعكس بعدا إيجابيا فإنها ـــ فيما أرى ـــ تحمل علامات اختلاف مصطلحي، كاستخدام المعجمات أو المعاجم في بعضها، والمعجميّة في بعضها الآخر، رغم تقارب الموضوعات في هذه المساقات(انظر خطط هذه الأقسام على موقع الشبكة الحاسوبية). وأحسب أن الحاجة ماسة إلى مراجعة مصطلحية لتحديد المصطلح الدقيق لكل موضوع، لنجد أنفسنا بعد هذه المراجعة إزاء موضوعات تتصل بالمعجمية، وأخرى بالمعجمات أو المعاجم، وأخرى بالمعجميّات.

ضروريا يتطلبه تدريس هذا الموضوع. وإن ابتغينا نتائج تعليمية وبحثية صائبة ومثمرة فعلينا أن نبتدئ بوضوح ونقيم مقدماتنا على شروط مصطلحية مميّزة، وحسبنا مقولة ابن عطاء الله السكندري "من أشرقت بدايته بإحكام أصولها أشرقت نهايته بالعثور على محصولها"[١] لتأكيد أهمية البدايات المحكمة في أصولها المنهجية في الحصول على نتائج دقيقة محكمة.

نطاق الدراسة ومنهجها.

وتصدر هذه الدراسة عن منهجية وصفية، فتستقرئ المصطلح ومفهومه ومجاله في الكتابات اللسانية والمعجمية التي تنتمي إلى الحقبة المعاصرة. وهي لا تقصد بهذا إغفال صلة المعجميّات بالتراث اللغوي ــ المعجمي العربي، وإنما ترى أن نطاق الدراسة الحالية يضيق عن تناول هذه الصلة والفتش في جذور هذا المصطلح في التراث المعجمي العربي، ولعل دراسة أخرى مستقلة تنهض للبحث في هذا الموضوع والتوفر عليه.

ومن نافلة القول إن للعرب منزلة رفيعة في تاريخ الصناعة المعجمية، يشهد لهم بها القاصي والداني، فهم أرباب هذا الميدان لمدة تقارب الثمانية قرون تمتد من القرن الثامن الميلادي إلى القرن الخامس عشر الميلادي.[٢] فجهود الخليل (ت. ١٧٠هـ/ ٧٨٦م)، وابن دريد (ت. ٣٢١هـ، ٩٣٣م)، وابن فارس اللغوي (ت. ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م)، والجوهري (ت.٤٠٠هـ/١٠٠٩م)، والزمخشري (ت. ٥٣٨هـ/ ١١٤٤م)، والفيروزآبادي (ت.٨١٧هـ/ ١٤١٥م)، وغيرهم من جهابذة الصناعة المعجمية العربية، وإسهاماتهم في وضع أسس المعجميّات لا ينكرها إلا جاحد.

والمرجوّ في حاضر الدراسات العربية اللسانية والمعجمية ومستقبلها مواكبتها لما يستجد في حقل المعجميّات لغايات الشروع في الإسهام العلمي الفاعل نظريا وتطبيقيا لخدمة اللغة العربية والناطقين بها من أبنائها ومن غيرهم. والمرجوّ من هذه الدراسة أن تكون إسهاما متواضعا في هذا المشروع الحضاري، وأن تفتح الباب لمزيد دراسات في التأسيس لمعجميّات عربية حديثة ترتبط بتراثها المعجمي وتقوم على تطويره في ضوء المعطيات العلمية المعاصرة، وأن تفيد في تقديم تصورات واضحة يفيد منها البحث والتدريس.

---

(١) انظر: الرندي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد النفزي (ت ٧٩٢هـ/١٣٨٩م)، **غيث المواهب العليّة في شرح الحكم العطائية**، تحقيق: عبد الحليم محمود وزميله، ط١، دار الكتب الحديثة، مصر، ١٩٧٠م، ج١، ص١١٨.

(٢) للوقوف على أهمية جهود العرب القدامى وموقعها من المعجميّات العالمية انظر: Haywood, John A., **Arabic Lexicography: It's History, and It's Place in the General History of Lexicography**, Leiden, E.J.Brill, 1965. وانظر ترجمة كتاب هيوود، جون أ. (**المعجمية العربية: نشأتها ومكانتها في تاريخ المعجميات العام**)، ترجمة: عناد غزوان، بغداد، المجمع العلمي، ٢٠٠٤م.

المحاور الرئيسة للدراسة

ولتحقيق هذه الدراسة هدفها في التعريف بالمعجميّات، فقد جاءت في قسمين رئيسين. شمل القسم الأول المفهوم المعاصر للمعجميّات في الدراسات الغربية، ومفهومه في الدراسات العربية، ومشكلة الترادف في التعبير عن مفهوم المعجميّات، ومشكلة الاشتراك في التعبير عنه في الدراسات العربية. وتوفر القسم الثاني على مشكلة تحديد المجال الذي ينتمي إليه مصطلح المعجميّات، واستغرقت مناقشة هذه المشكلة جانبا كبيرا من هذه الدراسة للحاجة الماسة لتفصيل القول فيها، ولقلة اهتمام الدارسين بها، وللتطور في النظر المعجمي فيها، ولخطورتها في ميز مفهوم المصطلح وتبيان موقعه من منظومة المفاهيم في الحقل العلمي.

مفهوم المعجميّات في الدراسات الغربية:

يستعمل مصطلح " المعجميّات" مقابلا للمصطلح الإنجليزي (Lexicography)، الذي يشير عالميا إلى مفهومين، أولهما: المعجميّات التطبيقية (Practical Lexicography)، التي يقصد بها "فن تصنيف المعجمات أو المهارة في تصنيفها"[(١)]، أي تطبيق جملة القواعد الخاصة بصناعة المعجمات، واستخدام جملة الوسائل التي يتوصل بها الذكاء البشري إلى نتائج تطبيقية أو تقنية متطورة[(٢)]. وثانيهما: المعجميّات النظرية (Theoretical Lexicography)، التي يقصد بها "المعرفة المتخصصة بتحليل العلاقات الدلالية ووصفها في المجموع المفرداتي للغة ما، وتطوير نظريات مكونات المعجم، ونظريات البنى الرابطة للمعلومات في المعجمات"[(٣)] .

مشكلة الترادف في مصطلح المعجميّات في الدراسات العربية:

وتستعمل الدراسات اللغوية العربية المعاصرة غير مصطلح للتعبير عن مفهوم المعجميّات، منها "صناعة المعاجم، صناعة معجميّة، قاموسيّة، معجميّات (مج)، معجميّة"[(٤)]، "وضع المعاجم، تصنيف المعاجم"[(٥)]، صناعات المعجم[(٦)] "صناعات المعاجم"[(٧)]. وتحمل عنوانات عدد من الدراسات العربية الحديثة

---

(١) جاء التعريف باللغة الإنجليزية" "Practical Lexicography is the Art or Craft of Writing Dictionaries".
انظر: .http://en.wikipedia.org/wiki/Lexicography

(٢) استمد الباحث توضيح مصطلح "فن" الوارد في التعريف من جملة المفاهيم التي أوردها: جبور عبد النور في " **المعجم الأدبي**"، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م، مادة " فن".

(٣) انظر: .http://en.wikipedia.org/wiki/Lexicography

(٤) بعلبكي، رمزي منير، **معجم المصطلحات اللغوية (إنجليزي ــ عربي)**،ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٠م، مادة (Lexicography).

(٥) وهبة، مجدي، وزميله، **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**، ط٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م مادة (وضع المعاجم).

(٦) باكلاّ، محمد حسن، وآخرون، **معجم مصطلحات علم اللغة الحديث**، ط١، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٣م، مادة (Lexicography).

(٧) انظر الموقع الإلكتروني لبنك المصطلحات الموحدة، مكتب تنسيق التعريب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم http://rabization.org.ma/Dictionnaire.asp?m=menu٤.gif

والمعاصرة بوضوح هذه الظاهرة في استعمال غير مصطلح للتعبير عن مفهوم المعجميّات، فضلا على ما تحمله الدراسات العربية اللسانية والمعجمية من مصطلحات أخرى في طيّها، وأهم عنوانات هذه الدراسات: (علم اللغة و**صناعة المعجم**، لعلي القاسمي، ١٩٧٥)، و(**صناعة المعجم** العربي لغير الناطقين بالعربية: أبحاث الدورة التدريبية، ١٩٨١)، و(المراجع **المعجمية** العربية: أحادية اللغة وثنائية اللغة ومتعددة اللغة، لمسفر ثبيتي، ١٩٨٩)، و(**المدارس المعجمية**: دراسة في البنية التركيبية، لعبد القادر عبد الجليل، ١٩٩٧)، و(**صناعة المعجم** الحديث، لأحمد مختار عمر، ١٩٩٨)، و(**صناعة المعجم** ثنائي اللغة، لخليل حماش، ١٩٩٨)، و(**في الصناعة المعجمية**، إبراهيم السامرائي، ١٩٩٨)، و(**دراسات معجمية**: نحو قاموس عربي تاريخي وقضايا أخرى، لعبد العلي الودغيري،٢٠٠١)، و(الإبداع العربي القديم في **الصناعة المعجمية**: دراسة في ضوء اتجاه علم الدلالة المعاصرة، لصبيح تميمي، ٢٠٠٢)، و(الدكتور حسين نصار و**الصناعة المعجمية**، لصلاح الدين حسنين، ٢٠٠٢)، (**المعجمية العربية** بين النظرية والتطبيق، لعلي القاسمي، ٢٠٠٣)، و(**منهج الصناعة المعجمية** عند الفيومي في "المصباح المنير" لعبد الجواد رجب،٢٠٠٣)، و(تراث المعاجم الفقهية في العربية: دراسة في ضوء أصول **صناعة المعجم** والمعجمية، لخالد فهمي، ٢٠٠٣)، و(بحوث في **المعجمية** العربية: المعجم اللغوي، لعبد الله الجبوري، ٢٠٠٤) و(**المعجمية العربية**: نشأتها، ومكانتها في تاريخ **المعجميّات** العام، لجون هيوود، **ترجمة عناد غزوان**، ٢٠٠٤)، و(المدخل لمصادر الدراسات الأدبية واللغوية و**المعجمية** القديمة والحديثة، لحامد القنيبي ومحمد الحرباوي، ٢٠٠٥).

ويشير هذا التعدد في دوال المفهوم إلى عدم استقرار المصطلح، واختلاف الدارسين في وسيلة توليد المصطلح. فإذا كان المصطلح قد تجاوز المرحلة النظرية من علم المصطلح (Terminology) وقدم معظم الدارسين تصوراتهم في العلاقة التي تربط بين المفهوم والمصطلح الذي يعبر عنه، فإن المشكلة ما زالت قائمة ــ فيما أرى ــ في صناعة مصطلح (Terminography) " المعجميّات"، وتتمثل في ضرورة توثيقه ونشره. ولا ريب أن هذا الترادف في مصطلح المعجميّات سيتم التخلص منه بشيوع المصطلح الملائم والمقبول لدى طائفة المتخصصين، ليصار إلى توحيده مستقبلا واعتماده في معاجم المصطلحات اليدوية والإلكترونية[١].

(١) يقترح شحادة الخوري ــ لتلافي مثل هذا الواقع الذي يكون فيه الاختلاف في الاجتهاد في العمل المصطلحي قد ترسخ، ويصعب معه التوفيق ويعسر التوحيد ــ "أن تبادر مكاتب التنسيق لتدرأ الارتجال في وضع المصطلح، فتتولى الجمع والعرض على المجامع والجامعات لتقول هذه الهيئات رأيها فيه وتجتهد، ثم تنسق ــ هذا الدور يضطلع به في وطننا العربي "مكتب تنسيق التعريب"، وهو أحد أجهزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ومقره في المغرب ــ هذه الآراء وتعرضها على المتخصصين الثقات تمهيدا لإضافتها إلى المعجمات، . . . وعرضها على مؤتمرات التعريب لإقرارها" انظر: الخوري، شحادة، **دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب**، ط٢، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، ١٩٩٢م، ص ١٧٦ــ١٧٧.

ومع أن الدراسة الحالية تعظّم جهود اللغويين المختلفة في ترجمة المصطلح، وتدرك أصالة بعضها وعمق التناول المصطلحي فيها، شأن دراسة عبد الغني أبو العزم: "تطور المصطلحات المعجمية والمعجماتية وإشكالية الوضع والترجمة"(١)، إلا أنها **آثرت مصطلح " معجميّات" الذي اعتمده مجمع اللغة العربية (القاهرة) في معجم المصطلحات العلمية الموصول بالشبكة الحاسوبية**(٢)، **وتضمنه "بنك المصطلحات الموحدة"** ـــ التابع لمكتب تنسيق التعريب في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـــ أحد مصطلحين، هما: صناعات المعاجم، ومعجميّات، مقابلين للمصطلح Lexicography.

والدراسة الحالية باختيارها مصطلح المعجميّات فإنها تتبنى نهجا في تفعيل الجهود المؤسسية الصادرة بعد تمحيص لغوي وعلمي للمصطلحات. وهو نهج ينبغي أن يُتبع في إرساء المصطلحات واستقرارها وشيوعها بين المتخصصين. ومن المعلوم لدى طائفة علماء المصطلح "أن المصطلحات الصادرة عن المؤسسات تتصف بالقوة"(٣).

مشكلة الاشتراك في مصطلح المعجميّات في الدراسات العربية.

بالإضافة إلى مشكلة الترادف في مصطلح "المعجميّات" في الدراسات العربية اللغوية المعاصرة، تظهر مشكلة مصطلحية أخرى هي الاشتراك في المصطلح، ناجمة عن استعمال بعض هذه الدراسات مصطلح "المعجمية" للدلالة على مفهومين متقاربين لكنهما مستقلان، فالمفهوم الأول: أن يدل المصطلح " المعجمية" على عملية صناعة المعجم وتطبيق خطواتها العملية، نحو: جمع المعلومات والحقائق، واختيار المداخل وترتيبها وفق نظام معين، وكتابة المواد، ثم نشر النتاج النهائي، وهذا المفهوم يعبر عنه في دراسات المعجميّات المعاصرة بمصطلح المعجميّات العامة(General Lexicography) تمييزا له مما قد يداخله من مفاهيم أخرى. أما المفهوم الثاني فأن يستعمل المصطلح " المعجمية" ليدل على "دراسة الألفاظ من حيث اشتقاقها، وأبنيتها، ودلالاتها، ودراسة المترادفات والمشتركات اللفظية والتعابير الاصطلاحية والسياقية"(٤)، ويعبر عن هذا المفهوم في الدراسات المعجميّة الغربية المعاصرة بمصطلح (Lexicology). وتستعمل الدراسات العربية مقابلا له ـــ أي للمصطلح الإنجليزي Lexicology ـــ أحد المصطلحات الآتية: المعجمية، علم المعجم، دراسة المفردات، علم متن اللغة، علم المفردات، المفرداتيّة.

---

(١) انظر: أبو العزم، عبد الغني، " تطور المصطلحات المعجمية والمعجماتيّة وإشكالية الوضع والترجمة"، **مجلة الجمعية المغربية للدراسات المعجمية**، العدد الأول، سنة ١٩٩٨م، ص٧ـــ٢١.

(٢) انظر الموقع الإلكتروني لمجمع اللغة العربية (القاهرة): http://www.arabicacademy.org.eg/sites.asp

(٣) انظر: الحيادرة، مصطفى طاهر، "مصطلحاتنا اللغوية بين التعريب والتغريب"، **مجلة مجمع اللغة العربية الأردني**، العدد التاسع، سنة ٢٠٠٥م، ص ١٣٨.

(٤) القاسمي، " المعجم والقاموس"، في كتابه: **المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق**، ص٢٠.

وقدمت بعض الدراسات المصطلحية التي أفادت من الدرس المعجمي العالمي شرحا وافيا يبيّن الفرق بين المفهومين. وقدّمت، كذلك، مصطلحا خاصا بكل مفهوم[١]. فخصصت دراسة عبد الغني أبو العزم، على سبيل المثال، مصطلح " المعجمية" مقابلا للمصطلح (Lexicology)، وحددت مجال مفهومه "بدراسة المفردات والبحث فيها وفي دلالتها وعلاقتها باللغة التي يتكلمها المجتمع في شموليتها، ويعبر بها عن حاجياته، ولها طابع تركيبي يتجاوز مجال التحليل التقني المنهج الخاص بمادة المعاجم، وتهتم بما هو حضاري لأي جماعة لغوية، وما تمتلك من وحدات معجمية، مستقصيا كل حالات التوليد اللغوي المتناسقة، وتقديم مادة للتطبيق المعجماتي.."[٢]، وخصصت الدراسة، في المقابل، مصطلح " المعجماتية" مقابلا للمصطلح(Lexicography)، وحددت مجال مفهومه "بالاهتمام بمجموع أعمال المعاجم التي ينشئها المعجماتي أثناء تعامله مع التعريفات والتحاليل التي يخص بها كل مفردة من مفردات اللغة التي يهتم بها، ويرتبها حسب النسق الذي يختاره، والمعجماتية بهذا المفهوم مجال لغوي تطبيقي، يهدف إلى إنجاز معاجم لغوية أحادية أو ثنائية اللغة، وهي تتطلب مهارات ومعرفة في مجال ترتيب المفردات وتحديد معانيها ووصفها، كما تتطلب نظرية (تعريف الوحدات المعجماتية وتصنيف التعريفات). "[٣]

وفي ضوء هذا التحديد[٤] لمفهومين مستقلين ينبغي أن يخصص مصطلح لكل منهما بغية التخلص

---

(١) وقفت أكثر من دراسة معجمية ولغوية حديثة على الفرق بين المفهومين قيد التوضيح، منها دراسة صلاح الدين حسنين، " الدكتور حسين نصار والصناعة المعجمية"، **علوم اللغة**، المجلد الخامس، العدد الخامس، سنة ٢٠٠٢م، ص١٨٩ـــ ٢٢٥. وجاء فيها التعبير عن مفهوم Lexicology بمصطلح **علم المفردات (الثروة المعجمية)** والتعبير عن مفهوم Lexicography **بمصطلح الصناعة المعجمية**. وانظر: الدسوقي، إبراهيم، " معجم الإبانة للعوتبي"، **قراءات في فكر العوتبي الصحاري**، ط٢، المنتدى الأدبي، وزارة التراث والثقافة، عُمان، ٢٠٠٣م، ص٧ــ٨. وجاء فيها التعبير عن مفهوم Lexicology بمصطلح **علم المعجم**، والتعبير عن مفهوم Lexicography بمصطلح **الصناعة المعجمية**.

(٢) انظر: أبو العزم، عبد الغني، "تطور المصطلحات المعجمية"، **مجلة الجمعية المغربية للدراسات المعجمية**، العدد الأول، سنة ١٩٩٨م، ص١١.

(٣) **المرجع السابق**: ص١١.

(٤) لمزيد وضوح في تحديد المفهومين، يمكن القول إن مصطلح **المعجمية**(Lexicology) يعبر عن "دراسة المفردات ومعانيها، ويهتم من حيث الأساس باشتقاق الألفاظ، وأبنيتها، ودلالاتها المعنوية والإعرابية، والتعابير الاصطلاحية، والترادفات وتعدد المعاني، فهو يدرس المعجم دراسة علمية من ناحية العلاقة بين الألفاظ والمعاني، والعلاقة بين الألفاظ بعضها البعض، والنظرية اللغوية التي يقوم عليها المعجم" (انظر: الدسوقي، إبراهيم، **معجم الإبانة للعوتبي**، ص٧ــ ٨.)، كما أن المعجمية تقوم بتصنيف مفردات أي لغة ودراستها، بالإضافة إلى شرح معناها أو دلالتها المعجمية استعدادا لعمل المعجم، والمعجمية، كذلك، علم نظري يدرس المعنى المعجمي وما يتصل به من جهات الدلالة وعلاقاتها، ويشار إلى أن المعجمية " فرع من علم الدلالة يعنى بدراسة مفردات اللغة من حيث اشتقاقها ودلالاتها، وذلك على وجهين: وجه وصفي لحالها الحاضرة، ووجه تاريخي ينظر إلى تطور دلالاتها". بعلبكي، رمزي، **معجم المصطلحات اللغوية**، مادة (Lexicology). أما **المعجميّات**، عموما، فهي تقنية تعتمد مناهج مختلفة في جمع مادة المعجم ووصفها وترتيبها (انظر: الدسوقي، إبراهيم، **معجم الإبانة للعوتبي**، ص٨)، وهي "صناعة تأليف المعاجم باعتبارها فرعا من علم اللغة التطبيقي، وتحديدا من علم المفردات التطبيقي" (بعلبكي، رمزي، **معجم المصطلحات اللغوية**، مادة (Lexicography)).

من الاشتراك في المصطلح، وأقترح أن نفيد من نتائج دراسة عبد الغني أبو العزم المصطلحية و**نخصص "المعجمية" مقابلا للمصطلح(Lexicology)**، وفي الوقت نفسه نحتفظ بمصطلح **"المعجميّات" مقابلا للمصطلح (Lexicography)**. ويستند هذا الاقتراح إلى أفكار علماء المصطلح في "أن ما يعطي للمصطلح قوة أن يكون صادرا عن مؤسسة أو **صدوره عن فرد له شأنه في العلم الذي يوضع فيه**"(١)، فضلا على أن معجم المصطلحات العلمية التابع لمجمع اللغة العربية (القاهرة) لم يتضمن مقابلا للمصطلح Lexicology. وأحسب أن ما أورده معجم المصطلحات العلمية التابع للمجمع من تعريف مقتضب لمفهوم المعجميّات " **فن يقوم على جمع مفردات اللغة وتصنيفها من حيث دلالاتها وبنيتها وأصولها**" ــ لا يفي بتحديد مفهوم المعجميّات المعاصر ولا يواكب تطوره، رغم أن آخر تحديث لمكونات المعجم كان في ٢٠/٣/٢٠٠٣م(٢). كما أن إيراد المجمع مقابلا للمصطلح Lexicology قضية واجبة لميز مفهومين مختلفين.

ويشار في سياق تحديد المصطلح ومفهومه قيد الدراسة الحالية إلى أن التطور الدؤوب في حقل المعجميّات على الصعيد العالمي أدى إلى الخلاف بين المتخصصين في التمييز بين مفهوم "المعجميّة" و مفهوم "المعجميّات" وفقا للميز المصطلحي السابق. إذ يحمل فريق منهم العلاقة بين المعجميّة والمعجميّات النظرية، تحديدا، على الترادف، أي إن المصطلحين يدلان على المفهوم نفسه. في المقابل يرى فريق آخر أن المعجميّة لا تعدو كونها فرعا من اللسانيات يختص ببحث الألفاظ في لغة بعينها(٣).

المجال المعرفي للمعجميّات.

وتبرز مشكلة أخرى في الدراسات المعجمية المعاصرة في تحديد المجال المعرفي الذي تنتمي إليه المعجميّات، وتظهر هذه المشكلة في الملاحظة التي أوردتها موسوعة Wikipedia ــ المعدّلة بتاريخ ٧/٩/٢٠٠٥م. حيث ورد فيها " يجد القول بأن المعجميّات مجال معرفي مستقلّ وليست صنفا فرعيا (sub-division) من اللسانيات ــ يجد قبولا واسعا في الزمن الحاضر.(٤) وينطوي هذا النظر إلى المعجميّات بوصفها حقلا معرفيا مستقلا ــ على جملة تساؤلات: ما موقع المعجميّات من تصنيف التخصصات العلمية؟ وما موقعها من اللسانيات، عموما، في الدراسات الغربية؟ وما موقعها من اللسانيات في الدراسات العربية؟

---

(١) انظر: الحيادرة، مصطفى طاهر، مصطلحاتنا اللغوية بين التعريب والتغريب، **مجلة مجمع اللغة العربية الأردني**، العدد التاسع والستون، سنة ٢٠٠٥م، ص ١٣٨.

(٢) انظر الموقع الإلكتروني لمجمع اللغة العربية(القاهرة): http://www.arabicacademy.org.eg/sites.asp

(٣) انظر: .http://en.wikipedia.org/wiki/Lexicography

(٤) انظر: **المرجع السابق.**

موقع المعجميّات من التخصصات العلمية.

من المعلوم أن التخصصات العلمية فرع من المعرفة (Knowledge) التي تدرس، أو تصنّف الجهود البحثية حسبها. ويشمل كل تخصص تخصصات فرعية أو فروعا. وتكون الحدود المميزة لكل تخصص، غالبا، ارتجالية وغامضة. فكانت التخصصات الأكاديمية في الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى (من أوائل القرن السادس الميلادي إلى أواخر القرن الخامس عشر للميلاد) تتوزع على علم اللاهوت ، والطب، والفقه، والآداب. وللتخصصات العلمية في الحاضر جذور تمتدّ من العصر الوسيط إلى نهاية القرن التاسع عشر للميلاد، فالمؤسسات الأكاديمية العلمانية قد أضافت إلى المنهج التقليدي اللغات غير الكلاسيكية والآداب، والفيزياء، والكيمياء، والأحياء، والهندسة. وأضيف في العقود الأولى من القرن العشرين التربية، وعلم الاجتماع، وعلم النفس. وأبرز هذه التخصصات العلمية الرئيسة: ١. العلوم الطبيعية (الفلك، وعلم السلوك، والأحياء، والفيزياء وعلوم الأرض، والكيمياء). ٢. الرياضيات وعلوم الحاسوب . ٣. العلوم الاجتماعية (علم الإنسان، الاقتصاد، التاريخ، علم الاجتماع، علم النفس،...، العلوم السياسية، **اللسانيات**) . ٤. العلوم الإنسانية والآداب (الدراسات الثقافية، الفنون، التاريخ، الدراسات الأدبية والثقافية، الكتابة الإبداعية،...، الموسيقى، الفلسفة، الدراسات الدينية، المسرح، **اللسانيات**). ٥. العلوم التطبيقية(الزراعة، إدارة الأعمال، التربية، الهندسة، علوم الصحة، القانون، علم المكتبات،...، العلوم العسكرية)[١].

وبناء على هذا التفريع للتخصصات الرئيسة نلاحظ أن المعجميّات ليست من بينها حاليا، وربما من المشروع أن يتوقع أحدنا موضع فرعها من التخصصات الكبرى في المستقبل. وأرجح أن يكون موضعها وفق النظر التقليدي في الآداب والعلوم الإنسانية، أو العلوم الاجتماعية، وذلك حملا على موقع اللسانيات التخصص الذي انبثقت منه، وبالنظر إلى طبيعة المعجميّات فأتوقع أن تصنف مستقبلا بوصفها فرعا من العلوم التطبيقية.

موقع المعجميّات من اللسانيات.

أما النظر إلى المعجميّات على أنها فرع رئيس من اللسانيات وليست صنف فرع من فروع اللسانيات فهو نظر يقتضي تبين فروع اللسانيات الرئيسة ومناهجها وموقع المعجميّات منها، أو ارتباط المعجميّات منهجيا باللسانيات.

والحقيقة إن البحث عن الإطار المنهجي للمعجميّات من الصعوبة بمكان. فقبولنا القول إن

(١) http://en.wikipedia.org/wiki/list _of_academic_disciplines.

المعجميات فرع من اللسانيات يقتضي استجلاء فروع اللسانيات التي يتباين تقسيمها بحسب الزاوية التي يختار الباحث أن ينظر إلى اللغة منها، أو بحسب الاهتمام الخاص الذي يوليه الباحث لنوع معين من الظواهر دون آخر.

ويمكننا أن نميز أولا، ـــ استنادا إلى أفكار جون ليونز (John Lyons) في كتابه: اللغة واللسانيات (Language and Linguistics) ـــ بين اللسانيات العامة (General Linguistics) التي تدرس اللغة بعامة، وتوفر المفاهيم والأطر التي تُحلل أية لغة، واللسانيات الوصفية (Descriptive Linguistics) التي تصف لغة معينة، مستعينة بمفاهيم اللسانيات العامة ونظرياتها، وقد يتوجه الباحث في اللسانيات الوصفية لرغبة في تأليف مرجع نحوي أو قاموس لأغراض عملية[١]. ووفقا لهذا الميز قد يكون الإطار المنهجي للمعجميّات إطارا لسانيا وصفيا. ويمكننا التمييز ثانيا بين اللسانيات التاريخية (Historical Linguistics) التي تهتم بدراسة اللغة عموما أو بدراسة لغة معينة دراسة تاريخية تعاقبية، واللسانيات غير التاريخية التي تهتم بتقديم وصف للغة في زمن معين[٢]. وعليه فالمعجميّات قد تتخذ اللسانيات التاريخية إطارا مرجعيا لها في صناعة المعاجم التاريخية للغة عموما أو للغة معينة، وقد تتخذ اللسانيات غير التاريخية ذات المنهج التزامني إطارا مرجعيا في صناعة معجم للغة معينة في زمن معين. ويمكننا التمييز ثالثا بين اللسانيات النظرية (Theoretical Linguistics) ـــ التي تدرس اللغة أو اللغات بهدف صياغة نظرية لتركيبها ولوظائفها غير معنية بأية تطبيقات ممكنة لهذه الدراسة، وبهذا المبدأ تغاير اللسانيات النظرية اللسانيات العامة واللسانيات التاريخية ـــ واللسانيات التطبيقية (Applied Linguistics)، التي تهدف إلى تطبيق مفاهيم اللسانيات ونتائجها على أغراض متعددة ومن بينها مسألة تعليم اللغة، ولتحقيق هذا الهدف فإنها تفيد من اللسانيات النظرية واللسانيات العامة واللسانيات الوصفية[٣]. ويمكننا التمييز رابعا بين اللسانيات الصرفة (Micro Linguistics) التي تقصر اهتمامها على تركيب الأنظمة اللغوية حسب، واللسانيات الشمولية (Macro Linguistics) التي تهتم بكل ما له علاقة باللغة أو اللغات مهما كانت هذه العلاقة كعلاقة الاكتساب باللغة، وعلاقة الثقافة باللغة[٤]. وتتميز اللسانيات الشمولية عن غيرها بضرورة توافر إطار نظري مستقل يسمح لها بالمشاركة المثلى بالحقول المعرفية المختلفة ذات الاهتمام باللغة من وجه ما. ومثل هذه المشاركة، وبتعمق الجانبين النظري والعملي،

(١) انظر: ليونز، جون، "مدخل إلى اللغة واللسانيات"، ترجمة: حمزة بن قبلان المزيني، **مجلة كلية الآداب**، جامعة الملك سعود، المجلد الرابع عشر، العدد الأول، سنة ١٩٨٧م، ص١٩٧.

(٢) انظر: **المرجع السابق**، ص ١٩٧ــ ١٩٨.

(٣) انظر: **المرجع السابق**، ص١٩٨.

(٤) انظر: **المرجع السابق**، ص ١٩٨ــ١٩٩.

تفضي غالبا إلى فروع متعددة أخرى يطلق عليها مصطلحات مميزة(١)، نحو اللسانيات النفسية، واللسانيات العصبية، واللسانيات الاجتماعية.

وفي ضوء هذه الفروع اللسانية الرئيسة ومناهجها المختلفة تبين لنا أن المعجميّات يمكن أن تصنف في فرعين رئيسين، الأول: اللسانيات التطبيقية التي تفيد من اللسانيات النظرية واللسانيات العامة واللسانيات الوصفية، والثاني: اللسانيات الشمولية. ولعل المعجميّات أقرب بداية إلى **اللسانيات النظرية**، غير "أنه حدث أن وجد ضروريا في بعض فروع اللسانيات التطبيقية كتعليم اللغة أن تؤخذ النظرة العريضة لتركيب اللغة ووظائفها، ولهذا السبب أدرج بعض الكتاب ما سمي هنا باللسانيات الشمولية تحت اللسانيات التطبيقية"، (٢)لأن اللسانيات التطبيقية كما يفهم كثير من اللغويين " علم ليس له نظرية في ذاته"(٣). ولكن الأمر مختلف في حالة تكوّن الجانب النظري لفرع من فروعها كالمعجميّات مثلا. لذا، فمن المسوغ علميا أن تنظر جلّ الدراسات المعاصرة إلى المعجميّات على **أنها فرع من اللسانيات التطبيقية**، فهي تقوم على دعامتين الأولى نظرية تتمثل فيما يصطلح عليه" بالمعجميات النظرية، والأخرى فنية تقانية تتمثل فيما يصطلح عليه بالمعجميات التطبيقية. ومن المقبول، كذلك أن تتميّز المعجميّات مصطلحا ومفهوما ومنهجا شأن اللسانيات الاجتماعية واللسانيات النفسية.

وليس أدل على هذا التميز للمعجميّات من تخصص دوريات علمية عالمية في تقديم دراسات تتناول قضايا المعجميّات النظرية منها والتطبيقية الفنية، من مثل(٤): (The International Journal of Lexicography) التي بدأت في الصدور ١٩٨٨م، و (Fryske Akademy) التي تصدر غالبا باللغة الألمانية، و (Lexikos) التي بدأت بإصدارها الجمعية الأفريقية للمعجميّات (AFRILEX) عام ١٩٩١م ضمن سلسلة أطلق عليها آنذاك (AFRILEX) ثم اتخذت عنوانها المذكور عام ١٩٩٦م(٥)، و المجلة الدولية الموصولة بالحاسب (Ling Uistik online). أما في العربية فثمة مجلتان علميتان متخصصتان في قضايا المعجميّات والمعجمية، الأولى **"مجلة المعجمية"** التي تصدرها جمعية المعجمية العربية بتونس، التي تأسست ١٩٨٣/١١/٩م بوصفها أول جمعية عربية تعنى بقضايا المعجم وبحوث اللسانيات(٦)، و" **الدراسات المعجمية**" التي تصدرها الجمعية المغربية للدراسات المعجمية، التي

---

(١) انظر: ليونز، جون، "مدخل إلى اللغة واللسانيات"، ترجمة : حمزة بن قبلان المزيني، **مجلة كلية الآداب**، جامعة الملك سعود، المجلد الرابع عشر، العدد الأول، سنة ١٩٨٧م، ص ١٩٩. وانظر: فارع، شحدة، وزملاءه، **مقدمة في اللغويات المعاصرة**، ط٢، دار وائل، عمان، ٢٠٠٢م، ص٢٤.

(٢) ليونز، جون، **مدخل إلى اللغة واللسانيات**، ص ١٩٩.

(٣) الراجحي، عبده، **علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، سنة ١٩٩٦م، ص ١٢.

(٤) انظر: .http:// www.australex.org/journals.htm

(٥) انظر لمزيد تفصيل الموقع الإلكتروني للمجلة: http://www.up.ac.za/academic/libarts/afrilang/lexikos.htm

(٦) http://www.voiceofarabic.com/html/107.htm

تأسست ٢٣/٧/١٩٩٨م.[١]

موقع المعجميّات في الدراسات اللسانية العربية المعاصرة.

وجلّ الدراسات اللسانية والمعجمية العربية المعاصرة التي تناولت المعجميات تنظر إليها على أنها فرع من فروع اللسانيات التطبيقية. فسمير استيتية يتناول في الباب الثاني (اللسانيات التطبيقية) من كتابه: "اللسانيات: المجال، والوظيفة، والمنهج" المعجمية الوظيفية، ويقول: " يمكن تقسيم اللسانيات المعجمية إلى قسمين كبيرين، كل قسم منهما علم قائم بذاته، أحدهما يدرس معجم اللغة... يسمى هذا العلم علم المفرداتLexicology . وأما الآخر فيدرس قضايا الصناعة المعجمية، وتحديد طرق جمع البيانات اللغوية اللازمة لبناء معجم ... وغير ذلك مما تحتاج إليه صناعة المعجم. ويسمى هذا العلم علم الصناعة المعجمية (Lexicography)"[٢]. أما الدراسات العربية المعاصرة[٣] والحديثة الأخرى فلا تغادر معظمها ــ فيما علمت ــ فكرة أن المعجميّات **فرع** لساني تطبيقي، أو أنها من **مجالات** اللسانيات التطبيقية. وربما توصل بعض الدارسين العرب إلى أن المعجميّات من مجالات اللسانيات التطبيقية بالنظر في الموضوعات التي اشتملت عليها المؤتمرات التي عقدت في الغرب تحت مصطلح اللسانيات التطبيقية، ومن بين هذه الموضوعات المدرجة " المعجم".[٤]

ويلاحظ أن بعض الدراسات العربية اللسانية الحديثة تخلو من الإشارة إلى المعجميّات في درج تقديمها فروع اللسانيات ومجالاتها، بله الوقوف عليها تعريفا وبيانا لمنهجها، مثال: "علم اللغة التطبيقي"، لمحمد خضر عريف وزميله، ١٩٩١م [٥].

مشكلة موقع المعجميّات من اللسانيات التطبيقية في الدراسات الغربية.

وجدير بالذكر في سياق النظر في منهج المعجميات أن نقف على الغموض والاضطراب الذي اكتنف بداية هذا الجانب في الدراسات اللسانية الغربية، بله بعض الدراسات العربية. فإذا تساءلنا عن موقع المعجميّات من اللسانيات التطبيقية خاصة واللسانيات عموما، سنجد أن مصدر المشكلة قد يكون في اختلاف اللسانيين أنفسهم في تصور اللسانيات التطبيقية. فاللسانيات التطبيقية منذ بزوغها عام ١٩٤٦م محل جدل بين اللسانيين. وقد تكون أهم مرحلة مرّت بها اللسانيات التطبيقية نحو الاستقرار تلك المرحلة

---

(١) انظر : http://www.lexico-amel.org/ar/amel/statutsar.html

(٢) انظر: استيتية، **اللسانيات: المجال، والوظيفة، والمنهج**، ص٢٩٩.

(٣) فضل، عاطف، **مقدمة في اللسانيات**، ط١، دار الرازي، عمان، ٢٠٠٥م، ص٦١.

(٤) انظر شاهدا على هذه الحالة: الراجحي، **علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية**، ص٩.

(٥) انظر: عريف، محمد خضر، وزميله، **مقدمة في علم اللغة التطبيقي**، ط١، د.ن، ١٩٩١م ص ١١ــ١٥.

التي انبرى فيها مجموعة من اللسانيين البارزين عام ١٩٧٦م لتعريف اللسانيات التطبيقية وتحديد مصطلحاتها ومجالاتها. وجمع كابلن (kaplan) أفكار هؤلاء اللسانيين وتصوراتهم ونشرها في عام ١٩٨٠م. فكان لها أثر كبير في مرحلة استقرار مصطلح اللسانيات التطبيقية، وفهم أبعادها ومجالاتها، كما كان لها كبير الأثر في الدراسات اللسانية في العقدين الأخيرين من القرن العشرين سلبا أو إيجابا. فيذهب جو داروين بالمر (Joe Darwin Palmer) ــ وهو أحد هؤلاء اللسانيين ــ إلى أن "اللسانيات التطبيقية دراسة للموضوعات اللغوية التي يمكن أن تستخدم مكوناتها في تطوير أعمال نظرية وتطبيقية لمعارف تنطوي على استخدام للغة"[١]، ومن أبرز هذه الموضوعات اللغوية التي ذكرها بالمر: الأسلوبية، وتاريخ اللغة، والنحو، والصوتيات، وعلم الدلالة، والتحليل التقابلي، **والمعجمية** (Lexicology)، وعلم الأصوات، وغيرها، أما المجالات التي يمكن استخدام مكونات هذه الموضوعات اللغوية في تطويرها وتنطوي على استخدام للغة فتتمثل في النقد الأدبي، وعلم النفس، والفيزياء، والاختبارات، **والمعجميّات**، والترجمة، وغيرها. ويمكن أن يفهم من هذا التصور للسانيات التطبيقية وفروعها أن **المعجمية** (Lexicology) من المعارف والمجالات اللسانية كعلم الأصوات والصوتيات وعلم الدلالة، التي يمكن استخدام مكوناتها اللسانية في التطوير النظري والعملي لمجالات أخرى ليست من اللسانيات في شيء إلا أنها تستخدم اللغة في مجالها المعرفي[٢] نحو المعجميّات (Lexicography) والفيزياء والنقد الأدبي. ويوضح بالمر (Palmer) هذه العلاقة في دراسة أخرى، فيرى أن هذه الموضوعات اللغوية يمكن النظر إليها على أنها مكونات لحقول معرفية أخرى. وعندما تستخدم هذه الموضوعات اللغوية من أجل ربط المعرفة اللغوية بمعارف الحقول الأخرى فإننا نستطيع القول إن الموضوعات اللغوية تتوسط بين حقلين معرفيين، فموضوع الأسلوبية، مثلا، يتوسط بين اللسانيات والنقد الأدبي، فضلا على ذلك يمكن أن يتوسط موضوع لغوي بين اللسانيات وحقول معرفية أخرى عديدة، كالنحو الذي يتوسط بين اللسانيات وجلّ الحقول المعرفية الأخرى.[٣] وفي هذا النظر تأكيد لما مضى من أن فروع اللسانيات التطبيقية تتخذ موقعا وسطا بين اللسانيات والحقول المعرفية الأخرى، وفي حالة المعجميّات فهي تعدّ من الحقول المعرفية الأخرى التي يربطها باللسانيات علم وسيط هو المعجميّة. ويفضي مثل هذا التصور إلى التساؤل: هل تعدّ المعجمية العلم التطبيقي الناجم عن الاهتمام المشترك بين اللسانيات والصناعة المعجمية؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل المعجميّة هي التي تتصدى لحل المشكلات في

(١) Palmer ,Joe Darwin, 'Toward a Redefinition of Applied Linguistics', (Kaplan, Robert B. editor) **On The Scope of Applied Linguistics**, 1980, Newbury House Publishers, INC, U.S.A.,P. 17.

(٢) Ibid., P.17

(٣) انظر: Palmer, Joe Darwin, 'Linguistics in Medias Res' (Kaplan, Robert B. editor) **On The Scope of Applied Linguistics**, 1980, Newbury House Publishers, INC, U.S.A., p.22.

صناعة المعجم فحسب؟

المعجمية قد تكون معجمية نظرية بوصفها معرفة لسانية لها نظرياتها ومناهجها اللسانية، ومعجمية تطبيقية بوصفها تطبيقا للنظريات والمناهج والنتائج اللسانية في **دراسة المشكلات اللغوية في الحقول المعرفية المختلفة** كالترجمة وتعليم اللغة والمعجميّات وغيرها(١)، وهي بهذا، أي المعجمية التطبيقية تتوسط بين اللسانيات والحقول المعرفية الأخرى من أجل تطويرها نظريا وعمليا في مجال استخدامها اللغة، فلا تقصر اهتمامها على صناعة المعجم فحسب. وفي ضوء تصور بالمر للمعجمية يغدو التداخل الشديد بين المعجميّات النظرية والمعجمية لدى بعض الدارسين متوقعا، ولكنه على مستوى تحديد المفهوم والمنهجية غير مقبول، لأن المعجميّات النظرية لا تستمدّ مكوناتها النظرية من المعجمية ــ بوصفها علما تطبيقيا ــ حسب، بل إنها تفيد من الموضوعات اللسانية التطبيقية الأخرى كالنحو التطبيقي، والصرف التطبيقي، والصوتيات التطبيقية، وغيرها، فهذه الموضوعات اللسانية، في العموم، تجسّر بين المعرفة اللسانية والحقول المعرفية الأخرى، وتتوسط على نحو خاص بين المعرفة اللسانية والمعجميّات النظرية، لأنها تخدم المعجميين في تقديم المعلومات الصرفية والنحوية والصوتية والإملائية وغيرها في معاجمهم. فالمعجم(Dictionary) يقدم ــ كما هو معلوم ــ معلومات دلالية، وصرفية، وصوتية، وإملائية، وحضارية. وتكون مستمدّة من مرجعيات نظرية وتطبيقية متنوعة.لذا، فالمعجميّات النظرية ترتبط ارتباطا وثيقا بالمعجمية التطبيقية، ولكنها تفترق عنها في المفهوم والمنهج.

ولا شكّ أن تصور بالمر (Palmer) لموقع المعجميّات من اللسانيات عموما واللسانيات التطبيقية فيه الكثير من الغموض والاضطراب. فالمعجميّات النظرية بخاصة ينبغي ألا تماثل الحقول المعرفية الأخرى كالفيزياء والرياضيات والحاسوب، فتخرج من موقعها الحقيقي من اللسانيات. وإخال أن مثل هذا التصور يلقي بظلاله حتى الآن على منظور بعض الدراسات التعليمية الحديثة في موضوع اللسانيات التطبيقية حين تربط بين اللسانيات التطبيقية و المعجميّات بالقول: " إن المعجميّات حقل آخر للتطبيقات اللغوية المهمة"(٢). وأرى أن الوصف المنضبط لمثل هذه الدراسات ينبغي أن يتضمن ــ لمسايرة التطور في هذا المجال ــ إشارة واضحة إلى أن المعجميّات فرع لساني تطبيقي، أو أنها من أهم المجالات التطبيقية للسانيات. وهذا التصور ــ تصور بالمر (Palmer) ــ على عواهنه، في الزمن الحاضر، محجوب بالكلية عن بعض الدراسات اللسانية العربية التي ظهرت بحلة القرن الحادي والعشرين ولكنها تنطوي في محتواها على فهم قاتم

(١) هذا الفهم للمعجمية التطبيقية وللمعجمية النظرية مستمدّ مفهوم اللسانيات التطبيقية (Applied linguistics) الذي أورده ديفيد كرستال (David Crystal) في **The Cambridge Encyclopaedia of Language**, Cambridge University Press 1987.

(٢) انظر: Karma ,Nayef, **Applied Linguistics**, al-Quds Open Univ. Pub. 2002, P.24 .

لموقع المعجميّات من اللسانيات، فتشير إحدى هذه الدراسات الصادرة في طبعتها الأولى عام ٢٠٠٢م في مبحث يتناول " الموضوعات التي تدخل تحت كل مجال من مجالات التطبيق اللغوي" ـــ تشير إلى أن " دراسة (المفردة) يدخل فيها بحث بنية المفردة وتناسق أصواتها، وقوانين البنى والصياغات، وتفسير الدلالة، والمعجم ومناهجه وتنظيمه وغير ذلك. وهذه الموضوعات تختلف من لغة إلى أخرى، بحسب قوانين الألفاظ وأبنيتها في كل لغة."(١)

ومن البداهة، أن ارتباط العلوم وتواصلها لا يلغي حدّ كل منها وتصوره الذهني المستقل، لذا ينبغي أن يأتي وصف المفهوم أو تعريفه أو استعماله منسجما مع موقعه في المنظومة المعرفية للمفاهيم.

النتائج والتوصيات.

حاولت هذه الدراسة التعريف بمصطلح "المعجميّات"، ووقفت على أهم المشكلات المرتبطة بالتعريف، وأبرزت التطور في جوانب من هذا التعريف، ومسايرة الدراسات العربية لهذا التطور، وعرضت لأهمية التعريف بالمعجميّات العملية والعلمية.

وخلصت الدراسة إلى:

أولا: أن المعجميّات، في النظر الغربي المعاصر، علم يقوم على دعامتين إحداهما نظرية ويمكن أن يصطلح عليها بالمعجميّات النظرية، وثانية عملية فنية، يمكن أن يصطلح عليها بالمعجميّات التطبيقية.

ثانيا: أن الدارسين العرب يستعملون تسميات كثيرة مقابلة للمصطلح (Lexicography)، واقترحت الدراسة الأخذ باصطلاح المجمع وأحد مصطلحي بنك المصطلحات الموحدة التابع لمكتب تنسيق التعريب وهو المعجميّات.

ثالثا: أن بعض الدراسات المعجمية العربية تستعمل مصطلح " المعجمية" مقابلا للمصطلح الإنجليزي (Lexicography) و تستعمل بعضها مصطلح "المعجمية" مقابلا للمصطلح الإنجليزي (Lexicology)، مما أدى إلى الوقوع في الاشتراك المصطلحي، وتداخل مفهومين متصلين في الحقل المعجمي لكنهما متغايران في التخصص الدقيق. ولتفادي هذا الاشتراك فقد اقترحت الدراسة الحالية الأخذ بنتائج دراسة عبد الغني أبو العزم "في تطور المصطلحات المعجمية"، وتخصيص المعجميّة مقابلا للمصطلح (Lexicology). في المقابل، اقترحت الدراسة الحالية تخصيص مصطلح " المعجميّات" مقابلا للمصطلح (Lexicography).

رابعا: النظر الغربي المعاصر للمعجميّات على أنها علم مستقل له حقل نظري ومجال تطبيقي، وأنها بذلك مستقلة عن فرع علمي مستقل، ولا تحمل لديهم على أنها صنف فرع من اللسانيات أو أنها فرع من

(١) انظر: العبيدي، رشيد عبد الرحمن، **مباحث في علم اللغة واللسانيات**، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٢، ص ٤٨ـــ٤٩.

اللسانيات الشمولية أو اللسانيات التطبيقية، شأنها في هذا شأن اللسانيات الاجتماعية واللسانيات النفسية وغيرهما من العلوم المستقلة بنظرياتها ومجالاتها التطبيقية.

خامسا: لاحظت الدراسة بالنظر في التخصصات العلمية المعاصرة العديدة والمعتمدة في المعرفة والتدريس الجامعي أن المعجميّات لم تتفرد بتخصصها شأن اللسانيات والآداب وغيرهما من التخصصات المعرفية، وتوقعت الدراسة الحالية أن المستقبل ربما ينطوي على تصنيف خاص للمعجميّات بوصفها من الفروع التخصصية الرئيسة للعلوم الإنسانية أو الاجتماعية، ورجحت موقعها بين العلوم التطبيقية.

سادسا: تواكب جلّ الدراسات العربية المعاصرة، اللسانية منها والمعجمية، مرحلة من مراحل تطور هذا العلم، وتصنفها في أفضل الأحوال على أنها فرع من فروع اللسانيات التطبيقية.

سابعا: إن للدراسات الغربية الحديثة في الثمانينيات من القرن العشرين، وبخاصة تصورات بالمر (Palmer) حول اللسانيات التطبيقية ـــ تأثيرا سلبيا في الدراسات اللسانية العربية، تمثّل في اختلاف وجهات نظر الدارسين العرب في ماهية اللسانيات التطبيقية وفروعها ومدى صلتها باللسانيات.

ويمكن في ضوء ما سبق أن توصي الدراسة الحالية بما يأتي:

١. أن تعتني الدراسات العربية بما يستجد من تطور حثيث على المستويين النظري والتطبيقي في هذا الميدان في الدراسات العالمية من أجل النهوض بالصناعة المعجمية عربيا لأداء الدور الحضاري المنوط بالعلماء والدارسين من أبنائها، وألا يُكتفي بتمجيد الماضي فحسب، والانكفاء على جهود السابقين من علماء العربية.

٢. أن يتخلص الدارسون من اضطراب التعدد في تسميات المصطلحات باللجوء إلى بنوك المصطلحات الموحدة، أو الجهود المجمعية المنظمة في ضبط المصطلحات ونقلها، أو جهود الدارسين المصطلحية الجادة في ميدان الحقل المعرفي الهدف، وذلك من أجل ضبط التواصل بين المتخصصين على اختلاف مشاربهم ومصادرهم المعرفية. وأولى هؤلاء الدارسين حاجة إلى التخلص من ظاهرة تعدد التسميات للمصطلح الواحد هم اللغويون، إذ يعوّل عليهم في مدّ يد العون إلى المتخصصين في الحقول المختلفة في وضع المصطلحات الدقيقة لغويا وعلميا، واستقرارها.

٣. أن توكل إلى العلماء والعاملين في كل حقل علمي، والمعجميّات من بينها، مهمة ترجمة المصطلحات وتعريفها، وأن تفيد المؤسسات المعنية من خبرات هؤلاء في متابعة التطور في المصطلح ومفهومه ومجاله، وتحدّث معاجمها المصطلحية، لتواكب كلّ جديد. وأن يولي الدارسون العرب المعاصرون مزيد اهتمام بجوانب التعريف المصطلحي لحقول التخصصات اللغوية والأدبية، فمثل هذه الدراسات تمهيدية تأسيسية في المجال البحثي والتعليمي.

مفهوم الإحالة عند سيبويه: أبعاده وضوابطه

د. لطيفة إبراهيم النجار *

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٠٦/٧/١١ تاريخ القبول: ٢٠٠٦/٩/١٨

ملخّص

يتناول هذا البحث مفهوم الإحالة عند سيبويه، ويحاول أن يحدد أبعاد هذا المفهوم ، وأن يستخلص الضوابط والمعايير الدلالية والنحوية التي كان صاحب الكتاب يعتمدها في حكمه على الكلام بأنه كلام محال. كما يحاول البحث أن يوضح المنهجية التي كان سيبويه ينطلق منها في وصفه الكلام العربي وتحليله لصور التراكيب فيه؛ إذ يبين أنّ سيبويه كان ينظر إلى الظاهرة اللغوية نظرة كلية تستأنس بكل العناصر التي تتداخل مع اللغة وتؤثر فيها، وأنّ وصفه للعربية لم يكن وصفا نحويا محضا، بل كان وصفا يتجاوز الظاهر التركيبي إلى ما يستبطنه من علاقات دلالية ومقامية كثيرة متعددة. وفي الخاتمة يحاول البحث أن يشير إشارة سريعة إلى تطور مفهوم الإحالة في علوم البلاغة والأسباب التي جعلت هذا المفهوم ينتقل من علم النحو إلى العلوم البلاغية والنقدية.

Abstract

The Concept of the "Crooked Speech" in Sibawayh's (Al-Kitab)

Dr. Latifah Ibrahim al-Najjar

The research deals with the concept of "the crooked speech" in Sibawayh's (Al-Kitab.) It aims ,further, to give this concept clearer and more precise definition , and to conclude the semantic and syntactical standards and rules which the compiler of (Al-Kitab) considers when he describes any part of speech as crooked one.

Besides, the research attempts to clarify the methodology of Sibawayh in describing the Arabic speech and analyzing its types of structure. His methodology shows that Sibawayh has given a general out look at the linguistic phenomenon, trying to benefit of all inter-related and overwhelming elements. It, also, shows that his description for Arabic language was not merely syntactical; it goes beyond the surface structure to different and various deep semantic and situational relations.

At last, the research comes to conclusion by shedding light on the development of "the crooked concept" in rhetoric, and trying to give reasons for the shift of the concept from syntax to rhetoric and literary criticism.

* قسم اللغة العربية، جامعة الإمارات العربية المتحدة، العين.

يُعَدُّ كتاب سيبويه المصدر الأول لدارسي اللغة العربية والباحثين في وصف بنيتها وتحليل صور الاستعمال فيها. وهو – بلا شك – أول كتاب تضمن قواعد النحو العربي، وأحكام التراكيب فيه، والأصول النظرية والضوابط العامة التي بنيت على هدي منها نظرية النحو العربي. ولا يقتصر "الكتاب" على وصف المستوى النحوي للعربية؛ بل يتجاوزه إلى المستويات اللغوية الأخرى كالمستوى الصوتي والصرفي والدلالي.

ويتضح لكل باحث في منهج الكتاب أنّ سيبويه كان ينظر إلى الظاهرة اللغوية من أبعاد شتى، وأنه كان يتناول عناصر هذه الظاهرة بالوصف والتحليل والتفسير من خلال ضوابط متعددة، لا تنفك تلابس اللغة وتتداخل معها مُؤَثِّرَةً ومُتَأَثِّرَةً، بحيث لا يمكن لأي وصف دقيق للغة أن يتجاهلَها أو يقللَ من دورها في تشكيل بنية اللغة وسن قوانينها [(١)].

ففي الكتاب نجد استنادا كبيرا إلى ضوابط لغوية خالصة، صرفية أو تركيبية أو دلالية أو صوتية، وفيه أيضا اعتماد كبير على ضوابط من خارج اللغة كخصوصية المقام أو مقاصد المتكلمين أو أحوال المخاطبين، وفيه أيضا تفسير يرد كثيرا مما سُمِعَ عن العرب إلى أصول عامة تميل إليها اللغاتُ في دورانِها على ألسنة مستعمليها ككثرة الاستعمال والميل إلى التخفيف والبعد عن اللبس.

وليس في تعدد الضوابط واختلاف الأصول التي يراها الباحث تتردد في "الكتاب" اضطراب أو خلل، بل إن ذلك مؤشر على عمق الرؤية وسَعة التصور الذي لا ينظر إلى اللغة – وهي ظاهرة معقدة تتداخل مع ظواهر أخرى مختلفة - نظرة أحادية سطحية. بل إن إعادة النظر في "الكتاب" ومحاولة استخلاص منهج مُحَدَّدٍ كان صاحبه يحاول أن يسير على هدي منه لأمر جدير حقا بالمضي فيه؛ فالأبواب السبعة الأولى التي أسس فيها سيبويه لأصول منهجه العامة وضوابط وصفه الذي سيمضي فيه مُفَصِّلا فيما بعد، والأبواب الأخرى التي فصَّل فيها سيبويه القول في وصف العربية وتحليل تراكيبها وبيان صور الاستعمال فيها يمضي فيها القول على نهج يستند صاحبه فيه إلى أبعاد ثابتة واضحة تعاد مرة تلو مرة في كل موضع يبرز فيه دورها ويظهر أثره في الوصف أو التفسير.

وقارئ الكتاب سيلحظ أيضا، إضافة إلى ثبات الضوابط التي يستند إليها سيبويه وتنوعها وعمقها،

---

(١) يقول G.Bohas, J.P.Guillaume and D.E.Koulogh li في كتابهم "التراث اللغوي العربي" إن الكتاب يعكس انطباعا حاذقا في الترتيب (ترتيب الأبواب) والتطوير، على الرغم من أن هذا الترتيب غير مؤسس على النظام الهرمي للخانات (categories) كما هو معتمد في الدراسات الكلاسيكية، بل على توازن دقيق بين معرفة القارئ الحدسية بالحقائق اللغوية والحاجة إلى تزويده بفهم ذاتي واع أكثر عمقا للمبادئ العامة المُتَضَمَّنة التي تتحكم في تلك الحقائق.

G.Bohas, J.P.Guillaume and D.E.Kouloghl, **The Arabic Linguistic Tradition**, Routledge, London & New York, 1990. P 33 .

تكرار الكثير من الكلمات في كثير من المواضع حتى إنها لتقترب من صفة الاصطلاح ذي الدلالة القارة المحددة. من ذلك كلماتٌ من مثل: وجه الكلام أو الوجه، مستقيم، قبيح، تمثيل، حسن، فاسد، محال، ممتنع .. الخ.

ولعل تأمل بعض هذه الكلمات – أو المصطلحات- ودراستها دراسة تعتمد على تتبع ورودها في الكتاب، وفهم المقصود منها في كل موقع وردت فيه، ومحاولة ربط دلالاتها بمرجعية واضحة وتصور كان صاحبه يستند إليه أو ينطلق منه يمنحنا قدرا إضافيا من محاولة استجلاء واستيضاح ما يزخر به "الكتاب" من إرث لغوي جدير بالاعتزاز والتقدير، ومن نهج خاص في التناول والشرح والتفسير والنظر.

فكثير من الأحكام التي يذكرها سيبويه في كتابه تستبطن قدرا كبيرا من الاستناد إلى رؤية لغوية شبه ثابتة وتصور يعتمد المنطق ويرتكز إلى طبيعة التصورات الذهنية التي قد يشترك فيها الناس جميعا وهم يبنون تصورهم عن اللغة والوجود الذي تصفه أو تتحدث عنه؛ إذ ينطلق سيبويه في بيان صحيح الكلام من فاسده وفي الحكم على اللغة في صور استعمالها المتنوعة بأحكام الحسن والقبح والاستحالة والامتناع والقبول والرفض من منطلقات العقل واللغة ومن تلازم العلاقة بينهما وتداخلها وتضافرها بالوجود الخارجي وتنوع المقامات والأوضاع(١).

وهذه الأحكام التي عبّر عنها صاحب الكتاب بكلمات هي أقرب إلى الاصطلاح تتفاوت في درجة تواترها في الكتاب وتكرارها كما تتفاوت في مدلولاتها والمعاني التي تعبر عنها، فبعضها يرد مرات قليلة، وبعضها يكثر استخدامه حتى إنّ القارئ ليجده في كل صفحة أو صفحتين تقريبا كقوله حسن أو قبيح أو ضعيف، وبعضها تتسع دائرة دلالته لتشمل أبعادا كثيرة كمصطلح الكلام، وبعضها تضيق دائرة دلالته ليدل على معنى محدد مثل مصطلح التمثيل(٢).

وقد كان الحكم على الكلام من أهم ما يشغل سيبويه، ومن أكثر المظاهر تجليا في الكتاب؛ إذ نراه يستطرد في مواضع كثيرة للحكم على أشكال من التراكيب تخرج عما هو فيه من حديث ليستقصي أحكام

---

(١) يرى G.Bohas, J.P.Guillaume and D.E.Kouloghli أنّ خصوصية الكتاب أو فرادته تتضح في غنى "المعيارية" أو الأحكام المعيارية وتعقيدها "the richness and complexity of its criteriology"، فبينما يصنف النحاة "الكلاسيكيون" الجمل المنطوقة "utterances" اعتمادا على الصحة المطلقة أو الفساد المطلق بالنظر إلى مطابقتها للقوانين أو عدم مطابقتها يستخدم سيبويه – بشكل حاذق ومراوغ أحيانا- مقياسا متدرجا من القيم للحكم على الجمل المنطوقة.

G.Bohas, J.P.Guillaume and D.E.Kouloghl, **The Arabic Linguistic Tradition**, P 40

(٢) يشير G.Bohas, J.P.Guillaume and D.E.Kouloghli إلى أنّ صعوبة الكتاب لا تكمن في فهم ملاحظات سيبويه حول الحقائق التي يعرض لها ولكن في التمييز بين المصطلحات التي تمتلك قيمة نظرية شكلية بوصفها أصنافا نحوية وبين تلك المصطلحات التي لا تمتلك تلك القيمة. وهم يرون أنّ هذا التمييز قد يصبح أحيانا مستحيلا في الكتاب.

G.Bohas, J.P.Guillaume and D.E.Kouloghl, **The Arabic Linguistic Tradition**, Π36

الصحة والخطأ فيها مستندا إلى ضوابطه التي تمثل صلب النظرية النحوية العربية.

ويبدو أن سيبويه قد انطلق في بناء أحكامه على صور الكلام المتحققة أو المحتملة من بابٍ جاء في مقدمة كتابه، وهو باب الاستقامة من الكلام والإحالة؛ فبين الاستقامة والإحالة يقع عدد كبير من الأحكام تتفاوت في درجة قربها من الكلام المستقيم أو بعدها عنه، وتتفاوت في الوقت ذاته من درجة قربها من الكلام المحال أو بعدها عنه.

ويجيء هذا البحث في سياق دراسة صورة من صور الأحكام على الكلام عند سيبويه، وهي الحكم على الكلام بالإحالة؛ إذ يحاول البحث أن يستجلي مفهوم الإحالة في الكلام عند سيبويه، وأن يضع لها حدودا تخرجها من غيرها من الأحكام الأخرى التي يستخدمها صاحب الكتاب، كما يحاول البحث أن يتتبع كل المواضع التي ورد فيها الحكم بالإحالة عند سيبويه ليرى المقاصد التي كان يرمي إليها من وصف الكلام بهذه الصفة والصور التي تشترك في كونها مستحيلة عنده، وما الضابط أو الضوابط التي تجعلها كذلك في نظره؟

يجدر بنا قبل أن ننظر في معنى الإحالة عند سيبويه ونستقصي الأمثلة التي أوردها مطلِقا عليها الحكم بأنها من باب المحال أن نتعرف المعنى المعجمي للكلمة وما أوردته المعاجم من حدودٍ توضح ذلك المعنى وتميزه.

تكاد المعاجم اللغوية تتفق في بيان معنى المحال من الكلام؛ فلا فرق بينها ولا اختلاف:

– فابن منظور يعرف المحال من الكلام بأنه "ما عدل به عن وجهه" ويجعل المحال قرينا للفاسد إذ يقول" ويقال أحلت الكلام أحيله إحالة إذا أفسدته" وقد أورد في سياق بيان المحال وتمييزه من غيره من الكلام قولا للخليل رواه ابن شميل يقسم الكلام فيه إلى أقسام باعتبار المعنى والقصد؛ إذ يقول "المحال الكلام لغير شيء، والمستقيم كلام لشيء، والغلط كلام لشيء لم تُرِده، واللغو كلام لشيء ليس من شأنك، والكذب كلام لشيء تَغُرُّ به" . وواضح أنّ المحال كما ورد عن الخليل هو كلام لا معنى فيه، في مقابل كل الأقسام الأخرى التي تشتمل على معنى ولكنها تختلف في قصد المتكلم بالكلام وإرادته(1).

– ولا يختلف الفيروزابادي عن ابن منظور في تعريف المحال من الكلام؛ فهو عنده "ما عدل عن وجهه كالمستحيل"(2)

(١) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م)، **لسان العرب**، (مادة حول) و لم أجد في معجم العين ما نسبه ابن شميل إلى الخليل، ولكني وجدت ما هذا نصه : " ورجلٌ مِحْوالٌ: كثير مُحالِ الكلام، والمحال من الكلام: ما حُوِّل عن وجهه. وكلامٌ مُسْتَحيلٌ: محالٌ.

(٢) الفيروزبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٦هـ /١٤١٣)، **القاموس المحيط** ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٢. (مادة حول) .

– أما الزبيدي فيزيد عليهما بإيراد بعض الأقوال التي تحدد المحال من الكلام بمحددات أخرى غير العدول عن وجه الكلام كقوله نقلا عن الراغب: "هو ما جمع فيه بين المتناقضين، وذلك يوجد في المقال، نحو أن يقال جسم واحد في مكانين في حالة واحدة. أو هو "الذي لا يتصور وجوده في الخارج" أو هو "الباطل"(١).

– ولا بأس أن نورد هنا ما جاء في كتاب التعريفات للجرجاني من توضيح للمحال لأنه يتوافق في جانب منه مع أحد الأوجه التي أوردها الزبيدي في التاج، يقول الجرجاني: "المحال ما يمتنع وجوده في الخارج. المحال الذي أحيل عن جهة الصواب إلى غيره، ويراد به في الاستعمال ما اقتضى الفساد من كل وجه كاجتماع الحركة والسكون في جزء واحد"(٢).

ويتضح لنا من التعريفات والحدود السابقة أنّ المحال في الكلام هو عدول عن الوجه أو الصواب، وأنّ درجة العدول هذه تصل إلى أقصاها بحيث يصبح الكلام "فاسدا" و"باطلا" أو "لغير شيء"، فهو حال من المعنى، وهو كلام يصور حالة يمتنع وجودها في الخارج "الوجود" كاجتماع النقيضين. فالجمع بين النقيضين هو الصورة المثلى للكلام المحال، لأن ذلك لا يمكن تحققه بحال من الأحوال.

ولم يرد في الحدود والإشارات السابقة إشارة إلى ارتباط المحال بأي بعد نحوي أو تركيبي، إذ ليس للمحال من الكلام علاقة بما يجوز وما لا يجوز نحويا، فهو يدور في فلك المعاني والدلالات التي يصورها التركيب ويفهمها العقل، فإن استشكل الفهم وانتفى وجود الكلام في الخارج كان الكلام واقعا في حدود المحال.

ولا شك أنّ كل الحدود السابقة – ما عدا ما نُسِبَ إلى الخليل- جاءت تالية لما أصّله سيبويه في الكتاب، ونستطيع أن نقول إن بُذورَ تَشَكُّلِ تَصَوُّرٍ للكلام المحال قد ظهرت ابتداء في الكتاب، ثم تطورت أو ازدادت وضوحا وتحديدا عند من جاء بعده من النحاة واللغويين والبلاغيين خاصة، وهذا أمر سنشير إليه لاحقا. فما المحال عند سيبويه؟ وما هي ضوابط الحكم على الكلام عنده بأنه كلام محال؟

قبل أن نستطرد في بيان هذه الضوابط نشير إلى أنّ مصطلح محال وبعض الألفاظ المشتركة معه في أصل الاشتقاق تكررت في الكتاب ستا وخمسين مرة، ويمكن توضيح ذلك بالجدول التالي:

الكلمة	محال	إحالة	أحال	أحلت	استحال	استحالوا	يستحيل	تستحيل	محيل
تكرارها	٤٥	١	٢	١	١	٢	٢	١	١

(١) الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م)، **تاج العروس**، تحقيق: عبد الستار أحمد فرّاج، وزارة الإعلام ، الكويت، ١٩٨٩. (مادة حول)

(٢) الجرجاني، علي بن محمد الشريف (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) ، **كتاب التعريفات**، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٥، (محال).

وأول موضع يظهر فيه المصطلح هو في الباب السادس الذي يأتي ضمن سبعة أبواب تقع في مقدمة الكتاب وتؤصل لكثير من الأحكام والقواعد التي تضمنتها. وهو باب "الاستقامة من الكلام والإحالة" الذي يقول فيه سيبويه: " هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة: فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب. فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس وسآتيك غدا. وأما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره فتقول: أتيتك غدا وسآتيك أمس. وأما المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل، وشربت ماء البحر ونحوه. وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك: قد زيدا رأيت، وكي زياد يأتيك، وأشباه ذلك. وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس"(١).

ويبدو واضحا أنّ سيبويه يقسم الكلام قسمين كبيرين الأول كلام مستقيم والثاني كلام محال، وأنه يقع تحت هذين القسمين أقسام فرعية أخرى. كما هو مذكور في نصه السابق. والناظر في النص سيلاحظ أنّ سيبويه لم يضع حدا للكلام المستقيم و لم يأت به منفردا، بل أتى به موصوفا، فهو إما مستقيم حسن، وإما مستقيم كذب، وإما مستقيم قبيح. والذي يظهر أنّ المستقيم الحسن هو نفسه المستقيم، فكل كلام مستقيم هو مستقيم حسن(٢).

أما المحال فقد جاء ابتداء مجردا من الصفة، وقد وَضَعَ له حدا يعرف به، فهو أن تنقض أول كلامك بآخره، فالمحال – عند سيبويه- ما اشتمل على تناقض يفضي به إلى الخروج عن المقبولية والفهم. يقول السيرافي في ذلك: "ومعنى أنه محال أنه أحيل عن وجهه المستقيم الذي به يفهم المعنى إذا تُكُلِّم به"(٣) ، ورغم أنّ مفهوم الإحالة الذي يتحدث عنه السيرافي قد يخرج عن حدود التناقض الذي أصّله سيبويه؛ فإحالة الكلام عن وجهه المستقيم قد يكون بطرق تتجاوز التناقض وتتعداه، إلا أنّ السيرافي عاد فقصر الإحالة – مقتفيا أثر سيبويه- على التناقض، فقال: " المحال هو الكلام الذي يوجب اجتماع

(١) سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان (ت ١٨٠هـ/ ٧٩٦م)، **الكتاب**، تحيقي عبد السلام هارون، ط٣، عالم الكتب، بيروت، ١ج، ص٢٥-٢٦

(٢) انظر في التعليق على نص سيبويه السابق: الموسى، نهاد ، **نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث**، ط،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠. ص١٠٣ . و بحيري، سعيد حسن، **عناصر النظرية النحوية في كتاب سيبويه: محاولة لإعادة التشكيل في ضوء الاتجاه المعجمي الوظيفي**، ط١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٩، ص ١٥٠ وما بعدها. وحماسة، محمد عبد اللطيف، **النحو والدلالة**، ط١، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٦١ وما بعدها. و ص٤٠-٤١. والمنصف عاشور، "ملاحظات حول رسالة سيبويه في الكتاب: مشروع قراءة في النظريات النحوية العربية"، **حوليات الجامعة التونسية**، ع٣، ١٩٨٩، ص ١٦٩-١٩٩ . و النجار،لطيفة ، **منزلة المعنى في نظرية النحو العربي**، ط١، دار العالم العربي، دبي، ٢٠٠٣ ، ص ٨٤- ٨٦ .

(٣) السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبدالله (ت ٣٦٨هـ / ٩٧٨م)، **شرح كتاب سيبويه**، تحقيق: رمضان عبد التواب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠، ج ٢، ص٩٠.

المتضادات"(١).

والذي يدعو إلى التأمل هو القسم الثاني من المحال وهو المحال الكذب، وهو قسم لم يضع له سيبويه حدا ولكنه اكتفى بالتمثيل له بقوله " سوف أشرب ماء البحر أمس"؛ إذ يبقى مصدر الإحالة فيه قائما على الجمع بين النقيضين "سوف وأمس". أما الكذب فمردود إلى طبيعة الحدث المتضمن في الجملة الذي لا يقبل في التصور إلا على أنه مجاز. فالمحال الكذب – عند سيبويه- هو في حقيقته مستقيم كذب تضمن جمعا بين نقيضين.

وقد خالف أبو الحسن الأخفش سيبويه في هذا، ورأى أنه لا وجود لكلام يقال فيه محال كذب، ووضع حدا للمحال أوسع من حد سيبويه فقال: "وأما المحال فهو ما لا يصح له معنى، ولا يجوز أن تقول فيه صدق ولا كذب، لأنه ليس له معنى. ألا ترى أنك إذا قلت: أتيتك غدا لم يكن للكلام معنى تقول فيه صدق ولا كذب"(٢).

والذي يبدو لي أنّ ما ذهب إليه الأخفش أقرب إلى الصواب والقبول، وهو أقرب كذلك إلى ما سنراه عند سيبويه وهو يحكم على الكلام بالإحالة من خلال الأمثلة التي سيعرض لها، إذ لا وجود لكلام محال كذب بعد ذلك في الكتاب، وكل الأمثلة التي حكم عليها سيبويه بالإحالة فيما بعد هي أمثلة منتفية المعنى في الأصل، فكيف السبيل إلى وصفها بصدق أو كذب؟ بل إنّ سيبويه نفسه يضع "المحال" في مقابل "الكلام" فيقول: " .. فإن أخرجت الفاء فقلت : أيَّ من يأتيني نحدثُه، فهو **كلام** في الاستفهام، **محال** في الإخبار"(٣) . فكأنّ المحال عنده خارج عن حدود الكلام، وهو على ذلك لا سبيل إلى وصفه بالصدق والكذب.

- الإحالة ومفهوم التناقض :

ويبدو لمن يتتبع المواضع التي ورد فيها مصطلح "محال" في الكتاب أنّ الإحالة عند سيبويه قد تتجاوز أحيانا حدود التناقض الذي اعتمده في حدّه، وتتسع دائرتها لتشمل أشكالا أخرى خالية من مفهوم التناقض لكنها تتضمن علاقات مرفوضة لا يمكن أن تتحقق بسبب خلل في التركيب تتعدد أسبابه ومصادره(٤). أما مفهوم التناقض في الكلام المحال فإنه لم يظهر مباشرا واضحا إلا في مواضع معدودة من مجموع المواضع التي ورد فيها استخدام المصطلح عنده، إضافة إلى الموضع الأول الذي أصّل فيه تعريف

(١) السيرافي، **شرح كتاب سيبويه** ، ج٢، ص ٩٠.

(٢) سيبويه ، **الكتاب**، ج١، ص ٢٦ ، الهامش الأول . لاحظ أنّ تعريف الأخفش للمحال قريب جدا من التعريف المنسوب للخليل بن أحمد. وانظر في رد السيرافي على الأخفش : السيرافي ، **شرح كتاب سيبويه**، ج٢، ص٩٠ .

(٣) سيبويه ، **الكتاب**، ج٢ ، ص٤٠٦ .

(٤) وهو في هذه المواضع يقترب من تعريف الأخفش للمحال.

الكلام المحال، وقد أشرنا إليه آنفا.

فمن ذلك ما ورد في سياق حديثه عن الاستدراك بـ (لكنْ)؛ إذ يقول: " فإن قلت مررت برجل صالح ولكنْ طالح، فهو محال؛ لأن لكنْ لا يتدارك فيها بعد إيجاب ولكنها يثبت بها بعد النفي"[(١)] . وهذا يعتمد على حكم "لكنْ" في الاستعمال كما أشار إليه سيبويه " إذ كان حكمها أن تقع بين كلامين متغايرين"[(٢)] في النفي والإثبات. فإن انتفى التغاير بين الجملتين أدى ذلك إلى إثبات معنيين متناقضين في كلام واحد، كأن يكون الرجل صالحا طالحا في آن.

ومنه ما جاء في أثناء حديثه عن كم الخبرية، وجواز العطف عليها بلا، إذ "تقول: كم قد أتاني! لا رجل ولا رجلان، وكم عبد لك! لا عبد ولا عبدان، فهذا محمول على ما حمل عليه كم لا على ما تعمل فيه كم، ... وهذا جائز في التي تقع في الخبر.. ولو قلت: كم لا رجلا ولا رجلين، في الخبر أو الاستفهام كان غير جائز، لأنه ليس هكذا تفسير العدد، ولو جاز ذا لقلت: له عشرون لا عبدا ولا عبدين، فلا رجل ولا رجلان توكيد لكم لا للذي عمل فيه، لأنه لو كان عليه كان محالا وكان نقضا"[(٣)] ، والتناقض هنا في الجمع بين معنى كم الدال على الكثرة ومعنى النفي المفهوم من "لا" الذي ينفي الكثرة وغيرها؛ إذ لا يمكن أن تفسَّر الكثرة وتبيَّن بنفيها.

ومنه ما جاء قريبا من حديثه في الباب السادس حين كان يؤصل للمعنى المحال ويضع له حدّا، وهو الكلام الذي يجمع بين زمنين متغايرين، إذ يقول: " وتقول: ما أعدو أن جالستك، أي أن كُنتُ فعلت ذلك، أي ما أجاوز مجالستك فيما مضى، ولو أراد ما أعدو أن جالستك غدا كان محالا ونقضا، كما أنه لو قال: ما أعدو أن أجالسك أمس كان محالا"[(٤)].

وقد يكون من الإحالة القائمة على التناقض ما أورده سيبويه من تحليل للتركيب الذي يتضمن "أم " المتصلة للتعيين التي يراها مساوية لأيّ الاستفهامية في أن كلا منهما يتطلب تعيين أحد الشيئين، فهما يقومان على تصور في ذهن السائل، وعلى المسؤول أن ينطلق في إجابته من هذا التصور، وإلا فإنه قد

(١) سيبويه، **الكتاب**، ج ١، ص٣٤٥.

(٢) ابن يعيش، موفق الدين أبو البقاء يعيش (ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م) ، **شرح المفصل**، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١، ج ٤، ص٥٦٢ . وانظر: المبرد، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، ج ٤، ص١٠٧ . والرضي الاستراباذي، محمد ابن الحسن (ت ٦٨٦هـ / ١٢٦٩م) ، **شرح كافية ابن الحاجب**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨، ج٤،ص٣٩٤.

(٣) سيبويه، **الكتاب**، ج٢، ص١٦٨. وفي الأشباه والنظائر " وأن الخبرية يعطف عليها بلا فيقال: كم مالك لا مائة ولا مائتان، وكم درهم عندي لا درهم ولا درهمان. لأن المعنى كثير من المال وكثير من الدراهم لا هذا المقدار بل أكثر منه.. ولا يجوز في الاستفهامية لأن "لا" يعطف بها بعد موجب لأنها تنفي عن الثاني ما ثبت للأول و لم يثبت شيء في الاستفهام" السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) ، **الأشباه والنظائر**، تحقيق فايز ترحيني ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٤. ج٢، ص٢٧١.

(٤) سيبويه، **الكتاب**، ج ٣، ص٥٥ .

يدخل في حيّز الكلام المحال؛ يقول سيبويه: " هذا باب أم إذا كان الكلام بها بمنزلة أيهما وأيهم وذلك قولك: أزيدٌ عندك أم عمروٌ، وأزيداً لقيت أم بشراً؟ فأنت الآن مدَّع أنَّ عنده أحدهما، لأنَّك إذا قلت: أيهما عندك، وأيَّهما لقيت. فأنت مدّعٍ أنّ المسئول قد لقي أحدهما،أو أنّ عنده أحدهما، إلاَّ أن علمك قد استوى فيهما لا تدري أيهّما هو.

والدليل على أن قولك: أزيدٌ عندك أم عمروٌ ؟ بمنزلة قولك: أيّهما عندك؟ أنّك لو قلت: أزيدٌ عندك أم بشرٌ؟ فقال المسئول: لا، كان محالا، كما أنّه إذا قال: أيهّما عندك؟ فقال: لا فقد أحال"[١].

وهذه الإحالة قائمة على التدافع بين مفهوم الاستفهام عن التصور الذي في ذهن السائل، ومفهوم الاستفهام عن التصديق الذي أجاب عنه المسؤول[٢]؛ لأنّ "هذا النوع من السؤال الاستدراكي يثبت بأنّ واحدا من الاثنين صحيح. فنفي الاثنين يبطل التركيب كله وكذلك اصطلاحه الاجتماعي الذي يعتمد عليه"[٣].

وقد يكون منه أيضا ما جاء في سياق الحديث عن العطف على مجرور ربّ وكل، كما في قولهم: ربّ رجل وأخيه، وكل شاة وسخلتها، فالمعطوف نكرة، ولا يعتد بالضمير المتصل به لأنه عائد على نكرة، لأنك "تريد شيئا من أُمّةٍ، كل واحد منهم رجل، وضممت إليه شيئا من أمّةٍ، كلهم يقال له أخ، ولو قلت: وأخيه وأنت تريد شيئا بعينه كان محالا"[٤]. وهذه الإحالة متأتية من التناقض بين ما تدل عليه ربّ وما تدل عليه المعرفة في العربية؛ إذ إن معنى قولنا "ربّ رجل يقول ذلك: قل من يقول ذلك من الرجال، فلذلك "اختصت بالنكرة دون غيرها، ولأنها نظيرة كم .. إذ كانت كم للتكثير ورب للتقليل، والتكثير والتقليل لا يتصوران في المعارف"[٥] ؛ لأن المعارف تدل على شيء واحد لا يحتمل تكثيرا ولا تقليلا.

- الإحالة بعيدا عن مفهوم التناقض :

أما المواضع الأخرى التي ورد فيها المصطلح فتبتعد عن الجمع بين النقيضين، وتتحقق فيها الإحالة بأشكال أخرى يجمعها – في الغالب – خلو الكلام من المعنى أو فساد يعتريه فيجعله مما لا يفهم أو يقبل. ويتفاوت الفساد ويختلف بحسب القاعدة التي يخرقها التركيب أهي دلالية تتصل بالمعاني وما تقوم عليه من

(١) سيبويه، **الكتاب**، ج ٣، ص١٦٩ .

(٢) من الممكن تصنيف هذا النوع من المحال تحت ما سماه حازم القرطاجني : " تدافع بين المعاني وأغراض الكلام". انظر : القرطاجني، أبوالحسن حازم (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، دار الكتب الشرقية، ص١٣١.

(٣) كارتر، ميخائيل ج، "قراءة ألسنية للتراث اللغوي العربي الإسلامي: نحوي عربي من القرن الثامن الميلادي، مساهمة في تاريخ اللسانيات" ، **حوليات الجامعة التونسية**، ع ٢٢، ١٩٨٣، ص ٢٣٢.

(٤) سيبويه، **الكتاب**، ج ٢، ص٥٥ .

(٥) ابن يعيش، **شرح المفصل**، ج ٤، ص٤٨٣. وانظر : المبرد، **المقتضب**، ج ٤، ص١٦٤ . و الرضي، **شرح الكافية**، ج ٤، ص٣٠٠ .

علاقات كثيرة متداخلة على اختلاف مكونات المعنى وتعدد مستوياتها أم هي تقديرية تأويلية تقوم على تأويل للكلام يؤدي إلى خرق بعض الأصول التي ينطلق منها النحاة ويعتمدونها في سنّ القوانين والحكم على الكلام بالصحة أو الخطأ. ومن الممكن أن نصنف صور الإحالة هذه إلى أقسام، منها:

١. الإحالة ونقص الكلام:

قد تبرز الإحالة عند سيبويه في الكلام الذي لم تكتمل عناصره، فهو كلام ناقص، ونقصه يؤدي إلى قصوره عن أداء معنى يفهمه المخاطب، فالإحالة هنا من الممكن أن ترفع عن الكلام بإتمامه وإكمال ما يعتريه من نقص. وغالبا ما يأتي الحكم بالإحالة في هذا النوع عند سيبويه في سياق عقد مقارنات بين تراكيب يتصف بعضها بأنه محال لا سبيل إلى قبوله في منطق اللغة المعتمد عند أبناء العربية بسبب نقص دلالي أو تركيبي يجرده من المعنى في مقابل تراكيب مستقيمة مكتملة البناء تشتمل على كل العناصر اللازمة لتكوين معنى تام يقبله الفهم ويدركه العقل.

من ذلك مثلا قوله: " هذا باب الجزاء إذا كان القسم في أوله: وذلك قولك: والّله إن أتيتني لا أفعل، لا يكون إلا معتمدةً عليه اليمين. ألا ترى أنّك لو قلت: والله إن تأتني آتك لم يجز ولو قلت والّله من يأتني آته كان محالاً، واليمين لا تكون لغواً كلا والألف؛ لأن اليمين لآخر الكلام وما بينهما لا يمنع الآخر أن يكون على اليمين، وإذا قلت أإن تأتني آتك فكأنك لم تذكر الألف، واليمين ليست هكذا في كلامهم"(١). وقد فسّر النحاة ذلك بقولهم: "إن اليمين لا يقع إلا على مقسم به ومقسم عليه"(٢) . فإسقاط أحدهما يحيل الكلام عن وجهه، لأنه ينتج تركيبا ناقصا لا يُتصور له معنى، ولذلك يلجأ سيبويه إلى المقارنة بين اليمين وهمزة الاستفهام التي لا تعتمد على جزء آخر تكمل به كلاما.

ومنه ما أورده في سياق المقارنة بين "أيّ" الاستفهامية و"أيّ" الموصولة؛ إذ يقول: "وتقول في شيء آخر: أيُّ من إن يأتنا نعطه نكرمُه؟ فهذا إن جعلته استفهاما فإعرابه الرفع، وهو كلام صحيح. من قبل أن يأتنا نعطه صلة لمن فكمل اسما....فكأنك قلت: أيُّ القوم نكرمه، وأيهم نكرمه؟ ...فإن جعلت الكلام خبرا فهو محال؛ لأنه لا يحسن أن تقول في الخبر: أيهم نكرمه. ولكنك إن قلت: أيَّ من إن يأتنا نعطه نكرمُ هَينُ، كان في الخبر كلاما، لأن أيهم بمترلة الذي في الخبر، فصار نكرم صلة، وأعملت هين، كأنك قلت: الذي نكرم هين"(٣).

(١) سيبويه، **الكتاب**، ج ٣، ص٨٤ . ففي هذا النوع من التركيب يحرص على إكمال ركني القسم، ولا ينظر في إكمال ركني الشرط. لأن بالقسم يتم المعنى ويستقيم.

(٢) المبرد، **المقتضب**، ج ٢، ص٣٣٦ .

(٣) سيبويه، **الكتاب**، ج ٢، ص٤٠٥ . وانظر أيضا ص ٤٠٦؛ إذ يورد مقارنات أخرى بين الموصولة والاستفهامية تكون صحيحة مع الثانية محالة مع الأولى بسبب عدم اكتمال بناء الجملة فيها.

فهذا الحكم بالإحالة قائم على حاجة "أيّ" الموصولة إلى صلة تكمل بها، واستغناء الاستفهامية عن ذلك. ولذلك كان الكلام مستقيما معها محالا مع الموصولة للنقص الذي يعتريه ويحيله عن وجهه الصحيح الذي يفهم معنى. ويمكننا أن نوضح ذلك في الجدول التالي:

أيُّ	**مَنْ**	**إن يأتنا نعطه**	**نكرمُهُ؟**		**=**	**أيُّ**	**القوم**	**نكرمُهُ؟**		**كلام لاكتمال الجملة**
م	مض	صلة مض	خ			م	مض	خ		
أيُّ	**مَنْ**	**إن يأتنا نعطه**	**نكرمه**		**=**	**أيُّ**	**القوم**	**نكرمه**		**محال لنقص الخبر**
م	مض	صلة مض	صلةأي		=	م	مض	صلةأي		
أيُّ	**من**	**إن يأتنا نعطه**	**نكرمه**	**تهين**	**=**	**أيُّ**	**القوم**	**نكرمُه**	**تهين**	**كلام لاكتمال الجملة**
م	مض	صلة مض	صلةأي	خ	=	م	مض	صلةأي	خ	

٢. الإحالة وغياب المرجع:

وتأتي بعض صور المحال عند سيبويه قريبة جدا من حدّ الجرجاني الذي يقول فيه – كما أوردنا آنفا- المحال ما يمتنع وجوده في الخارج، فهو ما تضمن معنى يفتقر إلى مرجعية في الوجود، فالمرجع الواقعي للمعنى غائب أو مفقود، ومن ذلك قوله في باب البدل: "مررت برجل حمارٍ ، فهو على وجه محال، وعلى وجه حسن. فأما المحال فأن تعني أن الرجل حمار. وأما الذي يحسن فهو أن تقول: مررت برجل، ثم تبدل مكان الرجل فتقول: حمار، إما أن تكون غلطت أو نسيت فاستدركت، وإما أن يبدو لك أن تضرب عن مرورك بالرجل وتجعل مكانه مرورك بالحمار بعد ما كنت أردت غير ذلك"[١] . إذ يمتنع في الوجود أن يكون رجلا وحمارا في آن معا على الحقيقة[٢].

ويمكن أن يكون ما جاء في باب الاستثناء من هذا القسم الذي يمتنع تحققه في الوجود؛ إذ يجب نصب ما بعد إلا في الاستثناء التام الموجب ولا يجوز إتباعه على البدلية بخلاف الاستثناء المنفي؛ لأنك إذا قلت "أتاني إلا أبوك كان مُحالاً. وإنما جاز ما أتاني القومُ إلا أبوك لأنه يحسن لك أن تقول: ما أتاني إلا أبوك "[٣]. ولبيان وجه الإحالة في الأول يقول الأنباري: "فإذا قيل: لم جاز البدل في النفي ولم يجز في الإيجاب؟ قيل لأن البدل في الإيجاب يؤدي إلى محال، وذلك لأن المبدل منه يجوز أن يقدر كأنه ليس في الكلام، فإذا قدرنا هذا في الإيجاب كان محالا، لأنه يصير التقدير جاءني إلا زيد، ويصير المعنى أنّ جميع الناس جاءوني إلا زيد، وهذا لا يستحيل في النفي كما يستحيل في الإيجاب؛ لأنه يجوز ألا يجيئه أحد إلا

(١) سيبويه، **الكتاب**، ج ١، ص٤٣٩.

(٢) لا على التشبيه.

(٣) سيبويه، **الكتاب** ، ج ٢، ص٣٣٠ .

زيد"[١]. فوجه الإحالة فيه أنّ مجيء جميع الناس إليه – كما يُفْهِم التركيب على ما قدّره النحاة– مما يمتنع وقوعه في الوجود، فهو على ذلك محال.

وقريب منه الحكم على "إلا" بأنها صفة بمعنى غير وامتناع كونها أداة للاستثناء، كما في قولك: لو كان معنا رجل إلا زيدٌ لهلكنا. " والدليل على أنه وصف أنك لو قلت: لو كان معنا إلا زيد لهلكنا وأنت تريد الاستثناء لكنت قد أحلت"[٢].

ومنه ما جاء في سياق المقارنة بين تفضيل الشيء على غيره وتفضيل الشيء على نفسه باعتبارين مختلفين، كقولنا:

- مررت برجل خيرٌ منه أبوه
- ما رأيت رجلا أبغضَ إليه الشر منه.

إذ الابتداء في الثاني محال؛ لأنك إذا قلت: "أبغضُ إليه منه الشر لم يجز، ولو قلت خيرٌ منه أبوه جاز"[٣] . لأن ذلك يؤدي إلى تفضيل الشيء على نفسه مطلقا.كأننا نقول: الشر أبغض إلى (زيد) من (زيد)، وهذا ممتنع في الوجود والتصور معا.

وقد يكون من هذا الباب ما يتصل بتحديد معمولات الفعل، وما يجوز أن يتعدى إليه الفعل وما لا يجوز، إذ يرتبط ذلك عند سيبويه بمعنى الفعل وما يتطلبه هذا المعنى من معمولات يتعدى إليها؛ فلا يمكن أن يتعدى الفعل إلى أي معمول من دون أن يعوّل في ذلك على معناه، وإلا فإن ذلك قد يقود إلى كلام لا يمكن تصوره لانتفاء تحققه في الوجود[٤]. فمن ذلك قوله: " وزعم الخليل رحمه الله أن قولهم: ربحت الدرهمَ درهما محال، حتى تقول: في الدرهم وللدرهم"[٥]؛ إذ إن الفعل "ربح" لا يتطلب مفعولين ينصبهما، ولا يستلزم معناه ذلك، وعليه فإن التركيب السابق محال لأنه يتنافى مع حاجة الفعل ومعناه الذي يحدد عدد معمولاته ونوعها، ولأنه – بذلك- ينتج معنى غير قابل للتحقق أو التصور.

وأوضح منه ما أورده في سياق تحديد العامل في المفعول معه؛ إذ يرى سيبويه أنّ الفعل هو العامل في المفعول معه وليست الواو كما هو رأي بعض النحاة، ولكي يثبت ذلك يلجأ إلى التمثيل فيقول: "كأنك

(١) ابن الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن (ت ٥٧٧هـ / ١١٦١م) **أسرار العربية**، تحقيق فخر صالح قدارة، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٥ ، ص ١٨٩.

(٢) **الكتاب** ٢/٣٣١ .

(٣) سيبويه، **الكتاب**، ج ٢، ص٣٢ .

(٤) على الرغم من أن ذلك لا يعني الربط بين التصور والوجود؛ إذ يمكن أحيانا تحقق المعنى في التصور وعدم تحققه في الوجود، فهل يطلق على هذا النوع من الكلام حكم الإحالة؟

(٥) سيبويه، **الكتاب**، ج ١، ص٣٩٥ .

قلت في الأول: ما صنعت أخاك[١]، وهذا محال ، ولكن أردت أن أمثل لك"[٢] . فهذه الجملة (ما صنعت أخاك) يوردها سيبويه للتدليل على أنّ الناصب للمفعول معه هو الفعل، ولكنه يتدارك على نفسه فيوضح أنّها مما لا يمكن تحققه في الواقع، لعدم إمكانية تعدي الفعل "صنع" إلى المفعول" أخاك" ، فهو مما لا يقع في الوجود ولا يتصور في الذهن.

وقريب من ذلك امتناع تعريف الاسم بالألف واللام والإضافة معا، ولذلك يحكم سيبويه على الكاف في قولهم "النجاءك" وأمثالها بأنها حرف وليست ضميرا، لأنها "لو كانت اسما لكان النجاءك محالا، لأنه لا يضاف الاسم الذي فيه الألف واللام"[٣] ، إذ "لا يدخل تعريف على تعريف"[٤] ؛ لأن الألف واللام تعرفان الاسم بالعهد والإضافة تعرفه بالملك والاستحقاق، فاختلفت جهتا التعريف في كل منهما فامتنع الجمع بينهما، لأنه لا يمكن أن يكون لمثل هذا الاسم مرجع في الوجود أو تصور في الذهن.

٣. الإحالة والكلام المفكك:

ومن صور المحال عند سيبويه الكلام الذي تتفكك العلاقات فيه بين الكلمات فتصبح بلا رابطة دلالية أو تركيبية، فيستحيل – حينها- أن يكون للكلام معنى مفهوم معقول؛ لأن المعنى قائم – عند مستوى معين من مستوياته- على وجود روابط لغوية تربط بين عناصره فإذا فككت هذه الروابط فُقِد المعنى، ودخل الكلام في حيّز المحال.

ويتجلى هذا القسم بوضوح عند سيبويه في سياق حديثه عن الضمائر المتصلة والمنفصلة، فالأولى في اللغة استعمال المتصلة منها، وعدم اختيار الضمير المنفصل في أي موضع يجوز فيه استعمال المتصل، يقول سيبويه: "واعلم أنه قبيح أن تقول: رأيت فيها إياك، ورأيت اليوم إياه، من قبل أنك قد تجد الإضمار الذي هو سوى إيّا، وهو الكاف في رأيتك فيها، والهاء التي في رأيته اليوم،... وأما: ما أتاني إلا أنت، وما رأيت إلا إياك، فإنه لا يدخل على هذا، من قبل أنه لو أخر إلا كان الكلام محالا، ولو أسقط إلا كان الكلام منقلب المعنى وصار الكلام على معنى آخر"[٥] لأننا في مثل: ما أتاني إلا أنت لو اخترنا الضمير المتصل لاضطررنا إلى تأخير إلا فيصبح الكلام[٦]:

---

(١) في تفسير قولنا : ما صنعت وأخاك.

(٢) سيبويه، **الكتاب**، ج ١، ص٢٩٩. وانظر : الأعلم الشنتمري، أبو الحجحا يوسف بن سليمان بن عيسى (ت ٤٧٦هـ / ١٠٨٣م) ، **النكت في تفسير كتاب سيبويه**، تحقيق: رشيد بلحبيب، المملكة المغربية، ١٩٩٩، ج ١، ص.

(٣) سيبويه، **الكتاب**، ج ١، ص٢٤٤.

(٤) المبرد، **المقتضب**، ج ٤، ص٢٣٩ .

(٥) سيبويه، **الكتاب**، ج ٢، ص٣٦١ .

(٦) على افتراض أنّ الكلام قد تمّ وكمل.

- ما أتيتني إلا
- ما رأيتك إلا

وهذا كلام خال من المعنى تماما، بسبب انعدام وجود روابط دلالية وتركيبية تربط عناصره بعضها ببعض.

ومن هذا القسم قول سيبويه: " واعلم أنه محال أن تقول: عبدالله نعم الرجل، والرجل غير عبدالله ، كما أنه محال أن تقول عبدالله هو فيها، وهو غيره "(١) . لأنه إذا كان "الرجل" يعود على شخص غير عبد الله انفكت العلاقة بين المبتدأ (عبدالله) والخبر (نعم الرجل) ففقد الكلام معناه، فقولهم: نعم الرجل، معناه: محمود في الرجال(٢). وهذا لا يمكن أن يراد إذا كان المقصود بالرجل شخصا بعينه، لأن ذلك إيذان بانقطاع الرابط بين طرفي الجملة.

وقد يكون منه ما يورده سيبويه – في مواضع مختلفة – من حديث حول ضرورة التطابق بين الصفة وموصوفها في التعريف والتنكير والإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث؛ لأن عدم التطابق يفكك العلاقة بينهما، فيحيل الكلام عن وجهه. يقول سيبويه في باب ما ينصب فيه الاسم لأنه لا سبيل إلى أن يكون صفة: "واعلم أنه لا يجوز أن تصف النكرة والمعرفة، كما لا يجوز وصف المختلفين، وذلك قولك: هذه ناقة وفصيلها الراتعان. فهذا محال؛ لأن الراتعان لا يكونان صفة للفصيل ولا للناقة، ولا تستطيع أن تجعل بعضها نكرة وبعضها معرفة. وهذا قول الخليل رحمه الله"(٣) . ويقول في باب ما غلبت فيه المعرفة النكرة: "هذان رجلان وعبدالله منطلقين. وإنما نصبت المنطلقين لأنه لا سبيل إلى أن يكون صفة لعبدالله، ولا أن يكون صفة للاثنين، فلما كان ذلك محالا جعلته حالا صاروا فيها. وهذا شبيه بقولك: هذا رجل مع امرأة قائمين"(٤).

ومن هذا الباب وجوب التطابق في الإعراب بين المتعاطفيْن، لأنه يشير إلى دخولهما في علاقة تركيبية ودلالية واحدة، فإذا انتفى التطابق دل ذلك على تفكك العلاقة بينهما وانعدام الرابط الذي يربطهما، يقول سيبويه: " هذا باب ما يرتفع بين الجزمين وينجزم بينهما .... وأمَّا ما ينجزم بين المجزومين فقولك: إن تأتني ثمَّ تسألْني أعطك، وإن تأتني فتسألْني أعطك، وإن تأتني وتسألْني أعطك. وذلك لأنَّ هذه

(١) سيبويه، **الكتاب**، ج ٢، ص١٧٧ .

(٢) انظر : المبرد، **المقتضب**، ج ٢، ص١٤٩.

(٣) سيبويه، **الكتاب**، ج ٢، ص٥٩ . وفي **المقتضب** ٣١٤/٤ " الحال يجوز لهما والنعت لا يصلح من أجل عبدالله"

(٤) سيبويه، **الكتاب**، ج ٢، ص٨١ . وفي **اللباب**: " وإنما كانت الصفة كالموصوف في التعريف والتنكير والإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث والإعراب لأن الصفة هي الموصوف في المعنى ، ومحال أن يكون الشيء الواحد معرفة ونكرة ومفردا وأكثر في حال واحدة" . العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله (ت ٦١٦هـ / ١٢١٩م) ، **اللباب في علل البناء والإعراب**، تحقيق: عبد الإله النبهان، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٥. ج١، ص ٤٠٥.

الحروف يشركن الآخر فيما دخل فيه الأول. وكذلك أو وما أشبههنَّ.ولا يجوز في ذا الفعل الرفع. وإنَّما كان الرفع في قوله متى تأته تعشو، لأنَّه في موضع عاش، كأنه قال: متى تأته عاشياً. ولو قلت متى تأته وعاشياً كان محالاً. فإنَّما أمرهن أن يشركن بين الأوّل والآخر"(١).

ويتجاوز سيبويه – في باب العطف – شرط التطابق الإعرابي بين المتعاطفين إلى شرط آخر قائم على منطقية التشارك بينهما؛ فلا يكفي -لتحقيق التماسك بين عناصر التركيب العطفي- أن يتطابقا في الإعراب فقط، بل يجب أن يشتركا – دلاليا- في قبولهما الارتباط بالعامل، وإلا فإن انتفاء هذا الشرط مؤذن أيضا بتفكك التركيب ودخوله في حيّز المحال، وهذا البعد يتضح عند سيبويه في حديثه عن حتى الابتدائية التي لا يجوز الحكم عليها بكونها عاطفة، لأن العطف يحيل الكلام عن وجهه ويجمع بين ما لا يمكن الجمع بينهما، وذلك كما في قولهم : قد قاله القوم حتى إنّ زيدا يقوله، وقد انطلق القوم حتى إن زيدا لمنطلق، " فحتَّى ها هنا معلَّقة لا تعمل شيئاً في إنّ(٢)، كما لا تعمل إذا قلت: حتى زيد ذاهبٌ، فهذا موضع ابتداء وحتَّى بمنزلة إذا. ولو أردت أن تقول حتّى أنّ في ذا الموضع كنت محيلا، لأنَّ أنَّ وصلتها بمنزلة الانطلاق، ولو قلت: انطلق القوم حتّى الانطلاق أو حتّى الخبر كان محالاً."(٣) وقد أوضح المبرد وجه الإحالة في مثل هذه التراكيب بمقارنتها بتركيب آخر يأتي فيه العطف مقبولا لأنه المتعاطفين فيه مما يجوز الاشتراك بينهما في قبول الارتباط بالعامل، يقول المبرد: "ولو قلت في هذا الموضع "أنّ" كان محالا، لأن "أنّ" مصدر ينبئ عن قصة، فلو كان: قد قاله القوم حتى القول كان محالا. ولو قلت بلغني حديثك حتى أنك تظلم الناس، كان من مواضع أنّ المفتوحة لأن المعنى: بلغني حديثك حتى ظلمك الناس"(٤).

٤. الإحالة ومقام الكلام:

وقد يتسع معنى المحال عند سيبويه أحيانا، فيجاوز المعاني اللغوية الخالصة، ويخرج إلى دائرة المقام وما يكتنفه من علاقات بين المتكلمين والمخاطبين وما تحدده أحوالهم من أشكال مخصوصة للكلام تجوز في حال ولا تجوز في أخرى. فالإحالة –هنا- مضبوطة بضوابط من خارج اللغة، محكومة بما يقبله مقام الكلام- وليس الكلام- وما لا يقبله.

(١) سيبويه، **الكتاب**، ج ٣، ص٨٧ . ولاحظ أنّ سيبويه جعل رفع هذه الأفعال على أنها أحوال كما في قول الشاعر :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

محال لأن حروف العطف تمنع ذلك وتتطلب الإشراك بين المتعاطفين في الإعراب.

(٢) أي أنها الابتدائية وليست العاطفة.

(٣) سيبويه، **الكتاب**، ج ٣، ص١٤٣ . وواضح أنّ هذا الحكم بالإحالة مبني على تقدير النحاة أنّ واسمها وخبرها بالمصدر . وعطف المصدر على ما قبله في مثل هذه الجمل لا يستقيم.

(٤) المبرد ، **المقتضب**، ج ٢، ص٣٥٠ . وانظر: ابن يعيش، **شرح المفصل**، ج ٤، ص٥٢٨. وللتقريب نقول إنّ التركيب المحال الذي مثّل له سيبويه والمبرد في النصين السابقين يساوي قولنا : جاء زيد وكرسي . إذ يستحيل عطف الكرسي على زيد لأنهما مما لا يقبلان الاشتراك في الارتباط بالعامل "جاء" بخلاف جاء زيد وعمرو. وانظر في موضع آخر من مواضع الحديث عن العطف **الكتاب**، ج ٣ ، ص٢٦ و٢٨.

يقول سيبويه في مثل هذا الوجه: "وحدثنا يونس أيضا تصديقا لقول أبي الخطاب، أن العرب تقول: هذا أنت تقول كذا وكذا. لم يرد بقوله هذا أنت، أن يعرفه نفسه، كأنه يريد أن يعلمه أنه ليس غيره. هذا محال، ولكنه أراد أن ينبهه، كأنه قال: الحاضر عندنا أنت، والحاضر القائل كذا وكذا أنت"(١). فهذا الحكم قائم عنده على تحليل موقف الإشارة " فقد لاحظ أنّه يقوم في المواضعات المتعارفة على ثلاث جهات: المتكلم (المشير)، والمشار إليه، والمخاطب (المشار له)، ولاحظ أنّ المخاطب جهة لازمة في هذه الجهات، ولكنه جهة واحدة، فلا يجوز في حكم التحليل الخارجي للعبارة أن يكون المخاطب مشارا إليه ومشارا له في آن معا"(٢).

ومنه ما جاء عنده في سياق تحليل جمل من مثل: هو زيد معروفا؛ إذ يقول: "وإذا ذكرت شيئا من هذه الأسماء التي هي علامة للمضمر فإنه محال أن يظهر بعدها الاسم إذا كنت تخبر عن عمل أو صفة غير عمل، ولا تريد أن تعرفه بأنه زيد أو عمرو. وكذلك إذا لم توعد ولم تفخر أو تصغر نفسك... وذلك أنّ رجلا من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال: أنا عبدالله منطلقا، وهو زيد منطلقا كان محالا؛ لأنه إنما أراد أن يخبرك بالانطلاق، ولم يقل هو ولا أنا حتى استغنيت عن التسمية؛ لأن هو وأنا علامتان للمضمر، وإنما يضمر إذا علم أنك قد عرفت من يعني"(٣). فمصدر الإحالة هنا في التعارض بين دلالة التركيب وحاجة المقام؛ إذ لا حاجة إلى أن يعرف المتكلم السامع بنفسه؛ لأن هذه المعرفة متحققة أصلا فيما يدل عليه الضمير.

٥. الإحالة ومخالفة الأصول النحوية:

وتأتي بعض صور المحال عند سيبويه في سياق تحليل التراكيب وفق الأصول النظرية التي اعتمدها في وصف العربية وتقعيد قواعدها، فالمحال في مثل هذه الحالة هو افتراض يفترضه سيبويه لتركيب مخالف لأصل من أصول النظرية النحوية، أي أنّ مصدر الإحالة هنا يأتي من مخالفة التأويل الذي يفترضه سيبويه لقواعد يعتمدها ويصدر عنها في وصف اللغة وصوغ أحكامها العامة. ولا شك أنّ هذا الافتراض يوقع الكلام في حيّز المحال لأن مخالفة أصل من أصول النظرية يخرج الكلام عن حيّز الصحة أو المقبولية التي تتوافق مع ما أصبح عنده في حكم المتعارف عليه الذي لا خلاف حوله.

فمن ذلك – مثلا- ما يراه من امتناع إظهار الفعل (العامل) مع المنصوب على التحذير إذا تكرر أو عطف عليه بشيء، وجواز إظهاره إذا لم يتكرر، إذ يقول: "وإنما حذفوا الفعل في هذه الأشياء حين ثنّوا

(١) سيبويه، **الكتاب**، ج ٢، ص ٣٥٥ . ويقول في موضع آخر ١٤١/١ " لأنك لا تشير إلى للمخاطب إلى نفسه ولا تحتاج إلى ذلك، وإنما تشير له إلى غيره، ألا ترى أنك لو أشرت إلى شخصه فقلت: هذا أنت . لم يستقم"

(٢) الموسى، نهاد، **نظرية النحو العربي**، ص ٩٢.

(٣) سيبويه، **الكتاب**، ج ٢، ص٨٠ . وانظر: المبرد، **المقتضب**، ج ٤، ص٣١١.

(يعني ذكروا بعدها شيئا ثانيا) لكثرتها في كلامهم، واستغناء بما يرون من الحال، وبما جرى من الذكر، وصار المفعول الأول بدلا من اللفظ بالفعل.. فلو قلت : نفسك أو رأسك أو الجدار ، كان إظهار الفعل جائزا .. فلما ثنيت صار بمنزلة إياك، وإياك بدل من اللفظ بالفعل، كما كانت المصادر كذلك نحو: الحذر الحذر. ومما جعل بدلا من اللفظ بالفعل قولهم: الحذر الحذر، والنجاء النجاء، وضربا ضربا، فإنما انتصب هذا على: الزم الحذر، وعليك النجاء، ولكنهم حذفوا لأنه صار بمنزلة افعل. ودخول الزم وعليك على افعل محال"[١] . فالإحالة هنا سببها دخول فعل على فعل. ولكنّ التركيب الذي يتحدث عنه سيبويه خال من الفعل في الظاهر. إلا أنّ التكرار أو العطف على المنصوب مساو في التقدير عنده للفظ بالفعل.

ومن هذا الباب ما جاء في سياق الحديث عن نصب الفعل المضارع بعد اللام وحتى كقولك جئتك لتفعل أو حتى تفعل " فإنما انتصب هذا بأنْ، وأنْ ههنا مضمرة؛ ولو لم تضمرها لكان الكلام محالاً، لأنّ اللام وحتّى إنّما يعملان في الأسماء فيجرّان، وليستا من الحروف التي تضاف إلى الأفعال. فإذا أضمرت أنْ حسن الكلام لأنّ أنْ وتفعل بمنزلة اسم واحد، كما أن الّذي وصلته بمنزلة اسم واحد؛ فإذا قلت: هو الذي فعل فكأنك قلت: هو الفاعل، وإذا قلت: أخشى أن تفعل فكأنك قلت: أخشى فعلك. أفلا ترى أنّ أنْ تفعل بمنزلة الفعل، فلّما أضمرت أن كنت قد وضعت هذين الحرفين مواضعهما، لأنهما لا يعملان إّلا في الأسماء ولا يضافان إّلا إليهما."[٢]

ومنه الحكم على "مَنْ" بأنها موصولة وامتناع كونها شرطية في سياقات محددة، لأن ذلك قد يخرق بعض قواعد العمل النحوي المعتمدة عندهم، يقول سيبويه: " هذا باب ما تكون فيه الأسماء التي يجازى بها بمنزلة الذي: وذلك قولك: إنّ من يأتيني آتيه، وكان من يأتيني آتيه، وليس من يأتيني آتيه.وإنّما أذهبت الجزاء من هاهنا لأنّك أعملت كان وإنّ، و لم يسغ لك أن تدع كان وأشباهه معلّقة لا تعملها في شئ فلّما أعملتهنّ ذهب الجزاء و لم يكن من مواضعه. ألا ترى أنك لو جئت بإنْ ومتى، تريد إنّ إنْ وإنّ متى، كان محالاً. فهذا دليل على أنّ الجزاء لا ينبغي له أن يكون هاهنا بمن وما وأيّ. فإن شغلت هذه الحروف بشيء جازيت، فمن ذلك قولك: إنّه من يأتنا نأته"[٣]. فالحكم على "من" بأنها موصولة هنا، لأن هي التي تقبل أن تقع معمولة لعامل يطلبها " كان وإنّ وأشباههما". أما الشرطية فلا تستجيب لمثل هذا المطلب، فليس هذا من مواضعها.

وفي سياق الحديث عن العمل النحوي وشروطه وما يقبل منه وما لا يقبل يورد سيبويه تركيبا يمتنع فيه العمل النحوي امتناعا تاما؛ لأن العامل فيه يفتقد إلى شروط العمل كما اعتمدها النحاة، يقول

(١) سيبويه، **الكتاب**، ج١، ص٢٧٥ .

(٢) **المصدر السابق**، ج ٣، ص٦ .

(٣) **المصدر السابق**، ج ٣، ص٧١ .

سيبويه : "ولو قلت: مررت بأخيه أبوك، كان محالا أن ترفع الأب بالأخ"[١].

فهذه أهم أقسام المحال التي نجدها عند سيبويه، ويتضح من الأمثلة التي سقناها أنّ الإحالة عنده تتجاوز بعد التناقض الذي اتخذه معيارا، وهو يضع حدّ الكلام المحال في مقدمة كتابه. وقد يكون الجامع الذي يجمعها – إن استثنينا ما يتصل بمخالفة الأصول النحوية[٢] – اختلال في المعنى يخرج التركيب عن حدود الكلام الذي يتحمل دلالات يمكن فهمها أو ردّها إلى مرجعية مقبولة بين أبناء اللغة الواحدة. فهو مقياس " يطبق على العبارات التي يمكن أن لا تفيد شيئا بتاتا بالنسبة للمخاطب"[٣]

ونود أن نشير هنا إلى أنّ الإحالة في الكلام قد يُعَبِّر عنها سيبويه أحيانا بقوله "وهذا غير جائز، أو لا يجوز" فعدم الجواز قد يطابق عند سيبويه في كثير من المواضع الإحالة في الكلام. ولكننا آثرنا أن نقتصر في بحثنا هذا على المواضع التي صرّح فيها سيبويه بمصطلح الإحالة، من دون أن نُدْخِلَ في الاعتبار أي تعبير أو مصطلح قد يدل على الإحالة في معناه دون لفظه، حتى نتمكن من حصر الموضوع وتتبعه.

وقد لا يتضح معنى الإحالة عند سيبويه بجلاء إلا بعد أن يوضع المحال في مقابل أصناف أخرى من الكلام كالمستقيم والحَسَن والقبيح والضعيف وغيرها من الأصناف التي يوردها سيبويه في كتابه في سياق وصف الكلام وتحليل ما يتولد عنه من تراكيب كثيرة؛ إذ إنّ استخلاص معايير لكل صنف منها ووضعها بإزاء بعض قد يزود الباحث بتصور دقيق لمعايير تقسيم الكلام عند سيبويه إلى هذه المستويات التي – بلا شك- تتفاوت فيما بينها في استيفائها لشروط الكلام الجيد، أو المستقيم الحسن، على حدّ تعبير صاحب الكتاب، وهي شروط – كما لاحظنا جانبا منها – تبتعد عن الأحكام اللغوية العامة إلى ضوابط تفصيلية دقيقة تكشف عن أبعاد في التراكيب ذات خصوصية وفرادة، وتحمل القارئ على تأمل كيف تستعصي اللغة أحيانا عن أن ينفصل فيها النحوي عن الدلالي واللغوي الخالص عما يتداخل معه من أبعاد خارجية غير لغوية.

---

(١) سيبويه، **الكتاب**، ج ٢، ص٣٤. والعمل النحوي – كما أصله سيبويه – قائم بالدرجة الأولى على وجود علاقة دلالية معقولة ومقبولة بين العامل ومعموله، وهذه العلاقة لا تتأتى إذا خلا العامل من الحاجة "الدلالية" إلى معموله. وهذا ما نراه في مثل قولنا : مررت بأخيه أبوك. إذ إن مبدأ الحاجة الدلالية في العامل للمعمول منتف هنا. يقول المبرد : "فإن قلت في الواحد : هذا الضارب زيدا، وهو القاتل الرجل ، فمعناه الذي ضرب زيدا والذي قتل الرجل، فتنصب ما بعده لأن فيه معنى الفعل، ولا معنى للأسماء غير المشتقة في ذلك. ألا ترى أنك لو قلت: هذا الغلام زيدا. كان محالا" **المقتضب** ١٤٤/٤. وهناك مواضع أخرى وردت عند سيبويه في سياق الحكم على الكلام بالإحالة بسبب خرق في التركيب لقاعدة أو أصل من أصول نظريتهم النحوية. ينظر : ج ٣، ص٩٧ ، ١٠٣.

(٢) على الرغم من أنّ هذه أيضا من الممكن أن ترد بشيء من التلطف والتدبر إلى غيرها من الأقسام في كونها أيضا مما يختل فيها المعنى اختلالا يخرجها عن حيّز الكلام بشروطه اللغوية الكثيرة المتداخلة.

(٣) كارتر، ميخائيل ج ، "قراءة **ألسنية للتراث اللغوي العربي الإسلامي: نحوي عربي من القرن الثامن الميلادي** " ص ٢٣١ .

وهذا يؤكد ما سبق أن أشرنا إليه في بداية البحث من أنّ سيبويه كان يتعامل مع الظاهرة اللغوية على أنها ظاهرة شديدة التعقيد لا يمكن أنْ نقتصر فيها على تحليل الجمل تحليلا شكليا قائما على رصد العلاقات النحوية بين عناصرها. فهو – كما رأينا في النصوص السابقة وكما هو الحال في مجمل نصوص كتابه- يميل إلى تحليل الجمل تحليلا يعتمد على ربطها بمرجعية دلالية خاصة تحددها عوامل كثيرة، من أهمها الأصول العامة التي ينبني عليها أي نظام دلالي لغوي كأصل التوافق وعدم التناقض، وأصل المرجعية، وأصل منطقية العلاقات بين عناصر التركيب واستجابتها لشروط التطابق التركيبي والدلالي، وأصل التوافق بين اللغة ومقامات استخدامها ومقاصد الناطقين بها. "ففي تفكير سيبويه تنتظم البنية اللغوية بالبنية المنطقية، بل لا فصل في النظرة النحوية بين التركيبي والدلالي المنطقي. ونلاحظ في أمثلة المحال والقبيح والكذب شعورا خفيا بضرورة اتّساق المكوّن التركيبي الشكلي والمكوّن الدلالي المنطقي ليتحقق الإبلاغ"(١).

وبسبب هذا النوع من التحليل الذي يعتمده سيبويه نجد أنّ المحال من الكلام عنده متعدد الأوجه مختلف المستويات، لكنّ هذا الاختلاف لا يخرجه من دائرة المحال إلى حيّز كلام آخر قد يقال فيه ضعيف أو قبيح أو حسن. إنّ الإحالة – عنده- يجمعها جامع واحد، هو اختلال في المعنى يخرجه من دائرة الكلام المقبول الذي يعقله ابن اللغة، ولكنّ هذا الاختلال تتعدد مداخله وتتنوّع عنده. وهذا التعدد سببه – كما ذكرنا – تعقيد الظاهرة اللغوية وتعدد عناصرها وتنوع ضوابطها كما كان يراها سيبويه، وكما يظهر بوضوح في كثير من نصوصه وتحليلاته.

وإذا أردنا أن نتتبع تطور المصطلح عند من جاء من النحاة بعد سيبويه، فإننا سنجد أنّ معظم نصوصهم تدور في فلك المحال، كما أصّل له سيبويه في البدء. بل إنّ المصطلح عندهم يرد، في كثير من الأحيان، في المواضع نفسها التي وردت عنده، وفي الأمثلة ذاتها التي ذكرها في كتابه(٢).

والذي يبدو أنّ مصطلح الإحالة في الكلام بقي في علم النحو كما أصّل له سيبويه، إلا أنّه ظهر – فيما بعد – في صورة أكثر وضوحا في مصنفات النقاد والبلاغيين الذين حاولوا أن يضعوا له حدودا دقيقة مقنّنة، فحصروا مفهومه – في الغالب – في بعد غياب المرجعيّة الذي قد يتأتى من التناقض أو غيره.

ولا شك أنّ غايات البحث النقدي والبلاغي قد وجهت البحث في وجوه الإحالة في الكلام؛ فليس الكلام هنا وصفا للتراكيب اللغوية في أشكالها التي قد تتعدد بتعدد المقاصد والمقامات

(١) عاشور، المنصف ، **ملاحظات حول رسالة سيبويه**، ص ١٨١.

(٢) أشرنا في بعض المواضع إلى نصوص عند نحاة آخرين مثل المبرد ، وابن يعيش، والرضي وغيرهم. وللتأكيد نقول إن مصطلح "محال" تكرر في كتاب المقتضب سبع وثلاثون مرة في مواضع تكاد تتطابق مع ما جاء عند سيبويه في الأمثلة والتحليل.

والدلالات، وما يصح منها وما لا يصح في ضوء ضوابط متنوّعة تُستّقى من اللغة نفسها أو مما يلابسها ويؤثر فيها.

وأكثر ما يلفت النظر عند البلاغيين تمييزهم بين المحال والمُمْتَنِع من الكلام، "فالمستحيل هو الذي لا يمكن وقوعه ولا تصوّره مثل أن يكون الشيء طالعا نازلا في حال. والممتنع هو الذي يُتَصَوَّر وإن لم يقع كتركيب عضو من حيوان على حيوان آخر"(١). فالمحال عند البلاغيين " صنف من المعاني المنجزة تتميّز بغياب المرجعين الواقعي والذهني في آن واحد"(٢). أمّا الممتنع فهو ما غاب فيه المرجع الواقعي دون المرجع الذهني. وهذا التمييز لا نجده – بوضوح – عند سيبويه أو عند من جاء بعده من النحاة. لأنّ سيبويه كان ينطلق في حدّه وضوابطه من التركيب المُنْجَز والتراكيب المحتملة التي قد تتوالد منه بحسب المقاصد والمقامات والدلالات، فهو يصف اللغة في صورها المتحققة أو المحتملة منتبها إلى تضافر العناصر اللغوية المختلفة.

أما البلاغيون فقد انطلقوا من معايير الجمال والبلاغة في الكلام، وعليه قسموا المعاني والألفاظ تقسيمات تتفاوت في استيفائها شروط الحكم على الكلام بأنه كلام بليغ عال، وهي تقسيمات تنطلق بدءا من معايير الجمال التي تعارف عليها القوم، ثم تُمْتَحَن في صور تمثّلها في اللغة، الشعرية خاصة. فليس المنطلق وصف المستعمل في اللغة وتحليله، بقدر ما هو محاولة لوضع شروط جمالية نقدية لصور مخصوصة من هذا المستعمل يصح فيها أن توصف بصفة البلاغة والحسن. ولذلك نجدهم – أي البلاغيين- يَفصِلون في حديثهم بين المعاني والألفاظ، ويضعون لكل قسم منها حدودا وضوابط تميّز بليغ الكلام من غثّه ورديئه.

ومهما يكن من أمر فإن المعنى المحال – كما ورد في كثير من مصنفات البلاغة- قد اتّجه إلى الانحصار في بعد مرجعية الكلام سواء كانت هذه المرجعية واقعية مستمدة من شروط الوجود الخارجي وصفته، أم ذهنية مستمدة مما يستطيع أن يتصوره الذهن أو يعجز عنه. أما الأبعاد الأخرى التي وجدناها عند سيبويه من مثل الكلام الناقص أو الكلام المفكك أو الكلام المخالف لشروط المقام فإنها تكاد تختفي عند البلاغيين، أو تندرج بشكل أو بآخر في كونها مما لا مرجع لها في الوجود أو الذهن.

وعلى الرغم من ذلك، فإنهم في معظم ما أصلوا له في شأن الإحالة في الكلام كانوا يقتفون

(١) القرطاجني، حازم ، **منهاج البلغاء**، ص ١٣٣. ويقول قدامة بن جعفر " والفرق بين الممتنع والمتناقض أنّ المتناقض لا يكون ولا يمكن تصوره في الوهم، والممتنع لا يكون ولكن يمكن تصوره في الوهم". قدامة، أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت ٣٧٢هـ/ ١٠٠١م) **نقد الشعر**، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٢٠١.

(٢) المبخوت، شكري ، "المعنى المحال في الشعر" ، ضمن كتاب: **صناعة المعنى وتأويل النص**، منشورات كلية الآداب بمنوبة، جامعة تونس، ١٩٩٢، ص٧٧.

أثره ويستهدون بضوابطه العامة الكلية، يقول العسكري في كتابه الصناعتين: "والمعاني بعد ذلك على وجوه ... منها ما هو مستقيم حسن نحو قولك: قد رأيت زيدا.. ومنها ما هو مستقيم قبيح نحو قولك: قد زيدا رأيت، وإنما قبح لأنك أفسدت النظام بالتقديم والتأخير.. ومنها ما هو مستقيم النظم وهو كذب، مثل قولك: حملت الجبل وشربت ماء البحر.. ومنها ما هو محال كقولك آتيك أمس وأتيتك غدا .. وكل محال فاسد .. والمحال ما لا يجوز كونه البتة، كقولك: الدنيا في بيضة"(١) .

ولذلك نجد القرطاجني، مثلا، يحدد أربع حالات تقع فيها الإحالة في الكلام، وكلها مما عرفه سيبويه وأشار إليه وفسّره، يقول القرطاجني: "فلذلك اقتصرتُ في هذا المنهج من النظر في صحة المعاني على ما يقع فيها من إحالة، من جهة نسبة وصف إلى موصوف، ومن جهة تناقض واقع بين متقابلين، أو من جهة تدافع بين المعاني وأغراض الكلام، أو من جهة تباين بين الأوصاف وأحوال الموصوفين"(٢).

وهذه الجهات نجدها عند سيبويه في أمثلة ذكرنا طرفا منها. إلا أنّ الاختلاف بين سيبويه والبلاغيين مردّه إلى اختلاف الغاية والمنهج ممّا ساعد في أنْ يتخفف المحال عندهم من تعدد الأوجه والأسباب والأمثلة الجزئية، ويتجه نحو التجريد والتعميم، فيصبح أدخل في البعد الدلالي الخالص وعلاقته بالتصور الذهني ومرجعيته في الوجود. أما التركيب وشروط بنائه العلائقية والنحوية والدلالية والمقامية فإنّ البلاغة قد تخففت منها، وصار المحال في التصور البلاغي مفهوم قائم بالدرجة الأولى على تصور العلاقة بين الوجود والتصور واللغة، في تفكير خاص يرى المعنى يقوم على وجود علاقة مفهومة بين هذه الأبعاد الثلاثة. فإذا اختلت العلاقة بينها إلى درجة الانقطاع الذي لا سبيل إلى وصله صار الكلام محالا. فإذن "اللفظ والعلم والمعلوم ثلاثة أمور متباينة لكنها متطابقة متوازية"(٣) وبوجود رابط منطقي مقبول بينها يتحصل المعنى، وبغياب هذا الرابط ينتفي المعنى ويكون الكلام حينئذ من المحال الذي لا يجوز كونه البتة.

---

(١) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م) **الصناعتين**، تحقيق: مفيد قميحة، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤، ص ٨٥.

(٢) القرطاجني، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء** ، ص ١٣١.

(٣) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ / ١١١١م) ، **المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى**، تحقيق: فضلة شحادة، دار المشرق، بيروت، ١٩٧١، ص ١٩.

المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد (٣) العدد (١) ذوالحجة ١٤٢٧هـ / كانون الثاني ٢٠٠٧م

ظاهرة التوطئة في النحو العربي

د. حسين عباس الرفايعة *

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٠٦/٣/١٥ تاريخ القبول: ٢٠٠٦/٩/١٨

ملخّص

يكشف هذا البحث عن لوازم التوطئة في النّحو العربي، إذْ جاءت غُفْلاً في الدراسات اللغويّة قديمها، وحديثها وذاك أَمْــرٌ دفع رغبة الباحث دَفْعاً إلى الكشف عن كُنْه هذه المسألة من حيثُ : مصطلحها، وشرطها، ودواعي المصير إليها، وأنظــار النّحويّين فيها من قدامى ومحدثين، والمسائل النّحوية التي تندرج تحتها، إذ تبدو هذه المسائل واضحة في باب وتختفي نهائيّــاً في باب آخر.

Abstract

Prelusion in Arabic Syntax

Dr. Hussein A. al-Rafay's

This study aims at investigating the Prelusion requirements in Arabic Syntax. A careful investigation of the previous literature shows that these requirements have received little attention by scholars and, thus, they have remained unaccounted for in almost all subfields of Arabic syntax. As such, this study aims to fill in the gap by delineating all aspects of the Prelusion requirements : its concept, its conditions, its advantages, its necessity, its ability to account for syntactic problems and the scholars' views of these requirements.

* قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الحسين بن طلال.

لوازم التوطئة في النّحو العربيّ

الحمدُ لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَنْ ولاه أمّا بعد :

فممّا لَفَت انتباه الباحث في أثناء الدرس النّحوي أَنَّ ثَمّةَ مسائلَ في العربيّة، تتوفر عليها لوازم التوطئة، إذ تظهر في باب نحويّ، وتختفي في باب آخر، ولّما كانت هذه المسألة غُفْلاً، إذ لم تحظ باهتمام النّحويّين، دفعت الرغبة الصادقة الباحث دَفْعاً؛ لتتبع مسائلها في المظانّ النحويّة، والوقوف على سيرورتها في اللسان العربيّ، ودواعي المصير إليها، وجمع أشتاتها.

التوطئة لغة واصطلاحاً :

تذهب المعجمات اللغويّة إلى أَنّ التوطئة مصدرٌ قياسيّ للفعل (وطّأ) بمعنى هيّأ[١]، فالتوطئة والتهيئة بمعنى واحد، قال تعالى :﴿ فأووا إلى الكهف يَنْشر لكم ربُّكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مّرفقاً ﴾[٢]، وتأتي التوطئة بمعنى[٣] (سهّل، وبسط، ومهّد) وعلى اللفظ الأخير جاء قوله تعالى: ﴿ومهّدت له تمهيداً﴾[٤]، أي بسطت له الجاه العريض، والرِّياسة في قومٍ، وتوفّر على هذا المعنى قول الناس : " أدام الله تأييدك وتمهيدك، أي بَسَط الله لك الجاه والحِشمة "[٥].

والفعل (وَطَأ) و (وَطَّأ) على الوزنين (فَعَل)، و (فَعَّل) لا يفيد مشاركةً إلاّ أنّ الباحث يلحظ في مصدر الفعل (وَطَّأ) اجتلاباً لمعنى المشاركة، إذْ لا يُتَصوّر وقوع التوطئة، وتحقّق شرطها إلاّ باقتران شيئين : أحدهما يهيىء لوقوع الآخر وفي ضوء هذا التصور يمكن القول إنّ التوطئة النحويّة : لطيفة أُسلوبيّة من أساليب العرب في كلامها، تقع في التركيب بين شيئين أحدهما يهيّيء لوقوع الآخر.

وتبدو فائدة التوطئة جليّة من حيث كونُها إعلاماً لأمرٍ خفيٍّ؛ يدور في خَلَد المتكلّم الذي يراعي فيها حال المتلقي، ففيها من التلطف بنفسيّة المتلقي ما لا يخفى على ذي علم؛ لأنّ النفس لا تقبل وقوع الأمر دفعة واحدة؛ لذا مهّدت العرب في لسانها، ووطّأت لمثل هذه الاعتبارات الأسلوبيّة.

النّحويّون والتوطئة :

لم يجد الباحث – في حدود ما يعلم – حدّاً اصطلاحياً للتوطئة النّحويّة، إذا ما استثنينا شــذرات مُتناثرة في مصنّفاتهم النَّحويّة، لا ينتظمها عِقْد، إذ ألمحوا إليها بألفاظ دالّة عليها دون النَّص الصريح علــى

(١) الزبيديّ، محمد مرتضى، (١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م) **تاج العروس**، مكتبة دار الحياة، بيروت، لبنان، د.ت، مادة (وطأ).
(٢) **الكهف** : (١٦).
(٣) الزبيدي، **تاج العروس**، مادة (وطأ).
(٤) **المدثر** : (١٤).
(٥) الزمخشري، أبو القاسم، محمود بن عمر (٥٣٨ هـ / ١١٤٣م)، **الكشاف**، تحقيق : عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠١، ج٤، ص ٦٥٠.

حدِّها، ولعلّ أوّل نَصٍّ يطالعنا في هذا المدار ما توفّر عليه قول سيبويه، إذ عبَّر عنها بلفظ (هيّأ، وصيَّر، وأخلص)، وهذا بَيّن في كلامه على باب الحروف التي لايليها إلاّ الفعل قال سيبويه : " ومن تلك الحروف: رُبَّما، وَقَلَّما، وأشباههما، جعلوا رُبَّ مع (ما) بمترلة كلمة واحدة، وهيّؤوها ليُذكر بعدها الفعل؛ لأَنّهم لم يكن لهم سبيل إلى (رُبّ يقول) ولا إلى (قَلَّ يقول) فألحقوهما (ما) وأخلصوها للفعل"(١).

ويطالعنا في موطن آخر كلامه على (أخلص)، يقول : "ومثل ذلك : هلاّ، ولولا، وأَلاّ ألزموهنّ (لا) وجعلوا كُلَّ واحدة مع (لا) بمترلة حرفٍ واحدٍ، وأخلصوهنّ للفعل حيث دخل فيهنّ معنى التحضيض"(٢).

وجاء كلامه على (صيّر) بمعنى وطّأ، وهيّأ في أثناء بسطه لقول الخليل في مسألة دخول (ما) على (الكاف)، إذ تكفّها عن العمل، وتهيئها للدخول على الفعل " وسألت الخليل عن قول العرب : انتظرني كما آتيك، وارْقُبْني كما ألحقك، فزعم أَنّ (ما) و (الكاف) جُعلتا بمترلة حرفٍ واحدٍ، وصيّرت للفعل، كما صُيّرت للفعل رُبّما "(٣).

ومِمّا يجري في مدار قول سيبويه ما ذهب إليه المبرد، إذِ ارتأى أَنّ دخول (ما) على (رُبّ) يزيل عنها اختصاص الدخول على الاسم، ويوطِيء لها الدخول على الفعل " وكذلك (رُبّ) تقول : رُبَّ رجلٍ، ولا تقول : رُبَّ يقوم زيد، فإذا ألحقت (ما) هيّأتها للأفعال، فقلت: رُبما يقوم زيد.... "(٤).

ولا نَعْدَمُ أَنْ نجد مصطلحي (الإنذار، والتسلط) بمعنى التوطئة عند الرّمانيّ، وذلك بيّن في كلامه على اللام الموطئة للقسم " وتأتي مع (إنْ) توطئة للقسم وإنذاراً به "(٥) ، وذَكَرَ في موطن آخر وَصْلَ (ما) بـ (رُبّ) " أَنْ تكون مسلطة، وذلك نحو قولك : رُبّما قام زيد، وذلك أَنّ (رُبّ) تدخل على الأسماء النكرة، فلمّا دخلت عليها (ما) سلطتها على الدخول على الأفعال"(٦) .

أَمّا ابن جنّي فقد ذهب إلى مصطلحي التوطئة، والإيذان، إذْ عَمَد إلى نقل كلام ابن السرّاج

---

(١) سيبويه، أبو بشر، عمرو بن عثمان (١٨٠هـ / ٧٩٦م) : **الكتاب**، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، ط٣، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣، ج٣، ص ١١٥.

(٢) سيبويه، **الكتاب** : ج٤ : ٢٢٢.

(٣) **المصدر السابق**، ج٣ : ١١٦.

(٤) المبرّد ، محمد بن يزيد (٢٨٥هـ / ٨٩٨ م) : **المقتضب**، تحقيق : محمّد عبد الخالق عضيمة، القاهرة، ١٣٩٩، ج٢ : ص٥٤.

(٥) الرمانيّ، علي بن عيسى (٣٨٤هـ / ٩٩٤م) : **كتاب معاني الحروف**، تحقيق : عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالّة، القاهرة، ص٥٤.

(٦) الرمانيّ، **المصدر السابق**، ص ٩١.

(ت : ٣٢١هـ) الذي ذهب إلى أَنّ الأسماء الستة المعربة بالحروف دون الحركات، إنّما جَرَت على هذا السَّمت؛ ليكون ذلك توطئة لإعراب المثنّى، وجمع المذكّر السالم بالحركات الفرعيّة " مِنْ ذلك، نحو : أخوك، وأباك، وهنيك، فإنّ أبا بكر ذهب إلى أَنّ العَرب قدّمت منه هذا القدر توطئة لما أجمعوه من الإعراب في التثنية والجمع بالحروف "(١).

أمّا لفظ الإيذان فقد ذكره في أثناء كلامه على العبارة الموروثة عن العَرَب (لا أبا لك)، إذ ارتأى أَنّ " الألف تؤذن بالإضافة والتعريف، واللام تؤذن بالفاصل والتنكير "(٢).

والقول نفسه مع الجليس النَّحوي الذي سار على سَمْت مَنْ سبقه من النّحويّين، إذ ذهب إلى مصطلحي (التهيئة والإنذار)، وظهر ذلك جليّاً في كلامه، على دخول (ما) على حرف الجر الشبيه بالزائد (رُبّ)، يقول : " و (ما) هيّأت رُبَّ وأعدّته لأَنْ يليه الفعل بعد أَنْ كان مختصّاً بالاسم "(٣).

وقال في موطن آخر تكلّم فيه على قبول الفعل تاءَ التأنيث، إذ تُعَدُّ (التاء) موطئة لمجيء المسند إليه مؤنّثاً " وإنّما تلحقه علامة التأنيث لتكون أمارة لتأنيث فاعله، وإيذاناً به "(٤).

ويبدو لي أَنّ المتأخرين من النُّحاة قد وقفوا عند مصطلح التوطئة دون غيره وقوفاً عابراً، وهذا بيّن عندهم في مسائل اللام الموطئة للقسم، والحال الموطئة، ومسألة البَدَل، جاء في شرح الكافية " الحال الموطئة، وهي اسم جامد موصوف بصفة هي الحال في الحقيقة "(٥).

والقول نفسه عند الأزهريّ، إذ ذكر مصطلح التوطئة في باب البدل، فقد ذهب إلى أَنّ المبدل منه يأتي توطئة للبدل " والغَرَض منه أَنْ يُذكر الاسم مقصوداً بالنسبة بعد التوطئة لذكره بالتصريح بتلك النسبة إلى ما قبله لإفادة توكيد الحكم وتقريره، ولذلك يقولون : البدل في حكم تكرير العامل "(٦).

ومهما يكن الأمر، فإنّ النّحويّين القدامى والمحدثين لم يضعوا حَدّاً اصطلاحيّاً للتوطئة، ولكن يمكن

(١) ابن جنّي، عثمان، (٣٩٢هـ / ١٠٠١م)، **الخصائص**، تحقيق: محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت، لبنان، ط٢، ج١، ص٣١٠.

(٢) ابن جنّي، **المصدر السابق**، ج١، ٣٤٤.

(٣) الجليس النّحويّ، الحسن بن موسى، (٤٩٠هـ / ١٠٩٦م) **ثمار الصناعة**، تحقيق : حنّا حدّاد، وزارة الثقافة الأردنيّة، عمّان، ط١، ص٥٦.

(٤) الجليس النّحويّ، **المصدر السابق**، ١٧٣.

(٥) الاستراباذي، رضي الدين (٦٨٦هـ / ١٢٨٧م) **شرح كافية ابن الحاجب**، تحقيق : إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط١، ج٢، ص٧٠. وانظر : المرادي، الحسن بن قاسم (٧٤٩هـ / ١٣٤٨م)، **الجنى الداني في حروف المعاني**، تحقيق : فخر الدين قباوة، ومحمّد نديم فاضل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٣، ص٣٣٥. ابن هشام الأنصاريّ، (٧٦١هـ / ١٣٥٩م) **مغني اللبيب**، تحقيق : مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، ط٥، ١٩٧٩، ص١٨٢.

(٦) الأزهري، خالد (٩٤٠هـ / ١٥٣٣م)، **شرح التصريح على التوضيح**، تحقيق : محمد باسل، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط١، ج٢، ص١٩٠.

لنا أن نضع لها حدّاً اصطلاحيّاً - مستعينين بَفْهم مثالهم المصنوع – يجري في مدار كونها مسألة تكييفيّة تقع بين شيئين؛ لتحقيق إرادة متقدّمة لأمر ما، تكون معقودة في نيّة المتكلّم.

ويتراءَى للباحث أنّ شرط تحقيق التوطئة يتمثل بوقوعها بين شيئين، وقوع الأوّل منهما يوطىء لوقوع الشيء الثاني لمعنى يريد وقوعَه المتكلّمُ المعتمدُ على وسيلتين في تحقيق ظاهرة التوطئة، هما :

١ - الوصل : وهو جانب تركيبيّ يتولّد من وَصْل حرف بحرف، أو حرف بفعل، على نحو ما يطالعنا في وَصْل (ما) الكافة بالحرف (رُبّ)، إذ تبطل عمله، وتوطئه للدخول على الفعل بعد ما كان متسلطاً على الاسم، ومثل هذا دخولها على حرف الجر (الكاف) على نحو ما سَلَف من قول الخليل.

وأمّا دخول (ما) على الفعل، فنحو : قلّما، حالما، طالما، شدّ ما، فَوَصْلُ هذه الأفعال بـــ (ما) يؤذن بدخولها على الأفعال، ومفارقتها للأسماء، فـــ (طالَ) وأخواتها لا يليها الفعل مباشرة إلاّ بوجود الوصل بـــ (ما)، نحو قول الأعرابيّ [(١)]:

فلمّا كتمت الحُبَّ قالت لشدّ ما صَبَرْتَ وما هذا بفعل شجي القلبِ

فَنُقِل الفعل من وظيفة إلى وظيفة أُخرى بوساطة الوَصْل، وسنرى ذلك بيّناً في أثناء مناقشة مسائل هذه الظاهرة.

٢ - الفَصْل : وهو وسيلة بيّنة في مسألة التوطئة على نحو ما يطالعنا في مسألة اللام المقحمة في العبارة اللغويّة الموروثة (لا أبا لك)، إذ فُصِل بها بين المضاف والمضاف إليه؛ لأَنّ عدم الفصل يترتب عليه مجيء اسم (لا) النافية للجنس معرفة.

وممّا يجري في مدار هذه الوسيلة ما نطالعه في باب التوكيد، من توكيد الضمير المرفوع المتصّل توكيداً معنوياً، إذ لا بُدَّ من التوطئة بضمير الفصل بين المؤكَّد والمؤكِّد، نحو : جئتَ أنتَ نَفْسُك.

والقول نفسه في باب العطف، إذا عُطِف الاسم الظاهر على الضمير المرفوع، فلا بُدّ من التوفّر على ضمير الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه، نحو قوله تعالى : ﴿اذهبْ أنتَ وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري ﴾[(٢)].

وتطالعنا مسائل أُخر سنعرض لها في مكانها، وإنّما أُريد التنبيه على وسيلتي التوطئة في حكمها الغالب في المسائل النّحوية ليس غيرُ.

داعيا التوطئة :

يبدو للباحث أنّ ثَمَّةَ داعيين لمسألة التوطئة - وهما متداخلان - إذ لا يمكن فَصْلهما، أحدهما يتعلق

(١) المبرّد ، محمد بن يزيد (٢٨٥هـ / ٨٨٩م)، **الكامل في اللغة والأدب**، مكتبة المعارف، بيروت، ج١، ص١٦٧.
(٢) **طه** : (٤٢).

بمسألة المعنى، والآخر يتعلق بمسألة اللفظ، إذ يوليهما العربيّ اهتماماً كبيراً، فاجتلاب الفَصْل أو الوَصْل لا يتأتى إلاّ لتحقيق الجانب المعنويّ، أو إصلاح التركيب، فالعربيّ يُصْلح التركيب لتحقيق غاية المعنى، فجملة جواب الشرط مثلاً لا تصلح أَنْ تكون جملة اسميّة، أو جملة مصدّرة بالحرف، أو فعلاً جامداً، أو جملة طلبيّة؛ لذا كان لزاماً إصلاح هذا التركيب بإدراج حرف (الفاء)؛ ليوطىء هذه الحرف لمجيء الجملة جواباً للشرط نحو قوله تعالى : ﴿إنْ يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله﴾ (١)

كما أنّ الوصل ببعض الحروف يهيّيء إلى الانتقال من معنى الديمومة والثبات إلى معنى التغيّر والتجدّد، وهذا بيّن في الجملتين : الاسميّة التي تحقق الثبات، والفعلية التي تضفي التجدّد والتغيّر، فالحروف المختصة بالدخول على الأسماء التي تمثّل الديمومة والثبات، إذا وُصِلت بـ (ما) يَسّرت لها الدخول على الأفعال التي تمثّل التجدّد والتغيّر.

وقد أجمل عباس حسن مسألة المعنى في أثناء كلامه على البَدَل من خلال مثاله المصنوع (سرّني عُمَرُ عَدْ لُه) " فلو قلت : عَدْ لُه لما عرفت رَجْع الضمير يكون إلى ماذا ؟ فلولا البدل لكان هناك نقص معنويّ، ولدارت هناك أسئلة متعددة، فلا تكتمل الفائدة إلاّ بتمام هذه الناحية المعينة، وزال النقص "(٢).

وهذه مسألة متعلقة بداعي المعنى، وهو رفع اللبس؛ لأنَّ التوطئة في بعض المسائل تؤدي إلى تشتت الذهن الذي يفضي إلى ذهاب المعنى، وهذا ما ذهب إليه الأزهريّ في مسألة توكيد الضمير المرفوع المتّصل توكيداً معنوياً، فَعَدم التوفّر على ضمير الفَصْل يوقع لَبْساً " إذ لو قيل : المرأة خرجت عينُها، توهّمت الباصرة، أو : نَفْسُها، توهّمت نفس الحياة "(٢)، فإغفال ضمير الفَصْل يحدث لَبْساً لا محالة.

وفي كتاب الفوائد والقواعد قَبَس من هذا المعنى " وإنّما وقع البدل في الكلام؛ لأنّ فيه إيضاحاً للمبدل، ورفع لبس كما كان ذلك في الصفة "(٣).

وممّا يمكن إخضاعه للتوطئة من المسائل النّحويّة :

١ - الأسماء الستة :

هي أسماء مفردة، من حقّها أن تُعْرب بالحركات الأصليّة، إلاّ أَنّها فارقت بابها، فاستأثرت بالحركات الفرعيّة في حال التّمام على حَسْب قيد النّحويّين بالشروط المدوّنة في مظانهم النَّحويّة، ولمّا كان هذا الخروج لافتاً للنظر، ذهب النّحويّون يتأملون سبب هذا الخروج، فارتأى ابن السرّاج أَنّ إعرابها

(١) **آل عمران:** (١٤٠).

(٢) حسن، عباس ، **النّحو الوافي**، دار المعارف، مصر، ط٧. ٣ / ٦٦٣.

(٣) الأزهري، **شرح التصريح على التوضيح**، ج٢، ١٤٠.

الثمانيني، عمر بن ثابت (٤٤٢هـ / ١٠٥٠م)، **الفوائد والقواعد**، تحقيق : عبد الوهاب محمود الكحلة، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢، ص٣٦٩.

بالحروف يُعَدُّ توطئة من قِبَل المفرد (الأصل) للمثنى والجمع، إذ يعربان بالحركات الفرعيّة، فإعراب هذه الأسماء المفردة الستة بالحركات الفرعيّة يوطىء لإعراب المثنى والجمع بالحركات الفرعيّة " من ذلك، نحو : أخوك، وأباك، وهنيك، فإنّ أبا بكر ذهب فيه إلى أنّ العَرَب قدّمت منه هذا القدر توطئة لما أجمعوه من الإعراب في التثنية والجمع بالحروف، وهذا أيضاً نحو آخر من حمل الأصل على الفرع "(١).

وجرى في المدار نفسه قول الثمانيني " ولّما فعلوا ذلك خَشوا لما أَلِفت طباعهم الحركات أن تنفر طباعهم إذا جاؤوا إلى التثنية والجمع من الإعراب والحروف، فوطؤوا لطباعهم في الأسماء الآحاد أسماءً مخصوصة أعربوها بالحروف لتألف طباعهم الإعراب بالحروف، فإذا صاروا إلى التثنية والجمع لم تنفر طباعهم من الإعراب بالحروف، وهذه الأسماء هي ستة "(٢) .

وإلى هذا ذهب الجليس النحويّ وابن الدهان، قال الجليس : " ستة أسماء أعربت بالحروف في حالة الإضافة إلى غير المتكلم توطئة للتثنية والجمع "(٣).

وقد وقف شارح الكافية على هذه المسألة، إذ ارتأى أَنَّ هذه المفردات الستة في لغة الإتمام أعربت بالحروف دون الحركات لأمرين، أولهما : التوطئة، وثانيهما : القوّة، فالتوطئة لئلا يُنْتقل من إعراب المفرد (الأصل) بالحركات الأصلية إلى الإعراب بالحروف في المثنّى والجمع فجاءة، إذْ لا بدّ من التوطئة والتمهيد، فكان هذا الاختيار لهذه الأسماء الستة، وأمّا القوّة، فلأنّ الحروف متولّدة من الحركات، وهي أقوى، فإذا ذهبت إلى المثنّى والجمع،وهما فرعان دون المفرد، وهو الأصل، افتقد الأصل هذه الميزة، وغلب الفرعُ الأصلَ؛ لذا كان لزاماً أن تستأثر هذه الأسماء الستة المفردة بهذه الميزة؛ لتكون دليلاً على التوطئة وقوة الأصل " إنّما جُعل إعرابها بالحروف الموجودة دون الحركة على ما اخترنا، توطئة لجعل إعراب المثنّى والجموع بالحروف؛ لأنّهم علموا أنّهم يُحْوَجون إلى إعرابها بها، لاستيفاء المفرد للحركات، والحروف وإنْ كانت فروعاً للحركات في باب الإعراب لثقلها وخفة الحركات، إلاّ أنّها أقوى من حيث تولدها منها، فاستبدّ بالحركات المفرد الأوّل، وإنّما كانت الحروف أقوى؛ لأنّ كلّ حرف منها كحركتين أو أكثر، فكرهوا أَنْ يستبد المثنى والمجموع مع كونهما فرعين للمفرد بالإعراب الأقوى، فاختاروا من جملة المفردات هذه الأسماء، وأعربوها بهذا الأقوى؛ ليثبت في المفردات الإعراب بالحركات التي هي الأصل في الإعراب

(١) ابن جنّي، **الخصائص**، ج١، ص٣١٠.

(٢) الثمانيني، **الفوائد والقواعد**، ١٠٣.

(٣) الجليس النحويّ، **ثمار الصناعة**، ٦٨. وانظر : ابن الدهان، سعيد بن المبارك (٥٦٩هـ / ١١٧٣م)، **كتاب الفصول في العربيّة**، تحقيق : فائز فارس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٨، ص٦٠، وأبا البركات الأنباري، كمال الدين (٥٧٧هـ / ١١٦٢م)، **أسرار العربيّة**، دار الأرقم؛ بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٩، ص٥٨. والخوارزمي، القاسم بن الحسين (٦١٧هـ / ١٢٢٠م)، **كتاب ترشيح العلل في شرح الجمل**، إعداد : عادل محسن سالم العميري، جامعة أم القرى، ط١، ١٤١٨هـ، ص٢٧.

وبالحروف التي هي أقوى منها، مع كونها فروعاً لها "[١].

والتوطئة في هذه الأسماء الستة المفردة رأي سديد إلى حدٍّ بعيد؛ لأنّ الانتقال المفاجىء لا تقبله النفس، وقد يحدث أثراً فيها لا يمحوه الزمن.

٢- الحال الموطئة :

أطلق النحويّون هذا المصطلح على الحال الجامدة الموصوفة؛ لأنّهم جعلوا الحال مشتقة غالباً، وقد خصّوا هذا النوع دون غيره لكون مجيء الحال جامدة، أَنّ الاسم الجامد قد هيّأ في الحقيقة إلى مجيء ما هو الحال في الأصل وهو (الوصف). وكأنّ الصفة والموصوف شيء واحد لكمال الاتصال بينهما، وإلى هذا ذهب ابن بابشاذ في أثناء تعليقه على الآية الكريمة﴿ وهذا كتاب مصّدقٌ لساناً عربيّاً ﴾[٢]. إذْ ذهب إلى أَنّ الصفة (عربيّاً) هي الموطئة لمجيء الحال جامدة، فقال : " (لسان) : حال؛ لأنّه لّما نعت اللسان بِعَرَبِيّ، والصفة والموصوف كالشيء الواحد، صارت الحال شبيهة بالمشتق، وصار عربيّاً هو الموطئة لكون اللسان حالاً، وليس حقيقة اللسان أن يكون حالاً لكونه جامداً لولا ما ذكر من الصفة فمقتضى أنّ الموطئة هي صفة الحال لا الحال الموصوفة، والموطئة لغة المهيّئة "[٣].

ولست أميل إلى ما ذهب إليه؛ لأنّ الموصوف هو الذي هيّأ ومهّد لما هو أصل الحال، وهو الصفة، وممّا يعزز هذا أَنّ النّحويّين وسموها بالحال الموطئة،وليست الصفة هي الموطئة، وإنّني لأذهب إلى ما ذهب إليه عباس حسن من أنّ الصفة هي المقصودة دون الموصوف، وأَنّ الذهن ينصرف إليها مباشرة " والنّحاة يسّمون هذه الحال الموصوفة بالحال الموطئة : أي الممهدة لما بعدها؛ لأَنّها تمهد الذهن، وتهّيئه لما يجيء بعدها من الصفة التي لها الأهميّة الأولى دون الحال، فإنّ الحال غير مقصودة، وإنّما هي مجرد وسيلة وطريق إلى النعت الـــذي بعدها، ولهذا يقسّم النّحاة الحال إلى قسمين : أحدهما الموطئة، وتسّمى أيضاً غير المقصودة"[٤].

وعلى هذا فإنّ الأمر لا يعدو كونه توافقاً بين الموصوف والصفة، فالأوّل (الموصوف) يمهّد للحال الأصل وهي (الصفة) وعلى هذا جاء قوله تعالى :﴿ إنّا أنزلناه قرآناً عربيّاً ﴾[٥]، وقوله تعالى :﴿ وتَمثّل لها بشراً سوّياً ﴾[٦].

---

(١) الاستراباذي، **شرح كافية ابن الحاجب**، ج١، ص٧٣.

(٢) **الأحقاف** : (١٢).

(٣) الأزهري، **شرح التصريح**، ج١/٥٧٦، وانظر : الاسترباذي، **شرح كافية ابن الحاجب**، ٢ / ٧٠.

(٤) حسن، عبّاس، **النحو الوافي**، ج٢، ٣٧٣.

(٥) **يوسف** : (٢).

(٦) **مريم** : (١٧).

٣- التوابع :

أ- البَدل :

ذهب النحويّون إلى أَنّ البَدل إيضاح وبيان بعد إجمال أو إبهام، وأنّه المقصود بالحكم، وما المبدلُ منه إلاّ كلمة قد سبقت البَدل لتمهّد الذهن، وتعدّه، وتوجه الخاطر إليه، قال ابن الأنباري : " إن قال قائل: ما الغرض في البَدل ؟ قيل : الإيضاح، ورفع اللبس، وإزالة التوسّع والمجاز "(١).

وقد نبّه سيبويه من قبلُ على هذه المسألة من خلال قوله: " وهو أَنْ يتكلّم، فيقول : رأيت قومك، ثُمّ يبدو له أَنْ يبيّن ما الذي رأى منهم، فيقول: ثلثيهم أو ناساً منهم "(٢)، ومثل هذا ما نصّ عليه المبرّد "وآخر أن يبدل بعض الشيء منه، نحو ضربت زيداً رأسه، لّما قلت: ضربت زيداً، أردت أن تبيّن موضع الضرب منه"(٣).

وعلى هذه فهي مسألة مرتبطة بالمعنى، فليس ثَمّة رابط لفظيّ بين البَدل والمبدل منه، وذاك أَمرٌ حدا بالنّحويّين إلى القول : إنّ المبدل منه على نيّة الطرح معنى لا لفظاً لـِ " أنّ حقّ الكلام أن يستغني بنفسه قبل دخول البَدل؛ لأنّ حق البدل أن يكون بمنزلة ما ليس في الكلام، وأن يكون متى أُسقط استغنى الكلام"(٤)، إلاّ أنّ الطرح لا يقصد به لفظاً بقدر ما هو معنى، إذ لو كان لفظاً لانعدم مجيء بدل بعض من كل .

وهي مسألة بيّنة عند صاحب الكواكب الدرّية " وقول الكثيرين المبدل منه في حكم الطرح إنّما يعنون به من جهة المعنى غالباً دون اللفظ بدليل جواز، نحو : ضربت زيداً رأسه إذ لو لم يعتدّ بزيد أصلاً لم يكن للضمير ما يعود إليه، قاله ابن عنقاء "(٥).

ويبدو لي أنّ بدل الاشتمال وبدل (بعض من كل) قد استوقف النحويّين، وهذا بيّن في أمثلتهم ، فإذا لم يهيّأ أو يوطأ بالمبدل منه، فإنّ عود الضمير يكون مُلبساً، لذا فإنّ التوطئة بالمفسِّر (البدل) ترفع ذلك اللبس " فسرّني عمرُ عدلُه " فلو قلت : عدله لما عرفت رجع الضمير يكون إلى ماذا، فلولا البدل لكان هناك نقص معنويّ ولدارت هناك أسئلة متعددة فلا تكتمل

---

(١) ابن الأنباري، **أسرار العربيّة**، ص٢١٧.

(٢) سيبويه، **الكتاب**، ج١، ١٥١، وانظر : الاسترابادي، **شرح الكافيه**، ٢ / ٤٠٢، والأزهري، **شرح التصريح**، ٢ / ١٩٠، السيوطي، جلال الدين (٩١١هـ / ١٥٠٥م)، **الإتقان في علوم القرآن**، دار الكتب العلميّة، بيروت، ج٣ / ٢١٠.

(٣) المبرّد، **الكامل**، ٢ / ٣١

(٤) ابن السرّاج، محمد بن سهل (٣١٦هـ / ٩٢٨م) **الأصول في النحو**، تحقيق : عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٩٩٩، ج٢/٣٠٥.

(٥) الأهدل، **الكواكب الدريّة**، ٢ / ١٢٢.

الفائدة إلاّ بتمام هذه الناحية المعينة وزال النقص[١].

ب- التوكيد والعطف :

تبدو التوطئة بارزة في هذا الباب في مسألة توكيد الضمير المرفوع المتصل توكيداً معنويّاً، إذ لا يجوز على شرط النحويّين التوكيد بالنفس أو العين إلاّ بعد إعادة الضمير منفصلاً ممّا وسموه بالتوكيد اللفظي، وهي قاعدة مقرّرة عند النحويّين " ويدلك على قبحه أنّك لو قلت : اذهب نَفْسُك كان قبيحاً حتى تقول : أنت نَفْسُك "[٢].

فمجيء الضمير المنفصل يهيّيء لتوكيد الضمير المتصل بالنفس والعين، ويبدو لي أنّ هذا الفَصْل بالضمير يتأتّى من قبيل إصلاح التركيب، فإذا أُكّد الضمير المتصل المرفوع بالنفس، أو العين دون إعادة الضمير المنفصل، فكأنّك تؤكدّ جزءاً من حروف الكلمة؛ لأنّ الضمير المرفوع المتصل كالجزء مما اتصل به، فكأنّهما شيء واحدٌ، والشيء الواحد لا تؤكد أجزاؤه، وممّا يقوي ما ذهبت إليه قول الاستراباذي " إنّما أُكّد بالمنفصل في الأوّل؛ لأنّ المتصل المرفوع كالجزء مما اتّصل به لفظاً من حيث إنَّه متّصل لا يجوز انفصاله، كما جاز في الظاهر، والضمير المنفصل، ومعنى من حيث إنّه فاعل، والفاعل كالجزء من الفعل "[٣].

والتوطئة بالضمير المنفصل مسألة مشتركة بين التوكيد والعطف، إذ لا يجوز أَنْ يعطف الاسم الظاهر على الضمير المتصل المرفوع إلاّ بعد توكيد المتصل توكيداً لفظياً؛ لأن المنفصل يهيىء ويوطىء لعطف الاسم الظاهر على الضمير المرفوع المتصل، قال سيبويه؛ " وإن حملتَ الثاني على الاسم المرفوع المضمر فهو قبيح؛ لأنّك لو قلت : اذهب وزيدٌ كان قبيحاً حتّى تقول : اذهب أنت وزيدٌ "[٤].

وهذا الضربُ إيذان بالتوطئة؛ فما ينبغي أن يكون التركيب فاسداً، فأصلحوا ذلك بإعادة الضمير المنفصل، وقدّ علّلوا لذلك أنّ عطف الاسم الظاهر على الضمير المرفوع المتصل دون إعادة الضمير المنفصل (التوكيد اللفظي) يؤذن بعطف الظاهر على جزء من الكلمة لأنّ الفعل والفاعل شيء واحدٌ " فلو عُطف عليه بلا توكيد، كان كما لو عطف على بعض حروف الكلمة، فأكدّ أولاً بمنفصل؛ لأنّه بذلك يظهر أَنّ ذلك المتصل منفصل من حيث الحقيقة بدليل جواز إفراده ممّا اتّصل به بتأكيده، فيحصل له نوع استقلال"[٥] وعلى هذا جاء قوله تعالى :﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾[٦]، وقوله :

(١) حسن، عباس، **النحو الوافي**، ٣ /٦٦٣.

(٢) سيبويه، **الكتاب**، ج١ / ٢٧٧، ج٢ / ٣٧٩، وانظر : الاستراباذي، **شرح الكافية**، ج٢ / ٣٩٤، وحسن، عباس، **النحو الوافي**، ٣ / ٥٢٣.

(٣) الاستراباذي، **شرح الكافية**، ج٢ / ٣٥٦.

(٤) سيبويه، **الكتاب**، ١ / ٢٧٨.

(٥) الاستراباذي، **شرح الكافية**، ٢ / ٣٥٦، وابن عقيل، عبد الله (٧٦٩هـ / ١٣٦٧م)، شرح ابن عقيل، ٢دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٩١، ٢ / ٢١٧.

(٦) **البقرة** : (٣٥).

﴿فاذهب أنت وَرَبُّك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون ﴾[١] وقوله: ﴿ اذهب أنت وأخُوك بآياتي ولا تنيا في ذكري﴾ [٢].

- ضمير الفصل :

ذهب النُّحاة إلى أنّ ضمير الفصل يفصل بين شيئين متلازمين، إذ يتوسط المبتدأ والخبر، وذكروا في إعرابه وجهين : إمّا أن يكون ضميراً منفصلاً لا محلّ له من الإعراب، وإمّا أن يكون مبتدأ وما بعده خبره، والجملة في محل خبر لما قبله، قال سيبويه " وقد جعل ناس كثير من العرب (هو) وأخواتها في هذا الباب بمترلة اسم مبتدأ وما بعده مبنيّ عليه "[٣].

وقد شرطوا لمجيء هذا الضمير أن يكون ما بعده معرفة أو شبه معرفة، إذ لو كان الخبر نكرة فلا محوج لضمير الفصل؛ لأنّ اللبس مأمون عند ذلك " واعلم أنّ (هو) لا يحسن أن تكون فصلاً حتى يكون ما بعدها معرفة أو ما أشبه المعرفة "[٤].

وهذا الفصل بين المبتدأ والخبر إنّما جاء لإفادة التوطئة، أو الإيذان بأنّ ما بعده لا يكون إلاّ خبراً للمبتدأ، ولو ترك هذا الإيذان لكان الخبر ملبساً؛ لأنّ ما بعد الضمير يمكن أن يحمل على الخبر، ويمكن أن يحمل على الصفة، إلاّ أن استجلاب الضمير المنفصل رفع ذلك اللبس، إذ تعيّنت الكلمة ما بعد ضمير الفصل بالخبر دون الصفة " فإن قيل فما فائدة هذا الفصل ؟ قيل له : في ذلك جوابان : أحدهما : أن يكون مؤذناً بأنّ الذي بعده لا يجوز أن يكون وصفاً لما قبله. والجواب الثاني : أن يكون مؤذناً بأنّ الذي بعده ليس بنكرة خالصة، وإنّما معرفة أو قريب من المعرفة "[٥].

وقد ذهب الزمخشري إلى ذكر ثلاث فوائد لهذا الضمير المنفصل منها التوطئة، جاء ذلك في أثناء كلامه على الآية الكريمة ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ [٦]" وهو فصل : وفائدته الدلالة على أنّ الوارد بعده خبر لا صفة، والتوكيد، وإيجاب أنّ فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره"[٧].

وإلى هذا ذهب الاستراباذي في شرح الكافية " فقال الرضيّ : إنّما سمّي فصلاً؛ لأنّه فُصِل بين

---

(١) **المائدة** : (٢٤).
(٢) **طه** : (٤٢).
(٣) سيبويه، **الكتاب**، ج٢ / ٣٩٢.
(٤) سيبويه، **الكتاب**، ج٢ / ٣٩٢، وانظر : الاستراباذي، **شرح الكافية**، ج٣ / ٦٠، والسيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ج٢/٢٨٥.
(٥) الثمانيني، **الفوائد والقواعد**، ٤٢٦.
(٦) **البقرة** : (٥).
(٧) الزمخشري، **الكشاف**، ١ / ٨٥. وانظر : السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ٢ / ٢٨٦.

كون ما بعده نعتاً وكونه خبراً؛ لأنّك إذا قلت : زيدٌ القائم، جاز أن يتوهم السامع كون القائم صفة، فينتظر الخبر، فجئت بالفصل ليتعيّن كونه خبراً لا صفة "(١).

وممّا يلحق بهذه المسألة في حدوث اللبس بين الخبر والصفة ما ذهب إليه النّحاة من مجيء مسوغات الابتداء بنكرة أنْ يسبق المبتدأ النكرة بشبه جملة، وهي حال من تقديم الخبر وجوباً على المبتدأ، نحو : (تحتك بساطٌ، وعليك ثوبٌ)، وإنّما تقدّم الخبر وجوباً؛ لأن تأخيره يحدث لبساً، إذ يجوز أن يكون خبراً ويكون الكلام تاماً، ويجوز أن يكون وصفاً للنكرة؛ لأنّ النكرة توصف بشبه الجملة، وعليه ينتظر الخبر؛ لأَنّ الكلام غير تام، ولمّا كان هذا اللبس واقعاً، وطّأت العرب في لسانها بشبه الجملة أن قدّمتها على المبتدأ النكرة؛ لتكون خبراً لا وصفاً، فالتقديم لشبه الجملة، حدّدها على أنّها خبر؛ لأنّ الخبر يجوز تقديمه، ولا يكون ذلك في الصفة؛ لأنّ الصفة لا تتقدم موصوفها، وإنّي لأذهب إلى ما ذهب إليه الأهدل في الكواكب الدرّية بقوله: "وإنّما اشترط لتوهم الصفة فحيث التبس بالصفة وجب التقديم، وحيث فهم المراد جاز التقديم"(٢).

- الحـــروف :

كَثُر وقوع التوطئة النّحويّة بوساطة الحروف؛ لأنّها روابط تحقق من التمهيد ما لا يكون في غيرها، إذْ تُصْلِحُ التركيب، وتلغي بدخولها بعض الأحكام القاعديّة المقررّة عند النّحاة، فقد تحوّل الأصل فَرْعـــاً ، جاء في المقرّب لابن عصفور " وقد كان ينبغي أن يقدّم ذكر هذا النوع من الأحكام على غيره ، إذْ أحكام الشيء في نفسه قبل أن يتركّب مقدّمة على أحكامه التي تكون له في حين التركيـــب ، إلاّ أنّ النّحـــويّين قرّت عادتهم بتأخيرها لغموضها ودقتها، فجعل ما تقدّم من ذكر الأحكام التركيبية فيها توطئة لفهمها" (٣). فقبل دخول هذه الروابط على غيرها يكون الأصل في حال تختلف عمّا يكون عليه بعد التركيب فيها، ومن هذه الحروف :

١) (تاء) التأنيث بنوعيها المبسوطة والمربوطة :

فالمبسوطة هي الداخلة على الفعل الماضي أو الفعل المضارع، وفي كلا الحالين تُعَدُّ وسيلة بيّنة من وسائل التوطئة، إذ تؤذن بدخولها على الفعل بمجيء المسند إليه مؤنثاً؛ لأنّ التأنيث لـــيس للفعـــل ولكنّـــه للمسند إليه، وقد نبّه النّحويّون على مجيء التاء في شيء والتأنيث في شيء آخر؛ لأنّ الفعل والفاعل بينهما قوة ارتباط فكلّ منهما مفتقر إلى الآخر، فأصبحا كالشيء الواحد " وَحَسُن أن يكون المؤنث شيئاً والعلامة

(١) الاستراباذي، **شرح الكافية**، ج٣ / ٦١، وانظر : الثمانيني، **الفوائد والقواعد**، ٤٢٤.

(٢) الأهدل، **الكواكب الدرّية**، ج١ / ٩٤.

(٣) ابن عصفور ، علي بن مؤمن (٦٦٩هـ / ١٢٧٠م) **المقرّب** ، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوّض، دار الكتب العلميّة، بيروت ، لبنان، ط١، ١٩٩٨ ، ٢٨٢ .

الدالّة على تأنيثه في غيره؛ لأنّ الفعل والفاعل كالشيء الواحد في ارتباط بعضها ببعض، وحاجة أحـــدهما للآخر "[١].

على أنّ اتصالها بالماضي، أو المضارع يكون واجباً في حالات، وجائزاً في حالات أخر على حسب ما نصّ عليه النّحاة في مظانّهم النحويّة، وفي كلا الحالين فإنّها مؤذنة بمجيء المسند إليه مؤنثاً " يجب تأنيث الفعل ليدل على تأنيث الفاعل، ويكون تأنيثه بتاء ساكنة في آخر الماضي، وبتاء في أول المضارع إذا كـــان الفاعل مؤنثاً تأنيثاً حقيقياً، وإنّما تلحق علامة التأنيث ليكون أمارة لتأنيث الفاعل وإيذاناً به، نحو : قامت هند "[٢].

ولا نعدم أَنْ نجد هذه التاء بيّنة فيما يجري في مدار النعت السببي؛ لأنّها موطئة لمجيء المسند إليـــه مؤنثاً؛ لأنّ النعت السببي يأخذ حكم الفعل في التذكير والتأنيث وما يلحق ذلك من شـــروط مدوّنـــة في مصنفّات النّحاة قالوا : (مررت برجل حسنة أمّه)، فتأنيث النعت (حسنة) يوطىء لمجيء فاعلها (أمّه) مؤنثاً.

على أنّ هذه التوطئة بهذا الحرف مطردة في الدلالة على التأنيث ، إذا ما استثنينا ما جاء منـــه في باب العَدَد الذي ينهض على مسألة المخالفة في بعض أحواله، فما دار في فلك المخالفة من مسائل العـــدد يوطئ لمجيء المعدود مذكراً، إذ يؤنث العدد مع المعدود المذكّر، فإلحاق هذه التاء في مثل هـــذه المـــسائل يوطىء لمجيء المعدود مذكراً، قال تعالى :﴿ آيتك أن لا تكلّم الناس ثلاثة أيّام إلاّ رمزاً ﴾[٣]، وفي المثـــال : (قرأت خمسة عشرَ كتاباً)، وإزالة هذه التاء من المسائل العدديّة المخالفة يؤذن بمجيء المعدود مؤنثاً، وهـــي مسألة مقصورة على باب العَدَد دون غيره.

٢) الفاء :

الفاء الداخلة على جواب الشرط هي المخصوصة بمعنى التوطئة؛ إذ قرّر النّحويّون أنّ ثمّة مواطن لا يكون فيها جواب الشرط صالحاً، إذ المعادل للفعل هو حرف الفاء " واعلم أنّه لا يكون جواب الجزاء إلاّ بفعل أو بالفاء "[٤].

وقد فصّلوا القول في تلك المواطن التي هي : إذا كان الجواب جملة اسميّة، أو جملة طلبيّة، أو فعليّة جاء فعلها جامداً، أو كانت مصدّرة بالحروف " إذا لم يصلح الجواب أن يحل محل الشرط وجب اقترانـــه بالفاء وذلك إذا كان جملة اسميّة، أو طلبيّة، أو فعليّة فعلها جامد، أو جملة منفيّة بـــ (ما ولن) أو داخلة في

(١) الجليس النّحويّ، **ثمار الصناعة**، ١٧٣، وانظر : الاسترابادي، **شرح الكافية**، ج٤ / ٥١٧.

(٢) الجليس النّحويّ، **ثمار الصناعة**، ١٧٣، وانظر: الزمخشري، **الأنموذج في النحو**، ٢١٠، والأهدل، **الكواكب الدرّية**، ج١ / ٨٤.

(٣) **آل عمران** : (٤١).

(٤) سيبويه، **الكتاب**، ج٣ / ٦٣. وانظر : الزركشي، محمد بن عبد الله (٧٩٤هـ / ١٣٩١م)، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمـــد أبـــو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ٤ / ٢٩٩.

(قد أو سين أو سوف)، وذلك لعدم صلاحيّة هذه العناصر أن تباشرها أدوات الجزم" [١].

وذهب النّحويّون إلى أنّ هذه الفاء الموطئة لصلاحيّة مجيء جواب الشرط - وهي ضرب من إصلاح التركيب – تفيد التعقيب " فإن كانت الجملة غير فعليّة لم تكن صالحة للجواب بنفسها؛ لأنّ الشرط إنّما يقتضي فعلين شرطاً وجزاءً، فما ليس فعلاً ليس مِنْ مقتضيات أداة الشرط، حتى يدل اقتضاؤها على أنّه الجزاء فلا بد من رابطة؛ فجعلوا الفاء رابطة؛ لأنّها للتعقيب فيدل تعقيبها الشرط بتلك الجملة على أنّها الجزاء، فهذا هو المسبب في تعاقب الفعل والفاء في باب الجزاء "[٢]. فدخول الفاء يؤذن بوقوع الجملة جواباً للشرط، فدخولها على الجملة يُعدُّ موطئاً لإخضاع ما دخلت عليه ليكون جواباً للشرط.

ومثل الفاء (إذا) الفجائية الداخلة على، الآية الكريمة ﴿وإنْ تُصِبْهم سيئةٌ بما قدّمت أيْديهم إذا هم يقنطون﴾[٣]، فـ - إذا - قامت مقام (الفاء) فوطأت لمجيء الجملة جواباً صالحاً للشرط لحصول الربط بها كما حصل بالفاء " وذلك لأنّ إذا للمفاجأة وفي المفاجأة معنى التعقيب "[٤].

٣) اللام :

اجتمعت عبارة النّحويّين على أَنّ اللام الداخلة على أداة شرط تسمّى بالموطئة، إذ إنّها تـوطئ الجواب للقسم وليس للشرط " فإذا اجتمع القسم والشرط بني الجواب على المتقدّم منهما، وحذف جواب الآخر، لدلالة المتقدّم عليه "[٥] ، جاء في المقرّب " والمؤذنة : الداخلة على أداة شرط بعد تقدّم القسم لفظاً أو تقديراً؛ لتؤذن أَنّ الجواب له، لا للشرط، أو للإيذان بأنّ ما بعدها مبني على قَسَم قبلها..... وتسمّى الموطئة لأنّها وطّأت الجواب للقسم، أي مهدته "[٦].

على أَنّ هذه اللام المفتوحة تذكر مقرونة بأداة الشرط غالباً وعليه قوله تعالى :﴿ لئن أُخرجوا لا يخرجون مَعَهُم ولئن قوتلوا لا ينصرونَهم ولئن نصروهم لَيُوَلُّنَّ الأدبار ثُمّ لا يُنْصرون ﴾[٧]، وقد يعتريها

(١) حسّان، تمام، (معاصر) **الخلاصة النّحويّة**، عالم الكتب، ط١، ٢٠٠٠، ١٣٣.

(٢) الزركشي، **البرهان**، ج٤ / ٣٠٠، وانظر : السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ج٢ / ٢١٠، وابن عطيّه، عبد الحقّ (٥٤٢هـ / ١١٤٧ م). **المحرر الوجيز**: الرحّالي الفاروق ورفاقه، الدوحة، قطر، ط١، ١٩٧٧، ج٣٦٩/١.

(٣) **الروم**: (٣٦).

(٤) الزركشي، **البرهان**، ج٣٠١/٤.

(٥) ابن عصفور، **المقرّب**، ٢٨٢.

(٦) الزركشي، **البرهان**، ج٣٣٨/٤، والسيوطي، **الإتقان**، ج٢٢٧/٢، والزمخشري، **الأنموذج في النحو**، ٢٠٩، وابن هشام، **مغني اللبيب**، ٣١٠.

(٧) **الحشر**: (١٢).

الحذف فتبقى في حكم التقدير، نحو قوله تعالى :﴿ وإنْ أَطَعتُمُوهُم إِنَّكُم لَمُشرِكُونَ ﴾(١).

وقد رفع صاحب البرهان شبهة أَنْ تكون هذه اللام المفتوحة موطئة للقسم، فهذا الحرف يوطىء لما بعده، لا لما قبله في قول بعض المعربين " وقول المعربين : إنّها موطئة للقسم فيه تجوّز، وإنّما هي موطئة للجواب"(٢).

- **اللام المقحمة :**

هي : الداخلة في العبارة المشهورة (لا أبا لك) ، وقد نبّه المبرّد على هذه المسألة؛ إذ ذهب إلى أنّ اللام مقحمة في هذه العبارة كما أقحمت (زِيدت) في عبارتهم (يا بُؤسَ للحرب) قال : (٣)" ومثل الأوّل في التوكيد يا بُؤس للحرب، أراد يا بؤس الحرب، فأقحم اللام توكيداً؛ لأنّها توجب الإضافة وعلى هذا جاء: لا أبا لك، ولا أبا لزيدٍ، ولولا الإضافة لم تثبت الألف في الأب لأنّك تقول : رأيت أباك فإذا أفردت قلت: هذا أب صالح، وإنّما كانت (لا أباك) كما قال الشاعر :

أبالموت الذي لا بُدّ أنّي ملاقٍ لا أباك تخوّفيني

وقال الآخر :

وأَيُّ كريم لا أباكِ يخلّدُ وقد مات شماخ ومات مزرِّدٌ

فهو يستشهد على أَنّ هذه اللام مقحمة، حيث وطّأت لمجيء اسم لا النافية للجنس منصوباً بالألف لإضافته لما بعده، ولو لم تقحم، لكان لزاماً بناؤه على الفتح، ولابن جنّي نظر سديد في هذه المسألة، إذ نَصّ على معنى التوطئة بمصطلح الإيذان " الألف تؤذن بالإضافة والتعريف، واللام تؤذن بالفاصل والتنكير، فقد جمعنا على الشيء الواحد في الوقت الواحد معنيين ضدّين وهما التعريف والتنكير وهذان – كما ترى - متدافعان "(٤) ثمّ ارتأى أنّ هذه العبارة جارية مجرى المثل، والأمثال لا تغيّر.

ومثل هذا ما صرّح به الأزهري في شرح التوضيح، إذ ارتأى أَنّ اللام زائدة ومستجلبة لتأكيد معنى الإضافة " وهي معتد بها من وجه دون وجه، وأَمّا وجه الاعتداد فلأنّ اسم (لا) لا يضاف لمعرفة فاللام مزيلة لصورة الإضافة، وأمّا وجه عدم الاعتداد فهو أنّ ما قبلها معرب بالألف، وإنّما يعرب إذا كان مضافاً، أو شبهه هذا مذهب سيبويه والجمهور، ويشكل عليه؛ لا أبا لي بالألف مع الإضافة إلى ياء المتكلم، والمراد بشبهه أي : شبه المضاف "(٥).

(١) **الأنعام**: (١٢١).
(٢) الزركشي، **البرهان**، ج٤/ ٣٣٨.
(٣) المبرّد، **الكامل**، ٢/ ١٦١
(٤) ابن جني، **الخصائص**، ١ / ٣٤٤.
(٥) الأزهري، **شرح التصريح**، ١ / ٣٤٤.

وهذا القول يخالف ما ذهب إليه إبراهيم مصطفى من أنّ هذه الحركة المتولّدة في نهاية الاسم (أبا) " من باب الإطلاق ولا شذوذ ولا إعضال وإنّما هي قاعدة مطردة في هذه الكلمات: إذا أفردت غير منونة أطلقت الحركات في آخرها إطناباً فيها وتخفيفاً لنطقها"[١].

ولست أتّفق مع ما ذهب إليه؛ لأنّها عبارة (جارية مجرى المثل) إذْ تفَسَّر تفسير المثل الذي لا يخضع لقاعدة نحويّة ، وإذا سلّمنا بما ذهب إليه فلست أدري كيف يفسّر ما جاء من هذا القبيل في مسألة النداء في العبارة (يا بؤسَ للجهل) .

ويبدو لي أنّ رؤية سيبويه كانت سديدة إلى حد بعيد في مثل هذه المسائل المتشابهة " ومثل ذلك ما جاء في باب النداء قول النابغة : يا بؤسَ للجهل ضرّاراً لأقوام حملوه على أنّ اللام لو لم تجيء لقلت يا بؤسَ الجهل "[٢].

٤) (ما)

ويبدو لي أَنّ (ما) قد استأثرت بحظّ وافرٍ من مسائل هذه الظاهرة، وهذا بيّن في دخولها على حرف الجر (الكاف)، وحرف الجرّ الشبيه بالزائد (رُبَّ)، والحرف المشبّه بالفعل (إنّ) وما جرى مجراه، والأفعال (طال، حال، قلَّ، شَدَّ......).

وَرَجْعُ هذا الأمر إلى أنّها حرف وضعيّ، كثرت دلالته، وكثر دورانه في لسان العرب، وعلى هذا فإنّها تؤدّي وظيفتين، **إحداهما** : تتعلق بالعمل، إذ تلغي اختصاص ما دخلت عليه، وتهيّئه إلى وجهة أخرى على غير ما كان عليه ذاك الحرف . وفي هذا المدار يجري قول سيبويه : " وقد يغيّر الحرف حتى يصير يعمل لمجيئها غير عمله الذي كان قبل أَنْ تجيء، وذلك نحو قوله : إنّما، وكأنّما، جعلتهنّ بمنزلة حروف الابتداء "[٣]. **وثانيهما** : أنّ لها وظيفة متعلقة بالمعنى، فهي تُجْري إصلاحاً في التركيب، فما ينبغي أَنْ تدخل هذه الحروف مباشرة على الفعل، إذ لابُدّ من وجود وسائط تصلح هذا العمل، فبدخولها على تلك الحروف تهيئها للدخول على الجمل الفعليّة، بعدما كانت متخصصة بالدخول على الأسماء، وفي هذه التوطئة ما ينبيء عن مسألة المعنى؛ لأنّ اختصاص حرف الجر بالأسماء يعني الوقوف على الثبات والديمومة، وبالتوطئة بـــ (ما) ، ووصلها مع ما سبقها، فإنّها تزيل ذلك الاختصاص، إذ تسمح لتلك الحروف بالدخول على الجملة الفعليّة التي تفيد التغيّر والحدوث.

فحرف الجر (رُبّ) لا يدخل على الأفعال البتة، ولكنّ وصله بـــ (ما) هيّأه للدخول على الفعل،

(١) مصطفى، إبراهيم (معاصر) **إحياء النحو**، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧، ص١١٠.

(٢) سيبويه، **الكتاب**، ٢ / ٢٧٨.

(٣) **المصدر السابق**، ٤ / ٢٢١.

وأزال اختصاصه، ونقله إلى نمط تعبيريّ جديد " ومن تلك الحروف رُبّما، وقلّما وأشباههما، جعلوا رُبّ مع (ما) بمنزلة كلمة واحدة، وهيّؤوها ليذكر بعدها الفعل؛ لأنّهم لم يكن لهم سبيل إلى (رُبّ يقول) ولا إلى (قَلَّ يقول) فألحقوهما (ما) وأخلصوها للفعل "[١].

وكأنّ سيبويه يشير إلى ما يجري في مدار فلك قياس الأنماط الذي لا يعتمد على التعليل، فالنمط المقيس أَنْ تدخل (رُبَّ) على الاسم، ولكنّها بهذا الوصل مَعَ (ما) وُطئت للدخول على الفعل، فأُزيل الاختصاص، ولا نَعْدم أَنْ نجد مثالين مصنوعين عند المبرّد يوضحان هذه المسألة تعزيزاً لما ذهب إليه سيبويه " وكذلك رُبَّ، تقول : رُبّ رجلٍ، ولا تقول : رُبَّ يقوم زيدٌ، فإذا ألحقت ما هيّأتها للأفعال، فقلت : رُبّما يقوم زيد "[٢]. وعلى هذا جاء قوله تعالى :﴿ رُبَما يَودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾[٣].

وقد ذهب النّحويّون إلى أَنّ الفعل الوارد بعد هذه التوطئة حقّه أن يكون ماضياً، وأخضعوا الآية السابقة إلى المنهجيّة المعياريّة، إذ تأوّلوا فعلاً ناسخاً " لا يكون الفعل بعدها إلاّ ماضياً لأنّ دخول (ما) لا يزيلها عن موضعها في اللغة ، فأما قوله تعالى : " رُبما يود .... فقيل على إضمار كان تقديره رُبما كان يودّ" [٤]. وإلى هذا التأويل ذهب بعض المفسّرين " فإن قلت : لم دخلت على المضارع وَقَد أبو دخولها إلاّ على الماضي ؟ قلت : لأنّ المترقب في إخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه، فكأنّه قيل : رُبّما ودّ"[٥].

وكثر وقوع هذه التوطئة في الشعر، جاء في قول جذيمة الأبرش[٦] :

رُبَّما أوفيتُ في عَلَمٍ   تَرْفَعَنْ ثوبي شمالاتُ

وتدخل (ما) على (إنّ) وأخواتها فتوطئها للدخول على الجمل الفعليّة، وتزيل اختصاصها عن الاسم، قال تعالى : ﴿إنّما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[٧]، وقد علّق صاحب الكواكب الدرّية على هذه الآية " لأنّ بدخول (ما) زال اختصاص الأحرف المذكورة بالجمل الاسميّة، وتهيّأت للدخول على الجملة الفعليّة، ولذا تسّمى (ما) هذه بالمهيئة؛ لأنّها هيّأت هذه الحروف للدخول على الأفعال، وهي لا تدخل

---

(١) سيبويه، **الكتاب**، ٣ / ١١٥.

(٢) المبرّد، **المقتضب**، ٢ / ٥٤، **والكامل** : ١/ ٢٠١، وانظر الرماني، **معاني الحروف**، ١٠٧، والجليس النحويّ، **ثمار الصناعة**، ٥٦.

(٣) الحجر : (٢).

(٤) الزركشي، **البرهان**، ج ٤ / ٢٨٠، و انظر ابن السرّاج، **الأصول في النحو**، ١ / ٤١٩، وابن هشام، مغني اللبيب، ١٨٠.

(٥) الزمخشري، **الكشاف**، ٢/٥٣٣.

(٦) سيبويه ، **الكتاب** ، ٣/٥١٨.

(٧) **فاطر** : (٢٨) .

عليها "[١].

وهذه التهيئة أحدثت مناقلة، إذ نقلت بهذا الربط بـ (ما) دلالة الجملة من الثبات والديمومة إلى التغيّر والتجدد، فأصلحت اللفظ بعدما كان متسلطاً على الاسم دون الفعل؛ ليكون صالحاً للدخول على الفعل.

ومن دخول (ما) الموطئة على الأفعال (طال، قلّ، حال، كثر، شدّ)، إذ لا سبيل لدخول هذه المفردات على الأفعال ولكنَّ وصلها بـ (ما) الكافة يؤذن بانتقالها ودخولها على الأفعال، جاء في المقتضب " وكذلك (قَلَّ)، تقول : قَلّ رجل يقول ذلك، فإن أدخلت (ما) امتنعت من الأسماء، وصارت للأفعال، فقلت : قلّما يقوم زيد، ومثل هذا كثير "[٢].

ومما زاده المرادي في دخول (ما) الموطئة على هذه الأفعال، أنّها لا تدخل عليها إلاّ إذا وقعت تحت سلطان النفي " وقد جاءت (ما) الكافة أيضاً بعد (قلَّ) إذا أُريد به النفي : نحو : قلّما يقول ذلك أحدٌ "[٣].

وهذا الذي أشار إليه المرادي لا يقع في حقيقة اللفظ، وإنّما يلحظ من خلال التركيب، قال ابن هِرْمة[٤] :

وأَقْرَنْتُ ما حَمَّلَتْني ولقَلَّما يُطَاقُ احتمالُ الصدِّ يا دعدُ والهَجْرُ

ومّما يلحق بمسألة (ما) دخولها على الفعلين (خلا) و (عَدَا)، فهذان صالحان ليكونا فعلين أو حَرْفي جرٍّ قبل التهيئة بـ (ما)، فإن دخلت عليها (ما) الموسومة بـ (المصدريّة) (الظرفيّة)، هيأهما ليكونا فعلين متعديين، فينصب ما بعدها على المفعوليّة، ويُزَال اختصاصهما بالدخول على الأسماء المجرورة، وذلك لصحّة تسلط (ما) المصدريّة بالدخول على الأفعال، ومن شواهد هذه المسألة قول لبيد[٥]:

أَلا كُلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ بَاطلُ وَكُلُّ نَعِيْمٍ لا محالــة زائــــلُ

وإنني لأذهب في هذه المسألة إلى ما نصّ عليه الرمَّانيُّ بقوله : " فإنْ جئت بها بعد (ما) نصبت لا غير، وذلك نحو : خرجوا ما خلا زيداً، وإنّما لم يجز الجرّ ها هنا؛ لأنّه لا يصح أن يوصل بالفعل وما جرى مجراه "[٦]. ومثل هذا لفظة (كلّ) إذا دخلت عليها (ما) ، فصارت (كلّما) مهّدت لها لأن

(١) الأهدل، **الكواكب الدريّة**، ج١/١٣١ .
(٢) المبرّد، **المقتضب**، ٢/٥٤ .
(٣) المرادي، **الجنى الداني**، ٣٣٣ .
(٤) الزمخشري، **الكشاف**، ج٤/٢٤٤.
(٥) الأزهري ، **شرح التصريح** ، ٢١/١.
(٦) الرُّمانيّ ، **معاني حروف المعاني** ، ١٠٦.

تكون ظرف زمان .

ومما يُلْحَظُ في مسألة (ما) الموطئة أنّ ثَمَّةَ أمرين، أولهما : إبطال العمل، وثانيهما : إزالة الاختصاص، إذ تولّد نَمَطاً تعبيريّاً جديداً يوطئ بدخول تلك الحروف عند وصلها بـ (ما) على الأفعال.

وممّا يدخل في حيّز مسألة التوطئة (حذف) التنوين بين الاسمين المضايفين، وممّا يَعْنينا في هذا المدار حذف النون في بابي التثنية وجمع المذكّر السالم؛ لأنّ حذفها يؤذن بالإضافة؛ لأنّ التنوين والإضافة لا يجتمعان.

ولا تثبت هذه النون إلاّ في ضرورة شعريّة لا يُعتدُّ بها، قال الرضيّ : " إنّما تحذف النون في الإضافة لما مرّ..... من أنّها دليل تمام الكلمة "(١)، ولهذا قال سيبويه " فإن كففت النون جررت وصار الاسم داخلاً في الجار وبدلاً من النون "(٢)، قال تعالى :﴿ إنّا كاشفوا العذاب قليلاً إنّكم عائدون ﴾(٣).

قال الثمانينيّ " وإنّما جاز إسقاط النون في الإضافة لأنّ المضاف إليه يسد مسدّها(٤) وقال في موطن آخر: " فالمضاف إليه يعاقب النون على موضعها فيمنعها من الثبوت، كما أنّ ثبات النون مع المضاف يمنع من اتصال المضاف بالمضاف إليه ويمنع من تعريفه فاطّرحت النون"(٥).

٥) حرف النداء : (اليـــاء)

لا تدخل أداة النداء مباشرة على الأسماء المعرفّة بـ (أل)، إلاّ باجتلاب وصلة تهّيء، وتوطئ لدخولها على ذلك الاسم " كل اسم فيه الألف واللام، فإنّك إذا ناديته فلا تناده إلاّ بإدخال حرف النداء على أي موصولة بها نحو : يا أَيُّها الرجل " ويا أيُّها الغلام أو تدخل حرف النداء على (هذا) فتقول يا هذا الرجل "(٦)، وقد علّل النَّحويّون امتناع دخول أداة النداء (يا) مباشرة على ما عرّف بأل التعريف، إذ لا يجوز الجمع بين علامتي تعريف جاء في أسرار العربيّة " فإن قلت : فَلِمَ لم يجمعوا بين (يا) والألف واللام ؟ قيل : لأنّ (يا) تفيد التعريف، والألف واللام تفيد التعريف فلم يجمعوا بين علامتي تعريف إذ لا تجمع علامتا تعريف في كلمة واحدة(٧).

(١) الاسترابادي ، **شرح الكافية**، ج٣/٤٤٦ .
(٢) سيبويه، **الكتاب**، ج١/١٨٤،١٨٧ .
(٣) **الدخان** : (١٥) .
(٤) الثمانينيّ : **الفوائد والقواعد** : ١١٨
(٥) **المصدر السابق** : ١٢٧ .
(٦) ابن رشد، أبو الوليد ، (٥٩٥هـ/١١٩٨م)، **الضروري في صناعة النحو**، تحقيق: منصور علي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢، ص ١١٠.
(٧) ابن الأنباري : **أسرار العربيّة**: ١٧٤ .

وزاد صاحب المفصّل علّة أخرى بأنّه لا يجمع بين الغيبة والحاضر في آن واحد؛ لأنّ النداء للحاضر، وأل العهد لمعنى الغيبة " إنّ حروف النداء لا تجامع ما فيه الألف واللام، وإذا أريد ذلك توصل إليه (بـأي) و(هذا)، والعلّة في ذلك أمران، أحدهما : أنّ الألف واللام تفيدان التعريف، والنداء يفيد تخصيصاً وإذا قصدت واحداً بعينه صار معرفة كأنّك أشرت إليه، والتخصيص ضرب من التعريف، فلم يجمع بينهما لذلك؛ لأنّ أحدهما كافٍ وصار حرف النداء بدلاً من الألف واللام في المنادى، فاستغنى به عنهما وصارت كالأسماء التي هي للإشارة، والثاني أنّ الألف واللام تفيدان تعريف العهد، وهو معنى الغيبة، وذلك أنّ العهد يكون بين اثنين في ثالث غائب، والنداء خطاب لحاضر فلم يجمع بينهما لتنافي التعريفين "[١].

وذهب باحث معاصر إلى أنّ استجلاب هذه الوصلة جاء لضرب من إصلاح قاعدة نحويّة، إذ لا يلتقي ساكنان، فالياء مبنية على السكون وأل التعريف كذلك " استعمال خاص لا تتجاوز إلى غيره تلك هي أيّها، وذلك لأنَّ المنادى المعرّف بأل لا تتصل به (يا) من قبله لما في اتصالها به من ثقل التقاء الساكنين، ولكن التخاطب أحياناً وظروف القول تضطر إلى ندائه متّصلاً "[٢]، و لم يستثنَ من هذه القاعدة إلاّ لفظ الجلالة (يا الله) ومهما يكن من أمر تعليلاتهم فإنّ (أيّها) و (هذا) للمذكّر .
و (أيتّها) و (هذه) للمؤنث يُصْلحان اللفظ لدخول (يا) على الاسم المعرّف (بأل)، وهذا هو سمت العربيّة، وبه نطق القرآن الكريم قال تعالى :﴿يا أيّها الناس اذكروا نعمة الله عليكم﴾[٣] ، وقال تعالى :﴿يا أيّتها النفس المطمئنة....﴾[٤]. فهذه الوصلة وطّأت لدخول (يا) النداء على الاسم المعرّف بـ (أل).

وبعد : فإنّ المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ؛ لأنّ التوطئة تقتضي ذلك فلا توطئة دون أن تشعر حال المخاطب بحاجتها؛ ويبدو لي أنّ التوطئة لا تقع في جميع الأبواب النّحوية بل هي نمط تعبيّري حضر في بعض المسائل دون غيرها، وأنّ الحروف قد استأثرت بهذا اللون؛ لأنّها روابط توطىء للانتقال من نمط تعبيريّ إلى نمط تعبيريّ آخر، وهذا لا يتأتّى إلاّ بإصلاح اللفظ، وإصلاحه لا يكون إلاّ بهذه التوطئة، وهذه أساليب في العربيّة تراعى فيها نفسيّة المخاطب، وما يحمل على ذلك من إصلاح اللفظ.

---

(١) ابن يعيش ، محمد بن علي، (٦٤٦هـ /١٢٤٨)، **شرح المفصّل** ، عالم الكتب ، بيروت، لبنان، ج١/٢٧٤.
(٢) السامرائي، إبراهيم ، **النّحو العربي /** نقد وبناء، دار عمار، عمان، ط١، ١٩٩٧، ٣١٩.
(٣) **فاطر** : (٣).
(٤) **الفجر** : (٢٧).

أصداء الزمن في قصيدة " صَرَمَتْ زُنَيْبَةُ حَبْلَ مَنْ لا يَصْرِمُ " لمتمم بن نويرة
جدلية الأنا والآخر

د. عدنان محمود عبيدات *

تاريخ تقديم البحث: ١٤/٣/٢٠٠٦م   تاريخ القبول: ٢٠/٩/٢٠٠٦م

ملخّص

تهدف الدراسة إلى قراءة القصيدة بفهم جديد ؛ تحاول الإجابة من خلاله _ على تساؤلات قد يطرحها المتلقي، منها: هل يريد الشاعر أن يتحدث عن معنى آخر غير المعنى الظاهر ؟ وهل اللوحات المختلفة في ظاهرها مترابطة في موضوعها ؟ إن رؤية القارئ تتعدى الظاهر، وتسبر أعماق التكوين الشعري، وتُبرز النص باعتباره وحدة نفسية وموضوعية تكتنه الوجود، لا تظهر بسهولة، والقصيدة لا تسلّم نفسها لقارئها من أول مرة، ولقد رفع الشاعر نفسه إلى مستوى من الإدراك جعله يعرض موضوعه بطريقة رمزية تظهر فيها جدلية حادة بين الحياة والموت، وامتدّ هذا التواصل الرمزي ليشمل نسيج القصيدة كلها . لقد حاول الشاعر أن يبني فضاء شعرياً من خلال الحيوان، وكانت معشوقته زنيْبة/ الحياة المحرِّض على كتابة القصيدة من أول لوحة غزلية ؛ يظهر فيها القول الشعري المباشر إلى آخر لوحة فيها ترميز، فكان قلقه لا يهدأ مفسدا عليه متعة الحياة.

Abstract

The Resonance of Time in Mutamem Bin Nuwayrah's "Sramat Zunaiba": The Dialections of the "I" and the "Other"

Dr. Adnan M. Obeidat

This study aims at re-reading the poem with a new conception through which it tries to answer questions that might arise in the reader's / hearer's mind such as "Does the poet intend a meaning other than the explicit meaning?" and "Do the apparently different pictures have a common topic?"

The reader's insight goes beyond the explicit meaning , explores the depth of the poetic formation and illustrates the text as a psychological and objective unit that symbolizes life . It does not manifest itself easily. The poem does not give itself to the reader on the first reading . The poet has promoted himself to a level of awareness that made him present his topic in symbolic way that shows a controversy between life and death. This symbolic interaction extends to include the whole poetic texture.

The poet tries to construct a poetic space by making use of animal images . His beloved Zunaiba' was instigator to the poem , which showed from the first image with direct poetic verse to the last symbolic image . His agitation was unappeased , ruining his desire for life.

* قسم العلوم الإنسانية - اللغة العربية، كلية العلوم والآداب، العلوم والتكنولوجيا الأردنية.

١- صَرَمَتْ زُنَيْبَةُ حَبْلَ مَنْ لا يَقْطَعُ ... حَبْلَ الخَلِيلِ ولِلأَمانَةِ تَفْجَعُ
٢- وَلَقَدْ حَرَصْتُ عَلَى قَليلِ مَتاعِها ... يَوْمَ الرَّحِيلِ فَدَمْعُها المُسْتَنْفَعُ
٣- جُذِّي حِبالَكِ يا زُنَيْبُ فَإنَّني ... قَدْ أَسْتَبِدُّ بِوَصْلِ مَنْ هُوَ أَقْطَعُ
٤- وَلَقَدْ قَطَعْتُ الوَصْلَ يَوْمَ خِلاجِهِ ... وأخُو الصَّرِيمَةِ في الأمور المُزْمِعُ
٥- بِمُجِدَّةٍ عنسٍ كأنَّ سَرَاتَها ... فَدَنٌ تُطِيفُ بِهِ النَّبِيطُ مُرَفَّعُ
٦- قَاظَتْ أُثَالَ إلى المَلا وتَرَبَّعَتْ ... بالحَزْنِ عازِبَةً تُسَنُّ وتُودَعُ
٧- حتَّى إذا لَقِحَتْ وعُولِيَ فَوْقَهَا ... قَرِدٌ يَهُمُّ بِهِ الغُرابَ المَوقِعُ
٨- قَرَّبْتُها للرَّحْلِ لَمَّا اعْتادَنِي ... سَفَرٌ أهُمٌّ بِهِ وأمْرٌ مُجْمَعُ
٩- فَكَأَنَّها بَعْدَ الكَلالَةِ والسُّرى ... عِلْجٌ تُغالِيهِ قَذُورٌ مُلْمِعُ
١٠-يَحْتازُها عَن جَحْشِها وتَكُفُّهُ ... عَنْ نَفْسِها، إنَّ اليَتِيمَ مُدَفَّعُ
١١- وَيَظَلُّ مُرْتَبِئاً عليها جَادِلاً ... فِي رَأْسِ مَرْقَبَةٍ وَلأياً يَرْتَعُ
١٢-حتَّى يُهَيِّجَها عَشِيَّةَ خِمْسِها ... لِلْوِرْدِ جَأْبٌ خَلْفَهَا مُتَتَرِّعُ
١٣- يَعْدُو تُبادِرُهُ المخارمَ سَمْحَجٌ ... كالدَّلْوِ خانَ رِشاؤُها المُتَقَطِّعُ
١٤- حَتَّى إذا وَرَدَا عُيُوناً فوقَها ... غابٌ طِوالٌ نابِتٌ ومُصَرَّعُ
١٥- لاقَى عَلَى جَنْبِ الشّرِيعَةِ لاطِئاً ... صَفْوانَ في نامُوسِهِ يَتَطَلَّعُ
١٦- فَرَمَى فَأَخْطَأَها وصادَفَ سَهْمُهُ ... حَجَراً فَفُلَّ، والنَّضِيُّ مُجَزَّعُ
١٧- أَهْوَى لِيَحْمِيَ فَرْجَهَا إذْ أَدْبَرَتْ ... زَجلاً كَما يَحْمي النَّجِيدُ المُشْرَعُ
١٨- فَتَصُكُّ صَكّاً بالسَّنابِكِ نَحْرَهُ ... وَبِجَنْدَلٍ صُمٍّ ولا تَتَوَرَّعُ
١٩- لاشَيْءَ يَأْتُو أَتْوَهُ لَمَّا عَلا ... فَوْقَ القَطاةِ ورأسُهُ مُسْتَتْلِعُ
٢٠-وَلَقَدْ غَدَوْتُ عَلى القَنِيص وصاحِبي ... نَهْدٌ مَراكِلُهُ مِسَحٌّ جُرْشُعُ
٢١- ضافِي السَّبِيبِ كأنَّ غُصْنَ أباءَةٍ ... رَيَّانَ يَنْفُضُهَا إذا ما يُقْدَعُ
٢٢- تَئِقٌ إذا أرْسَلْتَهُ مُتَقاذِفٌ ... طَمَّاحُ أشْرافٍ إذا ما يُنْزَعُ
٢٣- وكأنَّهُ فَوْتُ الجَوالِبِ جانِئاً ... رِئْمٌ، تَضَايَفَهُ كِلابٌ أخْضَعُ
٢٤- داوَيْتُهُ كلَّ الدَّواءِ وزِدْتُهُ ... بَذْلاً كَمَا يُعْطِي الحَبِيبُ المُوسِعُ
٢٥- فَلَهُ ضَرِيبُ الشَّوْلِ إلاّ سُؤْرَةً ... والجُلُّ فهو مُرَبَّبٌ لا يُخْلَعُ
٢٦- فإذا نُراهِنُ كانَ أولَ سابِقٍ ... يَخْتالُ فارِسُهُ إذا ما يُدْفَعُ
٢٧- بَل ربَّ يوم قَدْ حَبَسْنا سَبْقَهُ ... نُعْطِي ونُعْمِرُ في الصَّدِيقِ ونَنْفَعُ
٢٨- وَلَقَدْ سَبَقْتُ العاذلاتِ بِشَرْبَةٍ ... رَيَّا، وَراوُوقِي عَظِيمٌ مُتْرَعُ
٢٩- جَفْنٌ منَ الغِرْبيبِ خالِصٌ لَوْنِهِ ... كَدَمِ الذَّبِيحِ إذا يُشَنُّ مُشَعْشَعُ

٣٠- أَلْهُـو بها يـَوْمَاً وَأُلْهِـي فِتْيَـةً ... عَنْ بَثِّـهِمْ إذ أُلْبِسُوا وتَقَنَّعُوا
٣١- يا لَهْفَ مِنْ عَرْفَاءَ ذاتِ فَلِيلَةٍ ... جاءتْ إِلَـيَّ عَلَـى ثَـلاثٍ تَخْـمَع
٣٢- ظَلَّتْ تُراصِـدُني وتَنْظُرُ حَوْلَها ... وَيُرِيبُـها رَمَـقٌ وأَنِّي مُطْـمِعُ
٣٣- وَتَظَلُّ تَنْشِطُني وتُلْحِمُ أَجْـرِيَاً ... وَسْطَ العَرِينِ وليسَ حَـيٌّ يَدْفَـعُ
٣٤- لَوْ كانَ سَيْفِي باليَمِينِ ضَرَبْتُها ... عنِّي ولَمْ أُوكَلْ وجَنْبِي الأضْيَعُ
٣٥- ولَقَدْ ضَرَبْتُ بِهِ فَتُسْقِطُ ضَرْبَتِي ... أيدِي الكُماةِ كأنَّهُن الخِرْوَعُ
٣٦- ذاكَ الضَّياعُ فإنْ حَزَزْتُ بِمُدْيَةٍ ... كَفِّي فَقُولي : مُحْسِنٌ ما يَصْنَعُ
٣٧- ولقد غُبِطْتُ بما أُلاقِي حِقْبَةً ... ولقـد يَمُرُّ عَلَيَّ يومٌ أشنـع
٣٨- أَفَبَعْدَ مَنْ وَلَدَتْ نُسَيْبَةُ أَشْتَكِي ... زَوَّ المَنِيَّةِ أو أُرَى أَتَوَجَّعُ
٣٩- ولقدْ عَلِمْتُ، ولا مَحَالَةَ، أنَّني ... لِلْحَادِثاتِ، فهلْ تَرَيْني أَجْزَعُ
٤٠- أَفْنَيْنَ عَاداً ثُمَّ آلَ مُحَرِّقٍ ... فَتَرَكْنَهُمْ بَلَداً وما قَدْ جَمَّعُوا
٤١- وَلَهُنَّ كانَ الحَارِثانِ كلاهُما ... ولَهُنَّ كانَ أخُو المَصانِعِ تُبَّعُ
٤٢- فَعَدَدْتُ آبائِي إلى عِرْقِ الثَّرى ... فَدَعَوْتُهُمْ فَعلِمْتُ أنْ لَمْ يَسْمَعُوا
٤٣- ذَهَبُوا فَلَمْ أُدْرِكْهُمُ وَدَعَتْهُمُ ... غُولٌ أَتَوْهَا والطَّرِيقُ المَهْيَعُ
٤٤- لا بُدَّ مِنْ تَلَفٍ مُصِيبٍ فَانْتَظِرْ ... أَبِأَرْضِ قَوْمِكَ أَمْ بِأُخْرَى تُصْرَعُ
٤٥- وَلَيأْتِيَنَّ عليكَ يومٌ مَرَّةً ... يُبْكَى عَلَيْكَ مُقَنَّعَاً لا تَسْمَعُ(١)

المقدمة :

تهدف هذه الدراسة إلى قراءة قصيدة " صرمتْ زنيبة " لمتمم بن نويرة بفهم جديد، تحاول الإجابة – من خلاله - على تساؤلات قد يطرحها المتلقي ، منها : هل يريد الشاعر أن يتحدث عن معنى آخر غير المعنى الظاهر ؟ وهل اللوحات المختلفة في ظاهرها مترابطة في موضوعها ؟ إن رؤية القارئ تتعدى الظاهر، وتسبر أعماق التكوين الشعري، وتُبرز النص باعتباره وحدة نفسية وموضوعية تكتنه الوجود، لا تظهر بسهولة، ولقد رفع الشاعر نفسه إلى مستوى من الإدراك جعله يعرض موضوعه بطريقة رمزية تظهر فيها جدلية حادة بين الحياة والموت، وامتدَّ هذا التواصل الرمزي في نسيج القصيدة كلها .

ويبدو للقارئ المتعجل أن هذه القصيدة _ مثل أغلب الشعر الجاهلي – تشتمل على موضوعات وشرائح متعددة لا رابط بينها، وأرى أن الحكم على هذا الشعر من هذا المنظار فيه استعجال، "فالنظرة إلى

(١) ابنا نويرة، مالك ومتمم، **ديوان مالك ومتمم ابنا نويرة** ، تحقيق: ابتسام الصفار ، مطبعة الرشاد ، بغداد ، ١٩٨٦ ، ص ٩٣.

القصيدة الجاهلية على أنها مكونة من شرائح لا رابط بينها نظرة فيها شيء من التجني على خصوصية هذا الشعر، وذلك لأن التعامل مع النص الجاهلي يمتلك خصوصية في كون هذا الشعر مبنياً من مجموعة من الموضوعات أو الأغراض، وإن النظر إلى كل غرض على حده يعزز تشظّي القصيدة وتفككها، ولذلك ينبغي أن ينظر إلى هذه الأغراض في إطار البناء الكلي أو الرؤية الكلية للنص"(١).

قامت الدراسة كما ظهر في فضاء القصيدة الشعري على صور متعددة تظهر جدلية كبرى بين الأنا والآخر، وكانت على النحو التالي:

الشريحة الأولى: الشاعر العاشق / والمعشوقة الحياة.

الشريحة الثانية: الشاعر / حمار الوحش، و الناقة / الأتان.

الشريحة الثالثة: الشاعر / والفرس.

الشريحة الرابعة: الشاعر /والضبع.

الشريحة الأولى: الشاعر العاشق، والمعشوقة الحياة (١-٣):

يصور هذا المقطع موقفاً دراميًا قاسياً فيه تناقض مؤلم بين الشاعر من جهة والمعشوقة من جهة أخرى، ويُظْهِر صورة العلاقة بين الشاعر و معشوقته ـــ في مقدمة القصيدة ـــ بطابع مأساوي، فيه تعبير عن حقيقة قائمة على ثنائية الحياة والموت، ويبحث الإنسان الجاهلي فيه عن إجابات لتساؤلات كبرى عن المصير والحياة والموت.

يقرر الشاعر موضوع القصيدة من مطلعها؛ الذي يبدو أنه معادل موضوعي لعلاقة الإنسان الجاهلي مع الحياة في مواجهة الزمن، أما حديثه عن زنيبة فقد كان حديثاً عن الحياة بكل ما فيها من ألم ومشقة وعذاب، ولقد أظهر الشاعر توتراته وانفعالاته في إطار من المباشرة في الدخول إلى موضوعه بمقدمة غزلية، وهي العلاقة غير المتوازنة مع معشوقته "زنيبة"، إذ قررت أن تقطع معه روابط الوصل، ويبدو من خلال هذا المطلع أن الشاعر كان قلقاً متوتراً في كل مراحل هذه العلاقة التي تبدو أنها من طرف واحد في كل مشاهدها، لهذا لم يمهل نفسه في استدعاء المقدمة الطللية، فتجاوزها، واكتفى بالحديث عن المعشوقة الحياة، وكأنه عدَّ ذِكْر الأطلال تكراراً للحديث عن الزمن وما يصنعه بالإنسان من قلق، ويكشف المقطع الأول من القصيدة الخوف الذي يسيطر على نفسية الشاعر حيث يستجدي زنيبة أن لا تقطع معه الوصل، فجسّد صورة القلق الذي يسيطر عليه نتيجة الانفصال والقطيعة المعلنة من زنيبة / الحياة، "فالمحبوبة روح

(١) ربابعة، موسى: "قراءة في لامية زهير في مدح حصن بن حذيفة" في كتاب "**قراءة في النص الشعري الجاهلي**"، دار الكندي، إربد، ٢٠٠٢، ص١٠٢.

الحياة، بل الحياة نفسها"[١]، ويبلور الشاعر هذا الإحساس بأسلوب الطباق لعقد موازنة عبر تباين المواقف بين الطرفين "صرمتْ"، و "لا يقطعُ".و يتشبث الشاعر بالتواصل في ضوء معطيات الألفاظ المباشرة وغير المباشرة، "صرمتْ زنيبة حبل من لا يقطعُ "، "ولقد حرصتُ "رغم فاعلية الزمن المدمرة بفعل القطيعة التي تشمل نتاجاتها المعلن وغير المعلن، غير أن الموقف المعلن من زنيبة الذي شكّل صورة التأزم والتوتر كان قراراً قطعيًّا وأمراً حتمياً بعدم الوصل، وشكّل عند الشاعر مظهراً من مظاهر الحزن والألم، وأوجب عليه شيئاً من ردة الفعل للمحافظة على توازنه؛ على الرغم من محاولته البائسة والمتشبثة ولو بالقليل من متع تواصل اللذة؛ الذي يمكن أن يتأتى من خلال دمع مستنفع.ويلاحظ القارئ صيغة الخطاب عند الشاعر، ففي هذه اللوحة استخدم في البيت الأول صيغة الغائب، فتحدث عن القطيعة "صرمت زنيبة حبل من لا يقطع"، ثم انفجر في البيت الثالث ملتفتاً، ومغيِّراً لغة الخطاب من الغائب إلى المخاطَب "جذّي"، معلناً تحديه للآخر، فأطلق صرخة الانفجار التي يبدو فيها الشاعر منهَكاً، فانتفض انتفاضة المظلوم العاشق، واستخدم الترخيم في ثورته، فاختلف توتر المطلع عن توتره في هذا البيت، فالتفت وأمر وطَلَبَ وقَطَع **ورخّم وتحدّى،** فكانت الصورة الثنائية الضدية الظاهرة هنا على النحو التالي :

امرأة = تقطع = تفجع = تنفع نفعاً محدوداً = تودع حبيبها شفقة فتذرف الدموع

رجل = لا يقطع = خليل = حريص على الوصل = يستبد بهذا الوصل

ويُبرِز استنفاع الدمع من العين صورةَ القهر التي يمكن أن تتوالد عن مظاهر الفعل اللاشعوري من زنيبة، وهذا المظهر يفعِّل تجربة القلق التي يعيشها الشاعر، فهو يزيده غمّاً وحزناً لأنه يولِّد في الذاكرة صورة الوداع الأخير التي ترسَّخت في ذهن الشاعر من جهة، ويشكل من ناحية أخرى عاملاً مقلقاً في التفكير حول دواعيه . لقد كان الشاعر ضعيفاً متهاوياً لاهثاً في المقطع الأول من قصيدته، فرسم لنا صورة الفجيعة التي ذكرها أولاً "وللأمانة تفجعُ"، و اشتمل إيقاع الوداع على ثنائية الصمت والصوت، فأصمتتْ زنيبة اللسان، وتحدثت بصمت ممزوج بشفقة، وودّعت بصمت ودموع، فكان صمتها مرعباً للشاعر، دفعه لأن يصوِّت عاليا مدويّاً "جذّي"، ويبدو أن انتقال الشاعر في الخطاب من الغيبة إلى المباشرة سببه التنبه إلى فظاعة الموقف وبعْث اهتمام السامع، وإيقاظ الإصغاء إليه، فخطاب الغيبة فيه صدق وإخلاص، والانتقال إلى المباشرة في الخطاب فيه خضوع وضراعة ورغبة. لكن زينب لم توغل في صمتها، فتوشّحت به من خلال العين ودموعها، فأعطت الإجابة بصمت الدمع الذي لم يكن عميقاً، فهيمن عليها، فكانت سلبية في كل شيء.

لم يجد الشاعر من زنيبة غير دموع تشكل عامل استنزاف لمجهوده المتشبث بهذه العلاقة رغم ما بذله

(١) نبوي، عبد العزيز: **دراسات في الشعر الجاهلي**، ط١، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٢، ص١١٦.

من حرص على علاقة التواصل بينه وبينها، لهذا عليه مواجهة هذه القطيعة للمحافظة على الذات في إطار تحدي فاعلية الهدم الزمني الذي يشكل نهاية لوجوده عبر هذه اللذة المتناهية، فهو يعلم علم اليقين أن اللذة التي يعيش لا يمكن أن تدوم وأن تتواصل، فكانت القطيعة عامل الحسم في هذا الموقف.لقد كان الشاعر يبحث عن التواصل مع معشوقته / الحياة لكن ذلك لم يتحقق، مما فرض عليه الرحيل؛ لأن الهوة بينهما قد اتسعت، وكان لا بد من الانفصال .

ويشكل التنقل بين محاور زمنية ثلاثة مظهراً من مظاهر القلق التي تسيطر على الشاعر، أولها : صورة القطيعة التي تولدت بفعل من زنيبة في إطار الزمن الماضي "صرمتْ "، وثانيها : ما يوازي هذه القطيعة من حرص الشاعر على التواصل تمَّ في الزمن نفسه "حرصتُ"، والثالث : دلالة النفي والاستمرارية التي جسدها الزمن الحاضر لتشكل بعداً متميزاً في إظهار حس التواصل الذي يسعى إليه الشاعر من خلال عبارة "لا يقطع". لقد شكَّل استخدام فعل الأمر "جذي" نمطاً من أنماط المحافظة على الذات عندما يعمد الشاعر من خلاله إلى أسلوب التحدي، ليعبر عن ردة فعل موازية لفعل القطيعة الذي ترتب على الانفصال، وما يرافق ذلك من استخدام حرف النداء للبعيد، لأن زنيبة أصبحت بعيدة عن الشاعر على الصعيدين المادي والنفسي. و استخدم الشاعر أساليب التوكيد المختلفة، "اللام"، "ولقد"، "وإنّني"، و"قد أستبدّ"، فخرج عن المألوف في استخدام "قد" فأفادت التوكيد هنا على الرغم أنها جاءت مع الفعل المضارع، ليصور تنامي الحدث في ردة الفعل على فقدان حس التواصل من خلال استخدام الشاعر مفاصل أسلوبية متعددة، تؤكد نبرة التحدي، فجاء تنامي الحدث على النحو التالي :

لا يقطعُ	**هبوط**	**التشبث بالتواصل .**
ولقد حرصتُ	**صعود**	**تأكيد حب التواصل .**
جذّي	**صعود**	**التحدي، لمحاولة الإبقاء على التواصل.**
فإنني قد أستبدُّ =	**صعود**	**التحدي، لمحاولة الإبقاء على التواصل.**
وأخو الصَّريمة في الأمور المزمعُ	**صعود**	**تأكيد التحدِّي والصعود .**

وتبدو فاعلية التكرار في اللوحة الأولى ذات دلالة تتنامى في إطار من التفاعل الصوتي واللفظي، لتصل إلى الصورة البيانية الكاملة، فنلحظ تكرار الحرف "الحاء"، في حبل، وحبل، وحبالك، وحرصت، والرحيل، وهذا التكرار له دلالات معنوية، تكمن فيها إمكانات تعبيرية عميقة، تتعدى حدود الصوت إلى حدود الدلالة، وحرف "الحاء" في القصيدة مفتاح صوتي نهض بمسؤولية توضيح المعنى، واستطاع أن يرسم صورة العلاقة السلبية بين الشاعر وزنيبة، أما تكرار الكلمة من مثل "حبل" و"حبل" و"حبالك" و"يقطع" ، و"مَن هو أقطع"، و"زنيب "وزنيبة"، و"لقد"و"قد"، توضح صورة ما يجول في ذهن الشاعر من هواجس، تخوفاً من قطع العلاقة، فالتكرار هنا" يضع في أيدينا مفتاحاً للفكرة المتسلطة على الشاعر، وهو بذلك أحد الأضواء

اللاشعورية التي يسلطها الشعر على أعماق الشاعر"[١].

يعبر مطلع القصيدة عن قلق الإنسان الجاهلي وحيرته أمام ثنائية الموت والحياة، فقد يئس من الحياة وشعر بعدم جدوى العواطف الإنسانية المقهورة أمام دوامة الزمن، وغدا حديث الشاعر في المقدمة شعوراً بالهزيمة والانحدار، واللاإرادة أمام الحياة والموت، ولا سبيل في هذه الحالة إلا الفراق[٢]. "وقد ينظر الشاعر إلى فراق أحبته أو تغيّر عهودهم على أنه من ألوان الفناء والتحول الذي لا يبقى عليه شيء"[٣].

الشريحة الثانية: الناقة / الأتان والشاعر / حمار الوحش (٤ - ١٩):

انفتح أفق هذه القصيدة لصورة الناقة التي كانت وسيلة للتحول من حال إلى آخر، ليواجه القطيعة، ويخفف عن نفسه الصدمات المتلاحقة ،فكانت الناقة رمز الحياة الجميلة، ورمز التفاؤل والمقاومة والفرح، "والحديث عن الناقة هو مجمع أسرار القصيدة الجاهلية ومركز تنويرها"[٤]. تطورت صورة الناقة في هذه الشريحة من الحركة إلى الحركة، من الساكن المتحرك داخل إطار المكان الذي ترعى فيه صيفاً وتربع فيه ربيعاً؛ إلى الحركة الأكثر تطوراً وتعباً وإنهاكاً في حياتها مع الشاعر، فأصبحت بعد كثرة المشي كالعلج يسير معه أتان ملمع ،كانت قد لقحت، وأشرف ضرعها للحمل. لقد صور الشاعر الناقة تصويراً جسدياً ونفسياً في آن معاً، فكانت في جسدها في غاية الجمال، وفي نفسها حادة عصبية المزاج.وكانت معشوقة الشاعر بما فيها من صور إيحائية متجددة، يحركها ويتحرك معها ووراءها، ويلهث لحمايتها من عوارض الزمن والدهر، فهي في نفسه الحياةُ والمستقبل والحب، وهو عندها لا يساوي شيئاً كما ظهر في هذه اللوحة. "وتحولت المرأة في آخر طور من أطوار الجاهلية إلى قيمة معنوية، وتحول الحب إلى تعلق بتلك القيم وتضحية في سبيلها، وأضحت المرأة في القصيدة الجاهلية رمزاً لا حقيقة وغدا هذا القصص الغرامي الذي يحيط بها صورة من صور التعبير الرمزي"[٥]، **والناقة عنده رمز وعلامة نسقية**، وصورتها إيجابية تظهر من خلال وحدات دلالية وُظِّفت لإظهار هذه الصورة في القصيدة. وتظهر في الأبيات عناصر تمكننا من إسقاط صفات الناقة على زنيبة؛ من سنام مكتنز، وكرم وعتق وسواها، يسعى الشاعر في ذلك إلى تغذية فكرة "الصلابة في مقارعة الدهر"[٦]، ولم يتحول الشاعر إلى عالم الرحلة والأسفار وركوب المخاطر كما يقول؛ بل تحدث عن علاقة الحب مع المعشوقة بصورة أخرى، نقلها من عالم الإنسان إلى عالم الحيوان، وقد

(١) الملائكة، نازك: **قضايا الشعر المعاصر.** ط١٠، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٧، ص ٢٧٦ .

(٢) أنس الوجود، ثناء: **رمز الماء في الأدب الجاهلي.** مكتبة الباشا، القاهرة، بلا، ص ١٢٧ .

(٣) جياووك، مصطفى: **الحياة والموت في الشعر الجاهلي.** بغداد، ١٩٧٧، ص ١٥٣ .

(٤) أبو سويلم، أنور: **الإبل في الشعر الجاهلي**، ط١، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ١٩٨٣، ١/٥٥ .

(٥) نافع، عبد الفتاح: **الشعراء المتيمون في الجاهلية والإسلام.** ط١، جمعية المطابع الأردنية، عمان، الأردن، ص٢٥ .

(٦) رومية، وهب: **شعرنا القديم والنقد الجديد.** سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، رقم (٢٠٧) ١٩٩٦، ص٢٠٠.

استخدم الشاعر الجاهلي رمز الحيوان ليسقط من خلال هذا الرمز همومه ومشاعره، ويصور معاناته النفسية والجسدية في آن معاً، وكانت الناقة من أهم الحيوانات التي وظّفها للتعبير عن القهر الذي يحيط به، يبادر الشاعر عليها الرحلة، ولها دلالات العزيمة والقوة والاستقرار، وهي قوية سنامها القصر العظيم إشارة إلى صلابتها وجلدها، و لم يقف عند هذا الحد بل جعل سنام الناقة في صلابته وامتلائه وانملاسه يصل إلى حد يعجز الغراب أن يقف عليه، إشارة إلى تميزه وتفرده بمواصفات تحقق طموحات الشاعر في وقفة التحدي التي يريد، فالإحساس بالموت جعل الشاعر يشير إلى الرحيل بالغراب، "وإن قوة تأثير شر الغراب في النفس جعلت الشاعر لا يرى إلا ما يوحي بالفراق أو البين عن الديار"(١). وتشكل عدم قدرة الغراب على الثبات على سنام الناقة فاعلية لقوى المواجهة التي يسوقها الشاعر للوقوف في وجه القوى السلبية المدمرة التي يفعلها عنصر الزمن الذي مازال يشكل عنصر قلق وخوف عبر تآكل التخيلات التي تخفي تحت ظلالها وجه الحقيقة التي يخشاها الشاعر، لهذا لجأ إلى بناء صورة أخرى لهذه الناقة تكون قادرة على تفعيل صورة التحدي التي يريدها، حيث صوّر الناقة بعد التعب والمسير في الليل بحمار الوحش تجاريه أتان سيئة الطبع أشرق ضرعها للحمل فكانت أكثر حدية، يباريها حمار الوحش، شديد الغيرة والتأثر، ليبدأ الشاعر بذلك نمطاً قصصياً يمثل درامية الحياة، لا على المستوى الحيواني فقط بل على المستوى الإنساني أيضا ،وظهر حمار الوحش في صورة مثالية من القوة والمتانة، وإذا ألح عليه العطش جمع أتنه، وذهب إلى مواضع الماء، فيكون الصياد راصداً لها، فالحمار رمز القوة والخصب، يريد أن يتجاوز الواقع إلى عالم منشود، "فكانت الناقة القوية الشامخة المتحولة حماراً صورة لذات الشاعر المترفعة عن الأسى والمنتشية بالسعي لتجاوز الأجيال والمحققة ذلك التجاوز في صور الحمار"(٢). وتنتقل صورة القلق والتوتر وانعدام اللذة التي أحاطت بالشاعر في بداية القصيدة يوم أعلنت زنيبة القطيعة من المستوى الإنساني إلى المستوى الحيواني في شريحة الأتان، ويعكس حمار الوحش صورة القلق الذي تشكل في هذه الشريحة نتيجة خوفه المستمر على الأتان، فالشاعر يتوارى خلف هذه الشريحة معبراً عن أحاسيسه ومشاعره، ومن هنا فإن رحلة حمار الوحش تتصل بذات الشاعر الذي شكلها لتعبر عن دواخله، حيث يتشكل الصراع بين الحمار والأتان عبر مظاهر التمنع التي تبديها، لقد كانت علاقة حمار الوحش بالأتان مشوبة بالتنافر والتوتر والتضاد، وهي نفسها العلاقة التي كانت بينه وبين زنيبة / الحياة، "وإن شريحة الأتان تمثل تنامي هاجس الخوف من المجهول ،وهو خوف يرتسم من خلال خوف الحمار والأتان من الصيادين، فعنصر الخوف يضاعف الحس بالتهديد وغياب

(١) الرباعي، عبد القادر: **الطير في الشعر الجاهلي.** (دراسات وبحوث نقدية) ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٨، ص١١٦.

(٢) الخطيب، عماد: **الصورة الفنية في المنهج الأسطوري لدراسة الشعر الجاهلي.** دراسة تحليلية نقدية، ط١، مكتبة الكتاني، والمكتبة الوطنية، إربد، الأردن، ٢٠٠٢، ص٢٢١.

الأمن"[١]، وهي بذلك تحمل التوترات نفسها التي تشكلت في صراع القطيعة بين الشاعر وزنيبة، فاللذة التي حرمها الشاعر تحاصر الحمار في هذه الشريحة، ويغدو التماثل في الموقفين واضحاً رغم تعابير الحياة والخصب التي تجسدها كلمة "ملمع"، وتتجلى صورة القلق والخوف على الأتان في نفس الحمار عندما يتنكر لأقرب المخلوقات إليه، حيث تشكل الغيرة على الأتان دافعاً لهذا التنكر حين يجعل الشاعر من الجحش يتيماً في قوله "إنَّ اليتيمَ مُدَفَّع "، ورغم تمُّع الأتان يتمسك الحمار بها، حيث يظل مرتبئاً عليها، يترقب خوفاً من السباع والقنص، وهو بذلك يقابل حرص الشاعر على التواصل رغم القطيعة التي أعلنتها زنيبة، وتعبير الشاعر عن الحرص في بداية القصيدة بعبارة "ولقد حرصت على قليل متاعها " يقابله الترقب المستمر لحمار الوحش بقول الشاعر : "ويظل مرتبئاً عليها جاذلاً " فكلاهما يتلذذ بما يفعل، ليقينه أنه يحافظ على التواصل في إطار هذا الفعل، وانقطاع المتعة عند الشاعر جعله يبحث عن بديل لها في لذة الحمار.

وتبدو محاولة الشاعر لتأهيل لذة الحمار لموقف عصيب بادية في أبيات الشريحة، حيث يعمِّق صورة الصلابة والقوة والإقدام في وصفه الحمار من خلال استخدام بعض المفردات : "الجأب، مترع، أهوى، زجلا، النجيد، المشرع"، كما ميز الشاعر الأتان بالسرعة والصلابة حين وصفها بـــ "السَّمْحَج"، وشبَّه سرعتَها بالدلو، وقد انقطع رشاؤها حين قال : "كالدلو خان شاؤها المتقطع"، فصورة التحدي تحتاج إلى مثل هذه المواصفات، وبعد أن يهيج الحمار الأتان للوِرد يفاجأ بالموت والهلاك الذي ينتظرهما حين تطلق سهام الصياد باتجاههما؛ في مكان تشكل صورة مكانه الملتف بالقصب معلماً آخر من معالم الهواجس والخوف، غير أن محاولة الهروب من الموت إلى الحياة وعدم اليأس والاستسلام شكلا عامل نجاح في تحقيق النصر، ففشل السهم الذي أطلقه الصياد في تحقيق أهدافه عندما تكسَّر على أعتاب حجر صلب يتواءم وجو الشريحة التي شكلها الشاعر، ويكون بذلك خطاً من خطوط الدفاع في مواجهة الزمن ،علماً أن اختيار الصياد للمكان مستمد من خبرة الصيد، واختيار حمار الوحش للماء أيضاً، فتكسرت السهام حطاماً، و لم تستطع أن تصل إلى الحمار وأتانه ،لأن قَدَرَهُما لم يحن بعد. ويشكل الحمار عنصراً فاعلاً في الدفاع عن الأتان عندما يقي موقع الهلاك منها بجسده؛ ونستشعر الذكورة الواضحة، وتفجُّر الأنوثة في ذاكرة الشاعر أو الإنسان الجاهلي بعامة، عندما يتحدث عن الحمار وهو يدافع عن الأتان، ويتصدى لسهام الصيد في الوقت الذي يتحمل فيه الضربات الموجهة إلى نحره منها، وهنا تبدو عوامل الربط بين الشريحة المتعلقة بالشاعر وزنيبة؛ وشريحة الحمار والأتان، فانفصال الدلو عن الحبل يعكس صورة الانقطاع وسرعته بين الشاعر وزنيبة، كما أن صورة التواصل التي حاول الشاعر الإبقاء عليها : "لا أقطعُ "، "حرصتُ "، وما يقابلها من قطيعة من قِبَل زنيبة "صرمتْ "، تعكس صورة تمسك الحمار بالأتان ومحاولة الحفاظ عليها في

(١) الرباعي، موسى: " قصيدة الإحباطات والآمال قراءة في معلقة لبيد بن ربيعة " في كتاب " **قراءة النص الجاهلي** "، ص ٣٢ .

الوقت الذي يتلقى الضربات منها، "وهكذا طفق هؤلاء الشعراء يقرنون تجربة الموت الإنساني بتجربة الموت لدى المخلوقات الأخرى كالثور الوحشي، وحمار الوحش، والقطاة ،والنسور وغيرها، وهم في ذلك يتأسون بهذا الموت الكوني، ويستمدون منه العزاء ويرمزون بموت هذه المخلوقات لموت الإنسان، ويشبعون أحاسيسهم ونفوسهم بمعاني الفقد "(١)، حتى أن صورة القلق والخوف التي تسيطر على الشاعر تستتر خلفها صورة الحياة ممثلة بالماء الذي يحفه القصب الملتف، وخاصة عندما تخرج من خلالها سهام الموت."وكثيراً ما اقترنت صورة الدهر بصورة الصياد الرامي المخاتل الغدار في شعرنا القديم عامة لا في الشعر الجاهلي وحده"(٢)، كما أن فاعلية الزمن هنا تتدخل لدفع الموت عن الحمار، لكنها لا تلغي الأنا في مواجهة الآخر سواء انبثق ذلك من ثنائية الحياة في مواجهة الموت، أم انبثق ذلك من تدخل عامل الزمن الليل في مواجهة الآخر لمساعدة الأنا في مواجهة الآخر.

وتشكل الثنائية الضدية بين الكلمتين "صرمتْ" في الشريحة الأولى، و"لاقى" في شريحة الحمار والأتان عنصر القلق المفاجئ الذي يفجر الإحساس بالموت والهلاك، وبالتالي يعتبر الإفلات من سهام الصياد عاملاً مهماً في رأب الصدع الناتج عن القطيعة التي أعلنتها زنيبة، ويبدو أن هذه الشريحة أعادت إلى الشاعر شيئاً من الثقة بالنفس عبر تنامي الشخصية التي هزتها وأقلقتها ظروف القطيعة، ومن هنا بدأ رحلة الصيد بداية قوية تفعِّل الذات عبر التوكيد، وضمير المتكلم "ولقد غدوتُ"، وتشكل المفاصل نوعاً من التوازن والشعور بالذات عبر التوترات المشكَّلة، فقد تكرر هذا الاستخدام النمطي ثلاث مرات منذ بداية القصيدة، "ولقد حرصت"، "ولقد قطعت" ، "ولقد غدوت" .

يرى حمار الوحش / الشاعر نفسه في قمة نشوته، وهو يحاول أن يظل ملتصقاً بالأتان / الحياة، ويبقى حمار الوحش / الشاعر عرضة للألم، فهي تبتعد عنه، وهو يلتصق بها، ويستمر هذا الهجر طيلة هذه الشريحة. لقد كانت الناقة قناعاً يتحدث الشاعر فيه عن محبوبته / الحياة، "والناقة وسيلة انتقال فردية في جوهرها في مقابل تلك الحركة الشعورية المتفردة التي تنتاب الشاعر الفرد الذي يمسك بزمام فرديته عبر فن القول الشعري على الرغم من كبر تلك الشبكة التي ترتبط بعالم الفن والناس فهو يضع التقابل بين الأنثيين (الناقة / المحبوبة) في أفق القصيدة"(٣).

يحاول الشاعر / العلج / حمار الوحش في البيت العاشر أن يستأثر بالأتان / زنيبة / الحياة، لكنها ترفض وتتمرد، " وتكفه عن نفسها "، ويحاول أن يكفها عن ابنها، لكنها تكفه عن نفسها، صورة ثلاثية

(١) رومية، وهب: **شعرنا القديم والنقد الجديد.** ص ٣٠٦ .
(٢) **المرجع نفسه** ص ١٩٨ .
(٣) حسن، جعفر: **عبور الزمن الصامت مقدمات أولى لدراسة سيرة طرفة بن العبد ومعلقته.** وزارة الإعلام والثقافة البحرينية ،ط١، ٢٠٠١، ص ٢٤٣ .

الاتجاهات، محورها الأتان. ونلاحظ أن العلاقة بين الأتان وابنها علاقة تبادلية، لكنها مع الأتان / وحمار الوحش علاقة تنافرية من طرف واحد هو الحمار، وهي صورة الشاعر في علاقته مع زنيبة / الحياة . وفي البيت العاشر تكرار لمعنى البعد والكف في "يحتازها"، و "نكفه"، و "مدفع"، ويبدو أن حمار الوحش قد نجح في فصل الأتان عن جحشها، فقال "إن اليتيم مدفع"، لأن في الحيوان لا يكون اليتيم يتيماً إلا إذا فقد أمه، ويبدو أنه حصل له ما أراد.

وتتجذّر فاعلية الصورة الشعرية في المشهد نفسه عندما يصور الشاعر حال حمار الوحش وشدة تمسكه بالأتان في البيت الحادي عشر، فهو يظل قائماً عليها "مُرْتَبِئاً"، يحميها، ويجعلها ترعى مدة طويلة حتى تغيب الشمس، فلا يوردها الماء نهاراً حتى لا يراها صياد أو قناص أو حيوان مفترس "ولأيا يرتعُ"، بعد ذلك يدفعها إلى الوِرْد "جأب"، ويلاحَظ في هذا البيت انتقاله من الهدوء في الرعي في البيت السابق إلى استخدام ألفاظ فيها معنى القوة و الجزالة والتحدي، لأنه سيسير ليلاً متحدياً الزمان والمكان في آن معاً .

فهو "يهيجها" أي يدفعها دفعاً بعد ثلاثة أيام من الرعي وترد في اليوم الرابع "عشية خمسها"، واستخدم كلمة "جأب" وهو الحمار الشديد الغليظ ، لأن الموقف يحتاج إلى شدة وشجاعة، فهو في غاية الجاهزية للدفاع عن مشروعه، يهيجها ويتبعها ليحميها، وكلمة " مُتْرَع" تدل عل شدة ارتباطه بها، فلا يترك لها مجالا للابتعاد عنه خشية الصيادين .

وكان حمار الوحش / الجأب / الشاعر قد هيج الأتان للوِرد، وهو مسرع خلفها يعدو، يسوقها وهي تسبقه إلى هذه المخارم ، ويبدو أن الشاعر قد تجاوز هذه المرحلة حتى وصل إلى عين الماء مع أتانه، يلتف حول هذه العين غاب من القصب المرتفع المزروع منه والمحصود (يصور الشاعر المكان ليلا)، ولهذا المكان وظيفة دلالية خصبة في الشعر الجاهلي، وفيه البعد والخصب في قصيدة متمم، وفيه توجس وخوف من غدر الصياد في المكان الآمن / الماء، وقد استخدم متمم عنصر الماء استخداماً يبدو متناقضاً، فهو مادة للحياة والموت في آن معاً، وهناك علاقة حيوية بين عيون الماء وبين الصياد، فعين الماء للصياد حياة، وهي مورد الحيوانات جميعها، و الصياد ينتظرها عند ورودها ، فيصبح الماء موتاً بعد أن كان حياة، "وكان الرماة عادة يرصدون الوحوش عند موارد المياه الصافية حتى إذا وردت واطمأنّت رموها وأصابوا مقاتلها"[(١)]، فبعد الوصول :

لاقى على جنب الشريعة لاطِئاً صَفْوَانَ في نامُوسِهِ يَتَطَلَّعُ

ولقد عمّم القيسي حكمه على الشعر الجاهلي، وعلى الشعر الذي سار على نهجه فيما بعد؛ في أن

---

(١) القيسي، نوري حمودي: **الطبيعة في الشعر الجاهلي.** ط١، دار الإرشاد للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧١، ص ٢٩٧ .

الرماة – كما يظهر في قوله – يصيبون المَقاتِل من الحيوان دائماً، علماً أن المتتبع لشعرهم يلحظ أن السهام في شعر القدماء كانت تخطئ الحيوان في معظم الأحيان، وتقتلها في القليل منه، وخاصة في الرثاء، وقد أشار الجاحظ إلى ذلك، يقول : "ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب التي تقتل بقر الوحش، وإذا كان الشعر مديحاً، .... أن تكون الكلاب هي المقتولة"[(١)].

ويلحظ القارئ الصورة الحركية التي تتأزم فيها الأحداث القصصية من البيت (١٢- ١٨)، ونلاحظ صورة الثبات والسكون، تتمثل في عين الماء - المكان، حولها القصب النابت الأخضر، واليابس المحصود، وفي الصياد صفوان / لاطئ في ناموسه، يتطلع ويراقب، والثبات هنا أكثر قوة وتدقيقاً من الحركة. أما الصوت فانبعث قوياً عندما اصطدم الحجر بالسهم، ومن الحجارة المتناثرة بفعل السنابك، لقد امتزج في هذا المشهد الدرامي القصصي الحركة والثبات والصوت لتشكل صورة الأتان وهي تتعرض للقنص في المكان / العين، وفي ذلك الزمن الليل، انظر إلى صورة المشهد الأخير من الهزيمة، فهي دائماً تركض غير مكترثة به، وهو يركض خلفها متمسكاً بها، ليحميها من الخلف، ويقفل الشاعر المشهد بصورة تظهر خلاصهما من الصياد، وقد ذهب إلى أعماق الجبل، فهما في قمة السعادة، عندما وصلا إلى أعلى مرتفع، يشرف فيه حمار الوحش على رعي الأتان بأمان وطمأنينة وهدوء، يقول :

لا شَيْءَ يَأْتُو أتْوَهُ لّمّا علا فوقَ القَطاةِ ورأْسُهُ مُسْتَتْلِعُ

لقد كانت لوحة حمار الوحش والأتان تصويراً للواقع المكاني، يستجلي من خلالها علاقة مضمرة وحراكاً جوَّانيّاً، في "تركض" و "تتحرك"، وهو يتحرك خلفها، فحوافر الأتان تضرب نحر حمار الوحش، لشدة فزعها، وحبها للحياة، محاولة قطع المسافات بأعلى خطوة وأوسعها، والحمار يتبعها لا يستطيع أن يتركها، "فهو يحدب على أتنه ويغار عليها غيرة الرجل على نسائه، وينجيها من مظان التهلكة"[(٢)]، لقد هدأت النفوس، وأمن من الخوف، ووصل إلى السلامة، فشعر أنه نجا ومن معه بعد الحركة العنيفة السريعة الممتزجة بصوت الحوافر، "لا شيء يأتو أتوه"، "ورأسه مستتلع"، وانتهت الرحلة بالوصول إلى الحياة والأمان والخصب .

لقد طرحت لوحة حمار الوحش لوناً من ألوان الصراع التي عانى منها إنسان ذلك العصر، "زاد من حدة وقعها على نفس الناس غياب القيم الروحية التي تُشْعِر الإنسان بالأمن"[(٣)]، ولقد حاول الشاعر أن

(١) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥هـ/٨٦٩م): **الحيوان.** تحقيق وشرح : عبد السلام هارون، ط٣، المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت، ١٩٦٩، ج٢، ص٢٠ .

(٢) نوفل، سيد: **شعر الطبيعة في الأدب العربي**، القاهرة، ١٩٤٥، ص ٣٣ . وانظر : الصالحي، عباس: **الصيد والطرد في الشعر العربي، حتى نهاية القرن الثاني الهجري.** ط١ ،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨١، ص ٨٥ .

(٣) أنس الوجود، ثناء: **رمز الماء في الأدب الجاهلي.** ص ٢٣٥ .

يربط الفضاء الإنساني بفضاء الطبيعة بكل ما فيها من خوف ومطاردة وحماية وغالب ومغلوب، "فوظف الحيوان توظيفاً مبدعاً فحقّق إبداعاً خلاّقاً"(١).

وكان التشكيل البصري في هذه اللوحة علامة مهمة من علامات الشعرية، إذ رصد فيها ثنائية الحياة والموت، وهذا موضوع لا يقْدِرُ عليه إلاّ من خَبَرَ الحيـــاة، ووقفَ عند مَآسِيها .

شريحة الفرس (رحلة الخصب والحياة) ٢٠-٢٧ :

بلغ اهتمام العرب بالخيل مبلغاً عظيماً، "فكانوا لا يهنِّئون إلا بغلام يولَد أو شاعر يَنبغ أو فرس تُنْتِج"(٢). وجعلت الظروف الطبيعية القاسية في الجزيرة العربية العربي يفضِّل في خيله الصلابة والقوة والضخامة والامتلاء لتكون قادرة عند الحاجة(٣)، وقد أعادت شريحة الفرس للشاعر متمم بن نويرة نوعاً من التوازن والشعور بالذات عبر التوترات المشكَّلة، وكانت هذه الشريحة صورة من صور الفرح التي أحسّ بها؛ وتشكّل رحلة الصيد مع الفرس فسحة أمل يحاول الشاعر فيها أن يهرب من الواقع الذي أنهكه، "ولقد غدوتُ على القنيص وصاحبي نَهدٌ"، لكن ما يتركه الآخر من فسحة للتحرّك داخل الزمن يمضي سريعاً، فلم يُبدّدْ شعوره بالقلق. وأسهب الشاعر في وصف معاني القوة في فرسه التي تعكس بطولة الشاعر القادرة على التحدي، وأسهمت في التعبير عن ذات الشاعر، فالفرس في هذه القصيدة وسيلة الحركة السريعة وقطع المسافات، ووسيلة تقريب الفجوة بين الموت من جهة والحياة من جهة أخرى، وهو دلالة القوة والفحولة، و طاقة فاعلة إيجابية مخلِّصة، ينتقل به الشاعر إلى واقع جديد، فيه الأمان والاستقرار والعزة والمنعة ونسيان الواقع، يرى فيه نشوة الحياة، ويشعر نفسياً أنه وصل إلى حالة من التوحد مع ذاته، والهدوء في باله ، فيصف فرسه بالقوة والسرعة مؤملاً في تحقيق النصر على واقعه، "ويصبح الفرس المطيَّة المناسبة للشاعر في الحرب والصيد حتى يصبح وصف الفرس إشارة إلى اندماج الشاعر في المجتمع كعضو منتج"(٤). ولعل حالة اليأس من الأمل هي التي دفعت الشاعر أن يقدم صورة الفرس بطريقة توحي بالأمان والاستقرار في ظل الخيارات الصعبة التي يطرحها في قصيدته، فالفرس الذي يمتلك تلك القوة والصلابة تشكل انعكاساً لصورة التحدي الماثلة في مواجهة الفناء والموت، وعليه فإن التلوين بين اسم الفاعل وصيغة المبالغة تشكل نسقاً من القوة يفعِّل نغمة التحدي، فالفرس "ريّان، تَئِقٌ، طَمَّاح، مُتَقاذِف، ضَافِي السّبيب، جانئ، فوت الجوالب،

(١) عبد الرحمن، عفيف: "المثل والقيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي". **مجلة مجمع اللغة العربية الأردني**، السنة الرابعة، عدد مزدوج ١٣-١٤، ١٩٨١، ١٥٠.

(٢) ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م): **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده.** تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٥، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٥، ج١، ص٢٩.

(٣) القيسي، نوري حمودي: **الطبيعة في الشعر الجاهلي**، ص ١١١ .

(٤) الخطيب، عماد: **الصورة الفنية في المنهج الأسطوري.** ص٢٤٥ .

موسع"، وتتمثل هذه الصفات في الفرس لتمنحه فاعلية القدرة على المواجهة،"ومن أجل ذلك كان الفرس على الدوام شابّاً ....من حيث هو طاقة إبداعية"(١)، وجعلت هذه الصفات لفرس الشاعر دوراً إنسانياً واضحاً، فهو كريم يسعى إلى إسعاد البشر، وحركته فاعلة في مواجهة الحياة، وصورته تمثل الخير، وحديث الشاعر عن الفرس بكل صفاته التي أعجب بها، هو حدي عن نفسه، وإسقاط لصفاته عليه، حيث الغنى والاستقرار، وهو بالتالي تصوير لنفسه في مواجهة الصعاب، فهو لم يستسلم و لم ييأس، فصورة الحصان صورة الشاعر المتميزة بين الناس والجماعة، ولهذا كان يستدعي الصور التي تجعل منه قادراً على نسيان الواقع، ومحاولة الخلاص من شبح الخوف والموت الذي كان يعيشه، ويظهر التوحد التام بين الشاعر والفرس في أبيات القصيدة، فهو قريب لنفسه، حبيب إلى قلبه، يعطيه الحب والحنان والبذل كما يقول "وزدتُهُ بذلاً كما يعطي الحبيبَ الموسعُ"، وهو يسقيه أغلى أنواع اللبن "فله ضَرِيبُ الشّول"، وهو يُعْلف في الدار ولا يُترك ليرعى في المراعي "فهو مربَّبٌ لا يُخلعُ" وهو "أول سابق"، وتمثل صورة الفرس عند الشاعر تجدد الحياة التي يطمح الشاعر إليها، فحاول من خلال هذه الشريحة أن يعيد الانسجام لنفسه معها، فالحصان يمثل الانتشاء بالطبيعة الحياة ، وهو حصن الشاعر الحصين، هو وجوده وقوته، ويشكل عامل السرعة رافداً آخر من روافد تحقيق الهدف، فالفرس فوت الجوالب وسرعته تماثل سرعة الظبي، تعرض لكلاب الصيد، وهنا يبرز القلق والتوتر و الإحساس بالموت من جديد، حيث يجعل الشاعر الفرس في جو المواجهة، فهو ريم أخضع سريع، و تشكل هذه الصفات بما فيها من قوة وعتق قدرة من القدرات التي ساقها الشاعر لمواجهة التحدي والإفلات من دائرة الموت.وتظهر صورة التمازج بين الفرس والشاعر عندما يتدخل الشاعر بشكل مباشر في رسم صورة الفرس من خلال ضمير المتكلم في البيت الرابع والعشرين "داويته" و"زدته".

إننا نلحظ أن هناك صورتين متلازمتين في القصيدة، تدلان على قوة الشاعر، وتعبران عن خصب الحياة، فالفرس والناقة هما ركيزة النص، وهما "باستمرار رمز القوة والمنعة والصلابة، وهما باستمرار رمز للثبات ...وهما باستمرار موحدان بالشاعر ....ولذلك فإنهما لا يمكن أن يعرّضا للسقوط ....لأن مجرد تعرضهما قد يصدع حصن الوجود المنيع، ويهدد بفناء كلي"(٢). ويبدو أن التفكر بالموت يلازم تفكير متمم في الحياة، فاقترنت عنده المتعة بالألم، والحب بالمخاطرة، والخوف بالتحدي .

شريحة الضبع (الحوار مع الذات و تخصيب فكرة الموت من جديد) ٣١-٣٦

يعود متمم بن نويرة في قصيدته إلى الجو المأساوي مرة أخرى بعد رحلة القنص الجميلة برفقة فرسه،

(١) ناصف، مصطفى: **قراءة ثانية لشعرنا القديم**. ط٢، دار الأندلس للطباعة والنشر، ١٩٨١، ٨٨ .

(٢) أبو ديب، كمال: **الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي لدراسة الشعر الجاهلي.** الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ٤٠١ .

وتتمثل هذه العودة في تخصيب فكرة الموت من جديد باستحضار صورة الضبع، حيث عبّرت هذه الصورة من خلال تطور أحداث القصيدة عن مأساة الإنسان النفسية، وعن قلق وجودي أتعبه التفكير فيه، ونهاية لا يعرف لها مصيراً، فصورة الضبع في القصيدة تتحدث عن بشاعة الموت "لولعها بجثث الموتى، ورغبتها في نبش القبور، وقرنوا صورتها بصورة الفزع، وكانوا يظهرون خوفهم ويتحاشون من الوقوع في براثنها ليكونوا طعاماً لها، تعبث بهم كيف تشاء، وتنزع جلودهم، وتمكّن أنيابها وبراثنها من أجسادهم"(١). واقترنت صورة هذا الحيوان بصورة الخوف من الموت، فكأن الشاعر يستمد الشجاعة من صورة الضباع التي توحي له بذلك، وتنبثق في لوحة الضبع عند الشاعر عوالم الثقافة، فيصف متمم الضبع في خَلْقها وصفاً يثير الخوف، فهي "ذات فليلة"، توحي بالموت، وتمثل عند الشاعر نهاية خط سير الحياة عندما وصفها تصويراً فيه حركة معبرة دالة، تشير إلى ذعر الشاعر من هذا الحيوان الذي يستطيع أن يسحق عظام الشاعر بأنيابه، فقد جاءت إليه "على ثلاث تخمع"، "وظلت تراصدني"، "وتنظر حولها"، "ويريبها رمق"، ثم انتقل الشاعر إلى ما بعد الموت، وتصور الضبع وهي تأكله "وتظل تنشطني" وتطعم جراءها في مكان بعيد لا يخلّصه فيه مخلص "وتُلحِم أجْرِياً" "وليس حَيّ يدفعُ"، فأصبحت نفسية الشاعر أرضاً خصبة لاحتلالات جديدة ومطاردات كثيرة، وكان حضور الموت قوياً، وظل الشاعر غارقاً متشبثاً بلحظة زمنية قاسية، ينغلق الشاعر فيها على نفسه، وينكفئ شارداً في مشهد متوقع هو مشهد الضبع يأكله بعد الموت، فقدم هذه الصورة بدرجة عالية من القدرة التخيلية . ففي هذه اللوحة "رثاء حار للحياة، وتوجع قاس من الموت، انظر كيف عبّر عن الموت "ذاك الضياع" فلا ضياع غيره، ولا رزء يعدله، إنه الفناء المطلق، فلن يبقى منه شيء حتى جسده ستأكله هذا الضبع"(٢)، وعبر هذا التنامي يشكل الشاعر صورة من صور الصراع بينه وبين الضبع ليجد فيها رداً مناسباً على العاذلة التي تلومه على إنفاق ماله، "ولقد سبقت العاذلاتِ بشربة ريّاً"، فهو لا يرى في إنفاق المال على شرب الخمر مبرراً للعذل، لأنه يحقق للشاعر نوعاً من المتعة الجسدية، فبذل المال في هذا المجال لا يشكل ضياعاً وخسارة، بل الخسارة والضياع في فناء الإنسان وموته الذي يتجسد عبر صورة الصراع بين الضبع والشاعر، لهذا ارتبط جدل الشاعر مع الكون بالخوف والقلق، فأحس بالألم وبالموت "والتجربة الوجودية في العصر الجاهلي تمثل نمطاً من أنماط التجربة الوجودية الطبيعية في مواجهة الكون والحياة، وفي التعبير عن الإنسان ومشكلاته، حيث يتعرف الإنسان على نفسه وعالمه من خلال جدل طبيعي مع ذاته ووجوده"(٣)، وفي إطار الإحساس المطلق بحتمية الموت يعمّق الشاعر هذا المعنى

---

(١) القيسي، نوري: **الطبيعة في الشعر الجاهلي**، ص ٣١٢، وانظر : عبد الرحيم، إياد: **البناء الفني في شعر الهذليين**، دراسة تحليلية، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٠، ص ٢١١ .

(٢) رومية، وهب: **شعرنا القديم والنقد الجديد**، ص ٢٩٩ .

(٣) عبد الجليل، حسني: **الإنسان والزمان في العصر الجاهلي**. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، بلا، ص ٩ .

على صعيد التجربة الذاتية في تناوله لصورة الصراع، ويعكس هذا المعنى على صعيد الجماعة عند الإشارة إلى هلاك وموت أقوام "كقوم عاد، وآل المحرّق، وتبّع، والحارثان"، ويشير إلى كلمة الموت بكلمة "غول" في قوله :

ذَهَبُوا فلم أُدركهُمُ ودَعتْهُمُ غُولٌ أَتوْها والطَّريقُ المَهْيَعُ

والغول تعبير عن موقف بشع قبيح، يريد الشاعر به أن يهز نفوس قارئيه أو سامعيه، وهي حيوان مرعب، تشترك في دائرة الهلاك مع الفيافي والدهر والحرب[١]، "وغدت الغول إحدى وسائل الشاعر لتوضيح غاية قصته أو غرضها أو فحواها"[٢]، ومن هنا فإن حالة القلق تعود إلى ذهن الشاعر مرة أخرى، ويبدو أن الفشل في الهروب من مخالب الموت هو المسيطر على هذه الشريحة، وكأن الشرائح السابقة لم تكوّن الفاعلية المطلقة في الهروب من هذا المصير، حيث تشكل الحياة الواقعية المظهر المسيطر على الذهن الإنساني، لأن الواقع الذي يفرض نفسه في ضوء المعطيات الإنسانية يشكل قوة الحقيقة التي لا يمكن طمسها في ظل التمنيات التي يرسمها الشاعر لخلق صـــــورة الحياة الخالدة . لقد شعر الإنسان الجاهلي بسطوة الزمن وقدرته على إنهاء الوجود الحياتي للــــــكائن البشري، "فالدهر قوة فاعلة تستطيع إنهاء الحياة بالموت"[٣]، وحركة الدهر حركة زمنية دائرية ،تظهر فيها حركة الليل والنهار التي تهلك وتنهي حياة الإنسان إلى المجهول كما يظهر في هذه القصيدة، وقد رصد الجاهلي حركة الزمن فأحس بقسوته، واقتنع أن الخلود مستحيل، "فالموت عناء مطلق لا رجعة فيه ولامفر منه"[٤]، وتبدو صورة الاستسلام للموت واضحة في تجربة الصراع التي خاضها الشاعر حين أشار إلى ذلك بعبارات صريحة، فقال :"يا لهف من عرفاء"، "وليس حيّ يدفع"، "وجنبي الأضيع"، ويتعمق الإحساس بالموت عندما يتمثله في صورة الملاحقة والترصد من الضبع : "ظلت تراصدني"، "وتنظر حولـــها"، "وتظل تنشطني"، ويمتنع الدفاع عن النفس لفقدان وسائله حيث يلعب أسلوب الشرط دوراً مهماً في إظهار جمال التعبير، وذلك باستخدام حرف الشرط " لو"، فقد امتنع الدفاع لامتناع وجود السيف، "لو كان سيفي باليمين ضربتها".

(١) زكي، أحمد كمال: **الأساطير. دراسة حضارية مقارنة**، ط٢، دار العودة ،بيروت، ١٩٦٩، ص ٨٦، وانظر : الخطيب، عماد: **الصورة الفنية في المنهج الأسطوري في الشعر الجاهلي**، ص ٣٣٥ .

(٢) النعيمي، أحمد: **الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام**. ط١، سينا للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٥ .

(٣) انظر : جيمس ب كارس : **الموت والوجود دراسة لتصورات الفناء الإنساني في التراث الديني والفلسفي العالمي**. ترجمة بدر الديب، المشروع القومي للترجمة، ١٩٨٨، ص ٢١٧ . وانظر : حياوك، مصطفى: **الحياة والموت في الشعر الجاهلي**. ص ١١. وانظـــر : عبـــد الرحمن، عفيف: **الشاعر الجاهلي والموت**. مجلة أفكار الأردنية، ع٦، ١٩٧٩، ص٣٢

(٤) عبد الرحمن، عفيف: **المثل والقيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي** (بحث) ص ١٥٠ . وانظر : خلايلة، محمد خليل: **بنائية اللغة الشعرية عند الهذليين**. رسالة دكتوراه مخطوطة / جامعة اليرموك، الأردن، ٢٠٠١، ص ٦٠ .

لقد كان حضور الذات في هذه الشريحة حضوراً استسلامياً لافتقاره إلى وسائل الدعم اللازمة لتحقيق الذات والمواجهة، عبر هذا الاستسلام تخرج أنات تجذر صورة التمسك بالحياة، فما زال رمق في الشاعر يبعد عنه الطمع، ويجسد فيه صورة من صور التشبث بالحياة، ويستذكر من خلال هذا التشبث ذاتا أخرى تنسجم وشرائح القصيدة السابقة "ولقد ضربت" تلك الذات التي كانت تشكل بعداً من أبعاد البطولة التي عاشها الشاعر، غير أن عامل الهدم الزمني جعل هذه الذات تتآكل في ضوء صورة الصراع مع الضبع. ويرسم الشاعر في هذا الموقف صورة لحياة الإنسان التي لا بد لها من نهاية، و يرفض اللوم الموجه له على إنفاق ماله ما دامت الحياة زائلة حتى أنه لا يرى في الموت سبباً لبذل المال فحسب بل هو دافع لأن يقوم الشاعر بقطع يده عندما يستيقن أن مصيره الموت والفناء . فقد سيطر القلق والخوف من الموت على تفكير الإنسان الجاهلي، وحاول أن يتحرر من القهر لكنه فشل، فكل حركة نحو الزمن هي حركة نحو الموت. ويبدو أن هذا الحس الوجودي الذي سيطر على ذهن الشاعر في هذه القصيدة سببه عدم وجود دين يفسر لهم سر هذا الوجود، فأزمة الشاعر الجاهلي أزمة وجودية،وأزمة قهر تشكلت من الزمن الواقعي،"فالقلق .... ضرورة وجودية تستمد سماتها من طبيعة شخصية الفرد، وطبيعة الوضع الذي أثارها، وربما أن الواقع الجاهلي كان يفتقر إلى الاستقرار في أحوال كثيرة"[(١)].

العاذلة (٢٨ - ٣٠) : (من الفردية إلى الجماعة)

إن الحوار بين الشاعر والعاذلات أو بين الشاعر ونفسه سواء أكان حقيقة أم خيالاً من الموضوعات المهمة في الشعر الجاهلي، "وكان اللهو جزءاً من التركيب النفسي والعقلي للشاعر الجاهلي، وكأنما كان طريقاً لتحقيق الذات وسط عوامل الفناء التي تتهدده؛ متمثلة في الزمان والمكان في غيبة عقيدة دينية قويمة يحقق من خلالها ذاته، ويفسر غوامض الوجود"[(٢)].

وقد ظهرت صورة العاذلة عند متمم متضادة مع ذات الشاعر، وهذا يدل على أن لها علاقة في محاولة التخفيف من تورط الشاعر في التفكير والخوف الكبيرين من الموت. ويظهر في القصيدة العداء الصريح بين الشاعر وفضائه، فهو دائم التحدي والإصرار على المواجهة .وهكذا بدأت ذات الشاعر بالتورم عبر تناميها والبحث عنها من خلال مختلف الشرائح، وتزداد هذه القوة في ظل اندماج الشاعر مع الجماعة، "نراهن"، ويتعمق هذا الإحساس في البيت السابع والعشرين "حسبنا، نعطي، نعمر، ننفع" . تتفخم ذات الشاعر في شريحة العاذلة عبر هذا التواصل مع الجماعة، وتأتي البداية منسجمة مع الشرائح الأخرى عبر نسق التوكيد وتفخيم الذات "ولقد سبقت"، فلا تبدو ذات الشاعر ذاتاً عادية، بل تصبح لها حضورها

---

(١) خليل، أحمد: **ظاهرة القلق في الشعر الجاهلي.** ط١، دار طلاس للنشر، سوريا، ١٩٨٩، ص٥ .

(٢) يوسف، حسني عبد الجليل: **العذل في الشعر الجاهلي.** مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٥٦ .

وتميزها عبر أفعال تُعَدُّ أفعالاً نموذجية في المجتمع الجاهلي، حيث يرسم الشاعر صورة تدل على الكرم الذي يبذله في مجلس الشراب، ويفلسف الشاعر كرمه فيصل به إلى التميز، وذلك من خلال وصف الشراب وأوانيه، وهو بذلك يفعِّل صورة الكرم في الشريحة السابقة، إذ تشكل الإبل مصدراً للنفع العام، وهنا يلتقي العطاءان في نقطة واحدة، فالشاعر يركز في عطائه على الجماعة التي تشاركه شرب الخمر؛ وبالتالي يعبِّر عن مشكلة وجودية عامة لا تتعلق بالشاعر فحسب بل تعالج موقفاً عاماً في هذه الحياة، وقد يعني شرب الخمر بصورة جماعية هروباً من مواجهة الزمن غير أنه ينتقل بذات الإنسان إلى عالم آخر يبتعد بالشاعر عن القلق والاضطراب ويصله مع المتعة واللذة . ويتصور الشاعر الجاهلي في كثير من الأحيان أن هناك عاذلة تلومه، فكأنهن يترصدن الشاعر عند مجالس اللهو والشراب، لأنه الرجل المتميز، لهذا يقع عليه اللوم لإفراطه في شرب الخمرة، لكنه يقرر أن الضياع ليس بشربها، بل الضياع الحقيقي في انتهاء الأجل المتمثل بأكل الضباع له، "وربما كانت هذه العاذلة رمزاً للأنا العليا التي تحاسب صاحبها على ما لا ترضاه منه "(١).

وتماثل صورة اللائمة عندما تحاول حرمان الشاعر من اللذة حرصاً على المال صورة زنيبة عندما حرمت الشاعر من اللذة عندما صرمت الحبل، فالدافع لقطع اللذة والمتعة ليس منطقياً في كلتا الحالتين، لأن متعة الإنسان متعة آنية، وعليه أن يسعى لتوفيرها في حياته، لأن فترتها محدودة تزول بقدوم المصير الذي لا بدَّ منه، فهو يربط رفضه لعذل العاذلات بالزمن، فالحياة هي الفرصة الوحيدة للمتعة عند الشاعر، ولا بد أن يستفيد منها، لهذا رفض العذل لاقتناعه أن المتعة جزء من مواجهة الواقع، الذي لا بد أن يفنى.

وقد تركت هذه الشريحة وقعا نفسياً مؤلماً على الشاعر حيث جعلته يشعر بمفارقات الحياة التي يعيش؛ بما تحمل من فرح وبؤس ولذة وحرمان، وبالتالي جعلته يخضع للمصير الذي يواجه الإنسان، فله العبرة في من مات من أجداده، ومن مات من العظماء والملوك، حيث لم يظفروا بشيء من هذه الحياة، بدليل عبارة "وما قد جمعوا"، وقد يكون في ذلك مبرر لبذل المال الذي أصر عليه الشاعر، ويفعل هذا المبرر قول الشاعر "فهل تريني أجزع"، ففاعلية الزمن كما يتضح من قول الشاعر قوة جارفة، لا يستطيع الإنسان تحديها مهما كان عظيماً وقويّاً .

فللزمان والمكان قيمة كبيرة في الشعر الجاهلي، يسهمان في تشكيل الموقف في العمل الإبداعي، وهما بالتالي يشكلان الهوية الثقافية والجمالية للعرب قبل الإسلام. فالطبيعة الجاهلية ساهمت في تكوين الإنسان الجاهلي، وشكلت عنده لغة التحدي على الرغم من خوفه من الموت.لقد تمثل الشاعر حتمية الموت منطلقا لرفض لوم العاذلات، فما دام الموت نهاية المصير، فهذا يعني ألا يلام الإنسان على سلوك يسلكه، ولو كان شرب الخمرة .

---

(١) عبد الجليل، حسني: **الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي.** ص٣٥ .

نهاية القصيدة (استسلام للمصير - القفل) ٣٩-٤٥ :

لقد أدرك متمم أن الموت منهل الجميع، ولا ينجو منه أحد، ولهذا صورت القصيدة حالة الشاعر وهو يصور الموت في أبشع صوره، فهو يحب الحياة، و لم نجد عند الشاعر تصوراً عن إمكانية الانتصار على الموت بالبعث والحياة الآخرة ،ويبدو أنه كان مقتنعاً أن رحلة الموت هي رحلة نهائية لا عودة منها، ولهذا تميز الحديث عن الموت في هذه القصيدة بالقلق والخوف والاضطراب.

لقد كان الزمن عند الشاعر همه الذي يؤرقه، فقد شكا قهره ، فعبر عن قلقه باستسلامه من عوارضه، فاقتنع أن الحياة فانية، وآمن بالمصير المحتوم، لكنه كما يقول لا يجزع، فيعود مرة أخرى لخطاب المرأة "فهل تريني أجزع ؟ "، استفهام فيه نفي، فالدهر لا يبقى على حدثانه، لكنه لا يجزع من الموت، وهو يعزي نفسه بالآخرين، بأن يذكر أن الذين سبقوا قد ماتوا جميعاً، فذكر عاداً، وآل محرق، والحارثين ،وتبّعاً، ثم يكتفي، فيشمل كل السابقين بقوله :

فَعَدَدْتُ آبائي إلى عِرقِ الثَّرى فدعوتُهم فعلمتُ أنْ لمْ يسْمعُوا

لقد أفنى الزمن الأهل والأحباب، وفرق شملهم، والمنايا لا تبقي على أحد، ويعمق الشاعر الإحساس بالموت على صورة الحكمة في نهاية القصيدة عندما يشكل عنصرا الزمان والمكان جانبي الصورة، فموت الإنسان ولفه بالكفن لابد منه، وهي نهاية مفتوحة فيها تسليم ورهبة من الزمن وعوائده، وتدل على استمرار القضية والخوف منها، فالموت لا بد أن يصرع الإنسان مهما حاول أن يفر منه، "وكان الجاهلي على درجة بالغة الحساسية تجاه الموت، خاصة أن ديانته لم تسعفه في هذا الموضوع، و لم تقدم له العون في مواجهة هذه المشكلة، فالموت قضية تتصل ببقاء الإنسان من جهة وبفنائه من جهة أخرى"(١)، وقد كثرت في هذه القصيدة المفردات التي تبين خوف الشاعر من الزمن، وختم فيها قصيدته، من مثل "أفنين"، "تركنهم بلداً"، "فعلمت أن لم يسمعوا"، "دعتهم غول"، "لا بد من تلف"، "تصرع"، "يُبكى عليك"، ويمكن القول إن الإنسان الجاهلي بعامة والشاعر بخاصة، قد أتعبه التفكير بالوجود، وبالحياة الفانية التي لا يعرف لها مصيراً ونهاية غير الموت.

بناء القصيدة (نظرة عامة) :

قامت القصيدة على مجموعة من المفارقات شكلتها صورة التوتر والقلق التي عاشها الشاعر، وهي في هذا الإطار تمثل نمطاً من أنماط الحياة القائمة على التناقض.

---

(١) موسى، محمد خليل: **الحياة والموت بين طرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص.** رسالة ماجستير مخطوطة، جامعة اليرموك / الأردن، ٢٠٠٢، ص ٧، وانظر : طشطوش، عبد العزيز: **الزمن في الشعر الجاهلي.** رسالة ماجستير مخطوطة، اليرموك، ١٩٨٣، ص ٧٥ .

ولا بد من الإشارة إلى التكرار المشكّل في شرائح القصيدة باستخدام : ولقد + الفعل الماضي، ولقد حرصت، ولقد قطعت، ولقد غدوت، ولقد سبقت، ولقد ضربت، ولقد غبطت، ولقد علمت، بينما لم يرِد الفعل بصيغة الحاضر سوى مرة واحدة ؛ عندما أراد الشاعر أن يعبر عن صورة المفارقة في هذه الحياة، حيث عمل هذا التكرار على خدمة الترابط والتلاحم بين أجزاء القصيدة .فقد كرر الشاعر أفعالا وأصواتاً معينة في الأبيات، وهو من أكثر الصيغ اللغوية مناسبة، بما يسببه من صدى وترجيع.

تملك هذه القصيدة معنى ترميزياً يمكن أن يشغل ذهن المتلقي المتأمل، فهي تموج بحركة الانجذاب والانفعال، والتقارب والتباعد، وفيها خصوبة يحتدم فيها صراع لا يهدأ؛ مرير ومكتوم، رحلة ممعنة في الشقاء للشاعر، يحاول أن يحقق حلمه مهما كانت الوسائل قاسية أو مشكوكاً في نهايتها. لقد ظل حلم الشاعر إلى نهاية القصيدة محفوفا بالعقم، والقصيدة لم تسر في خط مستقيم إلى نهايتها، إنها مجموعة لوحات تتحدث في موضوع واحد، لقد جسّد الشاعر معاناته من خلال التصاقه الدائم بها، يتموج بين اليأس والأمل، وتحتوي القصيدة في مشاهدها المكانية وتفصيلاتها الحدثية على كثير من مشاهد الحياة والموت، وبالتالي حاول أن يكمل النسيج الوصفي للقصيدة، وظهرت في القصيدة غير بيئة تتغاير كل واحدة عن الأخرى، لكن الصوت الداخلي لمحركها واحد، ووظف الشاعر الطبيعة بكل ما فيها من تناقضات في صياغة تجربته، فالطبيعة بما فيها من ماء وشجر وصورة جميلة يعكرها صياد متربص ملفع بكل صور التسلط والاستباحة، يعكر صفو الحياة، وامتدت مساحة التوتر في القصيدة إلى باقي العناصر المتعاظمة بين الرفض والقبول، فاستحضر الناقة واستحضر الفرس، واستحضر الضبع والغول، ويمكن القول إن لهذا النص استقلاله الداخلي، معتمداً مبدأ الجدة والخلق، فالقصيدة وحدة متماسكة غير قابلة للتقسيم، وتتكون من نسق واحد فقط هو حب الإنسان للحياة وكرهه للموت.

لقد لجأ الشاعر إلى تفتيت القصيدة وتقديمها على دفعات حتى يتظافر مبنى الحكاية مع دلالتها، وهناك فضاءات دلالية متشابكة فيها، والشاعر يعي أهمية العلائق العضوية التي تنمو من بداية القصيدة إلى نهايتها حيث يسترد ذاكرته بالحديث عن الموت. والقصيدة هنا وحدة متقنة ملتئمة الأجزاء، محكمة بعيدة عن الاضطراب، ولا تستطيع أن تقدم فيها بيتاً عن بيت دون أن تفسد بناءها."إن القصيدة العربية الجاهلية كانت تجاوزاً للواقع، ...... وكانت بناء رمزياً يُدرَك بالتأويل، اختزلت البعد العمقي للوجود الخارجي المتمثل في الزمن بما هو تسلسل وتتابع، فأسقطت السرد القصصي للحدث المسترسل المتعاقب، وأبدعت زمانها اللغوي الخاص بإيقاعه الفني المتميز"(١).

تمثل القصيدة كآبة الشاعر، لقد فشل في تحقيق ذاته، وحاول أن يهيئ لنفسه فضاء شعرياً من خلال

(١) عوض، ريتا: **بنية القصيدة الجاهلية، الصورة الشعرية لدى امرئ القيس.** ط١، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٢، ص ٣٩٢.

الحيوان، وانحرفت القصيدة عن مسارها وتحركت باتجاه واحد، واشتعلت ذات الشاعر في لوحة أسقطها على الحيوان، وكان الشاعر جزعاً خائفاً، وكانت معشوقته/ زنيبة / الحياة المحرض على كتابة القصيدة من أول لوحة غزلية، يظهر فيها القول الشعري مباشراً ،إلى آخر لوحة فيها ترميز تحدث فيه عن الحياة والموت، وعن صراع الخير مع الشر.

ولقد بدأ الشاعر ضعيفاً، وظل كذلك إلى نهاية القصيدة، وهو يشعر بقوة ظلم المكان والزمان، لأنه حرم نعمة الحياة، فالشاعر مسكون بالخوف من الموت وبحب الدنيا ،وكان في بعض الأحيان مغموراً بالنشوة، لقد شغل الموت بال الشاعر، وأثار في نفسه تساؤلات حائرة عن جدلية الموت والحياة، وأوقد في نفسه قلقاً لا يهدأ، أفسد عليه متعة الحياة ،وصار يخاف أن يصرعه الموت في أية لحظة.

و لم يترك الإسلام صدى في شعر متمم بن نويرة، بل كان يحاكي الشعر الجاهلي ،ويسير على منواله "فكان شعره جاهلياً بحتاً، لم تؤثر فيه التيارات الجديدة التي سادت الحياة الإسلامية"(١).

ويبدو أن هذه القصيدة لها دلالات ثقافية، أو كان لمثلها إسهامات حقيقية في تشكيل الثقافة العربية، و لم تخرج من حيث التفكير عن الأنساق الثقافية العربية الأخرى في تفخيم الذات وفي صناعة الفحل إلا في أسلوب عرض القضية، أسقطها على الحيوان ليتحدث عن موضوعه "فالذات المتعاظمة من داخلها لا يمكن أن يبقى فيها مكان للآخر"(٢). لقد كان الشاعر في قصيدته فحلا في عشقه، وفي مطاردته لأتانه، تنهزم عنه وهو يلازمها، وهي لا تريده وهو يدافع عنها، فألغى الآخر وطلب وطارد ودافع وقاتل من أجل أن يثبت ذكوريته، وهو يعرض موضوعه .

(١) الصفار، ابتسام: **ديوان مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي.** مطبعة الرشاد، بغداد، ١٩٦٨، المقدمة ص ٤.

(٢) الغذامي، عبد الله: **النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافية العربية).** ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، وبيروت، ٢٠٠٠، ص ١٢٧.

التجربة عند الجاحظ في كتابه الحيوان

د. حسن محمد ربابعة *

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٠٥/٩/١٥ تاريخ القبول: ٢٠٠٦/١٠/١٥

ملخّص

تهدفُ هذه الدراسةُ إلى عرض أنموذجات من تجارب الجاحظ في كتابه "الحيوان" والتوقّف عند تجاربه على كلب صديقه. ومن أبرز نتائج الدراسة اشارته إلى خمسةِ مبادئ من علم النفس التجريبي الحديث، ليس باللفظ، ولكن بالمعنى، وهي مبادئ: التعميم، والتدعيم، والتمييز، والتكرار، والانطفاء، وهي التي حددها بافلوف الروسي بتجاربهِ على كلب مدرّب، كانت نتائج نظريته "الانعكاس الشرطي".

Abstract

Al-Jahiz's Use of Experiments in his (al-Haywan)

Dr. Hassan M. al_rabab'a

This study aims to present samples of AL-Jahiz's experiment in his book (AL-Hayawan). His experiments were conducted on his friend's dog. This study reveals five significant rules used in modern experimental psychology : generalization, enforcement, differentiation, repetition and extinction. These experimental psychological rules were employed by the Russian scholar Pavolov in his experiments on a trained dog and induced from his theory of "conditioned reflective action" .

* قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة مؤتة.

١. المقدمـــة

لم يكن أبو عثمان الجاحظ، عمرو بن بحر، أميراً من أمراء البيان العربي يُعلّمُ العقــلَ **أولاً** والأدبَ **ثانياً** فحسبُ، بل كان مجرّباً على الحيوان من جهة أولى، متميّزاً علميّاً عن سائر مؤلفي كتب الحيوان ممـــن عاصروه، أو سبقوه في تواليفهم من جهة ثانية، معتمداً على مصادر متعددّة في كتابه "الحيوان"، وتجاربه من جهة ثالثة.

لقد ضَمَّ كتابهُ "الحيوان" ذو السّمة الموسوعية عدداً كبيراً من حيوان البّر والبحر والجو، بما لا يَقلُّ عن (٣٨٠) ثلاثمائة وثمانين حيواناً بمترادفات أسمائه، أحياناً، وذكره صغارَه وكبارَهُ، وأمراضَه، وعاداتــهِ، وتكاثَرَهُ وعلاقاتِهِ مع بعضه بعضاً في التآلف والتنافر، والحركة والسكون، ووقف عند طباعهِ، وتغلغــل في نفسية عدد منه، يرصدُهُ أو يرصدُهُ غيرُه له، يدَقِّقُ ملاحظاتهِ، ويتوّجُ أعمالَه بإجراء تجارب عليـــه، في مـــا وسعه من إمكاناته، وتوافرِ وسائلِ التجريب، للتأكد من صحّة ما وصل إليه، فأنار بتجاربه - في حـــدود إمكاناتهِ- دروبَ البحث العلمي، بعد أن لاحظَ بنفسهِ أو استشار غيرَه، أو قابَلَهُ لتدقيق معلومة، أو حادثَ مشافهةً أهلَ اختصاص، يتوّجُ كلَّ ذلك بتجاربَ كلَّلت أعمالَهُ برأي حصيف، ونتيجة فاحصة مؤكّـــدة، تحقَّقَ منها، أو تشككَ فيها، وهذا كُلُّه من أساليب البحث العلمي الدقيق الذي يُحْسَبُ له في كل العصور.

لقد أنبهت تجارِبُه باحثين جليلين، فأشارا إليها بإيجاز هما، الدكتور عمر الدَّقاق والدكتور محمـــد الدَّاية[١]: أمَّا الأولُ الدّقاق فانتبه ونبّه إلى وِقفة الجاحظ عند الضّباب وأنواعِها، ثم التفتَ إلى طُول الـــدِّماء وهي بقية النفس، وشدّة انعقاد الحياة والرُّوح بعد الذّبح، وهشمِ الرأسِ، والطعنِ الجائفِ النافذ، حتى يكونَ في كُلّ ذلك أعجبَ من الخِنزير والكلب، ومن الخُنفُساء، وهذه الأشياء تفرّدَتْ بطول الدِّماء[٢]. فاستحسنَ الدكتور الدقاق من الجاحظ عَرْضَ تجربةٍ قام بها الجاحظ بنفسه، ليصلَ إلى ما وصل إليه من نتائجَ، كمـــا استحسنَ في الجاحظ سِمَةَ التواضع، حين وقف عندما بلغ إليه عِلْمُهُ، وأقرَّ بأنّه لا يعرفُ مُدَّة بقاءِ أجـــزاء الحيوان محتفظةً بدِمائها لأنها فاتت بَصَرَهُ[٣].

إنّ في وِقفةِ الدّقاقِ وَمْضَةَ تحليل، كانت في معرض إلماحي للنثر العباسي، وليست تفصيليةً فأومضَ فيها ولم يستثمرْها.؛ وأمّا الثاني الدَاية فأشار بثلاثة أسطر إلى " **الانتباه الغريزي في الكلب**"، وهو الـــذي عَنْوَنَهُ المرحوم عبد السلام هارون مُحُقّقُ كتاب الحيوان، فقال: " وكان مَقصِدُ الجاحظِ أبعدَ مَرْمَـــى وأدقَّ

(١) الدقاق، عمر: **ملامح النثر العباسي**، دار الشروق العربي، بيروت، (د. ت)، ص ١٦٩)، (والدّايـــة، محمـــد رضـــوان: **أعـــلام الأدب العباسي**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـــ- ١٩٨٧م، ص ص ١٤٥- ١٤٧).

(٢) الجاحظ؛ أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هــ/٨٦٩م): **كتاب الحيوان**، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، منـــشورات المجمـــع العلمي الإسلامي، بيروت- لبنان، ط٣، ١٣٨٨- ١٩٦٩م، جـــ٦/ ٥٤.

(٣) الدقاق، عمر: **أعلام الأدب العباسي**، ص ١٦٨.

صَنْعَةً من عنونةِ المحقِّق، لأنَّ الجاحظَ يقتربُ من أحدث الطرقِ العلمية، التي عرفت في العصر الحديث على يد العالم الروسي، بافلوف(١).

ويحسبُ الباحثُ، أنّ إشارتَيْ هذين العالمين الكريمين، كافيةٌ للتنبيه على ضرورة استثمار التـــراث، من منظور حديث، فيعقدُ مقارنةً بين غرائزِ الكلبِ عند الجاحظ في تجاربه، وتجارب بافلوف الروسي على كلب آخر، مع الأخذ بعين الاعتبار الوسائلَ المتوافرةَ لكلٍّ منهما في بُعْدٍ زمني يقارب أحدَ عشر قرناً(٢).

أمّا تميّزُ كتابِهِ "الحيوان" فَيَبْرُزُ جَلياً دورُهُ بعد جدولة مؤلّفي كتب الحيوان قبل الجاحظ، وفي عصره أولاً ودراسة سماتِ كتابهِ الحيوان" المتميّز عن غيره ثانياً.

أمَّا مؤلفو كُتُبِ الحيوان قبل الجاحظ وفي عصره حسب التدرج الزمني لوفياتهم فيبرزُهُ جَدْولٌ فيه تسلسلُهم الرقمي، وأسماؤهم ووفيَّاتُهم وأسماءُ الكتب التي أَلَّفها كُلٌّ منهم، وعددُ المؤلفات في كل كتاب، كما يلي(٣):

التسلسل	المؤلف وسنة وفاته	كتاب في الإبل	كتاب في الخيل	الغنم والشاه	الوحوش	الطير	الفرس	النحل والحشرات	كتب البازي والحمام والحيات	العدد	الترتيب
١	النضر بن شميل (٢٠٣هـ)	√		√		√				٣	الثالث
٢	أبو عبيدة (٢٠٩هـ)	√	√						√	٣	الثالث
٣	أبو زيد أستاذ الجاحظ (٢١٥هـ)				√					١	السادس
٤	أبو حسن الأخفش (٢١٥هـ)			√						١	السادس
٥	الأصمعي (٢١٦هـ)	√		√			√	√		٥	الأول
٦	ابن الإعرابي (٢٣١هـ)		√							١	السادس

(١) الدّاية، محمد: **أعلام الأدب العباسي**، ص ١٤٥- ١٤٧.

(٢) عاش الجاحظ ما بين (٢٥٥هـ/٨٦٩م)، الزر كلي خير الدين: **الأعلام**: بيروت، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٨٠، مجلد ٥/ ٧٤ (أما بافلوف فامتدَّت حياته من (١٨٤٩- ١٩٣٦) انظر: (محمد جاسم محمد: **علم النفس التجريبي**، الناشر مكتبة دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان- الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، ص ١٧٣).

(٣) أفاد الباحث من تقديم كتاب الحيوان جـ١/ ١٤-١٦، فجدوله على ما ترى.

التسلسل	المؤلف وسنة وفاته	كتاب في الأبل	كتاب في الخيل	الغنم والشاه	الوحوش	الطير	الفرس	النحل والحشرات	كتب البازي والحمام والحيات والعقارب	العدد	الترتيب
٧	أحمد بن حاتم الباهلي (٢٤٥هـ)		√			√				٣	الثالث
٨	أبو جعفر محمد بن حبيب البغدادي (٢٤٥هـ)		√							١	السادس
٩	أبو محلّم محمد بن هاشم الشيباني (٢٤٥هـ)		√							١	السادس
١٠	أحمد بن حامد السجستاني (٢٤٨هـ)	√			√	√		√	√	٥	الأول
١١	الجاحظ (٢٥٥هـ)	√								١	السادس
١٢	ابن قتيبة الدينوري (٢٧٦هـ)		√							١	السادس
١٣	أبو زياد الكلابي يزيد بن عبدالله (٢٠٠هـ)(*)	√								١	السادس
العدد	**١٣**	٦	٦	٣	٣	٣	١	٢	٣		المجموع ٢٧

إننا نلحظ من الجدولة أموراً منها:

أولاً: إنَّ عددَ المؤلفين لكتب الحيوان المختلفة (٢٧) سبعة وعشرون كتاباً ضمّت كتباً في الإبل والخيل والغنم والشاه والوحوش والطير والنَّحل والحشرات والبازي والحَمام والحيّات والعقارب ومنهم من خصّ الفرس من الخيل، فبلغ عدد الحيوان ثلاثة عشر صنفاً كما هو في الجدول السابق.

ثانياً: إنَّ عِلْمَ الحيوان عندهم كان عامّاً يشمل الأنعام والخَيْل والطير والوحش، والنحل و لم يفرّعوا منه علم الحشرات، ومنه النحل، فضموه إلى علم الحيوان، وربّما خصّ النحل ذكراً لشرفه، كما نفتقد في مصنفاقم ثُمَّ في تقسيماقم عالَمَ الطير الذي منه البازي والحمام، ولا نجدُ تقسيماً لعالم الزّواحف كالحيّات، مما يُفسح المجال لدارسي علم الحيوان بإعادة تصنيف هذه الحيوانات إلى فصائل متعدّدة

(*) (ذكره المحقق أو زيد وهو أبو زياد عند الزركلي الذي ذكر مؤلفة (الأعلام) جـ٨/ ١٨٤، والباحث يرجح رأي الزركلي).

ودرسها.

ثالثاً: فإنَّ عدَد المصنفين بلغَ ثلاثةَ عشر مُصنفاً امتدت تواليفهم بما لا يقل عن (٧٦) ست وسبعين سنة، حسب سني وفياتهم بدءاً بأبي زياد الكلابي، وانتهاء بابن قتيبة الدينوري.

رابعاً: فإنَّ ترتيبَ المؤلفين تنازلياً بدأ بأحمد السجستاني صاحب خمسة تواليف، فاحتلَّ المرتبة الأولى وشاركه الأصمعي في عددها وهي (٥) خمسة مؤلفات، ثم يتنافسُ ثلاثةُ علماءَ على المرتبة الثالثة بثلاثة مؤلفات لكلٍّ منهم وهم؛ النضر بن شميل، وأبو عبيدة وأحمد بن حاتم الباهلي، ويستوي ثمانيةٌ بالمرتبة السادسة بمعدّلِ كتابٍ لكلٍّ منهم كما في الجدول.

خامساً: يبرزُ من ترتيبِ أعداد الكتب المعنية أمور منها : أنَّ الخيلَ تحتلُّ المرتبةَ الأولى، إذا أضفنا إليها الفرس، فتبلغ عند ذلك سبعة كتب، كما في الجدول، لأنها زينةُ العربي ومجدُه وأداةُ حربه، وفي نواصيها الخير إلى يوم القيامة، يُجاع لها العيال ولا تجاعُ.

أمّا الإبل فاحتلتِ المرتبةَ الثانية لأنَّها رفيقةُ العَرَبِ في الصحارى، يأكل من لحمها، ويمتطيها راحلةَ سفر، وَيَحْلُبُ إناثها، ويستدفِئ بجلودِها، ويحملُ عليها أثقاله، واحتلَّت الإبل والشاء من جهة، والطير من أخرى المرتبة الثالثة، بثلاثةِ كتبٍ لكلٍّ منهما؛ واحتلت الوحوش المرتبة السادسة، تليها النَّحل والحشرات، لأهميتها.

وبرزَ الجاحظُ – مؤلفاً في علم الحيوان - يحتلُّ الرَّقْمَ الحادي عشر في تسلسل المؤلفين حسب الوفاة، وعلى الرّغم من تسلسل ترقيمه المتأخر بين مؤلفي كتب الحيوان، إلا أنَّهُ العالمُ الأوحدُ، الذي قدّم كثيراً من المعلومات المتفرّعة عنه، بدقة ملاحظة، وعمقِ تفكير في وصفه الحيوان؛ "سواء أكانَ ذلك الوصف للمظاهر الخارجية، أم لبيان علاقاتِ بعض الحيوان ببعضها أم لتصرفاتها، وحركاتها وفوائدها"(١).

ويضافُ إلى ما ذكره العاني أن كُتُبَ الحيوان على كثرتها، لم تكنْ للقَصْدِ العلمي، وإنما أريدَ بها أن تكونَ باحثةً في اللغة؛ فهي بمثابة مُعجمات لغوية، بما ألفت له، فهي لا تبحثُ في طَبْعِ الحيوان، وخصائصِهِ، ولا بدقائقهِ وغرائزِه وأحوالِه، وعاداتِهِ، وإنما همُّها الأولُ والثاني هو اللغة، وقد يكونُ منها ما تبحثُ البحثَ العلمي، ولكن على سبيل الاستطراد ومشايعةِ القول(٢).

ونُمثِّلُ على أوّل كتاب منها (الإبل) للأصمعي، إذ قليلُ الاستشهاد يغني عن كثِيرِهِ؛ إذْ به يذكرُ أوقاتَ لِقاحِ الإبل، وما اسمُها إذا حُمِلَ عليها كلّ عام، قال أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي: "أجوَدُ وقتٍ يُحْمَلُ عليها فيهِ على الناقة أن تَجمّ السّنةُ ويُحْمَلُ عليها، فيقالُ قد أضربت الفحل، وأضربَها

(١) العاني، فلاح: **موسوعة علم الحيوان عند العرب**، مطبعة البهجة، إربد، ط١، ١٩٩٨م، ص٢٤.

(٢) هارون، عبدالسلام محمد: محقق **كتاب الحيوان**، جـ١/ ١٦.

الفحلُ فإذا حمل عليها في كلِّ عام فذلك الكِشاف فيقال لها ناقة كشوف"[1].

وفي الكتابِ نفسهِ يَعرِضُ لألوانِ الإبل وعددِها منها قوله:" يُقالُ بعيرٌ أحمرُ وناقةٌ حمراء، وإذا بولغ في نعتِ حمرته قيل كأنه عِرقُ أرطأة، ويقال أجلدُ الإبل وأصبرُها الحمرُ، فإذا خالط الحمرةَ صفرةٌ قيل: أحمرُ مُدمّى "[2].

ونَخْلُصُ إلى القول، بأنّ كتبَ الحيوان السبعة والعشرين في عهد الجاحظ وقبله؛ لم تكن للقصد العلمي الخالص، كما أشرنا، أمَّا الجاحظُ فينطقُ بالقصد العلمي التفصيلي للحيوان جميعا، ولكلِّ مملكة من ممالكه، ولكلِّ جنسٍ من أجناسِه، من حيوانِ برٍّ وبحر وجو، ومن زواحفَ وحشرات وطير، وسمك ودُلفين، وممالكَ أخرى، لذا فإن للجاحظ فضلاً على مَنْ سبقه أو عاصره مِمَّن كتب في الحيوان في عهده أو قبله، "وإنْ أعوزَهُ بعضُ الترتيب والتهذيب، فهذا شأنُ كُلِّ كتابةٍ جديدة، في أمر متشِّعبِ الأطراف، محدَّد النواحي[3].

لقد تعدّدْت مراجعُ الجاحظ عن الحيوان فاعتمدَ خمسةً[4] هي: القرآنُ الكريمُ أولاً وأحاديثُ رسول الله ﷺ، ثانياً وهما ينبوعان لا يَنْضُبان، والشِّعرُ العربي وبخاصة البدوي؛ فذكر الأنيسَ منه والوحشي ثالثاً؛ واعتمد رابعاً كتابَ الحيوانِ لأرسطو، وقد نقل عن نصوص ليست من كثرة عيان، ولكن من القيمة والنَّفاسة بمكان عظيم، وقد اعتمد كلامَ المعتزلةِ منهجاً في بحثه وتجاربه، وكان خامساً؛ لخبرتهِ الشخصيةِ وولعِهِ بالسؤال ممن يتوسَّمُ فيه العِلمَ، دور في جمع كتابه الحيوان؛ على أنّهُ كان مقرَّباً نافذَ الكلمة، عند الوزراء والخلفاء، فضلاً عن أنه كان شعبياً يجالسُ الملاّحين، ويسمعُ أحاديثَهم، كما كان يخالطُ الحوّاءين، ويقفُ منهم موقف المستمع إلى الشَّكوى، ويوظِّفُ حواسَّهُ جميَعها، فيصغي وينقد ثم يجري التجارب، على بعض ما أحسّ؛ حسب إمكاناته ثم ينثالُ قلمه السيّالُ، ببيان ساحر في "حيوانه".

٢. التجربة لغة واصطلاحاً وموقف الجاحظ منها:

التجربة لغةً: جرّب الرجل تجربة بمعنى اختبره والتجربة من المصادر المجموعة قال النابغة[5].

تَوَرَّثْنَ من أزمانِ يومَ حليمةٍ إلى اليوم قد جَرَّبْنَ كُلَّ التجارب

(١) **مجموعة الكتر اللغوي**، المطبوع في بيروت، ١٣٢٢هـ، ص ص ٦٦- ٦٧.

(٢) **المصدر السابق**، ص ١٢٧.

(٣) هارون، عبدالسلام محمد: محقق كتاب **الحيوان**، جـ١/ ١٨.

(٤) **المصدر السابق**، جـ١/٢٤.

(٥) ابن منظور محمد بن مكرّم (ت ٧١١هـ/١٣١١م)، **لسان العرب المحيط** ، إعداد وتصنيف: يوسف خياط ، دار لسان العرب،بيروت (د.ت)مادة جرب **وديوان النابغة الذبياني**، تحقيق: المحامي فوزي العطوي ،دار صعب،بيروت،١٩٨٠ ص ٥١ .

وقال الأعشى:

كم جرَّبوهُ، فما زادت تجاربُهم أبا قدامةَ إلا المجدَ والقَنعا(١)

وجرَّبه تجربةً اختبره، كما في لسان العرب، وزاد صاحب المحيط، بأنَّ الرجلَ المجـرَّب كمعظَّم ومجرِّبٌ عَرَف الأمور، ودراهم مجرّبة: موزونةٌ(٢).

هذه معانيها في المعاجم القديمة: لفظاً، ومثلُها معنى في أساس البلاغة مجرّب بمعنى ذي تجارب، أمّا من معانيها في المعاجم الحديثة نحو المعجم الوسيط فإنها من جرّبه تجريباً وتجربة: اختبره مَرّة بعـد أخـرى، ويقال رجلٌ مجرِّب، وجُرِّب في الأمور وَعَرفَ ما عنده ورجل مجرَّب: عَرف الأمور وجرَّبها، ومنه التجربة (في العلم) اختبارٌ مُنظّم لظاهرة أو ظواهر، يراد ملاحظتُها ملاحظةً دقيقةً ومَنْهَجُهُ الكشف عن نتيجة ما أو تحقيق غرض معين(٣).

فنلحظ أنَّ تعريفَ التجربةِ لغةً في المعاجم الحديثة، كالمعجم الوسيط أدقُّ تعريفاً لها، نظراً لتطـوُّر العلم والمعرفة في مجال التجربة.

أمّا التجربة اصطلاحاً: فهي " وسيلةٌ لجمع أدلة تُظهرُ تأثيرَ متغيِّرٍ وفي الظروف المضبوطة، يتنـاولُ المجرِّبُ المتغيرَ المستقلَّ، ويُثَبِّتَ سائرَ العوامل الأخرى ثم يلاحظُ ما يطرأ بعد ذلك على المتغيِّر التـابع، وفي مثل هذا الأنموذج للتجربة الافتراضية الدقيقة، فإن أيَّ تَغَيُّرٍ يطرأُ على المتغيِّر التابع، لا بدّ وأن يكونَ نتيجةً لما أحدثه المتغيّر المستقل"(٤).

والتجربة في موسوعة علم النفس هي:" فحصٌ يشتمل على معالجة مطبوعة يقوم فيهـا الباحـثُ لدراسةِ متغيراتٍ معينة، كما ينطوي على ملاحظة النتائج وقياسِها بدقة، ويتدخلُ الباحثُ في التجربة؛ لأنَّ الظواهرَ المدروسة تُلاحظ في ظلِّ شروطٍ مضبوطة(٥).

والتجربةُ؛ عند بعضِ علماء النفس منهم الدكتور جميل صليبا هي تغيرّاتٌ نافعةٌ لِمَلْكاتِنا، وهي مكاسـبُ تحصلُ لنفوسِنا بتأثيرِ التجربة، وهي نقدٌ عقلي نكتسبه، وهي تجربةُ فردٍ أو نوع، وهذه الأخيرةُ تنتقلُ إلينـا

(١) ابن منظور : **لسان العرب المحيط**،مادة جرب وانظر **ديوان الأعشى**،شرح وتعليق: محمد حسين قصيدة (١٣) ص١٠٩ وعنده وجربوه بدل كم جربوه .

(٢) الفيروزأبادي، مجد الدين ت(٨١٧هـ/١٤١٥م)، **القاموس المحيط**، عالم الكتب، بيروت، (د. ت) جـ١/ جرب). وفي أساس البلاغة رَجُلٌ مجرَّب ومجرِّب معناه ذو تجارب قد جَرّب(٢). (الزمخشري ، محمود ت(٥٣٨هـ/١١٤٤): **أساس البلاغة**، تحقيق: عبد الحميد محمود، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ١٤٠٢- ١٩٨٢م، ص٥٥.

(٣) **المعجم الوسيط**: مجمع اللغة العربية، إبراهيم مصطفى وزملاؤه، دار الدعوة، استنبول، طبعة ١٩٧٢، مادة جَرب.

(٤) عزت، سيد إسماعيل، **علم النفس التجريبي**، وكالة المطبوعات، الكويت، ط١، (د. ت) ص ٤٠.

(٥) **موسوعة علم النفس الشاملة**، التجربة) مجلد٣/٢١٧.

بالتربية، واللغّة والتقليد والوراثة، ولا يُطْلَقُ لفظُ تجربة، إلا على التغيُّرات النافعة، أمّا التغيُّرات الأخرى كالنسيان وعدم المبالاة، وفساد الأخلاق فلا تُسمّى تجارب(١).

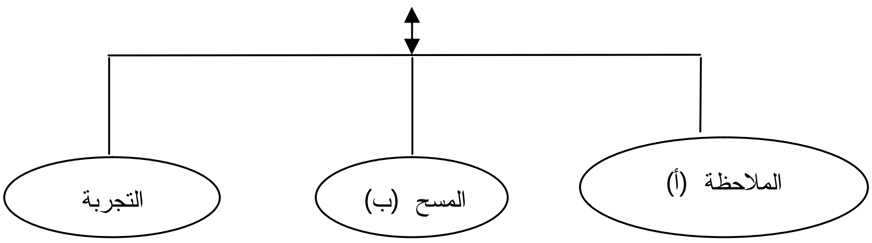
وفي ضوء ما ذكر سابقا فان ّ التجربة اصطلاحاً هي: وسيلةٌ لجمعِ أدلّة تظهرُ تأثيراً متغيّراً آخر في ظروف مثالية، فيتناوَلُ المجرِّبُ متغيّراً مستقلاً، ويثبِّتُ العواملَ الأخرى ثم يلاحِظُ ما يَطْرَأُ بعد ذلك على المتغيرّ الثابت، ثم يلاحظ النتائج ويقيسُها بدقة، ويتدخلُ الباحثُ في التجربة؛ لأنّ الظواهرَ المدروسةَ تُلاحَظُ في ظلٍّ شروط مضبوطةٍ يختارُها الباحثُ المجرِّبُ.

لقد وقع تصحيف في قافية بيت المتنبي الذي احتج به الدكتور جميل صليبا فأدرجه عنده وتجربتي والصحيح هو وتجريبي.

ليتَ الحوادثَ باعتني التي أخذتْ مِنّي بحلمي الذي أعطتْ وتجريبي(٢)

٣. وسائل البحث العلمي عند الجاحظ:

وظّف الجاحظُ وسائلَ بحثٍ علمي متعدّدةً يمكن تشجيرُها على النحو التالي:



(٣. أ) الملاحظة (observation):

تُعَدُّ الملاحظةُ عند الجاحظ وسيلةً مُهمَّةً من وسائل جمع البيانات عن الحيوان، فكان قريباً جداً من أسسِ علمِ النفس التجريبي الحديث ذلك" أنَّ الملاحظَة توظَّفُ في الدراسات الكشفية والوصفية والتجريبية، ويُجْمَعُ بها بياناتٌ لها أهميتُها بالنسبة لكلّ نوع من أنواع الدراسة كما هي عند أهل الاختصاص(٣).

فما أبرزُ ملاحظات الجاحظ؟ وأنواعها؟

(١) صليبا، جميل: **المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية**، الشركة العربية للكتاب، بيروت، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م، جـ١/ ٢٤٣- ٢٤٦.

(٢) المتنبي، أبو الطيب (ت ٣٥٢هـ/٩٦٤م): **الديوان**، تحقيق وشرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، جـ١/ ٢٩٣.

(٣) دويدار، عبد الفتاح محمد: **أسس علم النفس التجريبي**- التجريب ومناهج البحث والقياس، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٥، ص ٢٧٤.

أمَّا أبرزُ ملاحظاتِ الجاحظ فتوظيفُه حواسَّهُ في رَصْدِ الحيوان، وحركاتِهِ وسكناتِهِ، وهيئاتِه، فهـا هو يلحظُ عددَ أرجل العقرب فيقول: " لها ثماني أرجل"[١]. ويلحَظُ خروجَ ولدِها كاسباً[٢].ومثلُها يلحظُ ولدَ العنكبوت إذ يخرجُ كاسباً كاسياً[٣].ويلحَظُ فَمَ العنكبُوت بالطُّول[٤].هذا من عالم العناكب على صغر جسمه، وأجزائه، ثم ينتقلُ ليلحَظُ أنَّ " كُلَّ ثورٍ أفطسُ"[٥]. وإلى داخل فمهِ، "فلسانُ الثـور مائـل"[٦]. ويصفُ بملاحظته الدقيقة " استعمالَ الثور موضعَ قَرْنهِ إذا عَدِمَهُ"[٧]. ويلحَظُ قبحَ وجـهِ التَّـيس[٨]. وأنَّ للتيس لِحيةً[٩]. ثمّ يلحَظُ بحاسةِ الشمِّ؛ بعد أن وظَّف ملاحظات الحركة والبصر، رائحةَ التيس المنتنة، خاصّةً وقت الضّراب[١٠]. ويوظف تراسلَ حواسّه في ملاحظته؛ إذْ يلحَظُ حَذْفَ التـيس بوَلُـه المـنتنَ تلقـاء خيشومه[١١].

ويلحظُ ميل الجدي على شقِّه الأيسر عند الربوض[١٢]. ويلحظُ عينَ الجرادة فلا تدور[١٣]. ويَعِـدُّ قوائمَ الجرادة بملاحظته ستّاً[١٤]. ويلحظُ بَصَرَ الفأرة بالليل، كبصرِها في النهار[١٥]. وطريقةَ بولِ الكلب أنْ يرفعَ رِجْلَه[١٦]. ويخرسُهُ المطرُ، وإفراطُ البرد[١٧]. ويلحَظُ عُيونَ جرائهِ، وتفتّحَ أعينها بعد عِـدَّةِ أيـام[١٨]. ويلحَظُ الكلبَ سهراً بالليل و نوّاما بالنّهار[١٩]. ويلحَظُ نفسيةَ الكلب بأنَه يُكْرِمُ الرَّجُلَ جميلَ اللباس[٢٠].

---

(١) الجاحظ: **كتاب الحيوان**: جـ٥/ ٣٦٦، ٤٠٦.

(٢) المصدر السابق: جـ٦/١١٨.

(٣) المصدر السابق: جـ٢/٤١٢.

(٤) المصدر السابق: جـ٦/ ٢١٥.

(٥) المصدر السابق: جـ٣/ ٣٠٩.

(٦) المصدر السابق: جـ٥/ ٥١٣.

(٧) المصدر السابق: جـ٦/ ٣٧٤- ٣٧٥.

(٨) المصدر السابق: جـ٢/ ١٥٠ و جـ٥/٤٧٢-٤٧٣.

(٩) المصدر السابق: جـ٢/ ٢٣٩.

(١٠) المصدر السابق: جـ١/ ٢٢٦- ٢٢٩.

(١١) الجاحظ المصدر السابق: جـ١/ ٢٢٩- ٢٣٠.

(١٢) المصدر السابق: جـ٢/ ٥١٢.

(١٣) المصدر السابق: جـ١/ ٣١٠.

(١٤) المصدر السابق: جـ٢/ ٤٠٦.

(١٥) المصدر السابق: جـ٧/ ١٦.

(١٦) المصدر السابق: جـ٢/٥٦.

(١٧) المصدر السابق: جـ٢/ ٧٢.

(١٨) المصدر السابق: جـ٢/ ٢٢٠.

(١٩) المصدر السابق: جـ١/٢٧٣.

(٢٠) المصدر السابق: جـ٢/ ١٦١.

لأنه يتوقَّعُ مِنْهُ أن يكرمَهُ، كما يلحظُ بصبصةَ الكلب بذنبهِ حين يُلقى إليه الطعام[١].وهذه من مظاهر دراسة نفسية له في علم الحيوان.

إنَّ هذا الملاحظات الجاحظية- وهي غيض من فيض- في كتابه، توزَّعَتْ على صنوفٍ من الحيوان، صوراً بصريةً، وسمعيةً، ونفسيةً؛ رُبَّما تُعَدُّ من أشهر خطوات البحث العلمي " إذ مِثلُها يُعَدُّ "نقطة بدايةٍ في كثير من النظريات العلمية"[٢].

إنّ الملاحظةَ الدقيقةَ للحركاتِ والسكناتِ، لهي من أبرز خطوات البحث العلمي الدقيق، يُمكنُ أنْ نمثِّلَ على ذلك، بمثل أدرجه الدكتور دويدار[٣]. بأنَّ أستاذ طبٍّ أرادَ أن يعلِّمَ طلابَه أهميّةَ الملاحظة، فَغَمَسَ إصبعه في عيّنةٍ من البول السكري ليتذَّوَقَهُ، ثم طلبَ من طلبتِهِ أن يكررّوا ما فعله، فقاموا على مضض، وأظهروا الامتعاضَ من ذلك، إلا أنهم اتفقوا جميعاً أنَّ مذاقَهُ حلو، فابتسم الأستاذ الطبيب قائلاً: " لقد فعلتُ ذلك لألقي عليكم درساً في أهمية ملاحظة التفصيلات، فإنكم لو لاحظتموني بعناية، لكان من الممكنِ أنْ تلاحظوا أنِّي غَمَسْتُ إصبعي الأولى في البول بينما لعقت الإصبع الأخرى[٤].

والملاحظة نوعان عادية غير مضبوطة كعدد أرجل العناكب والعقارب وميل الجدي على شِقِّهِ الأيسر عند الربوض، وملاحظة مضبوطة ، تترافق مع التجريب العلمي ، إذ تبدأ بالفرضيّة الأولى، وتساؤل، وتنتهي بتفسير بعد إثبات، وذلك شأنُ الجاحظ الذي أدرجَ عن غيره، بأنْ رأى على مدى ميلين مَتَّصلين أثَرَ ستِ أرجل، فَعَجِبَ؛ إذ لا يعلمُ حيوانا يَدِبُّ على ستّ، فلمَّا سألَ المكّاري، أجابه بأنَّ الخِتريرَ في زمن الهيج يركب الختريرة، وهي ترتعُ أو تذهبُ نحو مبيتها، ويداه على ظهرها، وقت الهياج[٥].

وبالملاحظة تُعَرفُ نفسيةُ الحيوان، وَيَسْهُلُ التعاملُ معه، فالهِرَّةُ تَعْرِفُ ولدَها وإنْ صار مِثلَها، وإنْ أُطعمَتْ شيئاً حملتْهُ إليه، وآثرتْهُ به، وربما ألقي إليها الشيء، فتدنو لتأكلَهُ، ويقبلُ ولدُها فتمسكُ عنه، والهِرُّ يَعْرِفُ ربَّةَ المترل، فإنْ سُرِقَ ورُبِطَ شهراً، عاد إلى ربَّة المترل عند انفلاته وانحلال رباطه[٦].

وبالملاحظة تفسَّرُ حركاتُ الحيوان، فالسّنورُ يُغطِّي رَجْعَه، حتى لا يَشُمَّهُ الفأرُ فيهربَ منه[٧]. من جهة، ومن أخرى، فيغطيْهُ لما يكون فيه من خُلُقٍ من أخلاق الأسد[٨].

---

(١) **المصدر السابق:** جـ٢/ ١٣٢.

(٢) دويدار، عبد الفتاح محمد ، **أسس علم النفس التجريبي** : ص ١٠٩.

(٣) **المصدر السابق** : ص ١١٢.

(٤) **المصدر السابق:** ص١١٢.

(٥) الجاحظ: **كتاب الحيوان** ، جـ٧/ ٢٤٩.

(٦) **المصدر السابق:** جـ٧/٢٦٢.

(٧) **المصدر السابق:** جـ٧/ ٢٦٣.

(٨) **المصدر السابق:** جـ٧/ ٢٦٣.

وبالملاحظة يفسّر الجاحظ تقطيعَ أرجلِ الشاء والإبلِ لأجسادِ الأفاعي والعقارب، دون أن تلدغَ أيٌّ منهما الشّاء والإبل؛ لأنّ الحيّةَ والعقربَ يكون همُّ الواحدة منهما التخلُّصَ بنفسها، لئلا تعجّلَها بالوطء، فإن نجت من وطء يديها، لم تنجُ من وطء أرجلها، وإنْ سَلِمَتْ من واحدة لن تسلمَ مِنَ التي تليها(١).

وبالملاحظة المتأنِّية يمكنُ أن تَلْحَظَ القنفذَ كيف يتداوى بالصَّعتَرِ البريّ بعد مناهشته الحيّات(٢). ومثلُها السلحفاةُ التي تتداوى بالصَّعترِ إذا أكلت الأفعى(٣).

وابنُ عِرْس إذا قاتل الحيّة، بدأ بأكل السَّذاب(الفيجن)؛ لأن رائحةَالسّذابِ مخالفةٌ للحيَّةِ(٤). فهل بالصَّعتر البري مادة تقتلُ السُّموم؟ ذلك ما تجيب عنه المختبرات.

وبالملاحظة يُتَّقى خطرُ الحيوان، كالأسد الضاري، إذا أشعلتْ له النَّار، أو ضُرِبَ له على الطّساس(٥).

وتبدو ملاحظات الجاحظ قيِّمةً، وإنْ كانت قديمة، ذلك أنَّ الدراساتِ الحديثةَ أثبتتْ أنَّ الحيّات ذواتِ الجَرَس، تكره الرائحةَ البشرية، مما حفزَ رعاةَ البقرِ في تكساس على أنْ يُحيطوا أنفسَهم بحبالٍ يلمسوها بأيديهم، قبل نومهم فتنفرَ الحيّات الخطرة عنهم(٦).

ويمكن أنْ نَخْلُصَ إلى أنَّ دراسةَ نفسيّةِ الحيوان ومسلَكَهُ، وملاحظةَ سلوكياتهِ العدوانيةِ ومتى وأين؟ تؤدِّ إلى التعامل معه، بما يحبُّه فيقتنيه، أو يكرهُه فيتقيه أو يقتله؛، إذا كان يُخشى ضررُهُ، ويستحيلُ تَدْجِيْنُهُ.

(٣. ب.) المسح (survey)

يُقصَدُ بالمسح استطلاعَ آراءِ الناس، وتجاربِهم، وخبراتِهم في شرائحِهم الاجتماعية المختلفة، وهم يصفون حيوان البرِّ والبحر والجو، جسدياً ونفسياً وسلوكياً. لقد كان الجاحظ يتريَّثُ في قَبول ما يسمعه أو يقرؤه من آراء ذوي الخبرة والاختصاص ، ثم يمحِّصُ أقوالَهم ويزنُها بميزانِ عقلهِ قبل أن يُعْلِنَ قبولَهُ لرأيٍ أو رَفْضَهُ له ، في نتائجِ مسوحاتِهِ.

أمّا الشرائح الاجتماعية التي التقاها في مسحه فهي شريحة: الحوَّاءين، والأطباءِ، وصاحبِ المنطق، والسّماكين والعطّارين، والعلماءِ، وأصحابِ التجارب وغيرِهم.

(١) الجاحظ: **كتاب الحيوان** : جـ٤/ ٢١٤.

(٢) **المصدر السابق**: جـ٧/٣٣.

(٣) **المصدر السابق**: جـ٤/ ٢٢٨.

(٤) **المصدر السابق**: جـ٤/ ٢٢٨.

(٥) **المصدر السابق**: جـ٤/٤٨٥.

(٦) لورس ملني وزميلته: **الحواس في الإنسان والحيوان**: ص١٨٦.

فماذا أفادَ من كلِّ شريحةٍ؟ وما رأيه في نتائجِ مُسوحاته؟

لقد كان الجاحظُ عالماً اجتماعياً؛ اختلطَ بطبقاتِ النَّاسِ المختلفةِ، فأفادَ منهم معلوماتٍ شتَّى، أدرجَ نتائِجَها في كتابه الحيوان، منهم الحواءون، الذين أفادوه بعداوة الضَّبِّ للحية[١]. فالضبُ يقاتلُ الحيّةَ بذنبِهِ الخشنِ من جحره، فإن أصابَها قطَعها، أمّا إنْ أخرجَ رأسَهُ للحيّة قَتَلتْهُ الحيّة، يستندُ في مسوحاته إلى قــولِ ابن الأعرابي الذي أخبره ابنُ فارس بن ضبعان الكلبي[٢]؛ في رواية معنعنة.

واستخبرَ أمرَ رجالٍ بن آل زائدة بن مُقْسم أنَّ سليمان بن الأزرق دُعي لحية شنعاء، أدارها علــى رأسه كالمِخراق، وما إنْ هوى لها إلى الأرض، حتى ابتدرتْ فأرةً كانت ازدرتْها، فلمّا رأى الفأرةَ هــربَ وصرخَ صرخةً، قالوا: فأخذ الناسُ يعجبون من إنسان قَتَلَ الحية الشنعاء، ولكنّه فرَّ من فأرة[٣] .

وسأل الجاحظ بعض الحوائين ممن يأكلُ الأفاعي عن نتن جلودها؛ فأفادوه بأنها ليــست منتنــة، وعزوا ذلك لأنها لا تأكلُ الفأر[٤].

أمَّا من شريحةِ الأطباء، فادرجَ الجاحظُ زعماً لبعضِهم من أنّ السِّنور يدفنُ رجعَــهُ ويعــودُ إليــه فيشتمُّهُ، فإن وجد له رائحة، زاد عليه من التراب؛ حتى لا تشمَّهُ الفأرةُ، ذاتُ الحِسِّ اللطيــف، فتــهربَ، وادرجَ الجاحظ، السَّبَبَ وحمّلَ رأيه زعمَ الأطباء[٥]. ويدرجُ لصاحبِ المنطق (أرسطو) زعماً بأنَّ كلّ طائرٍ عريضِ اللسانِ يُفْصِحُ بحروفٍ أكثرَ من غيره[٦].

ويبدو أنَّ الجاحظَ برغمٍ من إدراجه زعمَ صاحبِ المنطق، قد قاس على زعم صاحب المنطق بـأنْ قال " ولابْنِ آوى صياحٌ يُشْبهُ صِياحَ الصِّبيان، وكذلك الخِنزير، وقد تهيّأ للكلب مثل: **عَفْ عَفْ وَوْوَوْ**، وأشباه ذلك[٧].

ولعّل الجاحظَ أفادَ من زعم صاحب المنطق، عن إفصاح الحيوان بحروف الكلام، فتوقَّفَ الجاحظُ عند أصوات السَّنانير (القِطَط) التي تهيّأ لها من الحروفِ العددُ الكثير، " ومتى أحببتَ أن تعرفَ ذلك فَتَسَّمَعْ تجاوبَ السنا نير، وتوَّعدَ بعضِها لبعضٍ في جوف الليل، ثمَّ أحصِ ما تسمعُهُ وتتبَّعْهُ، وتوقفْ عنده، فإنــك

(١) الجاحظ: **كتاب الحيوان** : جـ٦/ ١٢١.
(٢) المصدر السابق: جـ٦/١٢٠.
(٣) المصدر السابق: جـ٥/٢٥٧.
(٤) المصدر السابق: جـ٥/٢٥٧.
(٥) المصدر السابق: جـ٥/ ٢٤٩.
(٦) المصدر السابق: جـ٥/ ٢٨٨.
(٧) المصدر السابق: جـ٥/ ٢٨٨.

تَسْمَعُ من عدد الحروف، ما لو كان لها من الحاجات والعقول والاستطاعات، ثم أَلَّفتَها لكانت لغةً صالحَة الموضع متوسطةَ الحال[١]. أمّا من شرائح العلماء فاستوقفه زعمٌ بأن الحيّةَ التي يقال لها" الرسّاس"، تلد ولا تبيضُ، وأنَّ أنثى النُّمور لم تضعْ نَمِراً قط إلا ومعه أفعى[٢].

و لم يعلّق الجاحظ على الخبر، وإنما اكتفى بدرجه، زعم بعض العلماء لي ممّا يدلُّ أحياناً على أنّه بأنه أحيانا كان يقابل العلماءَ دون أن يذكرَ أسماءَهم، رُبَّما حفظاً لأسرارهم، وعدم رغبته في افتضاح أمورهم، وما قولُه زَعَمَ إلا إشارة إلى تكذيب الخبر، ذلك ما يؤيد درجَه زعماً لأعراب، بأنَّ الكَمأةَ التي تبقى في الأرض، يَستحيلُ بعضُها حيّة، وهذا الحديث سَمِعَهُ الجاحظ من بعض رؤساء الطائيين فزعم " أنه عاينَ كَمْأةً ضخمةً فتأمّلها، فإذا هي تتحرّكُ، فنهضَ إليه فقلَعها، فإذا هي أفعى، هذا ما حدّثته عن الأعراب، حتّى برئتُ إلى الله من عيب الحديث[٣]. وقد أدرج الجاحظُ اسمَ صاحبِ الخبر، ليبرأ من عيب الحديث الذي لا يُصدَّقُ.

(٣-جـ) التجربة (Experiment)

اعتمد الجاحظ في كثير من وصف الحيوان، وعاداته، وسلوكه على " التجربة"بنوعيها؛ الشخصية والغَيرية ، التي من معناها العام " معرفة مكتسبة من تجارب الحياة، وإطلاق اسم التجارب على الوقائع التي سَبَّبَتْ معرفةَ الأشياء، لتمدَّنا بالمعلومات عن الوقائع، وما يُكْسِبُ الخبرةَ بأمورها" على ما يعرِّفها بعضُ أهل الاختصاص [٤]. أمّا التجارب الشخصية فمتنوِّعة عند الجاحظ ; إذ وظَّفَ حواسّه من بصر ولمس وشمّ، وهو يفحصُ بَيْضَ الحيّات فيقول: " وقد رأيتُ بيضَ الحيّات وكسرتُها؛ لأتعرَّفَ ما فيها، فإذا هي بيض مستطيل أكدرُ اللون، أخضرُ، وفي بعضه نمشٌ وَلُمَعٌ، فأمّا داخلُهُ فلم أرَ قيحا قَطُّ، ولا صديداً خرجَ من جُرْحٍ فاسد، إلاّ والذي في بيضها أسمجُ منه وأقذر"[٥].

لقد تقدّم الجاحظُ خطوتين إلى التجربة بعد أنْ سَمِعَ بالمعلومة عن بيض الحيّات، أولاً ثم لاحظها ثانياً، ليتقدَّم نحو إجراء التجربة على البيض، ثالثاً، موظّفاً حواسَّه الثلاث (البصر رأى بيض الحيّات، واللمسَ كسرها، وغايتُه التعرّف إلى ما فيها، فإذا البيض مستطيل، أكدرُ اللون، به نمشٌ، والشمّ، فلم يَرَ قيحاً أسمجَ منه وأقذر).

ثمّ قدّم الجاحظ تقريراً عن تجربته خُلاصتها بالوصفِ المذكور على ما يفعله صاحب التجربة بعد انتهائه من فحص موادِّه، وتسجيل النتائج.

---

(١) **المصدر السابق:** جـ٥/ ٢٨٨- ٢٨٩.
(٢) الجاحظ: **كتاب الحيوان:** جـ٤/ ٢٢٢
(٣) **المصدر السابق:** جـ٤/٢٢٣.
(٤) محمد جاسم محمد: **علم النفس التجريبي**، مكتبة دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠٠٤م : ص٣٩٠.
(٥) الجاحظ: **كتاب الحيوان**، جـ٤/ ١٧٠.

ويُجَرِّبُ الجاحظ قولاً عن قتل النمل، " إذا صُبَّ في أفواه بيتِها القَطِرانُ والكبريتُ الأصفرُ، وَيُدَسُّ في أفواهها الشَّعَرَ، وقد جرَّبنا ذلك فوجدناه باطلاً"[١].

لقد تناهي إلى الجاحظ قولٌ قبلي، ففحصَ القول، إنْ صدقاً وإنْ كَذِباً، فجرّب على بيت النمل، ثم قدَّم خلاصة تقريره العلمي" فَوَجَدَهُ باطلاً".

ويعرض الجاحظُ فيما سّماه زعماً لصاحب المنطق (أرسطو) أن ثوراً خَصيًّا وثَب بعد أن خُصي على أنثاه، فأحبلها، و لم يحكِ هذا عن معاينته، والصُّدورُ تضيقُ بالرَّدِّ على أصحابِ النظر، وتضيقُ بتصديق هذا الشكل"[٢].

فالجاحظ لا يصدّقُ ما يذكرُه أرسطو طاليس عن إحبالِ الخصي أنثاه، من جهة، لأنَّ أرسطو نقلَ الخبر، و لم يعاينْهُ من جهة أخرى، فكيف يصدّقهُ؟

إنّ هذا لَيدُلُّ على روح باحث محقّق؛ لا يقبلُ المعلوماتِ على عواهنها دون مشاهدة، أو تجربة تثبتها فيما بعد.

إنَّ الجاحظَ، على الرّغم من المشاهد العامة التي يلحظُها الإنسان، من تمييز بين إلية النعجة وذنب الماعز، فإنه يسندُ أعجوبَة سِفادِ الكبش لأنثاه إلى غيره، ويذهبُ إلى أنّهُ أعجوبةٌ بقولِهِ:" قالوا في الضأن أعجوبة، فعند الكبش رِفْقٌ في السّفاد، وحذقٌ لم يُسْمَعْ بأعجبَ منه، وذلك أنه يدنو منها (من أنثاه) ويقفُ موقفاً يعرفُهُ، ثم يَصُكُّ جانبي الإلية بصدره، وبمقدارٍ من الصكِّ يعرفُهُ، فَيُفْرِجُ عن حياها المقدارَ الذي لا يعرفُهُ غيرُه، ثم يَسْفِدُها في أسرع من اللمح"[٣].

إنّ توقُّفَ الجاحظ عند أعجوبة الكبش في سفاد أنثاه، ليحتاجُ إلى دقَّةِ ملاحظة؛ أن يقفَ الكبشُ بجانب أُنثاه، في موقف مقدَّرٍ يعرفُهُ الكبش، ليس إلا، ثم يُدَقِّقُ ملاحظَته في صَكِّ أحد جانبي الإلية بصدره، ثم يرصدُه كيف يسفِدُ أنثاه، وبأسرعَ من اللمح، صحيحٌ أنَّ المتلقي يدركُ أنَّ النتاج لا يكون إلا بسفاد النّعاج، ولكنّ الملاحظةَ الدقيقةَ التي تُعدُّ خُطْوَةً مُهِمَّةً للتجربة، قَلَّ من ينقلُها على نحو من وصف الجاحظ.

ويكذِّبُ الجاحظُ نتائجَ غيرِهِ، كقولهم في المثل " أَغْلَمُ من تيسِ بني حِمّان"، وبنو حِمّان تزعمُ أنَّ تَيْسَهُمْ قَفَطَ (سَفَدَ) سبعين عنزاً وقد فَرِيَتْ أوداجُهُ"، فيعلِّقُ الجاحظ بتقريرِهِ عن الخبر هذا، فهذا من الكذب الذي يدخلُ في باب الخُرافة[٤]. ويُعزى سببُ التكذيب أنَّ مِثْلَ هذا القَفْطِ غيرُ مألوف لتيسٍ قطُّ، فالقفط

(١) **المصدر السابق**: جـ٤/ ٣٦.

(٢) الجاحظ: **كتاب الحيوان** : جـ٥/ ٥٠٢- ٥٠٣.

(٣) **المصدر السابق**: جـ٥/ ٤٧١- ٤٧٢.

(٤) هارون، عبد السلام محمد: **محقق كتاب الحيوان**، جـ٥/ ٥٠٢.

ذاك خارج عن قُدرتِهِ.

٤. التجربة على الكلب بين الجاحظ وبافلوف (Pavolov):

أما هذه التجربةُ على الكلب فتجربةٌ غيرية ينقلها عن صديق له ، وما هي بشخصية ،إذ عنون محقِّقُ كتاب الحيوان "الانتباه الغريزي في الكلب"، والجاحظ أبعدُ من ذلك مقصداً، وأدقُّ مرمى، فقد اقتربَ من منهج أحدث الطرق العلمية التي مُلخَّصُها الفعلُ المنعكس الشرطي، التي عرفها بافلوف الروسي (١٨٤٩ - ١٩٣٦م) فيما بعد، بتجاربَ على كلب، ولعلَّ إثباتَ نقلِ الجاحظ أولاً، وتحليلَهُ ثانياً ثم المقارنة بينه وبين نظرية بافلوف ثالثاً هي التي تبيِّنُ تقدُّمَ الجاحظِ في مضمار التجربة العلمية.

أمَّا نصُّ الجاحظِ فهو" وقد خبَّرني صديقٌ لي، أنَّهُ حَبَسَ كلباً في بيتٍ، وأغلقَ دونه البابَ؛ في الوقت الذي كان طبّاخهُ يرجعُ فيه من السوق، ومعه اللحمُ، ثم أَحَدَّ سِكَينا بسكّين، فنبحَ الكلبُ وقَلِقَ، ورامَ فَتْحَ الباب، لتوهُّمِهِ أنَّ الطباخَ، قد رجعَ من السُّوقِ بالوظيفة (ما يقدَّرُ من طعام في اليوم) وهو يُحِدُّ السّكّينَ ليقطعَ اللحم"، قال:" فلمَّا كان العشيُّ صَنَعْنَا بهِ مثل ذلك، لنتعرَّفَ حالَهُ في معرفة الوقت، فلم يتحرَّكْ.

قال: وصَنَعْتُ ذلك بكلبٍ آخر، فلم يقْلَقْ إلا قلقاً يسيراً، فلم يلبث أنْ رجع الطبَّاخُ، فصنع بالسّكين مثلَ صنيعي، فقلق حتى رامَ فتح الباب!!

قال: فقلتُ: والله لئن كان عَرَف الوقتَ بالرِّصْدِ فتحرَّكَ له، فلمّا لم يَشُمَّ رِيْحَ اللحم، عَرَف أنَّه ليس بشيء، ثُمّ لَمّا سَمِعَ صوتَ السِّكّين، والوقتُ بَعْدُ لم يذهبْ، وقد جِيء باللحم، فشمَّ ريحَ اللحم من المطبخ، وهو في البيت، أوْ عَرَف فَصْلَ ما بين إحدادي السّكين وإحدادِ الطبّاخ، إنّ هذا أيضاً لعجب"! وإنَّ اللحمَ ليكونُ بيني وبينه الذراعان والثلاثة الأذرع، فما أَجِدُ ريحَه، إلا بعد أن أدنيه من أنفي، وكلُّ ذلك عجب(١).

أمّا من تحليل النص فتنجلي عدّةُ أمور منها:

- تجربتان على كلبين في زمنين مختلفين وفي مكان مغلق.
- عرضَ الطبّاخ مثيراً طبيعياً للكلبين في زمنين مختلفين، وهما إحداده سِكَيناً بسكين، مقترناً إحدادَه بعودته من السّوق، ومعه اللحم.،
- أثار إحدادُه السِّكينَ بالأخرى قَلَقَ الكلبِ الأول، المغلقِ دونه الباب، اقترانَ المثير الطبيعي رائحةَ اللحم+ وإحدادَ السكين بالأخرى، مثيراً شَرطياً، يعني للكلب أنَّ الطبّاخ رجَع من السّوق

(١) الجاحظ: **كتاب الحيوان**، جـ٢/ ١٢٠-١٢١.

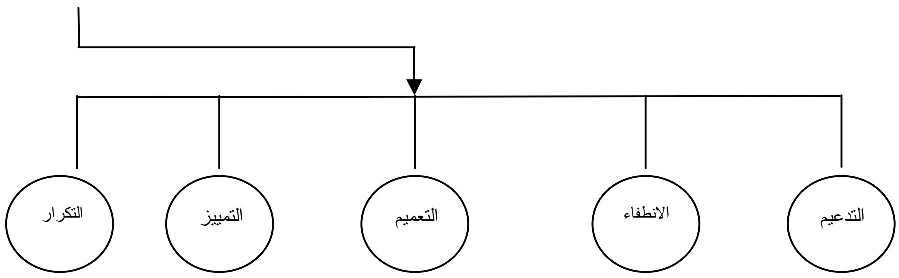
بالوظيفة، وحان له أن يقدِّمَ للكلب طعامَه، وما صوتُ إحدادِه السكين بالأخرى، إلا مثيرٌ شَرْطيّ لمثير طبيعي، وهو تقديمُ وجبةِ طعامٍ إليه.

- رام الكلبُ أن يفتحَ الباب، لمّا سَمِعَ إحدادَ السكينِ بالأخرى، فإحدادُ السكين بالأخرى ← مثير شَرطي لتقديم الطعام.
- ورائحة اللحم ← مثير طبيعي لتقديم الطعام.
- لم يقدّم إلى الكلب الأول الطعامَ في هذه المرحلة.
- جُرِّبَ العمل نَفْسُهُ عشياً، لِيُعْرَفَ حالُ الكلب، فلم يتحرّكْ؛ مما يعني شيئين هما:
  - تجربة الصّديق على الكلب كانت مقصودة بدليل قول الجاحظ نقلاً عن لسان صديق، لنتعرّفَ حالَهُ في معرفة الوقت، فلم يتحركْ".
  - إنَّ التجربة بحاجة إلى تدعيم (reinforcement) وإلا فإنَّ مصيرَها إلى الانطفاء (extinction)، وهذا الذي حدث مع الكلب الأول " فلم يتحرّك".
- أمّا تجربةُ صديقهِ على الكلب الآخر، فلم يقلقْ إلا قلقاً يسيراً؛ فالطبّاخ واحد، وصنيعُه بالسكين وإحدادُه إياها مكرّرَة، فقلق حتى رامَ فتحَ الباب، فالكلبُ الآخر، مغلقٌ عليه الباب أيضاً، وإحدادُ السكين دونَ مثيرٍ شرطيٍ آخر، مقترناً برائحة اللحم+ إحدادِه السكين لم يُثِرِ الكلبَ.

أمّا رجوعُ الطبّاخِ من السُّوق، وإحدادُه السكينَ بالأخرى، فهو مثير طبيعي، معزَّزٌ بمثير شرطي يساوي قلقَ الكلب حتى رامَ فتح الباب.

إنّ رائحةَ اللحم، هي المثيرُ الطبيعي للكلب (فلما لم يَشُمَّ ريحَ اللحم عَرَفَ أنه ليس بشئ).

- لكنَّه لّما سَمِعَ صوتَ السّكّين (المثير شرطي) مقترنا بريحِ اللحم (المثير الطبيعي) والوقتُ (زمانا) بعدُ لم يذهب، وجئ باللحم (فشَمّ ريحَ اللحم) من المطبخ، وهو في البيت، أو عرفَ الزمن ما بين إحدادِ السكين وعودة الطبّاخ، تحرّكَ، ورام فتح الباب.
- لقد وظَّفَ الكلبُ حاستي الشمِّ أولاً والسّمع ثانياً، فتحرّكَ فيه مثيرٌ طبيعي (رائحة اللحم) والمثيرُ الشرطي (إحدادُ السكين بأخرى) كقرينته، فلما اجتمعا معاً (مثيرٌ طبيعي وشرطي) رامَ فتح الباب، أمَّا بغياب رائحةِ اللحم التي لم يشمَّها الكلبُ، وهي أقوى حواسه، فإنَّ تجربة الطبّاخ، بإحدادِ سِكين بأخرى معتمداً على إيهام مسمعي الكلب، دون اقترانها بحاسة شَمّه اللحم، فلم تعد تثيرُ الكلب، لأنه أدرك أنّ الإحداد بالأخرى دون أن يشم اللحم ليس بشيء.
- ويمكن أنّ تستنتج من التجربة على الكلب عند الجاحظ مبادئَ عرضَ بافلوف لها في علم النفس الحديث، سبقه الجاحظ إليها وأَنْ لم يذكرْها بالمصطلح- إذْ ذكرها بالمعنى- هي:



أمَّا التدعيمُ (Reinforcement) فيحدثُ إذا اقترن المثيرُ الطبيعي (اللحم)أو الطعام بالمثير الإشراطي (صوت إحداد السكين بالأخرى)، وهذا الذي توصل إليه بافلوف، وعرضَهُ في تجربته عن الكلب، كما سنوضحه في حينه(١).

أمّا الانطفاء (Extinction) فهو مبدأ التدعيم، فالانطفاء هو إثارةٌ دون تدعيم، فإذا ظهرَ المثيرُ الإشراطي (صوتُ إحداد السكين بالأخرى عند الجاحظ) أو جرس وضوء (عند بافلوف) كما سنرى دون أن يصحبَهُ مثيرٌ طبيعي (رائحة الطعام عند الطبّاخ) غير مرة؛ فإنَّ استجابة الكلب عند الجاحظ تنطفئ وعليه قال الجاحظ (فلم يتحرّك) (٢).

أمّا التعميم (Generalization) فلاحظَ المجرّبُ أنَّ رائحةَ اللحمِ هي المثيرُ المتشابهُ عند الكلبين في ظرفي زمان، فالكلبان، عندما اشتمّا رائحة اللحم، وهما خلف الباب، في توقيتين مختلفين، وسمعا صوت إحداد السكين بالأخرى، من طبّاخ عرفاه، راما فتح الباب، واعتراهما القلق.

لقد عمَّمَ الجاحظ على كلبين، مثيراً طبيعياً وشرطياً، وما محاولُة كُلِّ كلب منهما فتحَ الباب لمّا اجتمع الشرطان إلا تدليل على تعميم التجربة.

أمّا التمييز (Distinction) فقد اتّضح من خلال قلق الكلب الأول عندما شمَّ رائحةَ لحمٍ أحضره الطبّاخ، وسمعَ صوتَ إحداده سكيناً بأخرى، فقلق ورام فتح الباب، فلمّا كان العَشي صنَع الطبّاخُ بمثل ما صنعه من قبل، فلم يقلق الكلب، و لم يتحرّك، إذ ميّز بين إطعامه، وعدم إطعامه، كما ميّزَ بين مثير صوتي، غيرِ مصحوب برائحة اللحم، بيد الطبّاخ ومثير صوتي تَصْحَبُهُ رائحة اللحم، مميزاً بين وقت إطعام ووقت اللهو به. بدليل قولِ الجاحظ، والله لئن كان عَرَف الوقتَ بالرّصد، فتحرّك له، فلمَّا لم يَشُمَّ ريحَ اللحم، عَرَفَ أنه ليس بشيء، ثمّ لما سمع صوتَ السكين، والوقتُ بعدُ لم يذهب، وقد جيء باللحم، فشمَّ

---

(١) جاسم محمد، محمد: **علم النفس التجريبي**، والتجارب والتجريب في فروع علم النفس، مكتبة دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٠٤م، ص ١٦٩.

(٢) **المرجع السابق**، ص ١٦٩، وانظر دويدار، عبد الفتاح محمد: **أسس علم النفس التجريبي**، دار النهضة العربية، بيروت، ط، ١٩٩٥، ص ٣٧٦، المصطلح.

ريحَ اللحمِ، من المطبخ، وهو في البيت، أو عَرَف فصْلَ ما بين إحدادي السكين وإحداد الطبّاخ، إنّ هـذا لعجيب[1].

أمّا التكرارُ (Repetition) فأبرزهُ الجاحظ على كلبين محبوسين في مكانيين مختلفين، وزمـانين مختلفين، ونقَل انفعال الكلبين ودوافعَهما، فالكلب الثاني لم يقلقْ إلا قلقاً يسيراً، لّما صنع به صديق الجاحظ ما صنع[2]. لأنّ دافِعَ الكلب الثاني لم يكن قوياً بغياب الطبّاخ، أمّا عندما حضرَ الطبّاخ، وصنع بالسّكين، مثلَ صنيعهِ السابق، قلق الكلب ورام فتح الباب" فَدَاْفِعُ الكلبِ الجائعِ ليس كدافع الكلب الشبعان، وحاسّةُ شمِّهِ بحضور الطبّاخ، غيرُ حاسة سمعه إحدادَ السكين دون شمِّ الرائحة، وتكرار التجربة علـى كلـبين في ظرفين مختلفين، مراعياً دوافعَ كلِّ كلب، وتوقيتُ التجربة تدلُّ على تكرار متعمَّدٍ، لتدوين ملاحظات عن التجربة ونتائِجها.

أمّا تجاربُ بافلوف الروسي على الكلب فكانت متقدّمةً متطوّرة في ضوء إمكانيات العصر المتاحة له، وهو أوّل من قام بالتجربة على التعلّم الـشرطي (Classical Conditioning Pavolov) وهو صاحب نظرية الارتكاس الإشراطي.

وُلِدَ ايفان بافلوف في مدرسة ريزان قُرْب موسكو، ودرس فسيولوجيا الحيوان، وحـصلَ علـى درجته العلمية عام ١٨٧٥، بدأ يدرس الطبّ، لا ليكونَ طبيباً بل ليتابعَ دراساتٍ عن الغُـدد وإفـرازات المعدة، عاد إلى جامعة بطرسبرج في روسيا ليعمل مساعداً في أحد مختبراتها. كرّس حياتَه لدراسة ما سّـماه فسيولوجيا النصفين الكرويين للدماغ، وفقاً لمنهجه الصارم للأفعال المنعكسة، وركّز دراساتهِ حول تفسير كل جوانب سلوك الكائنات الحية في ضوء مصطلح فسيولوجيا الجهاز العصبي الراقي[3].

أمّا نظرية بافلوف التي سماها " الارتكاس الإشراطي"، فمبنيّة على أساس ارتكاس غير اشـتراطي، كسيلان اللعاب استجابة إلى وضع الطعام في فم الحيوان.

وإذا رافق المؤثِّرَ غيرَ الإشراطي مؤثّرٌ حيادي Indifferent مثلُ صوت الجرس أو وقعُ خطى، أو غيرُ ذلك، عدة مرات، فإنَّ لُعابَ الكلب يسيل، إذا سمع صوتَ الجرس، أو وقعَ الخطى، وحينئذ يكونُ قد حصل ما يسمى بالارتكاس الإشراطي(٤).

(١) الجاحظ: **كتاب الحيوان** : جـ٢/ ١٢٠- ١٢١.

(٢) الجاحظ: **كتاب الحيوان** : جـ٢/١٢٠.

(٣) جاسم محمد، محمد: **علم النفس التجريبي**، ص ص ١٦٢- ١٦٥.

(٤) عاقل، فاخر: **مدارس علم النفس**، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٦٨، ص ٢٨٠، و انظر تفصيل ذلك عن بافلوف والدراسـات السوفيتية الحديثة، ص ٢٦٧- ٢٩٢.

ويمكن أن نمثِّلَ خطواتِ التجربة البافلولوفيه كالآتي:

م = المنبه.

س = الاستجابة.

الجرس (م١) ← س١ الاستجابة لمصدر الصوت.

الطعام (م٢) ← س٢ إفراز لعاب.

وبتكرار م١ + م٢ ← س ١+ س٢

الجرس وحدهُ = ← إفراز اللعاب.

وتختصر العملية كالتالي:

الجرس (م١) ← س١ انتباه لمصدر الصوت.

الطعام (م٢) ← س٢ ← إفراز اللعاب م١ (١).

لقد أجرى بافلوف عملية تشريحية بسيطة، لتوصيل الغدد اللعابية للكلب بأنبوبة زجاجية، لالتقاط قطرات اللعاب، وقياس مقداره، وثبّتَ جِسْمَ الكلب وأطرافَهُ، بحزام ثم قدّم له طعاماً(٢).

وأجرى مثيراً صناعياً هو دَقُّ الجرس، وبدأ تجربَتُه، فلم يتأثر الكلبُ لدقِّ الجرس وَحْدَهُ، و لم يُسَلْ لُعابُه، ولكن عندما قَرَنَه بتقديم الطعام مراراً، اكتسب المثير الصناعيُّ (دقُّ الجرس) القــدرةَ علــى إســالة اللعاب، حتى لو لم يقم بتقديم الطعام، فسمّى عملية إسالة اللعاب بدقّ الجرس **(فعلاً منعكــساً شــرطياً)** واشترط تكرارَ المنبِّهِ الشرطيّ والطبيعي، ولاحظَ ميولَ الكلب ودوافعَهُ، من حيث الجوعُ والشِّبَعُ، فالجائع أكثرُ استجابة للمنعكس الشرطي من الشبعان.

كما لاحظ بافلوف ظاهرة "الانطفاء" (Extinction) عند الكلب مهما كان استقرارُها إذا لم تدعَّم، وقاسَ عددَ قطراتِ لعاب الكلبِ المدرّبِ، عندما قرع الجرس (كمثير شرطي) و لم يقدِّمْ له الطعام، فعل ذلك ثماني مرات، فكانت النتائج = انطفاء "بانقطاع" اللعاب في المرة السابعة والثامنة كالتالي:

التجربة	عدد قطرات اللعاب
١	١٣
٢	٧
٣	٥

(١) عدس، عبد الرحمن، و توق، محي الدين، **المدخل إلى علم النفس**، دار الفكر، ط٣، ١٩٩٥م، ص ٨٨، و جاسم محمد، محمــد: **علــم النفس التجريبي**، ص ١٦٨، و إسماعيل، عزت: **علم النفس التجريبي**، وكالة المطبوعات، الكويت، ط١، (د. ت) ص ٢٠١-٢٠٥.

(٢) صورة للكلب، في كتاب علم النفس التجريبي، ص ١٤١.

٤	٦
٥	٣
٦	٢,٥
٧	لا لعاب
٨	لا لعاب

ويمكن أن نخلص إلى القول في تجربة بافلوف بأَنَّهُ أجرى تجاربَهُ في المختبر عن ظاهرة الهضم الهامّة بالنسبة للتعلُّم، عندما لاحظ نزولَ لُعابِ الكلب عند رؤيته الرّجل الذي يُقدّم له الطعام، مما أدّى له هـــذا، إلى دراسة عميقة عن المُخِّ وأثرهِ في التعلم. وتتخلص تجربة بافلوف التي تهمنا فيما يلي:

- أحضَرَ كلباً وعَوَّده على الموقف التجريبي، والاطمئنان لألفته له وللمكان، ودرّبه على الوقوف على مِنضدة (طاولة) مربوطاً بحزام، ثم أجرى له عملية تشريحية، بأن أوصلَ الغددَ اللعابية بأنبوبة حيثُ يسيل الُّلعاب.
- قامَ بِدقِّ جرس، للتأكد من أنَّ الجرس وحدَهُ لا يُحْدِثْ أثراً ولا يتسبَّبُ في إنزال اللعاب.
- أعاد التجربة، فدقَّ الجرسَ قبل إطعامه الطعام مباشرة، فلاحظَ نزولَ كمية من اللعاب، ثم كـــرّر ذلك عِدّة مرات.
- بعد تكرارِ التجربة، كان دقُّ الجرسِ وحدَه كافياً لنزول اللعاب.
- أصبحَ الجرسُ بَعْدَ ذلك **مثيراً شرطياً** يُحْدِثُ استجابة للكلب.

ولاحظ بافلوف أنه بتكرار دقِّ الجرس بدون تقديم الطعام لفترات طويلة ينطفئ المثير الـــشرطي، وهذا الذي عُرِفَ بالانطفاء (Extinction) [(١)].

وعليه فإن من أهمِّ المبادئ التي توصَّل إليها بافلوف، وتعرضُها كُتُبُ علم النفس هي التي ذكرهـــا الجاحظ بالمعنى، وإن لم يُسمِّها بمصطلحاتها الدقيقة الحالية وهي: "التدعيم والانطفاء والتعمـــيم والتمييـــز والتكرار"[(٢)].

على أن توافر المعدات الطبية، والإمكانات التجاربية، ودقة ملاحظة بافلوف، وتَخَصُّصَهُ الدقيق في الغدد اللعابية والهضمية وتقدُّمَ العصْرَنة مَكَّنتْهُ من أن يطوِّرَ نظريةَ الاشتراط، ويتتَّبعَ نظريةَ التَّعَلُّمِ الشرطي، لَتَخْلُصَ في النهاية، إلى دور فسيولوجي للقشرة الدماغية التي من واجبها الربطُ الازدواجي المزجي والدورُ الإشاري للتكيّف مثل صوت الجرس كمثير إشراطي، وحاول تحديد مراكز الوظـــائف المختلفـــة علـــى

(١) دويدار، عبد الفتاح محمد: **أسس علم النفس التجريبي**، ص ٢٧٥-٢٧٦.

(٢) جاسم محمد، محمد: **علم النفس التجريبي**، ص ١٦٩.

الدّماغ[١].

٥. خاتمة.

أبرزتِ الدراسةُ أهميةَ "كِتابِ الحيوان" للجاحظ، كتاباً متخصّصاً في علم االحيوان من بين (٢٧) سبعة وعشرين كتاباً لـ" اثني عشر مصنفاً عاصروا الجاحظ، توفي منهم قبله عشرة كما ّبينه الجدول في الدراسة، غلب على دراساتهم الطابع المعجمي والبحث اللغوي٠.

واستوقفتْ تجربةُ صديقِ الجاحظ عن الكلب باحثين أشارا إلى أهمية التجربة عنده،دون أن يدرساها، فأشغرا للباحث محاولةَ درس هذه الظاهرة.

وأفرزتْ هذه الدراسةُ وسائلَ من البحث العلمي للجاحظ، بدأت بالملاحظة المتأنيّة، والمسحِ الاجتماعي، بطبقات من المجتمع، عَنَوا بأمر الحيوان المتنوّع، فنقلوا للجاحظ ملاحظاتِهم عنه، فأجرى الجاحِظُ تجاربَ عملية، على بعض الحيوان في حدود إمكاناته، وقدّم تقاريرَه عنها سلباً وإيجاباً. أمّا أبرزُ ما في تجارب الجاحظ في هذا المجال، فتجربةُ صديقه على الكلب، وملاحظاتُهُ عنه، التي انبثقت منها خمسة مبادئ هي: **التدعيم والتعميم والتمييز والتكرار والانطفاء**، التي أشار إلى معناها دون أن يحدّدها باللفظ، وهذه هي مبادئ علم النفس التجريبي الحديث، أدرجها العالم الروسي بافلوف على كلب درَّبهُ في عهده. لقد بدأ تجاربه بالملاحظة الدقيقة للعاب الكلب، عند تقديم الطعام إليه، وانتهى بنظرية الارتكاس الشرطي التي عُدّ بِحَقٍّ رائدَها، على أنَّ الجاحَظ- رحمه الله- شرح بإسهاب الانتباه الغريزي للكلب بأسلوب أدبي ممتع، ودقيق، مشوب بأسلوب علمي، قاعدته الكبرى، دِقَّةُ الملاحظة، في تجربة صديقه، على كلبين محبوسين في حجرتين مختلفتين، وفي زمنين مختلفين، يرومان فتح باب الحجرة، كلما اشتما رائحةَ اللحم، أولاً وسَمِعا إحداد السكين بأخرى ثانياً من طبّاخ عهداه يقدِّمُ لهما الطعام، ولّما لم يتقدم لهما الطعام، في الوقت المناسب، أو لم يَشُمَا رائحة اللحم، لَمْ يكترثا بإحداد السكين بالأخرى، لأنهما عرفا أن ذلك ليس بشيء، فأبرز ما يسمّى المثير الطبيعي (رائحة اللحم) والمثير الشرطي (إحداد سكين بأخرى من طبّاخ عائد من السّوق لتوّه) واستجابة الكلبين، لوجود المثيرين حقاً، أما إحداد السكين المثير الشرطي دون تقديم اللحم وشم رائحته فشكّل عند الكلبين انطفاء، وعرفا أنّ ذلك ليس بشيء.

(١) عاقل، فاخر: **مدارس علم النفس**، ص ٢٧٩- ٢٨٤.

الشكل والمضمون معياراً نقديا في الشعر العربي في شبه القارة الهندية الباكستانية

د. الحافظ عبد الرحيم محمد حنيف الشيخ *

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٠٦/٥/٨ تاريخ القبول: ٢٠٠٦/١٠/١٦

ملخّص

يتضمن البحث تعريف المنطقة المعنية بالدراسة، وخصائص الأدب العربي في شبه القارة الهندية الباكستانية، والنشاطات الأدبية فيها. ودراسة الدواوين مع ذكر لنماذج بعض الشعراء، ومصادرهم، و البسط النظري للمختارات التي تم تحقيقها،وطبعها باللغة العربية، كما أن فيه دراسة في الشكل والمضمون معيارا نقديا لما أنشد ودون من نشاطات ومجهودات في الأدب العربي بشبه القارة الهندية الباكستانية وجانب عرض المادة لغة ومعنى مع الإشارة إلى الاهتمام بالشعر العربي المحقق ، والمنهج المتبع لكل أديب شاعر. وينتمي الشعر العربي في الأغلب للحياة الإنسانية والاجتماعية، والفضيلة الإنسانية، والمدائح النبوية، والنسيب والتشبيب وحسن الأخلاق وحسن السلوك.

Abstract

The Form and Content as a Critical Criterion of Arabic Poetry in the Indo-Pak Sub-continent

Dr. Al-Hafiz A. al-Sheikh

This article introduces to the reader Arabic poetry composed in the Sub-continent, particularly the poets of great reputation, their anthologies, their interest and capability as well as the poetry and its stylistic characteristics, the various aspects as lyric eulogy of the holy Prophet (BPUH) and other moral values, provoking couplets touching directly the human and social values. The researchers try in a brief manner to explain this phenomenon that reflects the literary trends and contribution of the sub- continent in the history of Arabic literature, with special emphasis on poetry.

* قسم اللغة العربية، جامعة بهاء الدين زكريا، باكستان.

تمهيد

المعيار هو شكل نقدي يحكم على المنتَج، وليس سهلاً أن تضعَ المعيار التام؛ لأنك لا تعرف المنتج الكامل، لكنك تضع المعيار الأمثل والأقرب إلى الحكم النقدي. والمعيار الذي نريد هو الحكم على المنتَج من الأدب العربي بشبه القارة الهندية الباكستانية، يعني المكتوب باللغة العربية، رُغم نظرة الباحث إلى المكتوب بغير العربية وينتمي للعربية فكراً وانتماءً بأنه يمكن عدُّه أدبا عربيا، إنما جرت عادة الأدب النقدي المقارن أن يحكم على لغة النص في انتمائه، وأن يقارن على أساس اللغة. ثم يعمد البحث إلى وصف الأدب العربي في شبه القارة الهندية الباكستانية وصفاً يتناسب مع الشائع المكتوب/أو المسموع /أو المقروء/أو المتحدث بـه: تمشياً مع مهارات اللغة العربية الأربع: الكتابة والاستماع والقراءة والتحدث. ويسير البحث جنباً إلى جنب مع تلك المهارات، وهو يحدّد النشاطات الأدبية في شبه القارة؛ فيكون المعيار النقدي كما يريده البحث هو تلك العلاقة المتبادلة بين اللفظ والمدلول بثبات كلمة على التعبير دون غيرها، أو إضافة مفردات مرادفة تزيد المعنى جّدة. وهو ما يقصده النقد بالبواعث الإبداعية التي دعت لاستخدام لفظ أو آخر(١).

إن النماذج التي يقدمها البحث هي نماذج فنية إبداعية مكتوبة باللغة العربية، وتنقل حدثاً ما بلغة فنية نَقلت الأفكار وحددّت التراكيب ونطقت بالفعل/الحدث العربي اللغوي. وذلك سيكون المعيار النقدي الأول بنظر الباحث: أي معيار الحدث العربي اللغوي المنطوق بالفعل. ويعادل هذا ما عُرف بالنقد العربي بقضية اللفظ، ثم يأخذ البحث معيار المعنى وهو التابع لقضية اللفظ - من خلال معيار القبول في أذهان المتلقين. ويرتبط هذا المعيار بالمجال الفكري الذي يبثه المبدع في نصِّه. وللعربية أصول في المعنى تعود إلى أصول اللفظ فيها وإن تشعبت معاني ألفاظها فهي تعود لجذرٍ أصيلٍ يربط معاني متعددة في مركز واحد يكشف عن الدور الذي تقوم به الاستعارات الفكرية في تحديد اللفظة أولاً، والمعنى ثانياً. وقد أعاد النقاد الدور الفكري الذي تقوم به الألفاظ والمعاني إلى مجموعة عوامل نسبة للمنهج النقدي الذي يُدرس من خلاله النص كالمنهج النفسي، أو التراثي، أو الأسطوري... وهكذا. وسيقف البحث عند معيارية ما يستخدمه المبدع في شبه القارة الهندية الباكستانية من ألفاظ ومعاني إلى جانب المنهج المتبع في عرض الأفكار.

طبيعة الأدب العربي في شبه القارة

يمثل الأدب العربي عنصرا دينياً في شبه القارة الهندية الباكستانية، ومظهرا بارزاً من مظاهر الثقافة العربية الإسلامية. ويعني بالأدب العربي في المنطقة كل ما كُتب ودُوِّن باللغة العربية كعلم التفسير والحديث وأصوله والفقه وأصوله واللغة والأدب والمعاجم والنحو والصرف والعروض والبلاغة والشعر والكلام والمنطق والفلسفة والعقيدة والطب والجغرافية والفلكيات والأسفار والموسوعات والطبقات والرجال.

---

(١) يُنظر ستيفن أولمان: **دور الكلمة في اللغة**، ترجمة: كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة- مصر، ط:١، ١٩٧٥، ص ١٥٧، و١٥٧.

مما لاشك فيه أن شبه القارة الهندية قد أنجبت نخبة طيبة من كبار العلماء والأدباء الذين كان لهم أثر بالغ في المحافظة على الشريعة والدعوة الإسلامية الغراء، والذين بذلوا جهودهم المضنية لصالح الأمة المسلمة وسعادتها، وقد تركوا لنا ذخيرة ضخمة من كتب التراث العربي الأصيل في كل فنّ ولون، وما وصل إلينا من هذا التراث الغالي جزء ضائع؛ وإن كثيراً من أعمالهم العلمية و الأدبية ومؤلفاتهم العلمية النادرة قد طارت بها العنقاء، ومنها ما وُجد و حُقِّق وطُبع.

ومن المعلوم أن الصلة اللسانية بين شبه القارة والبلاد العربية كانت قائمة منذ زمن قديم، بدأت الهجرات من شبه القارة إلى البلاد العربية والإسلامية، وكانت هذه المنطقة موضع غزوات وهجرات حققها أقوام وشعوب في قديم الزمن وحديثه، فأدّى ذلك إلى اختلاط شديد مع من كانوا يسكنونها من قبل؛ لأن كل من نزل بها من الأقوام والملل أثّر في الثقافة واللغة والتقاليد والآداب.

نشأة العربية في شبه القارة الهندية

نشأت العربية في شبه القارة الهندية بتحرك قوافل العرب التجارية، ومنهم الذين استقرّوا في الهند ومنهم الذين رحلوا إلى البلاد العربية فقد تأثر أهل الهند باللغة العربية. لقد بدأ تأليف الكتب على أوسع نطاق في هذه المنطقة فأخذ العلماء يؤلفون كتبا كثيرة باللغة العربية وغيرها كالفارسية والأردية، ولكن يهمني هنا أن أذكر المؤلفات العربية في العلوم المختلفة، و منها مطبوعة ومنها مخطوطة.

انتشار العربية في المنطقة

اتسعت رقعة اللغة العربية بعد تكوين الدولة الإسلامية اتساعاً كبيراً، فمع الفتوحات الإسلامية بدأت الهجرات العربية إلى المناطق المفتوحة، ومع ازدياد الهجرات بدأ استخدام اللغة العربية في هذه المناطق، ومهّد هذا لانتشار العربية في هذه المناطق والأقاليم..... وهاجرت القبائل العربية واستقرت في الأمصار المفتوحة داخل معسكرات، ثم أدَّى اختلاط العرب الوافدين مع السكان الأصليين إلى تعريب المناطق المفتوحة بدرجات متفاوتة(١).

ولما كانت اللغة العربية هي لغة الدين الإسلامي والثقافة العربية والإسلامية فقد انتشرت في مناطق لا تسودها العربية، إذ ارتبط الإسلام بحفظ قدر من القرآن الكريم هو الحدّ الأدنى الضروري للصلاة، وحفظ هذه الآيات مرتبط أساساً بقراءة الخط العربي، ومن ناحية أخرى كان على الدعاة من مواطني البلاد المفتوحة قراءة كتب الفقه الإسلامي بالعربية، ومن أراد أن يتعمق فيه كان عليه أن يدرس شيئاً من العلوم العربية كالنحو والصرف والبلاغة(٢).

(١) حجازي، محمود: **علم اللغة العربية /** طبعة الكويت، ١٩٧٣، ص٢٣٩- ٢٤٠.

(٢) **المرجع السابق** ص ٢٤٤- ٢٤٥.

مكانة العربية في شبه القارة

لم يترك الفتح العربي الإسلامي أثره في مجال السياسة والمجتمع والفن المعماري فحسب، بل ترك آثاراً خالدة باقية في أفكار أهل الهند مع محمد بن القاسم، فقد أقاموا بالسند، وأوجدوا فيها حركة دينية، وساهموا مساهمة كبيرة في تنشيط حركة الحديث وعلم الفقه، بينما كان جنوب الهند على صلة وثيقة بالبلاد العربية عن طريق التجارة، فقد حمل إليه التجار العرب إسلامهم ومذاهبهم الفقهية، ووفد على الهند أعلام الأدب والشعر(١).

فأشعلوا الكلمات الشعرية والأدبية لأهل البلاد مما أدى إلى ظهور أدباء وشعراء في اللغة العربية من أبناء الهند أنفسهم، وتفجرت ينابيع العلوم العربية في الهند، وأنشئت مدارس كثيرة على غرار مدارس الحجاز ودمشق وبغداد والقاهرة، فظهر في الهند العدد الكبير من المحدثين والفقهاء والأدباء والشعراء.

خصائص الأدب العربي في شبه القارة

يتميز الأدب العربي في شبه القارة بالقيم الدينية والثقافة الإسلامية خاصة في النثر العربي، كما يتميز الشعر العربي بما اقتبسوه من آيات كريمة وأحاديث نبوية. وتناول الشعراء موضوعات جادة تتمثل غالباً بالدنيا الفانية والحياة الإنسانية والاجتماعية، والفضيلة الإنسانية، وحسن الأخلاق وحسن السلوك، والمدائح النبوية، ومناقب الصحابة. وتناول الأدباء ظروف العصر السياسية والدينية، كما تناولوا موضوعات قصصية وروائية. وأغلب ما كتب كان في العلوم الشرعية كالتفسير والحديث والفقه. ومن أوائل شعراء شبه القارة:

أبو عطاء أفلح السندي (م١٣٨ه/٧٥٦م)، ولد بالكوفة وتربّى هنالك وكانت التجارة سائدة بين العرب والهند، فهاجرت العرب إلى الهند وأقاموا بها وكان أبو عطاء منهم. وأورد أبو تمام بعض أشعاره في باب الحماسة، يقول:

ذَكَرْتُكِ والخَطِّيُّ يَخْطِرُ بيننا
وقد نَهَلتْ منا المُلَقَّفة السُّمْرُ
فوالله ما أدري وإني لصادقٌ
أداءٌ عَرَاني من حبابك أم سِحْرُ
فإن كان سِحْراً فاعذريني على الهوى
وإن كان داءً غيره فَلَكِ العُذْرُ

وكما أورد في باب المراثي أشعاره التي أنشدها أبو عطاء في رثاء يزيد بن عمر الذي قتله المنصور في

(١) الندوي، محمد إسماعيل: **تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية**، ط:١ دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، ص ٤٥، ٦٦، ٦٨، ٦٩.

مدينة واسط، ويقول:

عَشِيّةَ قام النائحاتُ وشُقِّقَتْ
جيوبٌ بأيدي مَآتمَ و خُدودُ
فإن أُمْسِ محجورَ الفَنَاء فربما
أقام به بعد الوفودِ وُفُودُ
فإنك لم تَبْعَد على مُتَعهدٍ
بلى كل من تحت التراب بعيدُ

ومن قصائده:

إذا المرءُ لم يَطْلُب معاشاً لنفسه
شكا الفقرَ أو لاَمَ الصديقَ فَأَكثرا
وصار على الأدنين كَلاًّ وأوشكَتْ
صلاتُ ذوي القُربى له أن تُنْكرا
فسِرْ في بلاد الله والتمسِ الغنى
تعشْ ذا يَسَارٍ أو تموت فَتُعْذَرَا
وما يدرك الحاجات من حيث تبتغي
من الناس إلا من أَجَدَّ وشَمَّرا
وكيف ينامُ من يَعِشْ دون لائمٍ
وكيف ينام الليل من كان مُعْسِرا (١)

وفي العهد الغزنوي ظهر الكثير من أدباء العربية والفارسية في الهند، واشتهر مسعود بن سعد الـــذي ألف بالعربية والفارسية والهندية، وكذلك أبو العطاء بن يعقوب الغزنوي (م ٤٩١هــ/١٠٩٧م) (٢).

هو من أشهر شعراء العصر الغزنوي وله قصيدة نعتية قالها مقلداً الأعشى منها:

وهل أعبدَ الدُّنيا الدَّنيةَ أَعْبُدا
وفضْلُ إلهي ماجَ كالبحر مُزْبدا
وأعطى جباناً لا يحيطُ بِعَدِّهِ

(١) السندي، أبو العطاء، **ديوانه**، وطبع بتحقيق : نبي بخش بلوش، مدينة حيدرآباد السند ١٩٦١م، ص ١٤.

(٢) انظر نماذج من أشعاره في **أبجد العلوم** : نواب صديق حسن خان القنوجي، طبع هند ، ص٨٩٠.

حساباً عطاءُ ألفِ عامٍ مرددا[١]

وكذا من نماذج شعره:

لله جار عصابةٍ ودَّعْتُهُم
والدمعُ يَهْمي والفؤادُ يهيمُ
قد كان دهري جنةً في ظِلِّهم
ساروا فأضحى الدهرُ وهو جحيمُ
كانوا غيوثَ سماحةٍ وتكرُّمٍ
فاليوم جفني بعدهمْ مَغْمومُ
رحلوا على رغمي ولكن حبهم
بين الفؤاد المستهامِ مُقيمُ
قد خانهم صرف الزمان لأنهم
كانوا كراماً والزمانُ لئيمُ
طَلَّقْتُ لذَّاتي ثلاثاً بَعْدَهُمْ
حتى يعود العِقْدُ و هو نظيمُ
الله حيث تَحَمَّلوا جار لهم
والأمن دارٌ والسرورُ نديمُ
والعيش غَضٌّ والمناهلُ عذبةٌ
فالجوّ طَلْقٌ والرياحُ نَسيمُ[٢]

وكما اشتهر من شعراء هذا العصر مسعود بن سعد بن سلمان اللاهوري، وهو أول من برع في العلوم العربية من أهل الهند، وأكثر من الشعر وله ديوان ولكنه طارت به العنقاء ومن شعره:

ثق بالحسام فعهده ميمون
أبداً وقل للنصر "كن فيكون"[٣]

ومن المعروف أن اللغة العربية كانت هي اللغة الرسمية في العصر الغزنوي، وعلى إثرها عربت

---

(١) اللكهنوي، عبد الحي الحسني: **الثقافة الإسلامية في الهند**، مطبوعات المجمع العلمي العربي - دمشق، ص ٨٠، **وتاريخ أدبيات مسلمانان باك و هند، (عربي أدب)**، جامعة البنجاب، ١٩٧٢، ص ٨.

(٢) اللكهنوي : **نزهة الخواطر**، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الدكن- الهند،١/٨٥.

(٣) **المصدر السابق: ١/ ١٠٥- ١٢٥**، واللكهنوي : **الثقافة الإسلامية في الهند**، ص ٧٥.

المصطلحات الفارسية(١).

- أمير خسرو (٦٥١- ٧٢٥ه/١١٦٥- ١٢٢٤م) واسم ولده سيف الدين الذي هاجر من ما وراء النهر في عهد جينغيز خان إلى الهند، وأقام بموضع قريب من دهلي فتزوّج بابنة عماد الملك. وبدأ ينشد الشعر في أيام شبابه فسرعان ما اشتهر شاعرا باللغتين: العربية والفارسية، وكان يحب الموسيقى، كما أن أشعاره مبعثرة في كتابه: " خزائن الفتوح". وله ديوان " غرة الكمال" وطبع بتحقيق الأستاذ منير الحسن العابدي بلاهور. وكان خسرو ماهرا بالعلوم العربية من النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والعروض والقافية، ومن مستخرجاته نوع في البديع.

و من نماذج شعره:

يا عاذلَ العُشَّاقِ دعني باكياً
إنَّ السكون على المحبِّ مُحَرَّمُ
من بات مثلي فهو يدري حالتي
طول الليالي كيف بات مُتَيَّمُ(٢)

وكما أنشد أمير خسرو بن سيف قصيدة في مدح السلطان علاء الدين، يقول:

في مهجتي سكَنَتْ محبتُها كما
مُدحَ المليكُ المستعانُ الأعظمُ
أعني علاء الدين سلطانَ الوَرَى
ملكاً تولَّد من سلالةِ آدم
عين الحياء بل عينه عين الحَيَا
يمُّ الندى بل كفُّه عين اليمِّ
من جوده الفياض قد يحكى إذا
نَعَبَ الغرابُ على رمي الحاتم
ما كان يعطَشُ سيفه بقُرَابه
إلا ويسقى من كؤوس جَمَاجِمِ
رشح لمدحتك العلية خسرواً
بالشعر ليس كمثله في العالَمِ

---

(١) انظر : **فهرس المصطلحات العربية**، ص٧٠- ٧٦.

(٢) اللكهنوي : **الثقافة الإسلامية في الهند**، ص ٧٦.

كن بالخلود على الأرائك قاعداً
فأنا أخُصُّك بالبقاء الدائِم[١]

وفي عهد المماليك بالهند ازدهرت العربية وألفت كتب قيمة في الفقه والتفسير، وأنشئت المدارس على نظام المدرسة النظامية ببغداد، والأزهر بمصر وكان الطلبة يدرسون التفسير والفقه والنحو والأدب والعلوم الفلسفية مباشرة من خلال الكتب العربية بالإضافة إلى بعض الكتب الفارسية[٢].

العربية في الهند في عهد المغول

أما اللغة العربية في عهد المغول فقد تراجعت كثيراً، وبدأت الفارسية والسنسكريتية والتركية تزاحمها مكانتها، إذ أصبحت العربية لغة الدين والثقافة الإسلامية، بينما الفارسية أصبحت اللغة الرسمية ولغة الأدب والشعر.

ومن أشهرعلماء تلك الفترة:

- الشاه ولي الله المحدث الدهلوي (١١١٤هـ- ١١٧٦هـ) صاحب المؤلفات الشهيرة مثل: المسوى من أحاديث الموطا، والقول الجميل، والخير الكثير، وفتح الخبير، ومن أهم كتبه العربية: حجة الله البالغة، وديوان الشعر، وله قصيدة معروفة أنشدها في المديح النبوي بالمدينة المنورة وكان عمره ٣٦سنة، وهي"أطيب النغم في مدح سيد العرب والعجم". ومنها:

فَمَنْ شاء فليذكر جَمالَ بُثَينة
ومن شاء فليغزل بحب الزَّيانبِ
سأذكر حبي للحبيب محمدٍ
إذا وصفَ العشاقُ حبَّ الحبائبِ
وأذكرُ وجداً قد تَقَادَمَ عهدُهُ
حواه فؤادي قبل كون الكواكبِ
يبدو محياه لعينيّ في الكرى
بنفسي أفديه إذاً والأقاربِ
ويدركني في ذِكْرِهِ قشعريرةٌ
من الوَجْد لا يحويه علم الأجانب
وأُلفِي لروحي عند ذلك هِزَّةً

(١) ديوانه: **" غرة الكمال"** بتحقيق منير الحسن العابدي، طبع بلاهور، ص٦٣.
(٢) الندوي، محمد إسماعيل: **تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية**، ص ١٨٠ وما بعده.

وأُنسا ورُوحاً دون وثبة وَاثبِ
وصلى عليك الله يا خير خلقِهِ
ويا خير مَأْمولٍ ويا خير وَاهبِ
ويا خير من يرجى لكشف رَزِيّةٍ
ومن جودُهُ قد فاق جُودَ السحائبِ
فأشهد أن الله راحم خلقه
وأنّك مفتاح لكَنزِ المواهبِ
وأنّك أعلى المرسلين مكانةً
وأنت لهم شمسٌ وهم كالثواقب
وأنت شفيعٌ يوم لا ذو شفاعةٍ
بِمُغْني كما أثنى سواد بن قارب
وأنت مجيري من هموم ملمةٍ
إذا أنشبت في القلب شر المخالب
فما أَنَا أخشى أَزْمَةً مدلهمةً
ولا أنا من ريب الزمان براهبِ
فإنّيَ منكم في قلاعٍ حصينةٍ
وحدٍّ حديدٍ من سيوف المُحارب
وليس ملوماً عيٌّ صبٍّ أصابَهُ
غليلُ الهوى في الأكرمين الأطائب(١)

- السيد غلام علي آزاد البلكرامي (١١١٦هـ- ١٢٠٠هـ/ ١٧٨٥- ١٧٠٢ م) سبط عبد الجليل، وله تصانيف كثيرة ومن أشهر كتبه العربية:" سبحة المرجان في آثار هندوستان" وفيه أربعة فصول: الفصل الأول في ما جاء من ذكر الهند في التفسيروالحديث.الفصل الثاني في ذكر علماء اللغة العربية في الهند وإنجازاتهم العلمية. والفصل الثالث في المقالات. والفصل الرابع في ذكر العشاق والمعشوقين. وطبع بتحقيق الدكتور محمد فضل الرحمن الندوي بجامعة عليكره. والشجرة الطيبة، وشفاء العليل، وتسلية الفوائد، وله سبعة دواوين بالعربية سمّاها "السبعة السيارة"، و قصيدة في وصف أعضاء المعشوقة من الرأس إلى القدم سمّاها " مرآة الجمال"، وله قصيدة مزدوجة من البحر الخفيف سمّاها " مظهر

(١) **أطيب النغم في مدح سيد العرب والعجم**، مطبعة المجتبائي، الهند ١٣٠٨ه، ص ٤٠- ٤٣.

البركات". وقد بلغ مجموع أ شعاره أحد عشرألف بيت.

ومن نماذج شعره:

شأنُ المحب عجيبٌ في صبابتــهِ
الهجرُ يقتلُهُ والوصل يحييـــهِ
لولاه ماشاقه عَرْفُ الصَّبا سَحَراً
و لم يكن بارق الظلماءِ يشجيهِ
يا جارةً هيجتْ بالنصح لوعتَهُ
بحق مقلتـِهِ العبــراء خَلِّيــه
إليك يا رشأ الوَعْثاء معذرة
أأنت عن رشأ البطحاء تُسْلِيهِ
لَوَائمي قَطَعَتْ أكبادهن متى
رأينه في كمال الحسن والتِّيْهِ
إنَّا صواحــبُ أكْبادٍ مقطعــةٍ
" فذلكن الذي لمتننـــي فيه"(١)

وكذا من نماذج شعره:

لا تطلبوني في الحضـــارة إننـــي
آنستُ في الفلـــوات بالغـــزلانِ
أو تمنعون من المدامـــع مقلتـــي
فيض السحائب في يد الـــرحمنِ
قلبي كواه الأمـــس مَيْسِمُ حبِّها
لا تحسبـــوه شقائـــق النعمـــان
عشـــاق عـــزة حاضرون لعَالجٍ
من بينهم مثلـــي على الميـــدان
أحبب ولا تفعل خلاف مزاجها
خير الهوى ما كـــان بالميـــزانِ
يا أيّها اللميـــاء أنتِ طبيبتـــي

(١) اللكهنوي : **الثقافة الإسلامية في الهند**، ص ٧٨.

هل تطفئيـــن لَواعـــج الظمآنِ
كسرت فؤادَ المستهام يدُ النـــوى
إن تجبـــري فنهايـــة الإحســـان
أَهـــدي إلى جرح المتيم مـــرهماً
جبر الكسير أم نجابـــة الإنســـان
أنا في جوارك للعناية راقـــب
رسم الكرام رعايـــة الجيـــران
شرفٌ مجيئك يا سعاد فشَـــرِّفي
بيتَ الفقير بدولـــة الإتيـــان
لا تطرديني عن جنابَك جفـــوةً
أنا مخلصٌ في الســـر والإعـــلانِ
أو تشتمين على رؤوس جماعـــة
لا تفضحي المسكين في الإخوانِ
لازمت سُدَّتَـــكِ السِّنيةَ مـــدةً
فجعلتِني في قاعـــة النسيـــانِ
شاهدتُ سَاجِعَةً على يد صائد
نُقلتْ إلى قفص من الأَفْنَـــان
قالت تفجّر دمعها متسلسِـــلاً
هذا جزاء العيش في البستـــانِ
آزاد في ســـوح النبـــي المجتبـــى
متمتـــع بالـــروح والريحـــان(١)

- محمد باقر آكاه له مؤلفات عربية، ومن أهمها: "تنوير البصر والبصير في الصلاة على النبي البشير النذير، ونفائس النكات"، وكما أن له مقامات على نمط مقامات الحريري.
- الشاه رفيع الدين بن ولي الله الدهلوي شاعر عربي ممتاز، وله قصائد غراء، وتخميس على بعض قصائد أبيه وله مصنفات في العلوم العربية ونموذج أشعاره التي ردَّ فيها الشاعر على قصيدة ابن

(١) راجع : **الديوان الثاني** له: مطبعة لوح محفوظ، حيدرآباد الدكن- الهند، ص ٥٠- ٥١.

سينا المعروفة" **قصيدة الروح**":

يا أحمدُ المختارُ يا زيـــنَ الورى
يـــا خاتماً للرســـل مـــا أعلاكا
يا كاشـــفَ الضرّاء من مستنجـــدٍ
يا منجيـــاً في الحشْر من والاكـــا
هل كان غيرك في الأنام من استوى
يروق البراق و جاوز الأفلاكـــا
واستمسك الروح الأمين ركابه
في سيره واستخـــدم الأملاكا(١)

- الشيخ باقر بن مرتضى المد راسي (١٧٤٥- ١٨٠٥م)، وله العشرة الكاملة ، وفيها عشر قصائد على نهج المعلقات السبع، كما أن له ديوان الشعر العربي في الغزل والنسيب ، وله مقامات علـــى مثال الحريري ومن شعره:

قد صَيَّرني الهوى جَـــذّاذا
يا ليتني مِتُّ قبل هذا(٢)

ومن نماذج شعره: (*)

في كاظمـــَةَ أو ذي سَلَـــمِ
قد ضل فـــؤادي بالسَّـــدِمِ
كالريح يَجّـــول بمســـرحه
كالنار يلـــوح على عَلَـــمِ
بالمدمـــع يحكـــي دَلَّ غاديـــة
بالزَّفـــر يشبـــه بالضُّـــرَمِ
قد أبصـــر فيهـــا بَهْكَنَـــةً
بالنجـــم رزت بالمتبســـم
لو واجـــه غرتهـــا شمـــس

(١) شيخ محمد إكرام : **موج كوثر، فيروز ستر**- لاهور،١٩٦٨٩م، ص٧٤، واللكهنوي : **الثقافة الإسلامية في الهند**، ص ٨٠.
(٢) اللكهنوي : **الثقافة الإسلامية في الهند**، ص ٨٠.
* الأبيات مختلة عروضياً في الأصل المنقول عنه.

لغدت أسفارهـــن النـــدم
لو شافـــه طرفهـــا قمـــر
لتحيـــر في جنـــح الظلـــم
لله من قســـاوة مهجتهـــا
لا تحسب كالحناء دمـــي*
مرت وأصارتنـــي جنفـــا
كالأثر طريحـــا في اللقـــم
لا أدري أيـــن محلتـــه
فبقيت حسيـــراً كالوجـــم
لا تنظر قـــط إلى أسفـــي
لا تسأل حالـــي في الألـــم
آكـــاه تناهـــت حيـــرته
أدركه إلهي بالكـــرم(١)

- الشيخ عبد الله الجيتكر الكوكني، وهو من أجلِّ الشعراء في المنطقة، ومن نماذج شعره :

دَعْ ذِكْرَ رباتِ الكليل
وذرِ الصَّبابـــــة والغَـــزَلْ
القلـــب مشغـــول فمـــا
للعشق فيـــه مـــن محـــلْ
يا للرجـــالِ ألـــم تَـــرَوا
مـــاذا بقومكـــم نَـــزَلْ
هل عُـــدّة مـــع عِـــــدّة
نرجـــو بهـــا دفع الجَلَـــلْ
قد عمنا الـــداء العُضَا
لُ مـــن البطالة والكَسَـــلْ
داء أخـــــلّ بعقلنـــا

(١) اللكهنوي : **نزهة الخواطر**، ٧/٩٤.
* هذا البيت لا يستقيم عروضياً.

والجسمُ منه قد اضْمَحَلْ
داءٌ به فَسَدَ المزاج
وفي الطباع بدا الخللْ
داء لقد سلب القوى
عنا وعُوِّضَ بالفَشَلْ
خَطْبٌ تعطل منه إحسا
ساتنا والخطب جَلْ
خطب أباد جموعنا
حتى وصفنا بالفَشَلْ
خطب لهول وقوعه
الولدان والسهم اشتَعَلْ
خطب تزلزت الأرا
ضي منه واندكّ القُلَلْ[1]

بدأ الإنجليز مع سيطرة تامة القضاءَ على اللغة الرسمية للمسلمين، وتقلصت المدارس الإسلامية تماماً، وتراجعت إلى داخل المساجد وخلت المدارس العربية والإسلامية، وهجرها الدارسون والمعلمون[2].

رغم ذلك أنشئت المدارس العربية الدينية في أنحاء المنطقة؛ وذلك لسدّ الغزو الفكري البريطاني حيث أدرك العلماء أن السيطرة الإنجليزية قوية على الثقافة العربية الإسلامية ، وشعوراً بهذه الخطورة أنشأ هولاء الأعلام المؤسسات والمدارس والجامعات والمجامع والمعاهد التعليمية لتطوير الآداب الإسلامية العربية، وتأليف الكتب العلمية الأدبية ولا تزال هذه المؤسسات تقوم بتأدية واجباتها نحو إنعاش اللغة العربية وآدابها في أرجاء منطقة من الهند وباكستان وبنغلاديش وسريلانكا. وأما الشهادة التي تمنحها هذه الجامعات بعد إكمال المقررات الدراسية " الشهادة العالمية في العلوم الإسلامية والعربية " وهي تعادل ماجستير الجامعات الحكومية.، كما أقام علماء الصوفية والمشائخ حلقات الذكر والفكر والدعوة والإرشاد محافظة على الهوية الإسلامية العظيمة للأجيال القادمة، فقد ظهر علماء وأدباء كتبوا باللغة العربية، من مثل :

- الشيخ فضل حق خيرآبادي (١٣٧٨هـ/١٨٦١م) الذي اشتهر بقصيدة نشرت في رسالته " الثورة الهندية" وتحكي القصيدة تاريخ ثورة التحرير سنة١٨٥٧م، وله قصائد أتى فيها بكل لفظ لطيف

(١) اللكهنوي : **نزهة الخواطر** :٢٩٢/٨.

(٢) **المصدر السابق:** ٢٩٢/٨.

ومعنى بديع، وكما أنه أكثر فيها من تجنيس واشتقاق، ومن نماذج شعره:

فؤادي هائمٌ والدمعُ هامِي
وسهدي دائمٌ والجفن دامِي
وقلبٌ ما فتى بجوىً ولــوعٌ
ولوع في اضطــراب واضطرامِ
ودمعٌ بل دَمٌ صرف جرى من
نياطي ساجماً أيَّ انسجــام
وطرف أرمد يؤذيه غَمْــضٌ
وليلٌ سرمد ساجي الظَّــلام
طويل لا يقاس به ظلام
فساعته كشهرٍ بل كَعَــامِ
حِمَامي حاضرٌ والوجْدُ بادٍ
وجسمي ذابلٌ والشوقُ نامِ(١)

ومن نماذج شعره أيضاً:

لا تنصبغ بهوى بيض الأماليــدِ
فأحمرُ الموت في أجفانها الســودِ
في غمزِ ألحاظها فَتْكُ الأسود وإن
حاكين ريم الفلا بالطرف والجِيدِ
قد خابَ من غازل الغزلان يأملها
وبادَ من رام أنس الريم في البيدِ
ذَرِ المرا شف واستعذابهــن ففي
تلك العذاب عذاب غير مردود
فلا يروقنّك لينٌ في معاطفها
إن القلوبَ لمن أقسى الجلاميدِ
يبكي المعشوق بعبرات مُورّدةٍ
ما في مباسمها من حسن توريد(٢)

(١) اللكهنوي، **نزهة الخواطر** :٣٧٦/٧.
(٢) **المصدر السابق**: ٣٧٦/٧.

ومن شعره:

إن لم تصبْ نظرةً من أعيـــن نُعْسِ
فمن نفى النوم من عينيك في الغَلَسِ
من استنام إليها سهدته وكـــم
ممن أنامتـــه من يقظان مُحْتَـــرِسِ(١)

- فيض الحسن السهارنبوي (١٨١٦- ١٨٨٧م) ولد في سهارنبور، ومن تلاميذه: سرسيد أحمد خاء، و العلامة شبلي والشيخ حالي. وكان الشيخ فيض الحسن من الشعراء المفلقين، لم يكن في زمانـــه نظير في معرفة الفنون الأدبية وكان قد درّس في كلية الألسنة الشرقية بجامعة البنجاب — لاهـــور وعمل رئيساً للغة العربية فيها وشرح المعلقات السبع، كما شرح ديوان الحماسة باللغة الأرديـــة وسماها " فيضية"، وله كتاب في أيام العرب، وأنشد شعراً بالعربية والفارسية والأردية. وله ديوان الشعر العربي.

ومن نماذج شعره:

ما لي بذي الأرض من والٍ ولا راقِ
ولا طبيـــــبٍ ولا آسٍ ولا راقِ
ولا حميـــم ولا جارٍ و لا سَكَـــنٍ
ولا نديـــمٍ ولا كـــاسٍ و لا ســـاقِ
أبكـــي عليَّ بكاء غير منقطـــع
فلينظر الناس أجفاني وآماقـــي(٢)

وكذا من شعره:

إذا حسن سلمى ليـــس عنها برائهـــا
فيا حبها زادني جـــوىً في جوانحـــي
أرى حبها روحي وقد سِيْطَ من دَمِي
فما دمت حيّاً ليس عنـــي ببـــارحِ
كان فؤادي جذوة من جذى الغضـــا
وعيني غَرْبٌ من غُـــرُوْبِ النَّوَاضِـــحِ(٣)

(١) اللكهنوي، **نزهة الخواطر** : ٣٧٦/٧.
(٢) اللكهنوي، **الثقافة الإسلامية في الهند**، ص ٨٣.
(٣) **ديوانه**، ص ١٤ مطبعة أختر الدكن — الهند ١٣٣٤هـ.

- الشيخ محمد عابد بن أحمد علي بن يعقوب السندهي (م١٢٥٧هـ/١٨٤١م)، كانت له يد طولى في علوم شتى كالطب والنحو والصرف وخاصة في الفقه الحنفي، ومن مؤلفاته:طوالع الأنوار على الدر المختار، الوصول إلى أحاديث الرسول، المواهب اللطيفة على مسند الإمام أبي حنيفة، وله أشعار جياد[١].

- القاضي طلا محمد البشاوري وكان من أشهر الشعراء في الهند، وله أسلوب رائع في الشعر، وهو صاحب الديوان وطبع ديوانه تحت إشراف مكتب رابطة الأدب الإسلامي العالمية في باكستان.

ومن أشعاره:

قَاسَى بمحملِ سَلْمَى وارتقى شَجَني
أسْقَمَ الهجرُ في أشواقها بَدَني
أضْنَى الهوى بيتي في العشق يا أسفاً
لولا عليَّ من الأثواب لم تَرَني
فما لجفنيَ لم تنظر إلى أحَدٍ
وما لقلبيَ لم يرغبْ إلى سَكَنِي
قد زاد همي وعيلَ الصَّبْرُ أجمعه
إذ طافني طيفُها وافترَّ عن وَسَنِي[٢]

وأما الأدب العربي في العصر الحديث فتطور في موضوعات مختلفة، فقد ظهر عدة شعراء، ومنهم:

- البروفيسور محمد حسين إقبال، وله قصائد عربية طبعت أيضا تحت إشراف مكتب رابطة الأدب الإسلامي العالمية في باكستان
- البروفيسورالدكتور جميل قلندر بالجامعة الوطنية للغات الحديثة- إسلام آباد
- الشيخ شبير أحمد العثماني كان من أنبغ علماء شبه القارة في القرن العشرين الميلادي توفي في باكستان عام ١٩٤٩م، ودفن بكراتشي وله دور بارز في نشر العلم والأدب والثقافية الإسلامية، كذلك له إسهام في إنشاء باكستان ممّثلا من قبل جمعية العلماء الباكستانية واشتهر مفسرا وخطيبا ومحدثا وشاعرا. وقد وصل عدد مؤلفاته بالعربية والأردية إلى عشرين، ومن أهمها:فتح الملهم في شرح صحيح مسلم. وهو صاحب الديوان لكنه لم يطبع،وكانت أشعاره منتشرة في مؤلفاته وخطبه.

(١) اللكهنوي، **نزهة الخواطر**، ج٧، ص٤٤٩.
(٢) اللكهنوي : **الثقافة الإسلامية في الهند**، ص ٨٣.

الشكل والمضمون في الشعر العربي المكتوب معيارا نقديا

سردَ البحث نماذجَ فنية من الشعر المكتوب في شبه القارة الهندية الباكستانية التي تميزت بالقيم الدينية والثقافة الإسلامية لفظاً ومضموناً، ولم تخرج بشكلها على التقليد العربي في كتابة البيت الشعري ذي الشطرين، ولعل الشطرين يمثلان رؤيا وإحساساً ولغةً إبداعية تميَّزَ بها الشعر العربي قديما وما زال يتمثل بروحها الآن. والإحساس ابتكار شعري يتزامن في الماضي والحاضر، والمعاني المتضادّة في نظر الشاعر تنقله إلى الرؤيا التي تُحدث شبكةً قادرة على أن تنظِّم المتنافرات في بَوْتَقَة من التناسق، ثم تسير به تلك الرؤيا إلى اللغة وهي هنا لا تقف عند اللغة/اللفظة والجملة والأسلوب والبناء والتركيب، بل تتسع للحديث عن لغة ما لا يُتحدّثُ بها في المجالس، أو قل في المجالس السريعة.. فتصل ذروة المعاني الفريدة لتلك الكلمات عند استنطاقها وهو يختارها على نحو خاص يرتضيه شكلاً لنصّه. وهذا المعيار الشكلي الأول(١)، وهو معيار الرِّضى شكلاً؛ وقد رضي الشعراء لشعرهم الشكل العربي المكتوب والمقروء لفظا وشكلا مرسوما. فهل سيصل بهم إلى عالمية يقصدونها؟

ربما تجتمع قُوى الشكل جميعها في قوة واحدة هي الأقوى بين ما يشكّل نصَّ الشاعر من لفظ وتركيب وبناء وسياق وأسلوب، ألا وهي قوة الخيال. وهذا معيار في المضمون. وسيقف البحث عند المضامين التالية كمعيار نقدي نقيس معه الشعر.

القيمة الفنية للأدب العربي وأثره في تعزيز الانتماء

وتلك القيم هي:

١. الخيال
٢. الرمز
٣. القيمة الجمالية

والخيال الذي يبعثه شعراء شبه القارة الهندية الباكستانية ينطلق من حواسهم المستَغَلَّه في أساليبهم الشعرية، فتشبيهاتهم واستعاراتهم وكناياتهم تنطلق من الشعور الموجود عندهم بين طرفي المادة البلاغية عندهم. وربما يتسبب هذا الشعور عندهم في نقل الكلمة من مجال إلى آخر من مجالات الحواس. وتلك تقوم بدور مهم في الصورة الفنية الشعرية المتشكلة. وإذا انتقلت إلى تراسل الحواس وجدناه بانتقال الصور التعبيرية من مجال إلى مجال في الحواس. ثم الانتقال بين الدال والمدلول بنوع من الخصائص المشتركة... انظر:

(١) انظر : عبد القادر الرباعي: **تشكل المعنى الشعري**، النادي الأدبي لثقافي، مجلة علامات في النقد، جدة- السعودية شوال١٤١٣هـ/مارس١٩٩٣م،العدد(٧)، المجلد: (٢) ، ص٧٧-٧٩.

الهوى كيف يصير سحراً
والخَطِّيُّ يخطِرُ بيننا
والدمــوع الجامـــدة
وكيــف ينــام الليــل
والدنيــا تصيــر معبودة
والدمـــــع يَهْمَـــى
والفـــؤاد يهيـــــم
والزمان الخائن... وهكذا.

أما الرمز فهو نتاجُ شعورٍ إنساني. وهو: أي الرمز موجود- ربما- في أغوار الشعور الرمزي الإنساني منذ القدم وعلى الشاعر المبدع استثارته. وقد تتابعت رموز شعرائنا نحو حيرة أنفسهم أمام عجزهـا عـن الكمال والسعادة والمطلقة، وحاجتها للطمأنينة.. وقد نجد ذلك في الرمز الخاص بالمديح النبوي، في قـول الشاه الدهلوي:

وأذكر وجداً قد تقادم عهده
حواه فؤادي قبل كون الكواكبِ
يبدو محيا لعينيّ في الكرى
بنفسي أفديه إذاً والأقاربِ

الرموز تكمن في النفس(١)، مع صراحتها التي يرغب الذهن إلى التطلع إلى ما وراء المحسوس فيها وهو الباطن الغائر في العمق. فتحتاج النفس إلى معرفة غامض الأمور أيضا، ولا تقف عند ما يمليه العقل من معنى تجاه ما نعرف أو لا نعرف، ولنعيد الخير والكنز والشمس المنيرة لهذا الكون.

والحكمة والدين يتضحان في المعروف الشائع في أدب شبه القارة الهندية الباكستانية العربي؛ إذ مـع الحكمة والدين يأتي دور الصورة الجمالية التي تدور مع وجود الحكمة والدين ففي شعرهم(٢):

١- التأثرية
٢- الذاتية
٣- العاطفية

فانظر إلى قول غلام علي آزاد البلكرامي:

(١) زكي طليمات : **في المذهب الرمزي**، مجلة الرسالة، القاهرة- مصر-١٩٣٨م، العدد(٢٥٢)، ص ٦٤٧- ٦٤٨.

(٢) مصطفى الصاوي الجويني : **معالم النقد الأدبي**، منشأة المعارف، مصر ، د.ت، ص ٤٧٢.

أنا مخلص في السرِّ والإعلان

لتستشف من التأثر له في تلك الصور قبل هذا الإخلاص وبعده فهو مكويٌّ بميسم حبها.

ولكنه عشق ذاتي من نمط خاص، إنه عشق:

العزة للحياة الحاضرة- لا الذلة والمهانة.

وتتجلى العاطفة في العفيف الكبير(يريد العفة) في معاني العطف والحب والشفقة والإخاء، كما في قوله:

- أنت طبيبتي،
- كسرتِ فؤاد المستهام،
- شرف مجيئك يا سعاد،
- فجعلتني في قاعة النسيان..

إضافة إلى ما يحمله المعنى من رموز تحمل ثقافة دينية إسلامية وتبعث في الرمز إيحاء مفاده العزة للإسلام والمسلمين ولا عزة لهم بغيره.

والقيمة الجمالية تحمل جانبين:

١. الفكر الذي تحمله تلك المعاني.
٢. الشاعرية التي تحملها مادة وأشياء تلك المعاني.

فهذا أحمد المختار، خاتم الرسل. وكاشف الضراء، ومنجيا في الحشر وهو بذلك يشير إلى الروح التي منها يستقي نصُّه(١).

(١) انظر : مصطفى ناصف: **نظرية المعنى في النقد العربي، الأندلس**، بيروت، ١٩٨١، ط: ٢٩ ، ص ١٢٤.

التوازي العروضي: مراثي الخنساء أنموذجاً

د. خلف خازر ملحم الخريشة *

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٠٦/٦/٢٥ تاريخ القبول: ٢٠٠٦/١٠/١٦

ملخّص

يحاول الباحث استجلاء العلاقة بين التوازي بمفهومه العام (Parallelism)، والتوازي العروضي (Prosodic Parallelism) بوجه خاص نحو إظهار علاقة وزن النص بقافيته. هذه العلاقة لا تتأتى إلا من خلال تآلف البنى الصوتية الفونولوجية، والصرفية المورفولوجية، والتركيبية النحوية وفق تتابعية انسجام البنى التفعيلية العروضية لتشكل نسيج البيت الشعري.

ويظهر التوازي العروضي بشكل جلي حينما يعي الشاعر دور التوزيع التبايني للأصوات والمقاطع الكلامية التي تتيح له البنى الصوتية -عندما تتداخل مع البنى العروضية- إيجاد التوازي العروضي إبان بناء النص الشعري؛ لأن التوازي بمفهومه العام يعني التكرار اللغوي والتركيبي حالة بناء النص الشعري.

يورد الباحث نصاً تطبيقياً لشعر الخنساء حيث أدركت الشاعرة -في جل مراثيها لأخيها صخر- أن الصوت آلة اللفظ التي ينطق بها الفم، ويحتفظ بها قطعاً كلامية تظهرها الشاعرة من خلال تتابع المقاطع الصوتية للبحر البسيط، لتؤكد ارتباط البنى العروضية مع البنى الصوتية، والصرفية، والتركيبية عند هندسة الإيقاعات العروضية وفق ظاهرة التوازي.

Abstract

Prosodic Parallesim : al-Khansa's Elegies as a Study Case

Dr. Khalaf Kh. Al-Khreishah

The researcher tries to explore the concept of parallelism in general and prosodic parallelism in particular to show the relation between poetic meter and rhyme. This relation occurs through cohesion between phonological, morphological and syntactic structures that affect the prosodic foot, which is the main pillar in the poetic line.

Prosodic parallelism can be observed when a poet perceives the phonetic and phonological structure of syllabic components. This helps him/her to follow the hidden relations among phonemes in prosodic structure and enables him/her to explore prosodic parallelism of the moment i.e., when the poet composes his poem. The general concept of parallelism refers to linguistic and structural frequency while building the poetic text.

This study explores al-Khansa' poetics with respect to parallelism-based prosody. The poetess emphasizes parallelism in most of her allegoric mourning on her brother Sakhr by repeating sounds as an instrument of words to be offered by the poetess's vocal cords. The poetess preserves these sounds as syllabic entities which can be seen in l-Basit meter. In other words, the poetess combines phonemic and prosodic morphology in a prosodic geometrical rhythm through parallelism.

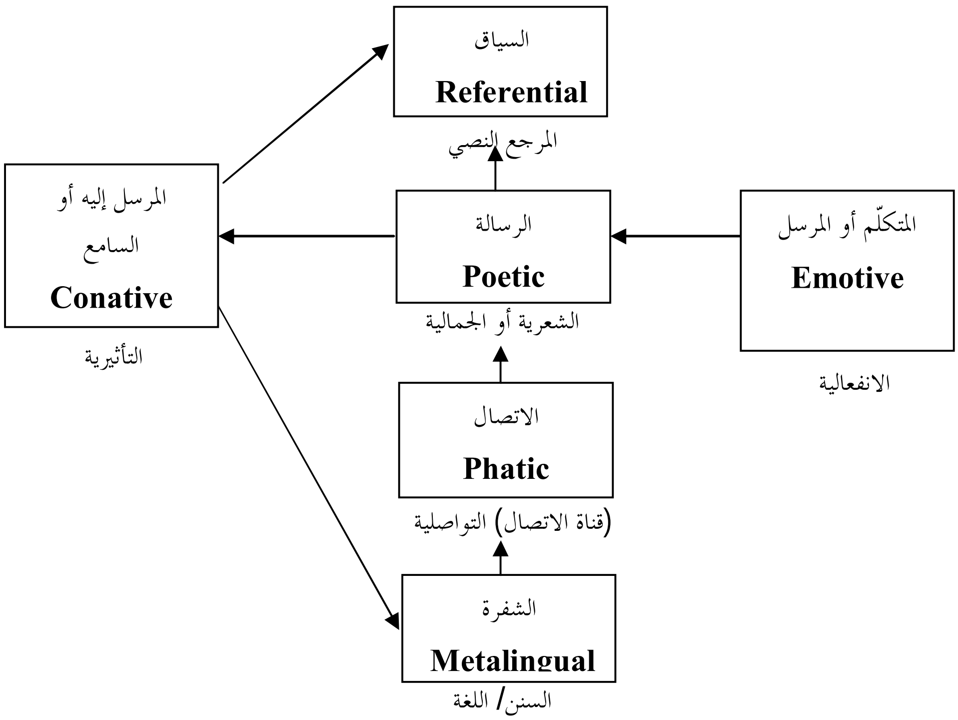
---

* قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة اليرموك.

المقدمـــة

يحاول الباحث استجلاء مفهوم التوازي Parallelism وعلاقتـــه بـــالتوازي العروضـــي Prosodic Parallelism وفق مفهوم البنى الأساسية المشكلة للتوازي العروضي، كالصوت، والوزن، والقافيـــة الـــتي تتداخل مع البنى التركيبية والصرفية والدلالية للنص الشعري العربي، وتظهر صورة التوازي جلية واضحة في ظاهرة السجع والتكرار، والمحسنات اللفظية عند بناء هندسة عروض الشعر العربي.

وحدّد رومان جاكوبسون R. Jakobson الوظيفة الشعرية للنص الشعري من خلال استجلائه العلاقة بين المرسل (أوالرسالة) ، والمرسل إليه، وبيّن أنّه حتى تكون الرسالة فاعلة فإنها تقتضي سياقاً أو مـــضموناً تؤطّره مرجعية تهدف إلى تفكيك الشفرة اللغوية وفهمها سواءٌ أكانت الرسالة لفظية مفهومة التأويـــل، أم يمكن تأويلها وفهمها باستخدام المعجم والقواعد اللغوية والنحوية المشتركة بين المرسل والمرسل إليـــه، أي بين مرسل الشفرة ومحللها، ثمّ تنقل الرسالة عبر قنوات اتصال فيزيائية –ذات رباط نفسي- لتبحث عـــن المماثلة والمشابهة، وتسمح للمرسل والمرسل إليه بدخول دائرة الحديث واستمرارية الاتصال(١) ، ويوضّـــح الشكل (١) العلاقة بين المرسل والنص والمرسل إليه .



شكل (١)

(١) Taylor, Talbot. J., ***Linguistic Theory and Structural Stylistics***, Oxford: Pergamen Press, 1980, P. 48.

فالاتصال هنا هو تبادل شفرة بين المرسل والمرسل إليه لتنتج نصاً منطوقاً أو مكتوباً، يخصص لذات مصغية يلتمس من خلالها المتكلم إيصال الشفرة إلى السامع بواسطة رسالة منطوقة أو مكتوبة خلال قناة اتصال مسموعة أو مكتوبة (نص مكتوب) في مقام معين، ولذلك لا يفهم السياق إلا عبر الاتصال[١]، أما الشفرة فإن أي سنن شعري يقتضي ضمناً صيغتين لنظمه:

أولاهما: الاختيار، ويكون بين متغايرين يتضمنان احتمالية الإبدال والتماثل والاختلاف.

ثانيهما: التأليف، وهو ذاته السياق، فأي رمز أو أي وحدة لغوية صغرى تبقى وحدة منفصلة تتكون من مجموعة رموز متوالية ، وحينما تتآلف مع غيرها تجد سياقها الخاص ضمن وحدة لغوية أكثر تعقيداً ، ويحدث تآلفها مع الرموز الأخرى[٢].

وتظهر أهمية الاختيار والتأليف بتأكيد جاكوبسون أن وظيفة الشعر "إسقاط مبدأ المماثلة من محور الاختيار على محور التأليف"[٣]، فبمجرد ما يتحول التماثل من محور الاختيار إلى محور التأليف فإنه يساهم في بناء متواليات شعرية ؛ لتنتج التوازيات الصوتية ، والعروضية ، والدلالية حتى تنتج البنية الشعرية مستندة في توازيها على: الجناس، والسجع، والتصريع، والتقسيم، والتطريز، والترصيع، والمقابلة، والتقطيع، وعدد المقاطع أو التفاعيل، والنبر، والنغم، والقافية، ومن هنا تظهر بنية التوازي الذي يمكن أن يتخطى حدود البيت الشعري لكي يستوعب القصيدة كاملة[٤] .

إن بنية الشعر هي بنية التوازي المستمر يحتل فيها التوازي المترلة الأولى بالنسبة للفن الأدبي، وهذه البنية هي تأليف ثنائي يمحو - بطريقة ما- عدم التساوي بين طرفين، لأن النصوص الشعرية تتكون من أبيات شعرية تتألف بدورها من طرفين أو ثلاثة أطراف متوازية ، فإما أن يتأتى التوازي بتكرار الطرف الثاني لمعنى الطرف الأول بألفاظ مختلفة (التوازي الترادفي) أو أن يتأتى بتكرار فكرة مغايرة (التوازي التضادي)، أو أن يقوم بنقل المعنى إلى مسافة زمنية أبعد في البيت الشعري ثم تتم عملية إكماله (التوازي التركيبي)، وتساهم هذه البنى المتآلفة من التوازي في انتظام السطر الشعري[٥] .

"فالتوازي هو نسق من التناسبات المستمرة يتحقق في مستوى تنظيم وترتيب البنى التركيبية، وفي

(١) الموسى، خليل ، **قراءة الخطاب الشعري المعاصر**، عالم الفكر، ع٣، م٢٩، يناير-مارس، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠١، ص٢٠٨.

(٢) Talbot. J. Taylor, ***Linguistic Theory and Structural Stylistics,*** Oxford: Pergamon Press, 1980, P. 55.

(٣) ياكبسون، رومان ، **قضايا الشعرية**، ترجمة محمد الولي ومبارك حنوز، المغرب: دار توبقال للنشر، ١٩٨٨، ص٧.

(٤) **المصدر السابق**، ص٨.

(٥) Beeston ,A. F. L., ***Parallelism In Arabic Prose***, J. A. L., V. 5, Leiden: E. J. Brill, 1974, P. 134.

مستوى تنظيم وترتيب الأشكال والمقولات النحوية، وفي مستوى تنظيم وترتيب المترادفات المعجمية، وفي مستوى تنظيم وترتيب تأليفات الأصوات والهياكل التطريزية، وهذا النسق يكسب الأبيات المترابطة بواسطة التوازي انسجاماً واضحاً، وتنوعاً كبيراً في الآن ذاته"(١) .

"والتوازي نوعان: التوازي الموسوم –الذي يتعلق ببنية البيت والإيقاع (تكرار متوالية معينة من المقاطع)، والوزن (تكرار متوالية إيقاعية معينة)، والجناس، والسجع، والقافية –وتكمن قوة هذا التكرار في كونها تولّد تكراراً أو توازياً مناسباً في الكلمات أو في الفكرة .. والتوازي الشديد الوسم: (الكلمات والمعاني بما فيها الاستعارة، والتمثيل، والتشبيه، والطباق، والتباين، والمغايرة.

و يظهر التوازي في البنية الفونولوجية، والصرفية، والتركيبية، والمعجمية للغة"(٢). ففي الشعر مثلا يملي النظم نفسه بنية الموازاة، وتحدد البنية العروضيةً، والوحدة الموسيقية، وبنية التكرار البيت، ومكوناته الوزنية، والتوزيع المتوازي لعناصر النحو والدلالة اللفظية(٣).

أما التوازي العروضي ؛ فهو استثمار جيد للوزن يساهم في تمتين الروابط النظمية للغة الشعرية ، ويُعنى بانتظام النص الشعري بجميع أجزائه من خلال سياقات جزئية قائمة على التساوي والتماثل تلتئم في سياق كلي، و يُعنى بكل علاقات التكرار، والمزاوجة، والتآلف، والتنسيق ... الخ، ويهتم كثيراً بالتنسيق الصوتي، والإيقاع المتناغم، سواء عن طريق اللفظ المفرد، أو الجملة المركبة، أو التناسق الدلالي(٤)، ويؤكد التوازي العروضي أن القصيدة هي ذلك التردد الممتد بين الصوت والمعنى، وأن التوزيع التبايني للمقاطع العروضية يشكل انتظاماً على مساحة القصيدة يجعلنا حساسين إزاء كل تجليّات التوازي الصوتي والنحوي(٥) ، حيث تخلق البنى الصوتية والوسائل العروضية ظرفاً مناسباً للإحساس بالموازاة الشعرية، فالعروض يخلق نوعا من التوازي الخفي بين متواليات متوازية من خلال المماثلة بين مستويات اللغة كافة(٦).

العروض بين الاختيار والتأليف:

حدّد الخليل بن أحمد الفراهيدي المعنى اللغوي للشعر بقوله: "والعروض، عروض الشعر لأن الشعر يعرض عليه، وهو فواصل الأنصاف"(٧) ، وإنما سمّي الشعر شعراً لأن الشاعر يفطن له بما لا يفطن له غيره

---

(١) ياكبسون، رومان ، **قضايا الشعرية**، ص١٠٦.

(٢) **المرجع السابق** ، ص٤٨.

(٣) ياكبسون، رومان ، **أفكار وآراء حول اللسانيات والأدب**، ترجمة فالح صدام الامارة وعبد الجبار محمد علي مراجعة مرتضى باقر، ط، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٠، ص١٠٨.

(٤) الشيخ، عبد الواحد حسن ، **البديع والتوازي**، ط١، القاهرة: مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م، ص٣٠.

(٥) ياكبسون، رومان ، **قضايا الشعرية**، ص٤٦.

(٦) ياكبسون، رومان ، **أفكار وآراء حول اللسانيات والأدب**، ص١٠٩.

(٧) الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد (ت ١٧٠هـ/٧٨٦م) ، **كتاب العين**، ج١، تحقيق. مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي بغداد: دار الرشيد، ١٩٨٢، ص٢٧٥.

من معانيه"[١]، وعليه فإن العروض "ميزان الشعر يعرف به مكسوره من موزونه، كما أن النحو معيار الكلام، يعرف به معربه من ملحونه"[٢]. فما حسن في الكلام حسن في الشعر[٣]. فإذا كان النثر – بما له من تقاسيم اللفظ والمعنى والنظم- اتسع النطاق في الاختيار فيه .. وكان الشعر قد ساواه في جميع ذلك وشاركه، ثم تفرّد عنه بأن كان حدّه[٤] أن يكون "قولا موزونا مقفى يدل على معنى"[٥]، فالقول دال على أصل الكلام الذي هو بمنزلة الجنس الشعري، وموزون دال على ما يفصل الشعر عن النثر إذ إن من القول ما هو موزون وغير موزون، ومقفى.

ففصل بين ماله من الكلام الموزون قواف، وبين ما لا قوافي له ولا مقاطع، ودلالة القول الموزون المقفى على معنى يفصل ما جرى من القول على قافية ووزن مع دلالة على معنى مما جرى على ذلك على غير دلالة على معنى[٦]. "وبهذا ازدادت صفات الشعر عن النثر التي أحاط الحدّ بها بما انضم من الوزن والتقفية إليها، وازدادت الكُلَف في شرائط الاختيار فيه، لأن للوزن والتقفية أحكاماً تماثل ما كانت للمعنى واللفظ والتأليف"[٧]. إن الاختيار العروضي يهيء التطابق الآلي بين البنية الخارجية للفظ، وهي البنية الصوتية، والبنية الداخلية له، وهي البنية الدلالية، أي تداخل الصوت بمعناه كي يصبح الأثر الصوتي محفزاً لتصوّر المعنى[٨].

وإذا كانت وظيفة الشعر "إسقاط مبدأ المماثلة من محور الاختيار على محور التأليف"، "فإن صناعة العروض موقوفة على معرفة جهات التناسب في تأليف بعض المسموعات إلى بعض، ووضع بعضها تالية لبعض أو موازية لها في الرتبة، ومعرفة طرق التناسب في المسموعات والمفهومات لا يوصل إليها بشيء من علوم اللسان إلا بالعلم الكلّي في ذلك، وهو علم البلاغة الذي تندرج تحت تفاصيل كليّاته ضروب التناسب والوضع"[٩]. فالعملية الشعرية تجري بين مستويين من اللغة في دائرة التأليف العروضي، وهما:

---

(١) **المصدر السابق** ، ص٢٥١.

(٢) الصاحب بن عباد (ت ٣٨٥هـ/٩٩٥م)، **كتاب الإقناع في العروض وتخريج القوافي**، ط١، تحقيق : إبراهيم الأدكاوي، القاهرة: مطبعة التضامن، ١٩٨٧، ص٥٧.

(٣) القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق (٣٩٠-٤٥٦هـ)، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ج٢، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الجيل، ١٤٠١هـ، ١٩٨١، ص٣٠.

(٤) المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن (ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م)، **شرح ديوان الحماسة**، تحقيق : عبد السلام هارون، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٢، ص٨.

(٥) البغدادي، قدامة بن جعفر الكاتب (ت ٣٣٧هـ/٩٤٨م) ، **كتاب نقد الشعر**، تصحيح س. أ. بونيباكر، بريل: ليدن، ١٩٥٦، ص٢.

(٦) انظر **المصدر السابق**، ص٢.

(٧) المرزوقي أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن (ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م)، **شرح ديوان الحماسة**، ص٨.

(٨) هلال، ماهر مهدي ، **في محور الأسلوبية والتراث: الجرس مكوناً دلالياً**، مؤتمر النقد الأدبي الثاني، اربد: جامعة اليرموك، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٤٠٨-١٩٨٨، ص٥.

(٩) القرطاجني، أبو الحسن حازم (ت٨٤٠هـ/١٢٨٥م)، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء** ، تحقيق : محمد الحبيب بن الخوجه، تونس: دار الكتب الشرقية، ١٩٦٦م، ص٢٢٦-٢٢٧.

المستوى الصوتي، والمستوى الدلالي، والموازاة الصوتية الدلالية تؤثر في بنية اللغة الشعرية[١]. فتركيب الشكل العروضي المجرّد، وتداخله مع الشكل الدلالي يولّد بالضرورة إحساساً بتشكيل مزدوج غامض بالنسبة لكل من ألف الوزن واللغة المعطاة، وتسبب الاتفاقات والاختلافات بين الشكلين السعي نحو اكتمال بنية التأليف[٢].

إن العروض بنية لغوية مجردة، وإن إخضاع الشعر لها هو تحويل بنية اللغة المجردة إلى لغة ذات دلالة، فنغم القصيدة العروضي يظهر جلياً من خلال إيقاعية اللغة التي تتأتى بتآلف الموسيقى الخارجية (العروض) والموسيقى الداخلية (الدلالة)، ويؤدي هذا التآلف والتأليف إلى تنظيم الكلمات في أبيات شعرية يمكن رؤيتها من خلال الجمل اللحنية التي تعكسها المقاطع والتفاعيل العروضية للبحور الشعرية؛ والتي لا تبعد كثيراً عن كونها إيقاعاً موسيقياً، فالعروض هو الأداة التي تتم بها صناعة الشعر.

ويلعب العروض دوراً مميزاً في سياقية التأليف، وهذا ما أوضحه أبو هلال العسكري في كتابه: "الصناعتين" حين قال: "وإذا أردت أن تعمل شعراً فأحضر المعاني التي تريد نظمها، وأخطرها على قلبك، واطلب لها وزناً يتأتى فيه إيرادها، وقافية يحتملها، فمن المعاني ما تتمكن من نظمه في قافية، ولا تتمكن منه في أخرى، أو يكون في هذه أقرب طريقاً وأيسر كلفة من تلك"[٣].

التوازن العروضي:

أكد رومان جاكوبسون علاقة التوازن العروضي بعلم العروض حين قال: "استذكر الآن بدهشة محاولاتي الواهنة لكتابة الشعر من خلال موازين عروضية غريبة كنت أخترعها في حينه"[٤]، وكأنه يشير إلى أن "العروض علم بأصول يعرف بها صحيح أوزان الشعر أي النظم وفاسدها"[٥] ثم أشار في موضع آخر إن الأصوات الصامتة هي التي تشكل نوعاً من الميزان الموسيقي[٦] والعروض العربي إنما جاء انطلاقاً من خصائص النظام الصوتي للعربية التي تتجلى في أن الصوت الصامت مع الصائت يمثل مقطعاً صوتياً ثنائياً[٧]. حيث أدرك الخليل بن أحمد الفراهيدي في معجمه الصوتي "العين" أهمية الناحية الصوتية في بعض الحروف

(١) كوهن، جان ، **بنية اللغة الشعرية**، ترجمة محمد الولي ومحمد العمرين المغرب: دار توبقال للنشر، ١٩٨٦ن ص٥١-٥٦.

(٢) ياكبسون، رومان ، **قضايا الشعرية**، ص٤٥.

(٣) العسكري، أبو هلال (ت ٤٠٠هـ/١٠١٠م) ، **الصناعتين** تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٥٢، ص١٣٩.

(٤) ياكبسون، رومان ، **أفكار وآراء حول اللسانيات والأدب**، ص١٥.

(٥) الدمنهوري، محمد (ت ١٢٨٨هـ/١٨٧١م) ، **الإرشاد الشافي على متن الكافي في علمي العروض والقوافي**، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٥٧، ص١٩.

(٦) ياكبسون، رومان ، **أفكار وآراء حول اللسانيات والادب**، ص٣٩.

(٧) دك الباب، جعفر ، **الصوامت والصوائت في العربية**، **اللسان العربي**، م ٩، ج١، الرباط، ١٩٨٢، ص١٦.

وائتلافها حينما يتجلّى الذوق اللغوي في نسيج الكلمة(١).

وذهب جاكوبسون إلى ضرورة وجود تناظر ذاتي بين نظام الصوائت، ونظام الصوامت، وأنه يجب أن تبرز التشابهات البنيوية والاختلافات بين هذين الصنفين(٢)، واعتمد الفراهيدي في وضعه علم العروض على عنصرين أساسيين: الحرف المتحرك، والحرف الساكن، ومن هذين العنصرين تآلفت الأوتاد والأسباب، ومن تآلف الأسباب والأوتاد تكوّنت التفاعيل، ومن التفاعيل جاء تآلف البيت والبحر الشعري، ومن الأبيات تكوّنت القصائد(٣).

وإذا كان التوازي يقوم على قاعدة التأليف والتماثل، فإن النقاد العرب أكدوا أن البيت من الشعر كالبيت من الأبنية: قراره الطبع، وسمكه الرواية، ودعائمه العلم، وبابه الدّربة، وساكنه المعنى، ولا خير في بيت غير مسكون، وصارت الأعاريض والقوافي كالموازين والأمثلة للأبنية، أو كالأواني والأوتاد للأخبية، فأما ما سوى ذلك من محاسن الشعر فإنما هو زينة مستأنفة، ولو لم تكن لاستغني عنها"(٤). وتدريج التأليف الشعري والتوازي العروضي أن يقال: الشعر مركّب من الأبيات، والأبيات مركبة من المصارع، والمصارع مركبة من أجزاء التفاعيل، وأجزاء التفاعيل مركبة من الأسباب والأوتاد والفواصل، والأسباب والأوتاد والفواصل مركبة من الحروف، والحروف منها صائتة وصامتة(٥).

إن العقلية الفذّة للخليل بن أحمد الفراهيدي التي جاءت من تمكنه في النحو والصرف والموسيقا والرياضة... الخ هي التي هيأت له إدراك مفهوم التوازي العروضي، فمعجم العين هيأ له حصر اللغة وفق مخارج الحروف وأحيازها، وهذا النظام الصوتي هو ذاته الذي جعله يطبّق نظرية التباديل والتوافيق في الرياضة على تفاعيل العروض(٦)، وهو ذاته النظام الذي هيأ له وضع الدائرة العروضية بهدف حصر أشعار العرب وفق أنماطها المختلفة، فإذا كانت الدائرة المعجمية ترصد اللغة تبعاً لمخارج حروفها وفق مفاهيم التوازي الصوتي، فإن الدائرة العروضية ترصد الشعر العربي تبعاً لانتظام الحروف بين صامت وصائت، في مقاطع عروضية تشكّلها الأسباب والأوتاد، وتوحّدها التفاعيل، وتظهرها الأبحر الشعرية أنماطاً عروضية من خلال أنموذج دوائر التوازي العروضية، ولن يغيب عن ذهننا "بأن الدائرة العروضية صفة لموصوف محذوف تقديره : الحروف الدائرة ، أو الأوتاد والأسباب الدائرة، أو التفاعيل الدائرة" (٧). والناظر

(١) عبد الرحمن، ممدوح ، **المؤثرات الإيقاعية في لغة الشعر**، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٤، ص٣٣-٣٤.

(٢) ياكبسون، رومان ، **أفكار وآراء حول اللسانيات والأدب**، ص٣٩.

(٣) أحمد سليمان ياقوت، **الأوزان الشعرية**، الاسكندرية: دار المعرفة، ١٩٩٦، ص١٦٩.

(٤) ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن (ت ٤٦٣هـ/١٠٧١م)، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ص١٢١.

(٥) الصنهاجي، أبو القاسم الفتوح بن عيسى بن أحمد (ت ٦٢٨هـ/١٢٣١م)، **شرح القصيدة الخزرجية**، مخطوط، ليدن. (١) ١٥٤ OR، ص٥.

(٦) ياقوت، أحمد سليمان ، **الأوزان الشعرية**، ص١٤.

(٧) المحلّي، محمد بن علي (ت ٦٧٣هـ/١٢٧٣م) **شفاء الغليل في علم الخليل**، تحقيق: شعبان صلاح، بيروت: دار الجيل، ١٩٩١، ص١٢٤.

إلى شكل (٢) و(٣) يمكنه أن يلمح هذا النظام المتآلف في دائرة التوازي العروضي الذي استطاع أن يهيء أنموذجاً فريداً من نوعه للبنية الشعرية العربية، وخصوصاً دور الدائرة العروضية في حفظ بنية النص الشعري.

دائرة المتفق : تكرار فعولن								
١ . البحر المتقارب:		فعو لن	فعولن	فعولن	فعولن			
٢ . البحر المتدارك:		لن	فعولن	فعولن	فعولن	فعو		
دائرة المجتلب: تكرار مفاعيلن								
١ . الهزج:	مفاعيلن	مفاعيلن	مفاعيلن					
٢ . الرجز:	عيلن	مفاعيلن	مفاعيلن	مفا				
٣ . الرمل:	لن	مفاعيلن	مفاعيلن	مفا عي				
دائرة المؤتلف : تكرار مفاعلتن								
١ . الوافر:	مفاعلتن	مفاعلتن	مفاعلتن					
٢ . الكامل:	علتن	مفاعلتن	مفا علتن	مفا				
٣ . مهمل:	**تن**	**مفاعلتن**	**مفاعلتن**	**مفا عل**				
دائرة المختلف : مركبة تكرار (فعولن مفاعيلن)								
١ . الطويل:	فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن				
٢ . المديد:	لن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن	فعو			
٣ . مهمل:		**مفاعيلن**	**فعولن**	**مفاعيلن**	**فعو**	**لن**		
٤ . البسيط:		عيلن	فعولن	مفاعيلن	فعو	لن		مفا
٥ . مهمل:		**لن**	**فعولن**	**مفاعيلن**	**فعو**	**لن**		**مفا عي**
دائرة المشتبه: مركبة ، تكرار (مفاعيلن فاعِ لاتن)								
١ . المضارع:		مفاعيلن	فاع لا تن	مفا عيلن				
٢ . المقتضب:		عيلن	فاع لا تن	مفا عيلن	مفا			
٣. المجتث:	لن	فا لا تن	مفا عيلن	مفا عي				
٤ . مهمل:		**فاع لا تن**	**مفا عيلن**	**مفا عيلن**				
٥ . السريع:		لا تن	مفا عيلن	مفا عيلن	فاع			
٦ . مهمل:		**تن**	**مفا عيلن**	**مفا عيلن**	**فاع لا**			
٧ . مهمل:			**مفا عيلن**	**مفا عيلن**	**فاع لا**	**تن**		
٨ . المنسرح:			عيلن	مفا عيلن	فاع لا	تن	مفا	
٩ . الخفيف:			لن	مفا عيلن	فاع لا	تن	مفا عي	

شكل (٢) فك الدائرة تبعاً للتفاعيل

الدائرة الأولى • •|•| :

١ . البحر المتقارب: • •|•| • •|•| • •|•| • •|•|

٢ . البحر المتدارك: •| • •|•| • •|•| • •|•| • •|

الدائرة الثانية • •|•|•| :

١ . الهزج: • •|•|•| • •|•|•| • •|•|•|

٢ . الرجز: •|•| • •|•|•| • •|•|•| • •|

٣ . الرمل: •| • •|•|•| • •|•|•| • •|•|

الدائرة الثالثة • •|• • •| :

١ . الوافر: • •|• • •| • •|• • •| • •|• • •|

٢ . الكامل: • • •| • •|• • •| • •|• • •| • •|

٣ . مهمل: •| • •|• • •| • •|• • •| • •|

الدائرة الرابعة : مركبة • •|•|• •|•|•|

١ . الطويل: • •|•| • •|•|•| • •|•| • •|•|•|

٢ . المديد: •| • •|•|•| • •|•| • •|•|•| • •|

٣ . مهمل: • •|•|•| • •|•| • •|•|•| • •|•|

٤ . البسيط: •|•|• •|•| • •|•|•| • •|•|• •|

الدائرة الخامسة : مركبة • •|•|•| •|• •|•|

١ . المضارع: • •|•|•| •|• •|•| • •|•|•|

٢ . المقتضب: •|•| •|• •|•| • •|•|•| • •|

٣ . المجتث: •| •|• •|•| • •|•|•| • •| •|

٤ . مهمل : • •|•|•| •|• •|•| •|•|• •|

٥ . السريع: •|•| •|• •|•| •|•|• •| •|•| • •| •|•

٦ . مهمل •| • •|•|•| •|•|• •| •|•| • •| •|•   •|

٧ . مهمل: •|•| •|•|• •| •|•| • •| •|•   •| • •|

٨. المنسرح: •| •|•|• •| •|•| • •| •|•   •| • •| •|

٩ . الخفيف: •|•|• •| •|•| • •| •|•   •| • •| •|

شكل (٣) فك الدائرة ، ويظهر من خلالها التوازي العروضي

ويظهر التوازي العروضي بشكل جلي في رثاء الخنساء لأخيها صخر حيث تقول في إحدى قصائدها:

إنِّـــي ذَكَـــرْتُ نَـــدَى، صَـــخْرٍ فَهـــيَّجَني   ذِكرُ الحَبِيْـــبِ عَلَـــىْ سُـــقْمٍ وأحْـــزانِ[١]

وتأخذ الشاعرة في إيراد خصائل المرثي حيث تقول:

وَرَّاءُ مَـــــشْرَبَةٍ، قَطَّـــــاعُ أَقْـــــرَانِ   طَـــــلاَّعُ مَرْقَبَـــــةٍ، مَنَّـــــاعُ مَغْلَقَـــــةٍ

قَطَّـــاعُ أوْدِيـــةٍ، سَـــرْحَانُ قِيعَـــانِ[٢]   شَهَّـــــادُ أَنْدِيـــــةٍ، حَمَّـــــالُ أَلْـــــوِيَةٍ

إن اللغة الشعرية التي تخاطبنا بها الشاعرة هي لغة انفعالية، تعتمد بشكل رئيس علـى موسـيقية الأصوات التي تمكنها هي الأخرى من أن تثير فينا انفعالات وأحاسيس لا تحصى[٣] ، حيث ذهبت الشاعرة إلى ماذهب إليه الشاعر التشيكي "ماشا" الذي أكد أن الألم هو أم الشعر[٤] . وقديماً قيل لأعرابي: "ما بال المراثي أجود أشعاركم. قال: لأنا نقول وأكبادنا تحترق"، وهذا الاكتواء بالحرقة هو الذي سـوف يلقـي بأضوائه على النص والمتلقي معاً[٥]. فالنساء أقدر من الرجال على الرثاء، لأهنّ: "أشجى الناس قلوباً عنـد المصيبة، وأشدهم جزعاً على هالك لما ركّب في طبعهن من الخور وضعف العزيمة، وعلى شدة الجزع يبنى الرثاء.." [٦].

لقد أدركت الخنساء في جلّ مراثيها أن الحروف والأصوات هي الوحدات الأساسية لمادة الفـن الشعري فالصوت هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات أو انفعالات إلا بظهور الصوت، ولن تكون الحروف والأصوات تعبيراً كلامياً إلا بالتقطيع والتأليف[٧].

وإذا كانت البنيات الصوتية تفرض جوّاً ملائماً جداً لإدراك التوازي الشعري، فليس أوفق للشعر الموزون من الخنساء التي تُنتظم في شعرها حركات الإعراب معتمدة على الأصوات الموسيقية، جاعلة إياها

(١) ثعلب ، أحمد بن يحيى الشيباني النحوي (ت ٢٩١هـ/٩٠٤م) **ديوان الخنساء**، تحقيق : أنور أبو سويلم، مؤتة: دار عمار، ١٩٨٨، ص٤١٢.
(٢) **المصدر السابق**، ص٤١٣-٤١٤.
(٣) البستاني، صبحي ، **الصورة الشعرية في الكتابة الفنية: الأصول والفروع**، بيروت: دار الفكر اللبناني، ١٩٨٦، ص٤٩.
(٤) ياكبسون، رومان ، **قضايا الشعرية**، ص١٥.
(٥) عاكوب، عيسى ، **نحو درس أسلوبي لبعض نصوص الشعر العربي**، مؤتمر النقد الأدبي الثاني، إربد: جامعة اليرموك/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم اللغة العربية وآدابها، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨، ص٤.
(٦) ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن (٣٩٠هـ-٤٥٦هـ) **العمدة في محاسن الشعر ونقده**، ج٢، ص١٥٢.
(٧) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م)، **البيان والتبيين**، ج٣، تحقيق : عبد السلام هارون، القاهرة: مطبعة الخانجي، ١٩٦٨ن ص٧٧.

تستقر في مواضعها المقرورة حسب الصائت والصامت، فالشعر بالنسبة لها مزج الأصوات بالإحساس الذي تتجلّى بنيته في البيت، فحينما قالت:

طَـــــلاَّعُ مَرْقَبَـــــةٍ، مَنَّـــــاعُ مَغْلَقَـــــةٍ شَـــــهَّادُ أَنْدِيَـــــةٍ، سِـــــرَحَانُ قِيْعَـــــانِ[١]

استطاعت أن تعبر عن أحاسيسها بالأصوات لإيمانها بأن الصوت يكتسب بنيته المعنوية عند وضع الشاعرة له في موضعه المناسب من البيت الشعري، أو من تكراره في كلمات متعاقبة قادرة على تأدية المعنى أفضل أداء[٢]. فالنسيج الصوتي للبيت السابق يتجه نحو التوازي العروضي إذ لدى الشاعرة ستة وثلاثون صوتاً مجهوراً وثمانية أصوات مهموسة، (أنظر شكل (٤)) و"إن الفرق بين الأصوات المجهورة والمهموسة مهم جداً في جميع اللغات المعروفة، فالجهر فونيم مستقل يتم بموجبه التمييز بين الأصوات، ومن ثمّ التفريق بين المعاني"[٣]. فالصوت المجهور فيه قوة الإسماع حيث تقوم فتحة المزمار بالانقباض مما يؤدي إلى اقتراب الوترين الصوتيين أحدهما من الآخر حتى ليكادان يسدّان طريق التنفّس[٤]. فالحالة النفسية للشاعرة تستدعي تغليب المجهور على المهموس من الأصوات، وهذا يؤيد ما ذهب إليه هارسون جارد H.R. Garde "إذ عدّ عملية فتح المزمار الصوتي أو إقفاله محكومة أو مسيرة من قبل الدماغ، وعليه، فتذبذب الأوتار الصوتية ينبغي أن ينظر إليه على أنه ظاهرة من النشاط العصبي الإيقاعي، الناتجة بدورها عن نشاط مماثل في خلايا الدماغ"[٥]. ولذا تؤكد الخنساء ما ذهب إليه سيبويه من أن المجهور: "حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت معه"، فارتبط الصوت بالحالة النفسية التي تعيشها الشاعرة في رثاء أخيها صخر حيث رأت أن الصوت يخدم هذه الحالة، فأجرته في السياق الشعري، ولجأت إلى تغليب صوت (النون والميم) في معظم مراثيها، ورأت أن تجمع فيه جهورية الصوت بين شدّة ورخاوة حيث تتدرج جهورية صوت النون حينما يندفع الهواء من الرئتين محركاً الأوتار الصوتية، ومتخذاً مجراه في الحلق حتى إذا وصله سد فتحة الفم، فيتسرب الهواء من التجويف الأنفي في غنّة حزينة يحدثها أثناء مروره، وتأتي الميم أشد حزناً حين يتم إغلاق الشفتين فيخرج الهواء من الأنف، والناظر إلى الملامح التمييزية للصوامت في بيت الخنساء شكل (٤) يلحظ أن الشاعرة هنا جاءت مهندسة أصوات، فبيتها الشعري جاء -كغيره من أبياتها الشعرية- منتظماً انتظاماً صوتياً ومتنقلاً بين (النون والميم) في دائرة من التماثل والتشابه[٥]، وإن هذه التكرارية تهيء للمرسل والمرسل إليه، المتكلم والسامع القدرة إلى الدخول في أعماق الكلمة الشعرية، فتكرار النون والميم والتنوين إنما يكشف عن أنين الشاعرة وحزنها، ويُبقي

(١) ياكبسون، رومان ، **قضايا الشعرية**، ص١٠٩.
(٢) ثعلب ، أحمد بن يحيى الشيباني النحوي (-٢٩١هـ/٩٠٣م) **ديوان الخنساء**، ص٤١٢.
(٣) عبد الرحمن، ممدوح ، **المؤثرات الإيقاعية في لغة الشعر**، ص٣٩.
(٤) فوزي حسن الشايب، **محاضرات في اللسانيات**، عمان: وزارة الثقافة، ١٩٩٩، ص٦٤.
(٥) **المصدر السابق**، ص٦٦.

موسيقى الأصوات والكلمات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحالة النفسية للشاعرة[١].

وتشاطر الفتحة الجهر والبعد الزمني للنون والميم والتنوين، لإحساس الشاعرة بأن الفتحة –وهي صوت لين قصير- تسمع بوضوح سمعي، وهي أوضح من الضمة والكسرة ولعل الشكل (٥) يدلّل ما نرمي إليه في بيت الخنساء إذ ورد تردد الفتحة ست عشرة مرة، وترددت الضمة أربع مرات بينما ترددت الكسرة سبع مرات، وهي بنسبة ترددها تفوق تردد الفتحة والضمة معاً، فإذا كانت أصوات اللين المتسعة أوضح من الضيقة، والأصوات المجهورة أوضح من المهموسة، فإن الشاعرة لجأت إلى كسر حدّة تعادلية المتحرك والساكن، بجعل اللام والميم والنون ساكنة لأنها أكثر الأصوات وضوحاً وأقربها إلى طبيعة أصوات اللين، وأصوات اللين أكثر ما تكون وضوحاً حينما تأتي ساكنة[٢].

	طَـــــــــلاّعُ مرقبـــــــــــةٍ، مَنّـــــــــــاعُ مَغْلَقَـــــــــــةٍ																					
	ط	ل	ل	ا	ع	م	ر	ق	ب	ت	ن	م	ن	ن	ا	ع	م	غ	ل	ق	ت	ن
شفوي	-	-	-	-	-	+	-	-	+	-	-	+	-	-	-	-	+	-	-	-	-	-
شفوي أسناني	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
أسناني لثوي	+	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
لثوي	-	+	+	-	-	-	+	-	-	-	+	-	+	+	-	-	-	-	+	-	-	+
نماري	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
طبقي	+	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	+	-	-	-	-
لهوي	-	-	-	-	-	-	-	+	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	+	-	-
حلقي	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	+	-	-	-	-	-	-
حنجري	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
مجهور	+	+	+	+	+	+	+	+	+	-	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	-	+
مهموس	-	-	-	-	-	-	-	-	-	+	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	+	-
وقفي	+	-	-	-	-	-	-	-	+	+	-	-	-	-	-	-	-	-	-	+	+	-
احتكاكي	-	-	-	-	+	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	+	-	+	-	-	-	-
أنفي	-	-	-	-	-	+	-	-	-	-	+	+	+	+	-	-	+	-	-	-	-	+
تكراري	-	-	-	-	-	-	+	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
جانبي	-	+	+	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
مطبق	+	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
شديد	+	-	-	-	-	-	-	+	-	+	-	-	-	-	-	-	-	-	-	+	+	-
متوسط	-	+	+	-	+	+	-	-	+	-	+	+	+	+	-	+	+	+	+	-	-	+
رخو	-	-	-	+	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	+	-	-	-	-	-	-	-

شكل (٤): الملامح التمييزية للصوامت

(١) **المصدر السابق** : ص٦٨.

(٢) هلال، ماهر مهدي ، **في محور الأسلوبية والتراث: الجرس مكوناً دلالياً**، ص١٣.

	طَـــــــــــــلاَّعُ مرقبـــــــــــــــةٍ،										مَنّـــــــــــــاعُ مَغْلَقَـــــــــــــــةٍ											
	ط	ل	ل	ا	ع	م	ر	ق	ب	ت	ن	م	ن	ن	ا	ع	م	غ	ل	ق	ت	ن
الحركة	+	-	+	-	+	+	-	+	+	+	-	+	-	+	-	+	+	+	-	+	+	-
السكون	-	+	-	+	-	-	+	-	-	-	+	-	+	-	+	-	-	-	+	-	-	+
الفتحة	+	-	+	-	-	+	-	+	+	-	-	+	-	+	-	-	+	+	-	+	-	-
الضمة	-	-	-	-	+	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	+	-	-	-	-	-	-
الكسرة	-	-	-	-	-	-	-	-	-	+	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	+	-

شكل (٥): ملامح الحركة والسكون

إن اجتماع الجهد، وائتلاف النون والميم واللام، وتبادلية المتحرك والساكن إنما يقودنا للتأكيد على أن الشاعرة وظفت الصوت العروضي بأتم صوره كي يماثل صوها الحالة النفسية التي وجدت عليها في رثائها لأخيها، ولإتاحة الفرصة أمام النص كي تلبس الصوت معناه في دائرة بحثها عن الأصوات التي تتيح لها مدّ صوها بما يتوافق والحالة الحزينة التي وجدت بها، وكأن اختيارها لأصواها إنما جاءت دندادت على وتر حزين بل سمفونية حزينة بدايتها الصوت الشعري.

إن التناغم الرخيم للمكونات الشعرية المتمثل في اختيار البنى الصوتية هو الذي يحدث بداية تـــأثير كبير في نفس السامع أو ما يمكن أن نسميه تأثيراً (استيريوفونيا)، فالتوزيع المنتظم للأصوات هو الذي يحوّل الظاهرة الشعرية أو الانفعالات إلى ظاهرة يمكن قياسها وتقويمها على أنها صيغة من صيغ التردد التي تهـــيء لولادة المقطع الشعري.

إن الصورة الصوتية التكرارية هي المكوّن الأساسي للنظم، وإن الجزء البارز النووي مـــن المقطـــع المكوّن لقمة مقطع ما، وتعارضه مع فونيمات أقل بروزاً هو الذي يؤدي إلى إنتاج عدد مـــن الفونيمـــات الصوتية لتشكيل أنموذج مقطعي ذي شكل واحد(١).

وإذا كانت المقاطع الأكثر رواجاً في اللغة العربية ثلاثـــة: المقطـــع القـــصير المفتـــوح، ويمكننـــا أن نشير إليه بالرمز (CV)، ومقطع طويل مفتوح ويمكننا أن نشير إليه بالرمز (CVV)، ومقطع طويل مغلق ورمزه (CVC)، وعليه يمكن تقطيع بيت الخنساء تبعاً للبنية المقطعية على النحو التالي:

طَلْ	لاْ	عُ	مَرْ	قَ	بَ	تِنْ	مَنْ	نَاْ	عُ	مَغْ	لَ	قَ	تِنْ
CVC	CVV	CV	CVC	CV	CV	CVC	CVC	CVV	CV	CVC	CV	CV	CVC

شكل (٦) المقطع

(١) انظر: ربابعة، موسى ، **قراءة النص الشعري الجاهلي**، إربد: مؤسسة حمادة ودار الكندي، ١٩٩٨، ص١٤١.

فالتوازي هنا واضح بين المقاطع الشعرية، فكل مقطع شعري في الشطر الأول يوازي مقطع شعري آخر مماثل له أو معادل له في الشطر الثاني، وإنه قائم على التشابه في البناء التركيبي للمتحرك والساكن، "فأول ما ينبغي على صاحب العروض بل والشاعر أيضاً معرفة الساكن والمتحرك، لأن الكلام كله لا يعدو أن يكون ساكناً أو متحركاً"(١) .

"فالمقطع Syllable وحدة مشتقة في التتابع الزمني للأصوات الكلامية"(٢). وإن البنية العروضية أو الإيقاعية للشعر تقترن بكيفية توزيع المقاطع في النص الشعري إلا أن التوازي العروضي يبدأ بالظهور حينما تتحول البنى الصوتية للمقاطع إلى بنى عروضية، فتحدد البنى الأساسية المكونة لعروض الشعر العربي، وعليه يمكن أن ينقل الشكل (٦) إلى الشكل (٧) فتتوحد المقاطع الثلاثة إلى مقطعين: قصير (ب) وطويل (ـــ):

طَلْ لاْ ع مر ق ب تِنْ   مَنْ نَاْ عُ مَغْ لَ قَ تِنْ

- - ∪ - ∪ ∪ -   - - ∪ - ∪ ∪ -

شكل (٧) السبب والوتد

إن إيقاع الشعر بين أسباب وأوتاد يكون منتظماً لتوزعه بين تتابع المقاطع القصيرة والطويلة(٣) إذ يحدث أكبر قدر ممكن من التماسك في تعارض المقاطع الشعرية المزدوجة مع المقاطع الشعرية غير المزدوجة(٤) . ففي بيت الخنساء ثمانية أوتاد -إذا ما أخذ بعين الاعتبار ظاهرة التشعيث التي حدثت في الشطر الثاني- تتوزّع أربعة أوتاد في الشطر الأول، وأربعة أوتاد في الشطر الثاني، ويتردد الوتد المجموع في مواقعه في البيت بين الأسباب على مسافات زمنية محددة، سببان قبله وسبب جرى عليه الخبن بعده، فالوتد المجموع (ب -) إذن مركب ثابت لا يخضع في أكثر الأحوال لمؤثرات الزحاف والعلّة. ويعد موطن ارتكاز أو نواة تركيبية في الجوهر الإيقاعي للشعر العربي.

إن موضع ارتكاز الوتد في بيت الخنساء قد ترك أثراً جلياً بارتكاز الدلالة التركيبية والعروضية حيث يتوسط ضمن مسافات زمنية سابقة (- -) ومسافات زمنية لاحقة (ب ب -) أو (- -)، وهو في نهاية البيت الشعري ويترك أثره الإيقاعي الواضح في نهاية البيت الشعري للحفاظ على البنية التقفوية للمتوالية العروضية، ومن الوتد والسبب تتشكل بنية التوازي العروضي بشكلها الأوسع، "وتسقط الوظيفة

(١) انظر: أنيس، إبراهيم ، **الأصوات اللغوية**، ط٣، القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦١، ص٣٧.

(٢) ياكبسون، رومان ، **قضايا الشعرية**، ص٣٥.

(٣) ابن عبد ربه الأندلسي، أبو عمر أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م) ، **العقد الفريد**، ج٥، تحقيق : أحمد أمين وآخرون، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٥، ص٤٢٤.

(٤) ياكبسون، رومان ، **أفكار وآراء حول اللسانيات والأدب**، ص٣٦.

الشعرية مبدأ التماثل لمحور الاختيار على محور التأليف، ويوضع كل مقطع في الشعر في علاقة تماثل مع كل المقاطع الأخرى لنفس المتوالية، وتتحول المقاطع إلى وحدات قياس"[٥٨]. "إن المتواليات التي تحصرها حدود التفعيلة تصبح في الشعر مقيسة، وتدرك علاقة بينها... وإن وزن المتواليات (التفعيلات) عبارة عن وسيلة لا تجد تطبيقاً لها في اللغة خارج الوظيفة الشعرية، وقد أعطيت في الشعر تجربة قابلة للمقارنة مع تكرار الزمن الموسيقي بواسطة التكرار المطرّد للوحدات المتماثلة لزمن السلسلة الكلامية باعتباره نظماً لهذه السلسلة يكرر كلياً أو جزئياً نفس الصورة الصوتية"[١].

إن الترتيب الثلاثي لمكونات تفاعيل الشعر العربي قد اقترن بالترتيب الزمني للموسيقا العربية فجاءت البنية الإيقاعية للتفاعيل متماشية مع الإيقاع الموسيقي فشكلت التفاعيل الخماسية (فعولن، فاعلن) ما نسبته ثلاثة متحركات إلى ساكنين (٣/٢) وهذا ما يسمى ثقيل الرّمل في الإيقاع الموسيقي، بينما شكلت التفاعيل السباعية (مفاعيلن، مستفعلن، فاعلاتن، مفاعلتن، متفاعلن، مفعولات) ما نسبته أربعة متحركات إلى ثلاثة سواكن (٤/٣) وهذا هو إيقاع خفيف ثقيل الرمل في الموسيقى العربية.

ولذا يمكن قراءة بيت الخنساء إيقاعياً (٣/٢ و ٤/٣) مكررة في الشطر الأول، و(٣/٢ و ٤/٣) مكررة في الشطر الثاني، فبناء النص الشعري تحكمه البنية الموسيقية للتفعيلة القائمة على أساس التوازي وفق نظام إيقاعي تنظم فيه البنية الموسيقية للأصوات مع البنية المقطعية للأسباب والأوتاد في تسلسل تتابعي للتفاعيل على أساس المساواة والتماثل.

ووجه حصر أجزاء التفاعيل في الخماسي والسباعي لا بد فيه من جنس السبب والوتد مع ما تقرر في علم التصريف واختصت الفاء والعين واللام بالوزن حتى يكون فيه من حروف الشفة والوسط والحلق شيء، وهذا إشارة إلى علة اختصاص كلمة (فَعَلَ) للوزن، فالفاء من الشفة، والعين من الحلق، واللام من الوسط، وجميع الحروف لا تنفك عن هذه الثلاثة[٢]. وأن أكثر ما ينتهي إليه تركيب أبنية الكلمة بالزيادة سبعة أحرف، فلزم ذلك أن الوتد لا يتكرر في كلمة[٣]، "فاختاروا من الصيغ الصرفية لاسم الفاعل أربعاً: ثلاثا منها في حالة المذكر المفرد (فاعلن، مستفعلن، متفاعلن)، وواحدة في حالة جمع المؤنث (فاعلاتن)، ومن الصيغ الصرفية لاسم المفعول اثنتين في حالة الجمع (مفاعيلن، مفعولات)، ومن صيغ المبالغة واحدة (فعولن)، ومن صيغ المصدر واحدة (مفاعلتن)، ونوّن سبعاً منها وأظهر نونها، ولم يقف في طريق تنوينه لواحدة من السبع أنها ممنوعة من الصرف، فقد صرفها ونوّنها، أما الثامنة (مفعولات) فلم ينونها وحرّك

---

(١) Gotthold Weil, ***Arud***. E. I, Vol. I, Leiden: E. J. Brill, 1960, P. 669.

(٢) ياكبسون، رومان ، **قضايا الشعرية**، ص٨٧.

(٣) **المرجع السابق** ، ص٣٣.

آخرها مما يدل على أنها ممنوعة من الصرف"[1].

وحينما يظهر شكل التفعيلة تتحدد بنية التوازي عن طريق توزيع التفاعيل كجمل شعرية قائمة على الإيقاع المنسجم مع اللفظ والصوت، ويأخذ البيت الشعري بداية تشكله في شكل (٨).

طَلاَّعُ مَرْقَبَةٍ، مَنَّاعُ مَغْلَقَةٍ شَهَّادُ أَنْدِيَةٍ، سِرْحَانُ قِيْعَانِ

- - / -⏑ ⏑ - - - / - ⏑⏑ -/⏑⏑ - ⏑ - -   — ⏑ ⏑ ⏑ / ⏑ - ⏑ - - / - ⏑⏑/⏑⏑ - ⏑ - -

مستفعلن فعلن مستفعلن فعلن مستفعلن فعلن مستفعلن فعلن

شكل (٨) التفاعيل

فالبناء الصرفي للتفعيلة العروضية يؤكد أن الوحدة العروضية تحدد في بنائها العروضي تبعاً للفونيم، والساكن والمتحرك، والمقطع، والوتد، والسبب، والتفعيلة، فالتفعيلة العروضية قد تساوي الكلمة المفردة، والجملة العروضية قد تساوي الجملة الكلامية[2]. وحينئذ تلتقي عناصر الدلالة الصرفية مع عناصر الدلالة العروضية في دائرة توزيع متواز، ويحظى الصوت حتماً بالأسبقية على الدلالة[3]. وهنا يستمد بيت الخنساء إيقاعاته وموسيقاه مع وجود نظام داخلي ضمني غير معلن من التوترات الصوتية والدلالية المميزة، مرتبطاً بالتنسيق الصرفي والنحوي كما في شكل (٩) و(١٠) فتندمج القصيدة في أشكال هندسية تتعلق بالتوازي.

طَلاَّعُ	مَرْقَبَةٍ،	مَنَّاعُ	مَغْلَقَةٍ	شَهَّادُ	أَنْدِيَةٍ،	سِرْحَانُ	قِيْعَانِ
صيغة	مَفْعَلَةَ	صيغة	مفعلة	صيغة	أفعلة	فعلان	اسم
مبالغة	اسم مكان	مبالغة	اسم	مبالغة	اسم مكان	صيغة مبالغة	اسم

شكل (٩) البناء الصرفي

طَلاَّعُ	مَرْقَبَةٍ،	مَنَّاعُ	مَغْلَقَةٍ	شَهَّادُ	أَنْدِيَةٍ،	سِرْحَانُ	قِيْعَانِ
خبر	مضاف	خبر	مضاف	خبر	مضاف	خبر	مضاف
مضاف	إليه	مضاف	إليه	مضاف	إليه	مضاف	إليه

شكل (١٠) البناء النحوي

(١) **المرجع السابق** : ص٣٤.
(٢) العيني، محمود بن أحمد (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)، **شرح المراح في التصريف**، تحقيق : عبد الستار جواد، بلا، ص٢٩.
(٣) الدمنهوري، محمد ، **الإرشاد الشافي على متن الكافي في علمي العروض والقوافي**، ص٣٦.

وهنا تكررت الأصوات بشكل واضح، وبصورة متساوية بين عناصر كل جملة من ناحية البناء الصرفي والنحوي، فالدور المنوط بالشاعرة هنا هو إضفاء الانفعال على الكلمة بوضعها في سياق عروضي وصرفي ونحوي، فالشاعرة قامت باستخدام التفعيلة بكل إمكانيات الكلمة المعبرة، ووضعها في سياق تآلفي مما يثير جواً انفعالياً يتسق مع القصيدة(١).

إن قدرة الخنساء الشعرية هيأت لها طواعية الكلمات للوزن، فجاءت هذه الطواعية بشيوع كبير في استخدام الصيغ الصرفية ذات المقاطع العروضية المتساوية، وصوغ جملها الشعرية في بنية عروضية لتسقط انفعالاتها كما تصورتها فيما يتناسب مع موضوع الرثاء، فصبتها في كلمات متناسبة صرفياً ونحوياً، ومقاطع شعرية متوازية عروضياً، وجاءت صيغة المبالغة هنا لتفسير علاقة المبنى بالمعنى، فلما كانت الألفاظ دليلة المعاني جعل أقوى أجزاء اللفظ مقابلاً لأقواها في المعنى، وبذلك خُصَّ عين الفعل بالتقوية عن طريق التكرار(٢)، وهذا مما يؤكد ظاهرة التوازي العروضي حينما ترتبط الدلالة الصوتية بالمعنى. كما أن التركيز على الصفات من خلال صيغ المبالغة، لأن الأخبار صفات بالأصل، فصيغ المبالغة جاءت أخباراً لمبتدأ محذوف تقديره (هو) يعود إلى (صخر)، حيث تحولت الجملة من فعلية تقديرها: (طلعَ صخرٌ مرقبةَ، أو شهدَ صخرٌ أنديةً)، إلى جملة اسمية ذات مبتدأ محذوف. إن التحرك التعبيري في البيت والأبيات المشابهة له ينتمي دلالياً إلى ذات جماعية واحدة تزرع دوالّها بشكل منتظم حيث يتكرر غياب ضمير الغائبين (هو)، كما يتم التماثل على مستوى آخر من حيث يبدأ كل سطر انطلاقاً دلالياً من دال يفجر الحدث والزمن على صعيد واحد،وهو صيغ المبالغة الواقفة في أنف كل سطر، والذي يمتد تأثيرها بخطوط ذات طبيعة منتظمة تؤكد على طبيعة التوازي التي يعيشها النص.

إن أي قصيدة إنما تستمد إيقاعاتها وموسيقاها من وجود نظام داخلي ضمني غير معلن من التوترات الصوتية والدلالية المميزة، مرتبطة بالتنسيق التركيبي الصرفي والنحوي، مضافاً إليها نظام التواترات في نظام القافية الخارجي، فتندمج القصيدة في أشكال هندسية تتعلق بالتوازي ويأتي دور الترصيع بتقطيع الأجزاء مسجوعة مما يؤدي إلى بناء الجملة بصورة فنية، وفق تنغيم معين، فيصبح البيت صدى لأحاسيس الشاعرة وانفعالاتها، والتي تظهر في قراءة الـ Spectrograph لها في شكل (١١).

طَلاَّعُ مَرْقَبَةٍ، مَنَّاعُ مَغْلَقَةٍ شَهَّادُ أَنْدِيَةٍ، سِرْحَانُ قِيْعَانِ

(١) العلمي، محمد ، **العروض والقافية: دراسة في التأسيس والاستدراك**، ط١، المغرب: دار الثقافة، ١٩٨٣، ص٨٩.

(٢) McCarthy, John, ***Prosodic Morphology and Templatic Morphology***, **Perspectives on Arabic Linguistics**, II, ed. Mushira Eid, Amesterdam; John Benjamins Publishing Company, 1990, p. 3.



شكل (١١) البنية التنغيمية للبيت

حيث تظهر البنية التنغيمية للبيت أن المؤثر الحقيقي في نوع النغم من حيث الصعود والهبوط هو الوتد المجموع (ᴗ -) الذي يرد في بداية البيت ثم يليه فاصلة صغرى في كل شطرة شعرية مما يجعل النغم صاعداً مع الوتد، وهابطاً مع الفاصلة الصغرى، ومما يعكس إيقاعية عاطفة الحزن عند الشاعرة، فالخنساء تقوم بخلق بناء إيقاعي متصاعد وهابط لتحقيق ذروة عاطفية تقوم بتوضيح مرثيتها وتعزيزها عن طريق التوازي المترادف، والتوازي هنا هو توازي البنية مع الإيقاع كأساس لبناء البيت الشعري.

فالبيت من البحر البسيط، وتفعيلاته مزدوجات من (مستفعلن + فاعلن) وهي تتطابق مع البنية الصوتية، والصرفية، والنحوية، والتنغيمية ليؤدي دلالته ودلالة غيره من الأبيات في ديوان الخنساء، والبيت مقسم إلى أربع وحدات نغمية متكافئة ومختومة بقافية حسب بنية الترصيع تساعد على إظهار الترديد والترجيع في تكرار يوحي بحركة التموج النفسية الحزينة التي تطفو من أعماق نفس الشاعرة في تتابع هادئ يوحي بالحزن الكظيم بعد الفورة العاطفية الحادة التي تعبّر عن نفسها في تكرار الصوت والمقطع والتفاعيل لتجتمع في بحر هادئ هو البحر البسيط بكل تموجاته ومده وجزره موزعاً أحزان الشاعرة في كل إيقاع من إيقاعاته، ونظرة متأنية لديوان الخنساء تظهر أن الشاعرة قد وزعت معظم مراثيها في دائرة التوازي العروضي[1]. ففي البحر البسيط يظهر التوازي بصورة واضحة فيما تحته خط في الأمثلة الآتية في قول الشاعرة:

فالحمدُ خِلَّتُهُ ، والجودُ علَّتُهُ		والصِّدقُ حَوزتُهُ ، إن قرنُهُ هَابا
خطّابُ مَفْصَلَةٍ ، فَرَّاجُ مُظْلِمَةٍ		إن هَابَ مُفْظِعةً ، آتِي لها بابا
حَمَّالُ أَلْوِيَةٍ ، شَهَّادُ أَنْجِيَةٍ		قَطَّاعُ أَوْدِيَةٍ ، للوتِرِ طَلاَّبا[2]

وقولها:

إني تَذكَّرْتُـــهُ ، واللَّيْـــلُ مُعْتكـــرٌ		فَفِي فُؤادي صَدْعٌ غَيْـرُ مَـشعُوبِ
كَمْ منْ مُنَادٍ دَعَا ، واللَّيْلُ مُكْتَنِـــعٌ		نَفَّسْتَ عَنْهُ حِبالَ المْوتِ مَكْـرُوبِ

(١) ياكبسون، رومان ، **قضايا الشعرية**، ص١٠٨.

(٢) الصباغ، رمضان، **في نقد الشعر العربي المعاصر: دراسة جمالية**، ط١، الاسكندرية: دار الوفاء لدينا الطباعة والنشر، ١٩٩٨، ص٢١٣.

وَمنْ أسيرٍ بلا شُكْرٍ جَزاكَ بهِ ... بساعديْه كُلُومٌ غيرُ تَحْليبِ
فَككْتَهُ ومَقالٍ قُلتَهُ حَسَنٍ ... يَوْمَ المَقامةِ لم ، يُؤْمَنْ بتكْذيبِ
وابكِ أخاكَ كالقَطَا قِطعٍ ... وللسَّخاءِ والنَّدَى، والعَقْر للنِّيبِ(١)

وقولها :

أبكْي لِصَخرٍ إذَا ، نَاحَتْ مُطَوَّقةٌ ... حَمامةٌ شَجْوَهَا ، وَرْقَاءُ بالوادِي
إذا تَلأَّمَ فِي ، زَغْفٍ مُضَاعَفَةٍ ... وصَارِمٍ مِثْلَ لَوْنِ المِلْحِ جَرَّادِ
ونَبْعَةٍ ذَاْتِ إرْنَانٍ وَوَلْوَلَةٍ ... ومَارِن العُودِ لا ، كَزٍّ ولا عادِ
سَمْحُ الخلِيقَةِ لا، نكْسٌ ولا غَمَرٌ ... بَلْ باسِلٌ مِثْلُ ليثِ الغابِة العادي
والمُشْبعُ القَوْمَ إن،هَبَّتْ مُصَرْصَرَةٌ ... نَكبَاءُ مُغْبَرَّةٌ، هَبَّتْ بِصُرَّادِ
وَيْلُ أمِّ أعْوَادِ صَخرٍ أيّ أعْوَادِ ... للضَّيفِ والمُعْتفَي،والطَّارِق الجَادِي
مَاضي الهَوى مَرِسٌ،حِيْن القَنَا خُلَسٌ ... ويَبْتُهُ مَأْلَفٌ ، لِلْحَضْر والبَادِي
يُعْطي الجَزيلَ ولا، يَلْحَى الجَليل ولا ... يَعْيَى السَّبيلَ إذا ما قِيَل مَنْ هَادِي(٢)

وقولها :

والحَرْبُ قَدْ رَكبتْ، جَرْبَاءَ باقِرَةً ... حلّتْ على طَبَقٍ، مِنْ ظَهْرِهَا عَارِ
شُدُّوا المآزرَ حتى يَسْتَذِفَّ لكُم ... وشَمِّروا إنَّهَا، أيَّامُ تَشْمَارِ
وابْكُوا فَتَى الحيِّ وافَتْهُ مَنِيَّتُهُ ... في يَوْمِ نائِبَةٍ ، نابَتْ وأقْدَارِ
كَاْنَ ابُن عَمِّكُمُ ، مِنْكُمْ وضيَفُكُمُ ... فيكُمْ فَلِمْ تَدْفَعُوا، عَنْهُ بإِخْفَارِ(٣)
حُلْوٌ حَلاَوَتُهُ، فَصْلٌ مَقَالتُهُ ... فَاشٍ جُمَالتُهُ، للعظم جَبَّارُ
حَمَّالُ ألويةٍ ، هَبَّاطُ أودَيةٍ ... شَّهادُ أنديةٍ ، للَجْيشِ جَرَّارُ

---

(١) عبد الرحمن، ممدوح ، **المؤثرات الإيقاعية في لغة الشعر**، ص٣٢.
(٢) البطل، علي ، **الصورة في الشعر الجاهلي**، بيروت: دار الأندلس، بلا، ص٢٢١.
(٣) انظر: **ديوان الخنساء**، ص ١٥٤-١٥٧.

فَقُلْتُ لّها رَأَيْتُ الدَّهْرَ لــيس لـــه   مُعَاتِـــبٌ وَحْـــدَهُ ، يُـــسْدِي وَنَيَّـــاْرُ
فَبِـــتُّ سَـــاهِرةً ، لِلـــنَّجمِ أرقبُـــهُ   حتَّـــى أتَـــى دُونَ غَـــوْرِ الـــنَّجمِ أســـتَارُ
لم تَرَهُ جارةٌ، يَمــشْي بـــساحَتِها   لِرِيَبـــةٍ حـــيْنَ يُخلْـــي بَيْتَـــهُ الجَـــارُ
وما تراه ومـــا، في البَيْـــتِ يأكُلـــهُ   لكنَّـــهُ بـــارزٌ، بالـــصَّحْنِ مِهْمَـــارُ
قَدْ كَاْنَ خَاْلِصتي،مِنْ كُلِّ ذِي نَسَبٍ   فَقَـــدْ أصِـــيبَ فَمَـــا ، لِلعْـــيَشِ أوْطَـــارُ
مثل الرُّدَيْنيِّ كَمْ ، تَنْفَـــدْ شَـــبِيبَتُهُ   كأنَّـــهُ تَحْـــتَ طـــيِّ البُـــرْدِ إسْـــوَارُ
ليبَكـــهِ مُقَتِّـــرٌ ، أَفْنَـــى حَرِيْبَتَـــهُ   دَهْـــرٌ وحَاْلَفَـــهُ ، بُـــؤسٌ وإقْتَـــارُ
ورُفْقَـــةٌ حـــارَ هَـــادِيهُم بمَهْلكـــةٍ   كـــأنَّ ظُلْمَتَهـــا ، في الطُّخْيَـــةِ القـــاَرُ
جَوَّابُ قـــاصِيَةٍ ، جَزَارُ نـــــاصِيَةٍ   عَقَّادُ ألويَةٍ ، لِلخَيْـــــلِ جَـــرَّارُ(١)

وقولها :

مِنّا تغامِضُهُ ، لـــو كـــان يَنْفَعُـــهُ   بَـــأسٌ لـــصادَفَنا ، حَيَّـــاً أولي بَـــاسِ(٢)

وقولها :

يا عَيْن جُودِي بَدمْعٍ غَيْـــر إنْـــزَافِ   وأبْكي لِصخْرٍ فلـــن ، يَكفيكـــه كـــافِ(٣)
كُوني كَوَرقَاءَ فِيْ، أفْنَـــانِ غيلَتِهـــا   أو صَـــائِحٍ في فُـــرُوعِ النَّخْـــلِ هَتَّـــافِ
وأبكي على عَارضٍ بالَودْق مُحتفِلٍ   إذا تَهاوَنَـــتِ الأحـــسابُ رَجَّـــافِ
ومُنْزِل الضَّيْفِ إن، هَبَّتْ مُجَلْجِلَـــةٌ   تَرمِي بِـــصُمّ سَـــريع الَخْـــسفِ وَسَّـــافِ
أبا اليَتَـــامى إذا ، ماشَتْوَةٌ حَجَـــرت   وفي المَزاحِـــفِ ثَبْـــتٌ غَيْـــرُ وَقَّـــافِ

وقولها :

تَبكْي عَلَى هَالكٍ، وَلّـــى فـــأورثَني   عِنْـــدَ التَّفَـــرُّقِ حُزنـــاً حُـــرّهُ بَـــاقِ

---

(١) المصدر السابق: ص ٣١٥-٣١٧.
(٢) المصدر السابق ؛ ص ٣٩٣-٤١٢.
(٣) المصدر السابق ؛ ص ٢٩٥-٣٠٠.

لو كَانَ يَشْفي سَقِيماًوَجْدُ ذي رَحمٍ   أَبْقَى أخِـيْ سـالماً، حُـزْني وإشـفَاقي
تَبْكـي لفُرْقَتِـهِ، عَـيْنٌ مُفَجَّعَـةٌ   ما إنْ يجفُّ لَهَـا، مِـن ذِكْـره مِـاقي [1]
خَطَّـابُ أَنْديَـةٍ، شَـهّادُ أنجيَـةٍ   لاَ وَاهِـنٌ حِـيْنَ تَلْقَـاهُ ولا وَهِـلُ
ضَخْمُ الدَّسِيْعَةِ سَهْلٌ حِـيْنَ تطرُقُـهُ   لا فَـاحِشٌ بـرِمٌ، نكْـسٌ ولا خَطِـلُ [2]

وقولها :

أَقُولُ صِخْرٌلَهُ الأحـداثُ مِرْحُـومُ   وكيفَ أكتُمـهُ والـدَّفعُ تَـسْجِيمُ [3]

وقولها :

يا عَيْنِ بَكِّي على صَـخْرٍ لأشْـجَانِ   يا عَيْنِ بَكِّي علـى صَـخْرٍ لأشْـجَانِ
إنّي ذكَرْتُ نَدَى صَـخْرٍ فَهَـيَّجَني   ذكرُ الحبيب علـى سُـقمٍ وأَحْـزانِ
طَلاَّعُ مَرْقَبَـةٍ   مَنّـاعُ مَغْلَقَـةٍ   وَرَّادُ مَـشْرَبَةٍ   قَطَّـاعُ أقْـرانِ
شَهَّادُ أنْدِيَةٍ   حَمّـالُ ألوِيَـةٍ   قَطَّاعُ أوْدِيَةٍ   سَـرْحانُ قِيْعَـانِ [4]

وتنهج الشاعرة نفس النهج في معظم مراثيها ، وخاصة حينما توظف ظاهرة " التـسميط " البلاغيـة لخدمة ظاهرة التوازي العروضي ، وتبدو هذه الظاهرة جلية في أبحر [5]: البسيط ، والطويـل ،والـوافر ، والمتقارب [6].

---

(١) **المصدر السابق** ؛ ص ٣٨٧-٣٩٢.
(٢) **المصدر السابق** ؛ ص ٢٥٥.
(٣) **المصدر السابق** ؛ ص ٤٠٧-٤٠٩.
(٤) **المصدر السابق** ؛ ص ٣٠٥-٣٠٦.
(٥) **المصدر السابق** ؛ ص ٤١١-٤١٤.
(٦) **المصدر السابق** ؛ ص ٦٢-٨٤،٦٥-٩٥، ٢٣٠-٢٣٣، ٢٨١-٢٨٦، ٣٥١-٣٥٥.

الصورة ومظاهر الحياة الجاهلية في شعر بشر بن أبي خازم الأسدي

د. ماهر المبيضين *

تاريخ تقديم البحث: ٢٨/٦/٢٠٠٦ تاريخ القبول: ٢٩/١٠/٢٠٠٦

ملخّص

يدرس هذا البحث موضوعات الصورة ومجالاتها في شعر بشر بن أبي خازم الأسدي ومدى تعبيرها عن مظاهر الحياة الجاهلية، وبيَّن البحث أنّ موضوعات الصورة في شعره كانت نابعة من البيئة الجاهلية، وأنَّ هذه البيئة شكَّلت الإطار العام الذي ضمَّ صوره كلها، وقد ارتدَّت هذه الصورة في موضوعاتها إلى مجالات الحياة اليومية التي كان يعيشها الناس في عصره، والمشهد الطبيعي الذي كانوا يتحركون فيه، وبعض ملامح الثقافة والمعتقد.

Abstract

The Poetic Image and Aspects of Jahiliah Life in Bishr Bin Abi Khazem al-'Asdiy's Poetry

Dr. Maher Mubaydeen

This Paper studies the image in the poetry of Bishr ibn Abi Khazim al-'Asadi and its expressiveness of aspects of the Jahiliah life. The paper demonstrates that the image in al-'Asadi's stems from the Jahiliah environment. This image is a reflection of the daily life and an accurate expression of the Jahiliah era and the natural scene as well as the cultural codes and beliefs.

* قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة مؤتة.

مدخل:

يستهدف هذا البحث دراسة موضوعات الصورة ومجالاتها في شعر بشر بن أبي خازم الأسدي(1)، ومدى تمثيلها مظاهر الحياة الجاهلية انطلاقا من مقولة مؤدَّاها أنّ العملية الفنية متولِّدة عن تجربة ذاتية يُعايشها الشاعر في حياته، ويستوحي معالمها وعناصر التعبير عنها من الواقع الذي يُعاينه ويتأثر به؛ فالحياة: "بكل ما تنطوي عليه من أشياء وجزئيات وظواهر هي المصدر الأساسي لإمداد الشاعر بمكوِّنات الصورة، ولكنَّه لا ينقلها إلينا في تكوينها وعلاقتها الموضوعية"(2)؛ لذا فقد غدا من المتعارف عليه لدى النقاد أنَّ ذاكرة الشاعر تكون ملأى بأعداد هائلة من الصور، وأنَّ هذه الصور أو بعضها تُستَرْجع على نحوٍ انتقائيٍّ حالة الإبداع في أشكالٍ حسيَّة تتناسب وتجربة المبدع وحالته الوجدانية، وتنتظم داخل نسق مُتَّحد منسجم(3).

ويُقصد بالصورة في هذا البحث: "أية هيئة تُثيرها الكلمات الشعرية بالذهن شريطة أن تكون هذه الهيئة مُعبِّرة ومُوحية في آنٍ"(4). بغضِّ النظر عن الوسيلة البلاغية التي تتشكَّل فيها، أو الهيئة الحسية التي تتحول إليها، أو الحالة العاطفية التي تُعبر عنها.

وقد لاحظ الدارسون أنَّ موضوعات الصورة في شعر بشر كانت نابعة من البيئة الجاهلية، وأنَّ هذه البيئة شكَّلت الإطار الذي احتوى صوره عامة، وأنها ترتدّ من حيث اهتمام الشاعر إلى المجالات التالية بالترتيب:

أولاً: الحياة اليومية التي كان يُمارسها الناس في عصره.

ثانياً: المشهد الطبيعي الذي كان يتحرك فيه.

ثالثاً: المعتقد الديني والثقافة.

(1) انظر ترجمته في: ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م) الدينوري، ابن قتيبة: **الشعر والشعراء**، تحقيق أحمد شاكر، ط٢، القاهرة، ١/ص٢٧٠.

القرشي، أبو زيد (ت ١٧٠هـ-٧٨٦م): **جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام**، تحقيق علي محمد علي الهاشمي، ط٢، دار القلم، دمشق، ٢/ص٥٠٥.

وأبو عبدالله بن محمد، المرزباني (ت ٣٨٤هـ/٩٩٤م): **الموشَّح**، تحقيق علي محمد البجّاوي، دار نهضة مصر، ١٩٦٥م، ص٨٠.

والأصفهاني، أبو الفرج (ت ٣٥٦هـ/٩٦٦م): **الأغاني**، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١١/ص١٠١.

وبلاشير، **تاريخ الأدب العربي**، تعريب إبراهيم الكيلاني، دمشق، ١٩٧٣م، ٢/٨٧.

وبروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، تعريب عبدالحليم نجار وآخرون، القاهرة، ١٩٧٣م، ١/ص١١٨.

والفريجات، عادل: **بشر بن أبي خازم الأسدي**، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، ١٩٨٢م، ص٥٤.

(2) عبدالله، محمد حسن: **الصورة والبناء الشعري**، دار المعارف، القاهرة، ص٣٣.

(3) الرباعي، عبدالقادر: **الصورة الفنية في النقد الشعري**، دراسة في النظرية والتطبيق، ط٢، مكتبة الكتّاني، إربد، ١٩٩٥، ص٨٠.

(4) **المرجع السابق**، ص٨٥.

أولاً: الحياة اليومية:

١. الظَّعائن:

اهتمَّ بِشر بن أبي خازم كغيره من الشعراء الجاهليين بوصف الظعائن اهتماماً كبيراً، فقد ضمَّ ديوانه إحدى عشرة قصيدة تحدث فيها عن الظعائن[١]، ورسم في هذه القصائد صوراً فنية متعددة لها امتزج فيها الجمال الحسيّ والمعنويّ؛ ولعلّ أبرز هذه الصور الحديث عن الجمال الأخَّاذ للمرأة الظاعنة، وصغر سنّها، وعدم علمها ما يعلم النساء من الحب، وهي ترحل بكامل زينتها، وتكون هوادجها جميلة مزركشة، تعلوها مفارش ملوَّنة وتسترها كللٌ رقيقة حمراء، كما في قوله[٢]:

تَبيَّن خَلِيلي هَــلْ تــرى مِــنْ ظَعَــائنٍ غَرائــــرَ أبكــــارٍ ببُرْقَـــةِ ثَمْـــثَمِ[٣]
دَعَــــاهُنَّ رِدْفي فَــــارْعَوَيْنَ لِـــصَوتهِ فَيـــا لَـــكِ بُعـــداً نَظْـــرةً مِـــنْ مُكلِّـــمِ
عَلــــيهنَّ أمثَــــالٌ خُــــدَارى وفَوقَهـــا مِـــنَ الـــرَّيطِ والـــرَّقمِ التَّهاوِيـــلُ كالـــدَّمِ

ويلاحظ أنّ معظم شعراء الجاهلية كانوا يبدأون حديثهم عن الظعائن بإعلان خبر الرحيل: "ويختار الشاعر منهم –في الغالب- صاحبين له يطلب إليهما أن يُحدِّقا معه في الجِمال التي تهيَّأت استعداداً للهجرة، ويتساءل عما يرى، أحقيقة أم وهم؟"[٤].

ويبدو أنَّ هذا المشهد قد روَّع الشَّاعر وأسلمه إلى ما يُشبه اللاوعي فراح يستعيد خيوطه حالمــاً، غير أنه سرعان ما يصحو ليجد رفاقه إلى جواره وقد شدُّوا مطيَّهم للرحيل، يقول بشر[٥]:

ومِنْهـــا خَيَـــالٌ مـــا يَـــزالُ يَرُوعُنـــا ونَحـــنُ بِـــوَادِي الجَفْـــرِ جَفْـــرِ يَبَمْـــبَمِ[٦]
إذَا ما انْتَبَهـــتُ لم أَجِـــدْ غَـــيرَ فِتْيَـــةٍ وغَـــــيرَ مَطِـــــيٍّ بِالرِّحَـــــالِ مُخَـــــزَّمِ

ويستقصي بشر صوراً متنوعة لهذا الجمال الأنثوي، فيتحدث عن جمال عَينَيّ المرأة الظاعنة ووضاءة

---

(١) الأسدي، بشر بن أبي خازم (ت ٢٢ ق. هـ/٥٩٨م)، **الديوان**، تحقيق عزة حسن، ط٢، وزارة الثقافة والإرشـــاد القـــومي، دمـــشق، ١٩٧٢م. الصفحات: ٤٩، ٦٤، ٦٥، ١٦٧، ١٩٣، ١٩٤. وانظر: عز الدين، حسن البنا: **قصيدة الظعائن في الشعر الجاهلي دراسة في جماليّات الشعر الشفاهي**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٣، ص٨٥.

(٢) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**، ص١٩٣.

(٣) الغرائر: جمع غِرَّة، وهي الجارية الشابة الحديثة السن التي لم تجرب الأمور، وبرقة ثمثم: اسم موضع، والبرقة: الرملة يخلطها حصى.

(٤) أبو سويلم، أنور: **الإبل في الشعر الجاهلي**، دراسة في ضوء علم الميثولوجيا والنقد الحديث، ط١، دار العلوم للطباعة والنـــشر، الريـــاض، ١٩٨٣م، ج١، ص٣٣.

(٥) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**، ص١٩٤.

(٦) يمبم: هو ينبم، ويقال أينبم بالألف، وهو وادٍ شجير، والجفر في اللغة: البئر الواسعة القعر.

وجهها[١]، وسواد شعرها[٢]، وبياض أسنانها[٣]، وعذوبة ريقها، وامتلاء جسمها[٤].

وتبدو هؤلاء النِّسوة في مشهد الظعائن الذي يرسمه بشر مُنعَّماتٍ لم يَعرِفْنَ شظف العيش، وقد تبيَّن هذا في وُجوهِهن وتمثَّل في حُسنِ حَالِهِنَّ حُسنُ غذائهن، يقول[٥]:

وَفِــي الأَظْعَــانِ آنــسةٌ لعــوبٌ ... تَــيَمَّمَ أَهلُهــا بَلــداً فَــسَاروا

مِــن الــلاَّتي غُــذِينَ بِغَــيرِ بُــؤْسٍ ... مَنازِلُهــا القُــصَيْبَةُ فَــالأُوارُ

غَــذَاها قَــارِصٌ يَجْــرِي عَليهَــا ... وَمَحْــضٌ حِــيْنَ تَنْبَعِــثُ العِــشَارُ[٦]

وتكون رحلة هذه الظعائن ليلاً قاصدة منابع المياه والأراضي الخصبة مُنكِّبة الأراضي الجدباء المُقْفِرة، كما في قوله[٧]:

تَــؤُمُّ بِهَــا الحُــداةُ مِيــاهَ نَخْــلٍ ... وفِيهَــا عــن أَبَــانَيْنِ ازْوِرَارُ

بليــلٍ مَــا أَتَــيْنَ عَلــى أَرومٍ ... وشَــابةَ عَــنْ شَــمَائِلِها تِعــارُ[٨]

وهو يُميِّز في شعره بين أنواع من الظعائن، فثمَّة ظعائن قومه، كما في قوله[٩]:

ولَــيْسَ مُبَــيِّنٌ فِــي الــدَّارِ إلاَّ ... مَبِيــتُ ظَعــائِنٍ وَصَــدىً يَــصيحُ

وظعائن الخليط الذي يُقيم مع قومه فوقعت بينهم أُلفَة، كما في قوله[١٠]:

بِأَحْسَنَ مِنْهَــا إِذْ تَــرَاءَتْ وذُو الهَــوى ... حَــزِينٌ ولكــنَّ الخَلــيطَ تَجَنَّبُــوا

وقوله[١١]:

فَانْهــلَّ دَمْعِــي في الــرِّدَاءِ صَــبَابَةً ... إِثْــرَ الخَلِــيْطِ وَكُنْــتُ غَيْــرَ مُغلَّــبِ

فَكَــأَنَّ ظَعْــنَهُمُ غَــدَاةَ تَحَمَّلُــوا ... سُــفُنٌ تَكَفَّــأُ فِــي خَلِــيجٍ مُغْــرِبِ

(١) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**، ص٢.

(٢) **المصدر السابق**: ص٧.

(٣) **المصدر السابق**: ص٦٣.

(٤) **المصدر السابق**: ص٢-٤.

(٥) **المصدر السابق**: ص٦٤.

(٦) القارص: اللبن الذي أخذ فيه الطعم. والمحض: اللبن الذي يُحلب وتذهب رغوته، والعِشار: الإبل لها عشرة أشهر من حملها إلى أن تنتج وبعدما تنتج بشهرين.

(٧) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**، ص٦٢. وأبانان: جبلان هما: أبان وسلمى.

(٨) أروم وشابة: موضعان، وتعار: اسم جبل في بلاد قيس.

(٩) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**، ص٤٩، وانظر: ص١٦٧، ص١٩٣.

(١٠) **المصدر السابق**: ص٨.

(١١) **المصدر السابق**: ص٣٥، وانظر في ذلك: ص٥٤، ص٦١، ص١٧٨.

وهم غالبا ما يرحلون فجأة ويحتملون مسرعين ولا يقبى منهم أحد، يبدو هذا في قوله(١):

أَلاَ ظَعَنَ الخَلِيطُ غَدَاةَ رِيعُوا ... بِشَبْوَةَ، فَالمَطِيُّ بِنَا خُضُوعُ

أَجَدَّ البَيْنُ، فَاحْتَمَلُوا سِرَاعاً ... فَمَا بِالدَّارِ إِذْ ظَعَنُوا كَتِيعُ

وظعائن الأعداء، ويأتي الحديث عنها في سياق تهديده لهم بالحرب وسخريته منهم، كما في قوله(٢):

لَهُمْ ظُعُنَاتٌ يَهْتَدِينَ بِرَايَةٍ ... كَمَا يَسْتَقِلُّ الطَّائِرُ المُتَقَلِّبُ

فَوارِسُنَا بِالحِنْوِ لَيلَةَ نَازَلُوا ... كَفَى شَاهِدُوهُمْ لَوْمَ مَنْ يَتَغَيَّبُ

وهذه الإشارة المقتضبة لِظعنات الأعداء جاءت في سياق حديثه عن الهزيمة التي لحقت بهم، وهُنَّ يهتدين براية الحرب التي هي أشبه براية استسلام منها براية هزيمة(٣).

ويصف بشر مشاعره إزاء هذا المشهد المتكرر الذي طالما روّعه، فيصف شقاء قلبه، وشدّة وجده، وأشجان فؤاده، وسأقِفُ هنا عند نموذج واحد يُمثِّل ذلك، يقول(٤):

فَبِتُّ مُسَهَّداً أَرِقَاً كَأَنِّي ... تَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِيَ العُقَارُ

أُرَاقِبُ فِي السَّماءِ بَنَاتِ نَعْشٍ ... وَقَدْ دَارَتْ كَمَا عَطَفَ الصِّوَارُ

وَعَانَدَتِ الثُّرَيَّا بَعدَ هَدْءٍ ... مُعَانَدَةً لَهَا العَيُّوقُ جَارُ

فهو لا يستطيع النوم، ولا يكاد يقوى على النهوض وحَمْل نفسه، وكأنَّ الخمر قد دبَّ دبيبها في مفاصله وعظامه؛ وهنا يأخذ الشاعر في مراقبة رحلة النجوم في السماء ورعيها، ولعلَّ مراقبة الشاعر لبنات نعش ذات علاقة بِفكرة العرب عن هذه النجوم وما اتَّصل بها من أساطير تُشير إلى قتل (الجدي) (نعشا)، لذا فإن بناته (بنات نعش) في مطاردة مستمرة للَّحاق بـ (الجدي) وأخذ الثأر منه(٥).

ورُبَّما أقام الشاعر، انطلاقاً من استيعابه ثقافة قومه، علاقة بين هذا القتل الأسطوري ورحلة بنات نعش وبين رحلة الظعائن التي شبهها بجماعة البقر الوحشي التي روَّعها أمرٌ ما فراحت تروغ منه، ممَّا سبَّبَ الهمَّ والتّسهيد للشاعر وهو يتبصَّر هذين المشهدين.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ بشراً كغيره من الشعراء ربط حديثه عن الظعن بالنخيل والسفن، إذ إنَّ للنخيل: "أهمية خاصة في وجدان العربي القديم، وجودها يرتبط دائما بمعنى الحياة والخصب والنَّماء...،

(١) الأسدي، بشر بن أبي حازم : **الديوان**، ص١٢٩، وانظر: ص٥٤، ص٦١.

(٢) **المصدر السابق**: ص١٢.

(٣) عز الدين، حسن البنا: **قصيدة الظعائن**، ص١٢٩.

(٤) الأسدي، بشر بن أبي خازم : **الديوان**، ص٦٥.

(٥) الشّامي، يحيى عبد الأمير: **النجوم في الشعر العربي القديم حتى أواخر العصر الأموي**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٢م، ص٨٠.

ويرتبط ذكر الظعائن بالسفن، وعلاقة الإبل بالسفن علاقة ممتدة الجذور في ذِهن الجاهلي، لا أظنها تقتصر على التشابه في الحركة والشكل، أنّ ما يفعله السراب من رفع لأشخاص الظعائن يُحوِّل حركتها إلى مـــا يُشبه انسياب السفن على صفحة الماء، وحركة أعناق الإبل المتموجة لا تبعد كثيراً عن تموُّج مقدم السفينة على سطح الماء"(١).

٢. الرحلة:

وبعد أن يظعنَ الأحبَّةُ يقف الشاعر على أطلالهم مناجيا مسائلاً فلا يسمع منها جواباً، فيتملَّكـــه الهمُّ والأسى؛ فيتركها مرتحلاً، ومن هنا جاء وصف الرحلة في القصيدة الجاهلية لا باعتبار هذه الرحلة واقعاً يعيشه الناس فحسب، بل أصبح ذلك عنصرا بنائيًّا مُهماً في تلك القصيدة، وكان الانتقال إلى وصف الرحلة غالباً ما يتم بعلاقة أسلوبية مفضَّلة لدى بشر، وهي فعل الأمر المقترن بالفاء كما في قوله(٢):

فَـــسلِّ همَّـــك عـــن سَـــلْمى بِنَاجِيـــةٍ خَطَّارةٍ تَغْتَلِـــي في السَّبْـــسَبِ القَـــذفِ(٣)
وجْنـــاءَ مُجْفَـــرةِ الجَنبـــيْنِ عَاسِـــفَةٍ بِكُلِّ خَـــرْقٍ مَخُـــوفٍ غَـــيرِ مُعْتَـــسفِ(٤)

كما يلاحظ أن دوافع الرحلة تُمثِّل رغبة الشاعر في الخلاص من همومه وأحزانه ومأزقه، ولا أريد أن أتحدث هنا عن وصف بشر لناقته التي يذرع على ظهرها مناكب الأرض لأن ذلك بحاجة إلى دراســـة أخرى، وإنَّما أُشير إلى حديثه عن المَشاقِّ التي كان يواجهها في رحلته، والظروف القاسية التي تسير فيهـــا ناقته، كما في قوله السابق يصف مسيرها في أرض قفر بعيدة لم يسلكها أحد من قبل لأنها مُخيفة.

ويرسم بشر في قصائد أخرى معالم الأمكنة الصحراوية التي يسلكها، فيتحدث عـــن الفلـــوات الواسعة التي خَلت من الأنيس والمعالم، فيحار الطرف فيها فلا يدري إلى أي وجهة يسير، يبدو هذا المشهد في قوله(٥):

وَمُقْفِـــرةٍ يَحَـــارُ الطَّـــرفُ فِيهـــا عَلـــى سَـــنَنٍ بِمُنْـــدَفَعِ الـــصُّداحِ

أمَّا زمان الرِحلة فهو (ليلة رجَبيّة) شديدة البرد، كما في قوله(٦):

فَبَاتَـــتْ عَليـــهِ لَيلـــةٌ رَجَبيَّـــةٌ تُكَفِّئُـــهُ رِيْـــحٌ خَرِيـــقٌ وتُمْطِـــرُ

---

(١) سويلم، أنور أبو: **الإبل في الشعر الجاهلي**، ج١، ص٤٢-٤٤.

(٢) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**، ص١٥٨، وانظر: ص١٦٨.

(٣) الناقة الخطّارة: التي تخطر بذنبها في السير، أي تضرب يميناً وشمالاً من النشاط. وتغتلي: ترتفع وتسرع في السير، والسبسب: الأرض القفـــر البعيدة لا ماء بها ولا أنيس.

(٤) مجفرة الجنبين: أي عظيمة الجنبين، والعاسفة: مثل العسوف، وهي التي تمر على غير هداية فتركب رأسها في الـــسير. والخـــرق: الفـــلاة الواسعة، وغير معتنق: أي غير مقطوع.

(٥)الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**، ص٤٥.

(٦) **المصدر السابق**، ص٨٢. وليلة رجبية: أي من ليالي شهر رجب، والخريق: الريح الباردة الشديدة الهبوب.

ويكون زمانها في يوم قائظ لافح الحر، كما في قوله(١):

تَجـاوبُ هَامَهـا فِـي عَوْرَتيهـا ... إِذَا الحِرْبَـاءُ أَوْفَـى بِـالبَراحِ

تلك هي عناصر الرحلة في شعر بشر: همٌّ يقضُّ مضجعه، وناقة صلبة قوية، وأرض واسعة مخيفة، وزمان صعب قاس. وعلى الرغم من ذلك فإنَّ اليأس لم يتسرَّب إلى نفس الشاعر، فإرادة الحياة قوية لديه، لذا فقد ظل يغُذُّ الخطا ليحقق هدفه، لينفرج هذا الموقف المتأزم بوصول الشاعر إلى مبتغاه، وهو غالباً الممدوح، كما في قوله(٢):

لَمَّا تَخَالَجَتِ الأَهْـواءُ قُلْـتُ لَهَـا ... حَـقٌّ عَلَيـكِ دُؤُوبُ اللَّيـلِ والسَّهدُ

حتَّـى تَـزُوري بَنِـي بَـدْرٍ فَـإِنَّهُمُ ... شُـمُّ العَـرانينِ لا سُـودٌ وَلا جُعُـدُ

وإخالُ أنَّ انتهاء الرحلة بالوصول إلى الممدوح ليست مجرد وسيلة من وسائل التكسب، وإنما هو تعبير عن إحساس مؤدَّاه أنَّ التغلَّب على الظروف الطبيعية والاجتماعية القاسية التي تُرغم الناس -أفراداً وجماعات إلى الارتحال- لا يتمُّ إلا بالتَّعاضد البشريِّ والعمران الاجتماعي مُمَّثلاً بالممدوح النَّموذج الذي غدا مناطا للاستقرار ورمزا للحماية والأمن والسكينة؛ لذا أشار الشاعر في الأبيات السابقة إلى تخالج الأهواء واختلافها، وجعلها السبب المباشر لرحلته، وبالتالي لعلها العامل الرئيس في رحلة الظعائن وخروجها من مستقرها بحثاً عن الأمن. ولهذا فإنَّنا لو تأمَّلنا الصفات التي أسبغها بشر على ممدوحيه لألفينا أنَّها تدور حول أصلٍ واحد هو السكينة والاستقرار، فقرنهم بالجبل (رضوى) ووصفهم بالحلم والتَّعقل، ورجاحة الرأي، ونفاذ الفكر، وحماية الجار والإحسان إليه، وملاحقة الجناة للاقتصاص منهم. يقول(٣):

القَاعِـدينَ إذا مَـا الجَهْـلُ قِـيمَ بِـهِ ... وَالثَّـاقِبِين إذا مَـا مَعْـشَرٌ خَمَـدُوا

لا جَارُهُمْ يَرْهَـبُ الأَحْـدَاثَ وَسْـطَهُمُ ... وَلا طَرِيـدُهُمُ نَـاجٍ إِذَا طَـرَدُوا

ولا ريب في أنَّ هذه الصفات تُعبِّر عن حالة المخاض التي يعيشها المجتمع الجاهلي وهو يسعى إلى حالة من التصالح والاستقرار.

٣. الحرب:

استغرق الحديث عن الحرب كثيراً من الجهود الفنية للشاعر، وهذا يعود إلى الحروب المتعددة التي خاضها بنو أسد، ويُستشفُّ من الصور التي رسمها الشاعر لقومه كثرتهم العدديَّة، فقد استباحوا (سنام

(١) الأسدي، بشر بن أبي حازم : **الديوان**، ص٤٥.

(٢) **المصدر السابق**: ص٥٧.

(٣) **المصدر السابق**: ص٥٧-٥٨.

الأرض إذ قَحطَ القِطارُ)[١]، وفرسانهم (كَمِثلِ اللَّيلِ ضَاقَ بهَا الفَضَاءُ)[٢] وهم يحيطون بالشاعر شباباً وشيباً[٣]، وإذا ما بسطوا نفوذهم على بلد فلا يستطيع أحد استباحته[٤]، وجيشهم (رَحِيبُ السَّربِ ليس له كِفاءُ)[٥] عريض الجانبين، لُهام، شديد الرُّكن[٦]، (أَرعن مُطْنِب)[٧]، كأنه (نَشَاصُ الثُّرَيَّا هيَّجتها جَنوبُها)[٨].

وتُوضِّح الصور بعض السمات المعنوية والقتالية للجيوش الأسدية، فهم (قَومٌ غِضاب)[٩]، متمرسون في القتال[١٠]، لا يَخِيمُون عن المنادي ولا يُروِّعُهم اللِّقاء[١١]، يشخصون لأعدائهم جهارا[١٢]، ويسمون إلى الحرب (سُمُوّ البُزْلِ في العَطَنِ الرَّحِيبِ)[١٣]، لابسين دروعاً سابغة وقوانس سناها كأنه (ضِرامٌ مَرَته الرِّيح في أعلى يَفَاعِ)[١٤] ويبدون على ظهور خيولهم أُسداً، أو (العِقبانُ طَارت لِلوِقَاعِ)[١٥].

وقد قذف هذا الجيش الرُّعب في قلوب القبائل المُعادية، فأخذت تَسدُّ الثَّنايا والطُّرق لئلاَّ يصل إليها، وامتنعت بعض القبائل عن إشعال النار حتى لا يهتدي الأسديون لها، في حين هربت قبائل من ديارها بحثا عن أماكن أكثر أمنا، يبدو هذا في قول بشر[١٦]:

وَشَبَّتْ طَيِّئُ الجَبَلينِ حَرْبَاً ... تَهِرُّ لِشَجْوِهَا مِنْهَا صُحَارُ
يَسُدُّونَ الشِّعَابَ إِذَا رَأَوْنَا ... وَلَيْسَ يُعِيْذُهُمْ مِنَّا انْجِحَارُ
وَأَصْعَدَتِ الرِّبَابُ فَلَيْسَ مِنْهَا ... بِصَارَاتٍ ولا بِالحُبْسِ نَارُ
وَأَنْزَلَ خَوْفُنَا سَعْدَاً بِأَرْضٍ ... هُنَالِكَ إِذْ تُجِيرُ وَلا تُجَارُ[١٧]

(١) الأسدي، بشر بن أبي حازم : **الديوان**، ص٧٣.
(٢) **المصدر السابق**: ص٤.
(٣) **المصدر السابق**: ص٢١.
(٤) **المصدر السابق**: ص٤٤.
(٥) **المصدر السابق**: ص٥.
(٦) **المصدر السابق**: ص٥.
(٧) **المصدر السابق**: ص٣٩.
(٨) **المصدر السابق**: ص١٦.
(٩) **المصدر السابق**: ص١٠.
(١٠) **المصدر السابق**: ص١١٠.
(١١) **المصدر السابق**: ص٦.
(١٢) **المصدر السابق**: ص١٦.
(١٣) **المصدر السابق**: ص٢٣.
(١٤) **المصدر السابق**: ص١١١.
(١٥) **المصدر السابق**: ص١١٠.
(١٦) **المصدر السابق**: ص٦٧-٦٩. تهر: تكره، وصحار: مدينة كبيرة في عُمان.
(١٧) سعد: هم بنو سعد بن زيد منادة بن تميم.

كذلك فهو لا يَكفُّ في شعره عن تهديد القبائل الأخرى، فعندما تَنَاهى إلى مَسامعه أنَّ بني سعد ابن عامر يُبيّتون —إثر الهزيمة التي حلَّت بهم يومي النِّسار والجفار- الثأر من بني أسد، هدَّدهم بشرٌ تهديداً عنيفاً، وذلك في قوله(١):

فَأَبْلِغْ بَنِي سَعْدٍ وَلَنْ يَتَقَبَّلُوا ... رَسُولِي وَلَكِنَّ الحَزَازَة تُنْصِبُ
لَئِنْ شُبَّتِ الحَرْبُ العَوَانُ الَّتي أَرَى ... وَقَدْ طَالَ إبْعَادٌ بهَا وَتَرَهُّبُ
لَتَحْتَمِلَنْ مِنْكُمْ بِلَيْلٍ ظَعِينَةٌ ... إِلَى غَيرِ مَوْثُوقٍ مِنَ العِزِّ تَهْرُبُ

وهو لا يفتأ يزهو على القبائل الأخرى بالأمجاد الحربيَّة التي حققها بنو أسد، كما في قوله(٢):

فَسَائِلْ عَامِراً وَبَنِي نُمَيْرٍ ... إذَا مَا البِيْضُ ضَيَّعها المُضِيعُ
إذَا مَا الحَربُ أَبْدَتْ نَاجِذَيْهَا ... غَداةَ الرَّوْعِ، والتَقَتِ الجُمُوعُ
بنَا عِنْدَ الحَفِيظَةِ كَيْفَ نَحْمِي ... إِذَا مَا شَفَّهَا الأَمْرُ الفَظِيعُ
عَقَائِلَنَا ونَمْنَعُ مَنْ يَلِيْنَا ... بِكُلِّ مُهنَّدٍ صَافٍ صَنِيعُ

ويُبُثُّ بشر في شعره أسماء كثيرٍ من القبائل التي أرهبتها قوَّة بني أسد أو تحالفت معها، فيذكر بني عقيل، وبني قشير، وبني سليم الذين أسكتهم الفزع فما يتحركون ولا ينطقون، وبني كلاب الذين لم يُنجِّهم الفرار، وأشجع الذين (ولّوا تيوساً)، وبني سُبَيْع(٣)، وبني عامر وبني تميم الذين (ولَّوْا شِلالاً مُرْمِلينَ بِكُلِّ قَاعِ)(٤).

ولا نجد في شعر بشر صورة فنية متنامية متكاملة للمشهد الحربي؛ ولعل هذا يعود إلى الحماسة العارمة التي كانت تملأ نفسه وهو يتحدث عن صعود نجم قومه في الحروب، وتفوقهم على القبائل الأخرى، لذا غلب على صوره الحربيّة الطابع الجزئي الذي يرسم لقطة تصويرية سريعة، ومن هذه اللَّقطات ما يُصوِّر هيئة المقاتلين الأسديين وقد خرجوا إلى القتال في الليالي القاسية حتى تجمَّد (وَدَك السَّديف) على لِحاهُم، فبدت وكأنها زهر الرَّاء الأبيض، وقد تجمَّد من شدة البرد، تبدو هذه اللقطة التصويرية في قوله(٥):

وَشُعْثٍ قَدْ هَدِيتُ بِمُدْلَهِمٍّ ... مِنَ المَوْمَاةِ يَكْرَهُهُ الجَمِيعُ
تَرَى ودَكَ السَّدِيفِ عَلَى لِحاهُمْ ... كَلَوْنِ الرَّاءِ لبَّدَهُ الصَّقِيعُ

(١) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**، ص٨-٩، وللاستزادة: انظر: ص١٦٥، ص٢٠٧.
(٢) **المصدر السابق**: ص١٣٣-١٣٤.
(٣) **المصدر السابق**: ص٦٨-٧٢، وانظر: ص٩٣، ص٩٥.
(٤) **المصدر السابق**: ص١١١.
(٥) **المصدر السابق**: ص١٣٤. الودك: دسم اللحم والشحم، والسديف: قطع السنام.

وتكشف الصورة ما كان يدور في نفوس الجيوش الأسديَّة وهي تتقدم لغزو أعدائها، كما في البيت التالي الذي يَصفُ ما كان يرد على خواطرهم يوم النّسار، ممَّا قَدح زناد البطولة في نفوسهم(١):

إِذَا مَـــا لَحِقْنَـــا مِـــنْهُمُ بِكَتِيْبَـــةٍ   تُـــذُكِّرَ مِنْهَـــا ذَحْلُهَـــا وذُنُوبُهَـــا

وثمة لقطات تصويرية سريعة تُعبِّر عن عنف القتال وضراوته، كما في قوله يصف كثافة الرماح التي استهدفت بني كلاب(٢):

وَحَـــيَّ بَنِـــي كِـــلابٍ قـــد شَـــجَرْنَا   بِأَرْمَـــــاحٍ كَأَشْـــــطَانِ القَلِيـــــبِ

ويُصوِّر مطاردة فرسان بني أسد لأعدائهم وتتبّعهم لآثارهم، ويقرن ذلك بصورة الريـــاح تطـــرد وتسوق السَّحاب الجهام، وذلك إذ يقول(٣):

بِنَـــا كَيـــفَ نَقْـــتَصُّ آثَـــارَهُم   كَمَـــا تَـــسْتَخِفُّ الجَنُـــوبُ الجِهَامَـــا

وتتَّسم الصورة التي تصف ضراوة القتال بالحركة العنيفة واللمحة الدَّالة، كما في قولـــه يـــصف الرماح والنبال، وقد نشبت في نحور الأعداء فولّوا منهزمين، فتابعهم فرسان أســـد يـــضربون رؤوســـهم بسيوفهم كمن ينقضّ بمعوله على شجر ليقطعه(٤):

رَمَوْهُمْ فَلَمَّا اسْتَمْكَنَتْ مِـــنْ نُحُـــورِهِمْ   قِطَـــاعٌ خِفَـــافٌ رِيْـــشُها وَالمَعَابِـــلُ
تَوَلَّـــوا عَلَـــيْهِم يَـــضْرِبُونَ رُؤُوسَـــهُمْ   كَمَا تَعْـــضَدُ الطَّلْـــحَ الوَرِيـــقَ المَعَـــاوِلُ

وأشار إلى هذه الصورة الفنيَّة أحمد الجاسم بقوله: "وعلى هذا فإن بني أسد يُـــصوِّبون الأهـــداف الدقيقة، وهم فرسان ثابتون على سروجهم، وسواعدهم تُطلق السِّهام بعزم وهم يحصدون الأعداء كمـــا يُحصد الطلح"(٥).

واستحسن أبو هلال العسكري(٦) وصف بشر لسعة الطعنة وألم وقعها على الأعداء في قوله(٧):

إِذَا نَفَـــــذَتْهُمُ كَـــــرَّتْ عَلَـــــيهِم   بِطَعْـــنٍ مِثْـــلِ أَفْـــوَاهِ الخُبُـــورِ(٨)

وفي المقابل كان يُصوِّر حالة الأعداء لحظة التقائهم بفرسان أسد، ويرسم لذلك صورا ساحرةً تعبِّر

(١) الأسدي، بشر بن أبي حازم، **الديوان** :: ص١٧.
(٢) **المصدر السابق:** ص٢٣.
(٣) **المصدر السابق:** ص١٨٨.
(٤) **المصدر السابق:** ص١٧٥-١٧٦.
(٥) الجاسم، أحمد موسى: **شعر بني أسد في الجاهلية**، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ١٩٩٥م، ص١٢٥.
(٦) العسكري، أبو هلال (ت٣٩٥هـ/١٠٠٤م): **ديوان المعاني**، عُني بنشره مكتبة القدسي،القاهرة، ١٣٥٢هـ، ص٤٦.
(٧) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**، ص٩٦.
(٨) الخبور: جمع الخَبْر، وهي المزادة العظيمة.

عن ارتباكهم وحَيرتهم، وقد أشرأبّت أعناقهم وهم يرون الجيوش الأسدية تنقضُّ عليهم من علٍ، وتتدافعُ تدافعَ السَّحاب(١):

فَلَمَّا رَأَوْنَا بالنِّسارِ كَأَنَّنَا ... نَشَاصُ الثُّرَيَّا هَيَّجَتْهَا جَنُوبُهَا
فَكَانُوا كَذَاتِ القِدْرِ لَمْ تَدْرِ إِذْ غَلَتْ ... أَتُنْزِلُهَا مَذْمُومَةً أَمْ تُذِيبُهَا

ويصوِّرهم في لقطة أخرى منهزمين وقد فقدوا صوابهم، فطاروا شعاعا في الأرض(٢):

سَمَوْنَا بِالنِّسَارِ بِذِي دُرُوءٍ ... عَلَى أَرْكَانِهِ شَذَبٌ مَنِيعُ(٣)
فَطَارَتْ عَامِرٌ شَتَّى شِلالاً ... فَمَا صَبَرتْ وَمَا حُمِيَ التَّبِيْعُ

ويرتبط حديث بشر عن هزيمة الأعداء بتصوير جُثثِهِم وهي ملقاة على الأرض على وجوهها وقد أخذت الضِّباع تنهشها وتطوف بأشلائها(٤):

فَكَمْ غَادَرْتَ مِن كَابٍ صَرِيعٍ ... تُطِيفُ بِشِلْوِهِ عُرْجُ الضِّبَاعِ

ويرتبط الحديث عن هزيمة الأعداء بتصوير راياتهم، فقد كانت راية أسد يوم الجفار على هيئة (الأسد)، وكانت راية تميم في صورة (العقاب)، وهنا يجعل الشاعر الصراع بين هاتين الرايتين، فإذا الأسد راية تعلو العقاب وتُلقيه أرضا لتدوسه الأقدام، تبدو هذه الصورة في قوله(٥):

وَرَأَوْا عُقَابَهُمُ المُدِلَّةَ أَصْبَحَتْ ... نُبِذَتْ بِأَغْلَبَ ذِي مَخَالِبَ جَهْضَمِ(٦)

وغالبا ما كان بشر يُنهي قصيدة الحرب عنده بمشهدٍ تصويري يصف ما حَلَّ بنساء الأعداء، وكيف أنّهنَّ أمسينَ سبايا، وقد حَملهُنَّ الأسديون على أقتاب غليظة وأسرعوا بهنَّ في السَّير فدُميت أعجازهن، بل إنَّ خدمهم وعبيدهم كانوا يستحقبون نساءهم الجميلات ويتَّخذونهنَّ لهم، يقول(٧):

بَنِي عَامِرٍ إِنَّا تَرَكْنَا نِسَاءَكُم ... مِنَ الشَّلِّ والإِيْجَافِ تَدْمَى عُجُوبُهَا
عَضَارِيطُنا مُسْتَحقِبو البِيضِ كَالدُّمَى ... مُضَرَّجَةً بِالزَّعْفَرَانِ جُيُوبُهَا(٨)

(١) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**، ص١٦.
(٢) **المصدر السابق**: ص١٣٥.
(٣) يوم النسار: بين بني أسد وأحلافها، وبين بني عامر وفيه قُتلِت عامر.
(٤) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**، ص١١١.
(٥) **المصدر السابق**: ص١٨٢.
(٦) الجهضم: القوي الشديد الذي إذا قبض على شيء مات مكانه من شدة القبضة.
(٧) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**، ص١٩.
(٨) العضاريط: جمع عضروط، وهو الأجير الذي يخدم على طعام بطنه.

٤. صور اجتماعية متفرقة:

وثَمَّة مظاهر اجتماعية متفرقة صوَّرها بشر في شعره، فقد أشار إلى المُغنيات اللواتي يَعزفنَ على المَزاهِر، ووصف حَانةً زارها مع ثُلَّةٍ من أصدقائه، فاستقبلهم فيها فتيان قاما على خدمتهم وقدما لهم الأسماك والخبز، ثم يصور الزقاق التي كانت مصفوفة في الحانة والخمر يترف منها، يبدو هذا المشهد في قوله[١]:

فَقَدْ أَرَانِي بِبَانقْيَاء مُتَّكِئاً ... يَسْعَى وَلِيدَانِ بالحِيْتَانِ وَالرُّغُفِ

وَقَهْوَةٍ تُنْشِق المُسْتَامَ نَكْهَتُهَا ... صَهْبَاءَ صَافِيَةٍ مِنْ خَمْرِ ذِي نَطَفِ

يَقُولُ قَاطِبُهَا لِلْشرْبِ قَدْ كَلَفَتْ ... وَمَا بِهَا ثَمَّ بَعدَ القَطْبِ مِنْ كَلَفِ

تَرَى الظُّروفَ وَإِنْ عَزَّ الَّذِي ضَمِنَت ... مَصْفُوفةً بَيْنَ مَبْقُورٍ وَمُجْتَلَفِ

ويظهر من الصور الخمريَّة أنَّ بَعض الناس كان يَتَّجرُ بها حتى غلب لفظ (التَّاجر) على بائعها[٢]، كما في الصورة الطريفة التالية التي يُشبِّه بها غُرْمُول الفرس بزقٍّ خَلا مِمَّا فيه من الخمر فعلَّقه التاجر[٣]:

وَخِنْذِيذٍ تَرَى الغُرْمُولَ منهُ ... كَطَيِّ الزِّقِّ عَلَّقَهُ التِّجارُ

وتُظهِرُ الصورة التجارية بعض أساليب البيع والشراء عندهم، مثل (الكيل) و(المُعَايرة)[٤] وتشير إلى بعض التُّجار الفرس الذين كانوا يفِدِونَ إلى الجزيرة العربية وتَصِفُ هيئتهم (دَهَاقِينُ أَنبَاطٍ عَلَيهَا الصَّوَامِعُ)[٥]، كما تشير إلى بعض الدكاكين المشهورة آنذاك (دُكَّان العِبَادِيِّ) ويبدو أنَّ هذه الدُّكان كانت ضخمة وثيقة حتى إنَّه شبَّه ناقته بها في الصَّلابة والمتانة[٦].

وتردَّد ذكر السُّفن التجارية أكثر من مرة في شعر بشر[٧]، وقد قدَّمَ وصفاً طريفاً لسفينة ركبها، وكيف أنَّها كانت مصنوعة من ألواح ضخمة ضُمَّ بعضها إلى بعض بالمَسامير والخِيطان الوثيقة، وقد قُيِّدت حتى لا تمتصَّ الماء، ويصور الخوف الذي أخذ بمجامع قلوبهم بسبب الأمواج العالية والرياح القوية، حتى إنهم كانوا لا يَجرُؤون على النظر إلى هذه الأمواج من هولها، وكانت هذه السفينة مُحَمَّلة بأنواع الطِّيب من العُود الهِنديّ والرَّند والمِسك بالإضافة إلى الأسلحة، ولعل صُنوف هذه البضائع يشير إلى أنَّ هذه

(١) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**، ص١٥٩. بانقياء: ناحية من نواحي الكوفة بأرض النجف جيدة الخمر.

(٢) عبدالرحمن، نصرت: **الصورة الفنيَّة في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث**، ط٢، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٢م، ص٤٨.

(٣) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**، ص٧٦. والغرمول: وعاء الذكر.

(٤) **المصدر السابق**: ص٥٧.

(٥) **المصدر السابق**: ص١١٣.

(٦) **المصدر السابق**: ص١٢٠.

(٧) **المصدر السابق**: ص٣٥، ص١٧٠.

السفينة كانت قادمةً من الهند، تبدو صورة هذه السفينة في قوله[١]:

مُعَبَّـــدةِ الـــسَّقَائفِ ذَاتِ دُسْـــرٍ ... مُـــضَبَّرَةٍ جَوانِبُهَـــا رَدَاحِ
إذَا رَكِبَـــتْ بِـــصَاحِبِهَا خَلِيجَـــاً ... تَـــذَكَّرُ مَـــا لَدَيْـــهِ مِـــنْ جُنَـــاحِ
يَمُـــرُّ المَـــوْجُ تَحْـــتَ مُـــشَجَّرَاتٍ ... يلَـــينُ المَـــاءَ بالخُـــشُبِ الـــصِّحَاحِ
وَنَحْـــنُ عَلَـــى جَوَانِبِهَـــا قُعُـــودٌ ... نَغُـــضُّ الطَّـــرْفَ كَالإِبِـــلِ القَمَـــاحِ[٢]
فَقَـــد أُوقِـــرْنَ مِـــنْ قُـــسْطٍ وَرَنْـــدٍ ... وَمِـــنْ مِـــسْكٍ أَحَـــمَّ ومِـــنْ سِـــلاحِ

ويُستَشف من شِعر بشر بعض البضَائع التي كانت تُباع في الأسواق مثل (المَلاب) وهو صنف من العطور[٣]، والملابس المُذْهَبة[٤]، شديدة البياض، والثياب (الأَتحَميَّة)[٥]، و(النَّصع الحِمْيريِّ) وهـي ثيـاب شديدة البياض، و(الخُمُر) البيضاء[٦]، والثياب اللينة الرقيقة، والخَزِّ المُوشَّى[٧]، والقُرْطُـف[٨]، والقُطُـوع والطَّنافس[٩]، والسُّتور المُزَرْكَشة التي كانتْ تُلقى على الرَّكائب[١٠]، والقَلائد الـتي تُتَّخـذ مـن الـدُّر والجُمان[١١]، وأَسْورة العَاج[١٢]، والأوعية المُعجَبة وقد شبَّه بها رحم الأتان[١٣]، والزُّجَاج[١٤].

ونقِفُ على بعضِ الحِرف التي كان يُمارسها القوم آنذاك، مثل (الخَرَّاز) الذي يُعدُّ خيوط الجلـد لعمله[١٥] مستخدماً (أطراف الأَثافِي) في ثقب المَزاودِ عند الخَرز[١٦]، والحدَّاد النافخ الكِير[١٧]، والصَّنَّاع في

(١) الأسدي، بشر بن أبي حازم، **الديوان** : ص٤٧-٤٨.
(٢) الإبل القَماح: التي ترفع رؤوسها وتغضّ البصر عند الحوض ولا تشرب الماء لشدّة برده أو لعلّة أخرى.
(٣) الأسدي، بشر بن أبي خازم، **الديوان**: ص٣٢.
(٤) **المصدر السابق**: ص٣٣.
(٥) **المصدر السابق**: ص٤٣.
(٦) **المصدر السابق**: ص٧٧.
(٧) **المصدر السابق**: ص١٩٣.
(٨) **المصدر السابق**: ص١٥٤.
(٩) **المصدر السابق**: ص١٣١.
(١٠) **المصدر السابق**: ص١٩٣.
(١١) **المصدر السابق**: ص١٦٢، ص٨٣.
(١٢) **المصدر السابق**: ص٥١، ص٥٣.
(١٣) **المصدر السابق**: ص٣٦.
(١٤) **المصدر السابق**: ص١٩٨.
(١٥) **المصدر السابق**: ص٨٣.
(١٦) **المصدر السابق**: ص١٤٩.
(١٧) **المصدر السابق**: ص٥٤.

تشكيل الأصداف(١)، والطّالِي الذي يطلِي الأواني النُّحاسيَّة(٢)، ومن الصور الطريفة في هذا السياق صورة (الوَاشِمة) التي تَشِمُ النِّساء على أذْرعهن بالنُّؤور(٣)، ومن هذه الصِّناعات صناعة الدُّمَى، ويبدو أن صَنعاء كانت مشهورة بها، وقد وردت في شعر بشر باعتبارها مثلا في الجمال، حيث قَرَنَ جمال صاحبته بها(٤):

كَـــأَنَّ عَلَـــى الخُـــدُوجِ مُخَـــدَّراتٍ ... دُمَـــى صَـــنْعَاءَ خُـــطَّ لَهَـــا مِثَـــالُ

ومن صور الحياة اليومية التي رسمها بشر صورة الصَّائد الذي يَحترف الصَّيد ويجعل منـه معاشـه وكَسْبَه، وثمَّة صورة مُثيرة يرسمها بشرٌ لأحد الصَّائدين؛ فهو أَشْعَث أغبر سريع خفيف اللَّحم، كأنه الذئب يترصَّد فريسته بين الأشجار، وعندما يعود إلى مترله يتحلّق أطفاله العِجَاف حوله عابسين كأهم اليَعاسِيب في الصخور(٥):

وبَـــاكرَهُ عِنـــد الـــشُّرُوق مُكَلَّـــبٌ ... أَزلُّ كَـــسِرْحانِ القَـــصِيْمَةِ أَغْـــبرُ

أَبُو صِـبْيةٍ شُـعْثٍ تُطِيـفُ بِشَخْـصِهِ ... كَـــوالِحُ أَمْثَـــالُ اليَعاسِـــيبِ ضُـــمَّرُ

أما منظر الصيد نفسه فيبدو فيه (المُكَلَّب) يَشلِي كلابه إثر ثور وحشيّ، فتدركه وتدور بينها وبين الثور معركة عنيفة تكون الغلبة فيها للثور، وعندما يرى المُكَلَّب ما حَلَّ بكلابه يَصِيت بها، فتأتيه مـسرعة وقد أثخنتها الجراح، يبدو هذا المشهد في قول بشر(٦):

فَبَـــاكَرَه عنـــد الـــشُّروقِ غُدَيَّـــةً ... كِلابُ ابنِ مُرٍّ أَو كِـلابُ ابـنِ سِـنْبِسِ(٧)

فَأَرسَـــلها مُـــسْتَيقِنَ الظَّـــنِ أَنَّهَـــا ... سَتَحْدِسُـــهُ فِـــي الغَيـــبِ أَقْـــربَ مَحْـــدِسِ

وَأَدْرَكْنَـــهُ يَأْخُـــذْنَ بالـــسَّاقِ والنَّـــسا ... كَمَـــا خَـــرَّقَ الوِلْـــدَانُ ثَـــوْبَ المُقَـــدِّسِ(٨)

فَـــأَزْهَقَ زِنْبَاعَـــا وَأَتْلَـــفَ فَارِغَـــاً ... وَأَنْفَـــذَهُ مِنْهَـــا بِطَعْنَـــةِ مُخْلِـــسِ

فَلَمَّـــا رَأَى رَبُّ الكِـــلابِ عَـــذِيرَهَا ... أَصَـــاتَ بِهَـــا مِـــنْ غَـــائِطٍ مُتَـــنَفِّسِ

وَمَـــرَّ يُبَـــارِي جَانِبَيْـــهِ كَأَنَّـــهُ ... عَلَـــى البِيـــد والأَشْـــرافِ شُـــعْلَةُ مُقْـــبِسِ

يَقُـــوُم إذا أَوْفَـــى عَلَـــى رَأْسِ هَـــضْبَةٍ ... قِيَـــامَ الفَنِيـــقِ الجَـــافِرِ المُتَـــشَمِّسِ

(١) الأسدي، بشر بن أبي خازم : **الديوان**، ص١٠٢.
(٢) **المصدر السابق**: ص١٩٨.
(٣) **المصدر السابق**: ص٩٥.
(٤) **المصدر السابق**: ص١٦٧، وللاستزادة، انظر: ص١٩.
(٥) **المصدر السابق** ، ص٨٤.
(٦) **المصدر السابق**: ص١٠٣-١٠٤.
(٧) ابن مرّة وابن سنبس: صائدان من طيء.
(٨) المقدِّس: الرَّاهب الذي يأتي بيت المقدس.

وتُوحي الصورة في شعر بِشر ببعض العَادات التي كان يمارسها القوم آنذاك، مثل إِسْبال ذوي الجاه ثيابهم تحت كُعوبِهم[١]، ورَقْي الإنسان عندما تَلْدغه أفعى[٢]، وطرح الأسير أرضاً[٣]، ورفع الضَّريح عن الأرض[٤]، وزيارة قبور الموتى، وتَوطُّؤ النِّسَاء المَقاليت جُثَّة القَتيل إذا كان سيداً كريماً حتى يعيش أبناؤها، كما يبدو في قوله[٥]:

تَظَلُّ مَقَالِيتُ النِّسَاءِ يَطَأْنَهُ ... يَقُلْنَ: أَلا يُلْقَى على المَرْءِ مِئْزَرُ

وتعكس الصورة تفاوتاً اجتماعياً واضحاً بين الأغنياء والفقراء في العصر الجاهلي، فالأغنياء يعيشون في مقعد نَهاء وروضٍ بالصحارى مُنَوَّر، يشربون الخمر، ويجتمعون على الميسر، ويُنَاغُونَ الحِسَان[٦]، وهم كذلك يمنحون الكُومَ الهِجَان مع أولادها[٧]، ويَهبُون القيّنات شَبه الرَّبرب[٨]، ويُطعِمون أضيافهم النُّوق السَّمينة الفتيَّة[٩]، أما نساؤهم فَغُذين من غير بؤس ويجري عليهن القَارِص والمَحْض[١٠].

ويقابل ذلك صورة الإنسان الفقير، ولا سيما (أُمّهات العِيال) اللاَّتي لا يَجدنَ مَنْ يقوم عَليهِن[١١]، ويرسم بِشر صورة مُؤَثِّرَة لإحداهُن، تبدو فيها وهي ترتدي ثيابا رثَّة وحولها أبناؤها يتضوَّرون جوعاً فتُسكِتهم بالماء، يقول[١٢]:

لِيبكِكَ الضَّيفُ والمُجَالِسُ والـ ... حَيُّ المُخَوِّي وطَامِعٌ طَمِعَا
وَذَاتُ هِدْمٍ بَادٍ نَوَاشِرُها ... تُصْمِتُ بِالمَاءِ تَوْلَباً جَدِعا

ثانياً: الصُّورة والمَشْهد الطَّبيعيّ:

ذكر بشر أنواعا متعددة من النَّبات في شعره، مثل الأراط والأَراك والأَقاح والأَلاء، والبَان والخِلاف والرَّاء والرَّند، والرَّيط، والسِّدر، والسَّلم والضّال والعُبريّ والعَرْعَر[١٣].

(١) الأسدي، بشر بن أبي حازم: **الديوان**، ص٦٦.
(٢) **المصدر السابق** ، ص٢١٧.
(٣) **المصدر السابق**: ص١٠٣.
(٤) **المصدر السابق**: ص٢٥٠.
(٥) **المصدر السابق**: ص٨٨. المقاليت: جمع مقلات، وهي المرأة التي لا يعيش لها ولد.
(٦) **المصدر السابق**: ص١١٩.
(٧) **المصدر السابق**: ص٣٩، وانظر: ص٢٠٠.
(٨) **المصدر السابق**: ص٣٨.
(٩) **المصدر السابق**: ص١٣٦.
(١٠) **المصدر السابق**: ص٦٤.
(١١) **المصدر السابق**: ص١٧٤.
(١٢) **المصدر السابق**: ص١٢٧.
(١٣) **المصدر السابق**: ص٥١، ص١٨٧، ص٤٣، ص٨١، ص١٣٥، ص١٤٦، ص١٣٤، ص٤٨، ص١٩٣، ص٢، ص٢١٤، ص١٤٣، ص١٦٧.

وقد وردت تلك النباتات في سياقاتٍ شعريةٍ متنوعة، وتَختفي وراء بعضها أبعاد إنسانية، فقد جاءت الإشارة إلى الأَراك في سِياق حديثه عن أحزانه (أَرَاكِيَّة)، مُكَنِّياً بهذه الكلمة عن (الحَمائم) التي اتخذها أنموذجاً للحزن، يقول[١]:

أُبكِّي بُكاءَ أَراكِيَّةٍ   عَلَى فَرْعِ سَاقٍ تُنَادِي حَمَامَا

وجاء حديثه عن العَرعَر والبَان مُتمِّما لصورة الجبل، وما هو عليه من وعورة[٢]:

وَصَعْبٌ يـَزِلُّ الغَفْرُ عَنْ قُذُفاتِهِ   بحَافَاتِهِ بَانٌ طِوالٌ وَعَرْعَرُ[٣]

وتبدو (الأَرطَاة) مَربعاً للثور الوحشيّ في ليلة (رَجَبِيَّة) مظلمةٍ شديدةِ البرد[٤]، حيث ينام في حِقْفها[٥]، فإذا ما اشتدَّ البرد أخذ يحفر أصلها ليهيّئ لنفسه كناساً يأوي إليه[٦].

ويطول المقام لو تقصَّينا السِياقات الشعرية التي وردت فيها تلك النباتات، ولكنَّ ما وردَ يَشِفُّ عن مسألة مَفادها أنَّ صورة النبات في شعر بشر تعكس بيئة صحراوية، وأنَّ هذا النبات يَرِدُ للتعبير عن حالة شعوريَّةٍ معينة لدى الشاعر.

وعلى الرغم من غلبة الصورة الصحراوية على شعر بشر فإننا نقف على كثير من الصُّور التي تُمثِّل الحياة الزراعية، وهي في الغالب صور جميلة زاهية، كما في الأبيات التالية التي يُصور فيها الأراضي الخصبة التي انهمر عليها الغيث وغدت مرعىً خصيباً لنُوقِهم التي قرَّت أعينها فيها[٧]:

فَإنَّ الجِزْعَ جِزْعَ عُرَيْتِنَاتٍ   وبُرْقَةَ عَيْهَلٍ مِنْكُم حَرَامُ[٨]
سَنَمْنَعُها وَإِنْ كَانَتْ بِلاداً   بِهَا تَرْبُو الخَواصِرُ والسَّنَامُ
بِها قَرَّتْ لَبُونُ النَّاسِ عَيْنَاً   وَحَلَّ بِهَا عَزَالِيَهُ الغَمَامُ[٩]

ويُصوِّر في أبيات أخرى سهلاً خصيباً مُمْرَعاً طال نبته وتَميَّز على غيره، وبدا النبات كأنَّه شامة في وجهه[١٠]:

(١) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**: ص١٨٧.
(٢) **المصدر السابق**: ص٨١.
(٣) صعب: أي الجبل، والغَفر: ولد الأَروى، وهو الوُعول، وتسكن شغاف الجبال. وقذفات الجبال: ما أشرف من رؤوسها.
(٤) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**، ص٥١.
(٥) **المصدر السابق**: ص٥٥.
(٦) **المصدر السابق**: ص٨٢.
(٧) **المصدر السابق** ، ص٢٠٧-٢٠٨.
(٨) عُرَيْتنات: اسم وادٍ، وبرقة عيهل: موضع.
(٩) اللبون: النّوق ذوات اللبن، والعزالي: جمع عزلاء، وهي فَمُ المزادة.
(١٠) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**، ص٢٠٨.

وغَيْثٍ أَحْجَمَ الرُّوَّادُ عَنْهُ   بِهِ نَفَلٌ وَحَوذَانٌ تُؤَامُ
تَغَالَى نَبْتُه واعْتَمَّ حَتَّى   كَأَنَّ مَنَابِتَ العَلَجَانِ شَامُ

وغدت الطبيعة مصدراً هاماً من مصادر الصورة في شعر بشر وأمدَّته بفيض وافرٍ من الصور؛ ولعلَّ هذا يدلُّ على أنَّهُ كان يراها نموذجاً يقيس عليها الأشخاص والأشياء والمعاني، كما في قوله يصف هيئة الظعائن وقد مالت قليلاً على ظهور الإبل ويقرنها بـ (نَخِيل مُحَلّم) الذي أثقله الثَّمر فانحنى(١):

كَأَنَّ حُمُولَهم لَمَّا اسْتَقلّوا   نخيلُ مُحَلَّمٍ فيها انْحِنَاءُ

ويتضمَّن شعر بشر إشارات موحية إلى بعض الجَنائن والبساتين مثل (جنَّة يَثْرِب) التي شبَّه بها النُّوق ومعها أولادها(٢):

وَالَمانِحُ المِئةَ الهِجَانَ بِأَسْرِهَا   تُزْجَى مَطَافِلُهَا كَجَنَّةِ يَثْرِبِ

ويعود إلى مثل هذه الصورة فيشبّه الإبل التي يَهبها الممدوح بـ(جَنَّة مَلْهَم) في الجمال والكثرة، فيقول(٣):

وَأَوْهَبُ لِلكُومِ الهِجانِ بِأَسْرِها   تُسَاقُ جَميعاً مِثْلَ جَنَّةِ مَلْهَم

وتَرُوق صورة ذَنب النَّاقة بكثافته وحركته بشرا فَيقرنها بعذْق نَخْلٍ كَثير الحمل جَنيّ الثَّمر(٤):

كَأَنَّ على أَنْسَائِهَا عِذْقَ خَصْبَةٍ   تَدَلَّى مِنَ الكَافُورِ غَيرَ مُكَمَّمِ

غير أنَّ قوائم الناقة تبدو بعد أن أتعبها السير في الهاجرة كأنها أعمدة صفصاف(٥):

فَأبْقَى الأَيْنُ والتَّهْجِيرُ مِنْهَا   شُجُوباً مِثْلَ أَعْمِدَةِ الخِلافِ

ويقرن جمال المرأة ببعض مظاهر الجمال في الطبيعة، فهو مثلاً يستمد صورته في وصف سواد شعر المحبوبة وتجعّده من عناقيد النَّضيج من ثمر الأراك(٦):

رَأَى دُرَّةً بَيْضَاءَ يَحْفِلُ لَونُها   سُخَامٌ كَغِرْبَانِ البَرِيرِ مُقَصَّبُ

وحين يتأمل جمال المرأة يقف عند محاسن أسنانها فيقرنها بـ (أُقْحُوانٍ جَلاه غِبّ سَارِية قطار)(٧)، وبـ (الأَقاحِي النَّديّ)(٨).

(١) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**: ص٢، وللاستزادة، انظر: ص١٣.
(٢) **المصدر السابق**: ص٣٩.
(٣) **المصدر السابق** ، ص٢٠٠.
(٤) **المصدر السابق**: ص١٩٦.
(٥) **المصدر السابق**: ص١٤٦. والشُّجوب: القوائم وعمد البيوت.
(٦) **المصدر السابق**: ص٧.
(٧) **المصدر السابق**: ص٣.
(٨) **المصدر السابق**: ص٤٣.

ويتخذ بشر المنظر الطبيعي إطاراً لبعض صوره، بحيث تتحرك الصورة فيه وتتفاعل معه، كما في قوله يصف جمال صاحبته ودلالها وقد ارتَدتْ ثياباً جميلة فيشبِّهها برشأ يرعى في وادٍ مُمرعٍ وَيَنُوش أغصان الضَّال الرقيقة، وبظبية مُوشَّحة تتطاول وترفع أيديها لتتناول أغصان السَّلم، يبدو هذا المنظر في قوله[١]:

كَأَنَّ الأَتْحمِيَّةَ قَامَ فِيهَا لِحُسْنِ دَلالِهَا رَشَأٌ مُوافِي

مِنَ البِيضِ الخُدودِ بِذِي سُدَيرٍ يَنُشْنَ الغُصْنَ مِنْ ضَالٍ قِضَافِ

أَوِ الأَدْمِ المُوشَّحةِ العَواطِي بِأَيْدِيهنَّ مِنَ سَلَمِ النِّعَافِ[٢]

فإذا ما انتقل بشر للذم اختار من النبات ما يلائم هذه الغاية، كما في قوله يهجو بُجَيرا الذي يخدع الناس بمظهره فيقرنه بشجرة الألاء ذات الورق الجميل ولكنَّه مرُّ المَذاق[٣]:

فَإِنَّكُم ومِدْحَتَكُم بُجَيْراً أَبَا لَجَأٍ كَمَا امتُدِحَ الأَلاءُ[٤]

يَراهُ النَّاسُ أَخْضَرَ مِنْ بَعِيدٍ وتَمْنَعُهُ المَرَارَةُ وَالإِبَاءُ

ثالثاً: الصورة والمعتقد والثقافة:

ثَمَّة صورٌ دينيَّةٌ متعددة في شعر بِشرٍ يُمكن أن تساعد في إلقاء بعض الضّوء على معتقدات القوم آنذاك؛ فقد ورد ذِكر لفظ الجلالة (الله) مرتين في شعره، الأولى في سياق التعجب من القبور، وذلك في قوله[٥]:

للهِ دَرُّ القُبُورِ مَا حُشِيَتْ أَرْوَعَ شِبْهاً لِلبَدْرِ إِذْ سَطَعَا

والثانية في سياق الدُّعاء في قوله[٦]:

أَجَبْنَا بَنِي سَعدِ بنِ ضَبَّةَ إِذْ دَعَوا وللهِ مَوْلَى دَعْوَةٍ لا يُجِيبُهَا

وثَمّة صورة تتصل بعقيدة الجَاهِليين آنذاك اتصالاً وثيقاً وهي حجُّهم إلى الكعبة، فقد أقسم في إحدى قصائده (بِربِ الدَّامِياتِ نُحورُها)، وبالنُّوقِ نفسِها، وذلك في قوله[٧]:

(١) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**: ص١٤٣، وللاستزادة، انظر: ص٨.

(٢) العواطي: الظِّباء التي تتطاول وترفع أيديها وتضعها على الغصن لتناول الشجر، والنِّعاف: جمع نعف، وهو السفح ينحدر من حزونة الجبل، ويرتفع عن منحدر الوادي.

(٣) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**، ص٣-٤.

(٤) الألاء: شجر الدُّفلى، ويكون حسن المنظر مُرَّ الطَّعم.

(٥) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**، ص١٢٤.

(٦) **المصدر السابق**: ص١٥.

(٧) **المصدر السابق**: ص٨-٩.

حَلفتُ بِربِ الدَّامِياتِ نُحُورُها ... وَمَا ضَمَّ أَجْوازُ الجِواءِ ومِذْنَبُ
وبِالأَدْمِ يَنْظُرْنَ الجِلالَ كَأَنَّهَا ... بأَكْوَارِهَا وَسْطَ الأَرَاكَةِ رَبْرَبُ

ومن الصور الدينية التي تحمل ظلالاً وثنيَّةً في شعر بشر صورة (البَلِيَّة) وهي ناقة المتوفى التي كانت تُشدُّ عند قبره، وتُحرم من الطعام والشراب حتى تُبلى: "وكانوا إذا مات الرجل بَلُوا ناقته أو بعيره، فعكسوا عنقها وأداروا رأسها إلى مؤخرها، وتركوها في حفيرة لا تُطعَم، ولا تُسقى حتى تموت. وربّما أُحرِقت بعد موتها وربَّما سُلِخت ومُلِئ جلدها تماماً، وكانوا يزعمون أنَّ من مات و لم تُبلَ عليه حُشِر ماشياً، ومَنْ كانت له بليَّة حُشِر راكباً على بليَّته"[(١)]، وقد شبَّه سنام ناقته بجثمانها، وذلك في قوله[(٢)]:

أَمُوناً كَدُكَّانِ العِبَادِيِّ فَوقَهَا ... سَنَامٌ كَجُثْمَانِ البَلِيَّةِ أَتْلَعُ

ومن الصور الدينية الوثنية إشارته إلى (إِسَاف) وهو صنم كانت العرب في الجاهلية تنحر عنده في مكة وتَتمسَّح به، وتُظهِر الصورة النِّساء والحَوائضِ لا يَقتربنَ من (إِسَاف) حتى يَطهُرن، وقد عبدهما خُزاعة وقريش ومن حجَّ البيت بعد من العرب[(٣)]، يقول[(٤)]:

عَلَيهِ الطَّيرُ مَا يَدْنونَ مِنْهُ ... مَقَامَاتِ العَوَارِكِ مِنْ إِسَافِ

وتحمل بعض الصور الدينية في شعر بشر ظلالا كتابية ومعرفة ببعض قصص الأنبياء، فقد أشار في إحدى قصائده إلى يوسف عليه السلام وإخوته، وذلك في قوله[(٥)]:

فَقُلْ كَالذِي قَال ابنُ يَعْقُوبَ يُوسُفٌ ... لإِخْوَتِهِ وَالحُكْمُ فِي ذَاكَ رَاسِبُ

والذي قاله يوسف لإخوته: "تقدَّموا إليَّ، فتقدموا، فقال: أنا يوسف أخوكم الذي بِعتموه إلى مصر، والآن لا تتأسفوا ولا يَشُقُّ عليكم أنكم بِعتموني إلى هاهنا، فإنَّ الله قد بعثني قُدَّامكم لأحييكم"[(٦)].

وجاءت بعض الصُّور ذات طابع نصراني، مثل صورة الصُّلبان التي تُنْصب وسط البيعة، كقوله[(٧)]:

إِذَا غَدَوْا وَعِصِيُّ الطَّلحِ أَرجُلُهُمْ ... كَمَا تُنَصَّبُ وَسْطَ البِيْعَةِ الصُّلُبُ

(١) أبو سويلم، أنور ، **الإبل في الشعر الجاهلي**، ١/ص٢٤٣.
(٢) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**، ص١٢٠.
(٣) ابن الكلبي (ت ٢٠٦هـ/٨٢١م): **كتاب الأصنام**، تحقيق : أحمد زكي، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، الدار القومية للنشر، القاهرة، ١٩٢٤م، ص٩.
(٤) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**: ص٢٣٣.
(٥) **المصدر السابق**: ص٤٢.
(٦) سفر التكوين، **دار الكتاب المقدسي في الشرق الأوسط**، إصحاح (٤٥)، ص٧٧.
(٧) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**، ص٢٢٧. والبِيعة هنا: كنيسة النصارى.

وصورة تعلُّق الولدان النَّصارى بثَوبِ الرَّاهب الذي جاء من بيت المقدس تبركا به(١):

وَأَدْرَكْنــهُ يَأْخُــذْنَ بِالــسَّاقِ والنَّــسا كَمَــا خَــرَّقَ الوِلْــدَانُ ثَــوْبَ الْمُقَــدِّسِ

وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ بشراً كان ذا ثقافة واسعة بالنَّصرانيَّة وتعاليمها، وهي ملحوظــةٌ رآهــا الباحث ظاهرةً في شعره كما في الأبيات سالفة الذكر.

وثمة ثلاث صور للكتابة في شعر بشر، الأولى أشار فيها إلى بعض أدوات الكتابة في عصره، وهي (صحائف الكتاب) وقد شبَّه بها الدِّيار والمنازل، كما في قوله(٢):

كَأَنَّهَــا بَعــد عهــدِ العَاهِــدينَ بهــا بَينَ الذَّنُوبِ وحَزْمَــيْ وَاحِــفٍ صُــحُفُ

والثانية ذكره (كِتاب بَني تَميم)، وهو أحد الكتب المأثورة في عصره، وذلك إذ يقول(٣):

وَجَـــدنَا في كِتَـــابِ بَنِـــي تَمِـــيمِ أَحَـــقُّ الخَيْـــلِ بِـــالرَّكضِ الْمُعَـــارُ

والصورة الثالثة (صَوت اليَراع)، وقد شبَّه به صوت المطر، وذلك في قوله(٤):

عَفَاهَـــا كُـــلُّ هَطَّـــالٍ هَـــزِيمٍ يُـــشَبَّهُ صَـــوْتُهُ صَـــوْتَ اليَـــرَاعِ

وثَّمة صور أخرى تعكس ما استقرَّ لدى الجاهليين من أخبار وأمثال، وقد وظَّف بــشر ذلــك في التعبير عن تجربته الشعرية، من ذلك قوله يتوعد أعداء قبيلته بأن مصيرهم ســيكون كمــصير (الحمــار وجُندب)(٥):

فَلَو صَادَفُوا الــرَّأْسَ الْمُلَفَّــفَ حَاجِبَــاً لَلاَقَــى كَمَــا لاَقَــى الحِمَــارُ وَجُنْــدبُ

وقوله يستدعي خبر الفَرس (الشَّقراء) التي يُرْوى أنَّها رَمْحت ولداً لها بِسَنَابِكها فلم يعد شــرَّها سَنابك رجليها، ومثلها كان حال المغدور ابن ضَبَّاء(٦):

لأصْــبحَ كَالــشَّقْرَاءِ لم يَعْــدُ شَــرُّها سَــنَابِكَ رِجْلَيهــا، وعِرْضُــكَ أَوفــرُ

وعندما رثى الشاعر نفسه وأدرك أنه ميَّت لا محالة التفت إلى خبر (القَارِظ العَنزيّ) الذي يُضرب

(١) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**: ص١٠٣.

(٢) **المصدر السابق** ، ص١٣٧.

(٣) **المصدر السابق**: ص٧٨.

(٤) **المصدر السابق**: ص١٠٩.

(٥) **المصدر السابق**: ص١١. الحمار وجندب: رجلان كانا مع حاجب بن زرارة، ويبدو أنهما قتلا في المعركة.

(٦) **المصدر السابق**: ص٨٥، وانظر: حمزة الأصفهاني (ت ٣٦٠هــ/٩٧٠م): **الدُّرر الفاخرة في الأمثال السائرة**، تحقيق عبدالحميد قطامش، القاهرة، ١٩٧١م، ج١/٢٣٩.

به المثل في المفقود الذي لا يعود[١]:

فَرجِّي الخَيرَ وانْتَظِري إيَابي ... إذَا مَا القَارِظُ العَنَزِيُّ آبَا

وقد أُعجبَ الأقدمون بقدرة بشر على توظيف الأمثال في شعره، وعدّوه علامة على مهارته في التَّصرف في المعاني وأوردوا من أبياته في كتب الأمثال التي ألَّفوها[٢].

واستثمر المثل القائل (لَمْع الأَصمّ) للإشادة بقومه، وأنَّهم رهن الإشارة في الاندفاع للقتال[٣]:

أَشَارَ بِهِم لَمْعَ الأَصَمِّ فَأَقبلُوا ... عَرَانِينَ لا يَأْتِيهِ لِلنَّصرِ مُحْلِبُ

وأنهى بشر إحدى قصائده بمَثلٍ سائر، فقال[٤]:

ولا يُنْجِي مِنَ الغَمَرَاتِ إلاَّ ... بُرَاكَاءُ القِتَالِ أَوِ الفِرَارُ

وقد علَّق أبو هلال العسكري على هذا البيت قائلاً: "فقطعها على مثل سائر، والأمثال أحبُّ إلى النفوس لحاجتها إليها عند المُحاضرة والمُجالسة"[٥].

وقد لا يُورد بشر المثل بلفظه وإنما يَستفيد من معانيه ودلالاته، كما في قوله في الأعداء[٦]:

فَكَانُوا كَذَاتِ القِدْرِ لَمْ تَدْرِ إِذْ غَلَتْ ... أَتُنْزِلُهَا مَذْمُومَةً أَمْ تُذِيبُهَا

وأصل هذا المثل: (ما يَدري أَيخثُر أَمْ يُذِيب) [٧].

ويطول المقام لو تتبَّعنا الأمثال كلها التي استدعاها بِشر في شعره، وقد أسلفنا أن الأقدمين قد أُعجبوا بقدرة الشاعر على توظيف المثل في شعره، وجعلوا ذلك علامة على قدرته ومهارته في التصرف في المعاني.

الخلاصة:

في ضوء ما تقدم من دراسة للصورة ومظاهر الحياة الجاهلية في شعر بشر بن أبي خازم الأسدي،

(١) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**: ص٢٦، وانظر: الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد (ت ٥١٨هـ/١١٢٤م): **مجمع الأمثال**، تحقيق: محي الدين عبدالحميد، ط٣، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٢م، ج١/٧٥، وانظر: ابن سلام، أبو عبيد القاسم (ت ٢٢٤هـ/٨٣٨م): **الأمثال**، تحقيق : عبدالحميد قطا، دار المأمون للتراث، دمشق، ص٣٤٤.

(٢) الميداني: **مجمع الأمثال**، ١/٦، ٧٥، ابن سلام، أبو عبدالقاسم: **الأمثال**، ص٢٩٨، الأصفهاني، حمزة: **الدرر الفاخرة في الأمثال السائرة**، ١/٢٢٣.

(٣) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**، ص١٠، وانظر: الميداني: **مجمع الأمثال**، ١/٦.

(٤) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**، ص٧٩.

(٥) العسكري، أبو هلال (ت٣٩٥هـ/١٠٠٤م): **الصناعتين**، تحقيق : علي محمد البجَّاوي وأبي الفضل إبراهيم، ط٢، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٠م، ص٤٤٤.

(٦) الأسدي، بشر بن أبي خازم: **الديوان**، ص١٦.

(٧) ابن سلام، أبو عبيدالقاسم: **الأمثال**، ص٢٩٩.

خلُصت الدراسة إلى أنَّ بشراً من الشعراء الذين عَنوا بتوظيف مظاهر الحياة ومجالاتها في صوره المتعددة، فقد كانت موضوعات صوره نابعة من بيئة الجاهلية، حيث شكَّلت هذه البيئة الإطار العام لصوره كلها.

وقد تم حصر تلك الصور في ثلاثة محاور هي:

أولاً: الحياة اليومية التي يمارسها الناس في عصره، فقد اهتمَّ بشر بتوظيف مَظاهر الحياة ومجالاتها في صوره، من ذلك حديثه عن حركة الظعائن التي جاءت صورتها وقد امتــزج فيهــا الجمـــال الحِــسِّيّ والمعنويّ، ثم تحدَّث عن الرحلة التي رأى فيها واقعاً يعيشه الناس وعنصراً بنائياً مهماً في القصيدة، ثم وظَّف الحرب توظيفاً ملائماً في صوره الفنية، حيث استغرق الحديث عنها كثيراً من الجهود الفنية لبـــشر لكثـــرة الحروب التي خاضها قوم الشاعر.

كما وظَّف الشاعر مظاهر اجتماعية متعددة في صوره الفنية، من ذلك إشارته إلى المُغنِّيات والحَانة، والخمر والتجارة، والسفن التجارية، والحِرف التي كان يمارسها القوم آنذاك، ومظهر الصيد، فضلاً عـــن بعض العادات والسُّلوكيَّات التي كان يمارسها القوم آنذاك.

ثانياً: الصورة والمشهد الطبيعي: وفي هذا الجانب ذكر بشر أنواعاً متعددة من المظاهر الطبيعية التي وظَّفَها في صوره، من ذلك توظيف النباتات الصحراوية التي عرفتها البيئة الجاهلية، كما صوَّر جمال المـــرأة ببعض مظاهر الجمال في الطبيعة، حتى غدت الطبيعة مصدراً مهما من مصادر الصورة في شعره، حيث كان يراها نموذجا يقيس عليها الأشخاص والأشياء والمعاني.

ثالثاً: الصورة والمعتقد والثقافة: ثمَّة صور دينية وثقافية متعددة وردت في شعر بشر ســاهمت إلى حدٍّ ما في إلقاء الضوء على معتقدات القوم آنذاك، ومما جاء في ذلك ورود لفظ الجلالة، وبعض الأيمـــان، بالإضافة إلى بعض الصور الوثنيَّة كالإشارة إلى البليَّة والصَّنم وإساف، كما وظَّف الشاعر بعض المـــشاهد الثقافية في صوره، من ذلك إشارته إلى بعض أدوات الكتابة، ومعرفته الواسعة بما استقرَّ لدى الجاهليين من أخبار وأمثال، إذ وظَّف الشاعر المثل توظيفاً استفاد من معانيه ودلالاته، حتى أُعجِب الأقدمون بقدرته على توظيف المثل في شعره، حيث عدُّوا ذلك علامة على مهارة الشاعر وتصرفه في المعاني.

The Hashemite Kingdom of Jordan **Mutah University**

Jordanian Journal of Arabic Language and Literature

An International Refereed Research Journal

Vol. (3), **No.** (1), **Thu'L-hijja** 1427 **(January** 2007**)**

ISSN 1026-3721

Jordanian Journal of

Arabic Language and Literature

An International Refereed Research Journal

Vol. (3), No. (1), Thu'L-hijja 1427 (January 2007)

Jordanian Journal of Arabic Language and Literature
An international indexed and refereed journal

The journal is an international refereed journal, founded by the Higher Committee for Scientific Research at the Ministry of Higher Education, Jordan, and published periodically by the Deanship of Academic Research, Mu'tah University, Karak, Jordan.

Editorial Correspondence

Manuscripts for submission should be sent to: Editor-in-Chief,

Jordanian Journal of Arabic Language and Literature

Deanship of Academic Research

P.O. Box (١٩)

Mu’tah University, Mu’tah (٦١٧١٠),

Karak, Jordan.

Tel: (٠٣-٢٣٧٢٣٨٠)

Fax. ++٩٦٢-٣-٢٣٧٠٧٠٦

E-mail: jjarabic@mutah.edu.jo

DAR.website http://www.mutah.edu.jo/dar/jjour.htm

Vol. (3), **No.** (1), **Thu'L-hijja** 1427 **(January** 2007)

Conditions of Publications:

- All contributions should be in Arabic. Contributions in English or any other language may be accepted with the consent of the Editorial Board
- The journal welcomes high quality scholarly contributions devoted to the Arabic language and literature, like articles, edited and translated texts and book reviews.
- The author should warrant in a written statement that the work is original, hasn't been submitted for any journal and is not part of an MA or Ph.D. dissertation.
- The work should follow the rules of scientific research
- It is a condition of publication that authors vest their copyright in their articles in the journal. Authors, however, retain the right to use the substance of their work in future works provided that they acknowledge its prior publication in the journal.
- Authors may publish the article in a book two years after publication, with prior permission from the journal, provided that acknowledgement is given to the journal as the original source of publication.
- After submission two of more referees will be asked to comment on the extent to which the proposed article meets the aims of the journal and will be of interest to the reader.
- Four copies of each manuscript should be submitted, typed on one side of A٤ paper, ٢,٥ margins and double spaced. Manuscripts can be sent by ordinary mail accompanied by ٣ ½ inch diskette in MS Word ٩٧ or higher. The length of the manuscript should not exceed ٤٠ pages.
- The first page should have the title of the article, the name(s) and institutional affiliations .
- The Editorial Board reserves the right not to proceed with publication for whatever reason.
- Manuscripts that are not accepted for publication will not be returned to the author(s).
- The author(s) warrant that they should pay all evaluation fees in case they decide not to proceed with publication for whatever reason.
- The author(s) should make the amendments suggested by the referees within a month after the paper is passed to them.
- The journal reserves the right to make such editorial changes as may be necessary to make the article suitable for publication.
- Views expressed in the articles are those of the authors' and are not necessarily those of the Editorial Board or Mu'tah University, or in any way reflect the policy of the Higher Committee or the Ministry of Education in The Hashemite Kingdom of Jordan.

Notes for Contributors:

-An Arabic and English abstract of c.١٥٠ words should be included on two separate pages. Each of these two pages should include the title of the article, the names (First, middle and

surname) of the author(s), the postal address and the e-mail, and their academic ranks. The keywords (c. ٥ words) should appear at the bottom of the two pages.

References:

In-text citations are made with raised Arabic numerals in the text placed in parentheses ([١], [٢]) referring to notes that provide complete publishing information at the bottom of the page. Each page has its own sequence of numerals starting with the numeral ١ and breaking at the end of the page. The first time the author cites a source, the note should include the full publishing information. Subsequent references to the same source that has already been cited should be given in a shortened form.

Basic Format

Books

The information should be arranged in five units: (١) the author's name (Last name first followed by the first and middle names) (٢) date of the author's death in lunar and solar calendars. (٣) the title and subtitle of the book in bold print (٤) name of translator or editor/compiler (٥) edition number, publisher, date and place of publication, a number (for a multivolume work), and page(s) number.

Example:

Al-Jāḥiẓ, Abu 'Uthmān 'Amr ibn Baḥr (d ٢٥٥ AH./٧٧١ AD.). '**Al-Ḥayawān** . Editor Abdulsalām Moḥammad Ḥarūn. ٢nd edition, Muṣṭafa al-Babi al-Ḥalabi, Cairo, ١٩٦٥, vol. ٣, p.٤٠.

Subsequent references to the same source:

Al-Jaḥiẓ. **Al-Ḥayawān**, vol.٣, p. ٤٠.

Manuscripts:

(١) author's name (last name, first followed by first and middle names) and date of death (٢) title of the manuscript in bold print (٣) place, folio number and/or page number.

Example:

Al-Kinānī, Shafiʿ Ibn 'Ali. (d ٧٣٠ AH./١٣٣٠ AD.): **Al-Fadl al-Ma'thūr min Sīrat al-Sulṭān al-Malik al-Manṣūr**. Bodleian Library, Oxford, March collection number ٤٢٤, folio ٥٠.

Articles in Periodicals:

(١)author's name (٢) title of the article in quotation marks (٣) title of the journal in bold print (٤) volume, number, year and page number.

Example:

Jarrār, Ṣalaḥ. " 'ynāyat al-Suyūṭi Biturāth al-Andalusi:Madkhal." **Mu'tah lilbuhūth wa al-Dirasāt**, vol.١٠, number ٢, ١٤١٥AH./١٩٩٥AD., pp. ١٧٩-٢١٦.

Edited Books (Conference Proceedings, dedicated books)

١. author's name (٢). title of the article placed in quotation marks (٣). title of the book in bold print (٤). Name(s) of the Editor ٥. Edition, publisher, date and place of publication ٦. page(s) number.

Example:

Al-Ḥiyāri, Muṣṭafā: "Tawaṭṭun Al-Qabā'il Al-'Arabiyya fi Bilād Jund Qinnsrin ḥattā Nihayāt Al-Qarn Al-Rābiʿ Al-Hijri", **Fi Miḥrāb Al-Maʿrifah: Dirasāt Muhda ilā Iḥsān 'Abbās**, Ed. Ibrāhim Assʿāfin, ١st edition, Dār Ṣāder and Dār Al-Gharb Al-Islamī, Beirut, ١٩٩٧, p. ٤١٧.

- Names of foreign figures should be written in Arabic followed by the name in its original language placed in parentheses.
- Contributors should consistently use the transliteration system of the Encyclopedia of Islam, which is a widely acknowledged system.

Qurānic verses are placed in decorated parentheses, ﴿ ﴾ with reference to the name of the surat and number of the verse. The Prophet Tradition is placed in double parentheses like this: (( )) when quoted from the original sources of the Prophet Tradition .

Jordanian Journal of Arabic Language and Literature

An International Refereed Research Journal

Issued by the Higher Scientific Research Committee/Ministry of Higher Education and Scientific Research and the Deanship of Academic Research/Mu'tah University

Price Per Issue: (**JD** 3)

Subscription:

Subscriptions should be sent to:

Jordanian Journal of Arabic Language and Literature
Deanship of Scientific Research
Mu'tah Jordan
Karak- Jordan

Annual Subscription:

Individuals:

- Jordan : [JD 10] Per year
- Other Countries: [$30] Per year

Institutions:

- Jordan : [JD 20] Per year
- Other Countries: [$40] Per year

Students:

- [JD 5] Per Year

Subscrber's Name & Address:

Name	
Address	
Job	

Form:

☐ Cheque: ☐ Bank Draft ☐ Postal Order

Signature: **Date:** / /200

المجلة الأردنية في اللغة العربية آدابها

مجلة دورية محكمة تصدر عن اللجنة العليا للبحث العلمي – وزارة التعليم العالي والبحث العلمي - وعمادة البحث العلمي في جامعة مؤتة، الكرك، المملكة الأردنية الهاشمية

ثمن العدد: (٣) دنانير

قسيمة الاشتراك

تصدر المجلة أربعة أعداد في السنة، ويدفع قيمة الاشتراك بالدينار الأردني أو ما يعادله بشيك أو بحوالة بنكية ترسل إلى:

رئيس تحرير المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها
عمادة البحث العلمي/ جامعة مؤتة
الكرك - الأردن

قيمة الاشتراك السنوي:

- **للافراد:**
  - § داخل الأردن: (١٠) دنانير
  - § خارج الأردن: (٣٠) دولاراً
- **للمؤسسات:**
  - § داخل الاردن: (٢٠) ديناراً
  - § خارج الأردن: (٤٠) دولاراً
- **للطلبة:** **(٥) دنانير سنوياً**

اسم المشترك وعنوانه:

الاسم	
العنوان	
المهنة	

طريقة الدفع: ☐ شيك ☐ حوالة بنكية ☐ حوالة بريدية

التوقيع : **التاريخ :** / / ٢٠٠